تاريخ سلاجقة الروم

لناصر الدين يحيى بن محمد المعروف بابن البيبي

(المتوفى عام ٦٨٤ هـ)

دراسة وترجمة

دكتور
محمد علاء الدين منصور
كلية الآداب - جامعة القاهرة

الناشر
دار الثقافة العربية
٣ شارع المبتديان - السيدة زينب - القاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يلقى الدارس لتاريخ الأناضول الإسلامي عامة وتاريخ سلاجقة الروم عناء ونصباً لندرة المصادر وقلة المراجع . ولأجل أن جل ما كتب فى هذا الباب كتب بغير العربية ولايزال ينتظر من ينقله من مظانه الأولى ، ولا يخفى أن حركة الترجمة والنقل في وقتنا هذا تسير الهوينى ويتوفر لها قدر لابأس به من العقبات والموانع ، ولهذا وذاك يظل تاريخ قوم أبلوا في الجهاد الإسلامي إبلاء حسناً ، ونعني بهم السلاجقة ، رهن الخفاء والغموض . إن من أكبر العلل التي حركت الصليبيين نحو بلاد المسلمين ، إن لم تكن العلة الأولى في رأي الدارسين ، هو تمكن السلاجقة من الأناضول وتحويله إلى صقع إسلامي بعد أن غبر عليه رَدْح من الزمن وهو معقل الخطر الوحيد ومكمن الانتشار الضارب لما جاوره من بلاد العرب قبل الإسلام وبعده . ولسنا نبالغ في أن أسباب هذا التعمد في إخفاء دور السلاجقة في الجهاد وقلب الموازين لصالح المسلمين هو الخوف من أن يعيد هذا التاريخ نفسه ، مع أن الموضوعية والدراسة العلمية الجادة لا تنصب في المقام الأول ولاتجهد إلا لكي تعلن ما خفي وتوضح ما بهم وتكشف ما استتر ، وليس يعنيها أمور أخر ولا يقصد منها كشف مطمح أو ستر مَرْبح أو كسر منجح . ولهذا المقصد ما أن وقعت يدي على كتاب جليل الشأن في هذا الشأن وهو مختصر (الأوامر العلائية في الأمور العلائية) أو (تواريخ آل سلجوق) ليحيى بن محمد بن على المشهور بابن البيبي رئيس ديوان الطغراء لدى سلاجقة الروم في أواخر أيامهم ، حتى أقبلت على نقله إلى العربية يحدوني أمل في أن يقع لدى الدارسين موقع القبول ويمثل عند القراء مثول العدول . وإن كان لإنسان

فضل ، ولله الفضل من بعد ومن قبل ، في أن تخرج هذه الترجمة والدراسة إلى حيز الوجود ، فهو لزميل فاضل أعانني على الوصول إلى الأصل الفارسي ، وكان طريحاً في غمر إحدى المكتبات ، وهو الأستاذ (محمد نجيب الوسيمى) المدرس المساعد بقسم التاريخ جامعة القاهرة ، فهو حري بهذا الامتنان و (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان) ؟ !

المترجم

يناير ١٩٩٤

أولاً : دراسة الكتاب

أ - مؤلف الكتاب ومختصره :

المؤلف هو الأمير ناصر الدين حسين بن محمد بن على الجعفري الرغدي المعوف بابن البيبي (المنجمة) فى رأي للمؤرخ الأدبي الإيراني الدكتور ذبيح الله صفا استناداً منه على النسخة الأصلية لهذا المختصر وهو كتاب (الأوامر العلائية في الأمور العلائية) اذ ورد اسمه في الصفحة العاشرة منه . كما أن اسم أبيه بناء عن نفس هذه النسخة (ص ٤٤٣) هو (مجد الدين محمد الترجمان)[١] ، أما (هوتسما) محقق الكتاب الذي ننقله وناشره فقد ذهب إلى أن اسمه هو (يحيى بن محمد) وليس (حسين) مستنداً بدوره على مقال (شفر) في مجموعة من النصوص والتراجم كتبها أساتذه مدرسة اللغات الشرقية إثر المؤتمر الثامن الدولي للمستشرين المنعقد بستوكهولم عام (١٨٨٩ م) ، وعنوان المقال المذكور آنفا هو (Quelques chapitres de l, Abrigé du Seljouknameh composé par L' Amir Nassir eddin Yahia) ولايرجع الفضل إلى (م . شفر) في كتابة هذا المقال وحده وأنما لأن النسخة الوحيدة لهذا الكتاب النادر (سلجوقنامه) وتلخيص الكتاب الأصلي (الأوامر العلائية) كانت بحوزة هذا الرجل[٢] . ولهذا آثر (هوتسما) و (شفر) أن يكون اسم المؤلف (يحيى) كما هو مخطوط على الصحيفة الأولى لـ (سلجوقنامه) إذ خط فيه عنوان الكتاب على هذا النحو (تواريخ آل سلجوق . وهذا الجلد مشتمل على مختصر سلجوقنامه وأصله تاليف ناصر الملة والدين يحيى بن محمد المعروف بابن البيبي) ، وخلاصة القول إن اسم المؤلف هو (الأمير ناصر الدين حسين) بناء على وروده بأصل الكتاب وهو (الأوامر العلائية) أو إن اسمه هو (الأمير ناصر الدين يحيي) بناء

(١) تاريخ ادبيات درايران . جلدسوم ، بخش دوم (١٣٤٦ هـ.ش ١٩٧٧م) ص١٢١٣- ٤

(2) Recucil de Textes Relatif a' L, hixtoire des Seldjoucides, vol III (Leide, 1902) , préface, p. vII

على وروده بالمختصر (سلجوقنامه) وسبب اشتهار المؤلف بابن البيبى هو نسبته لأمه (بيبي المنجمة) وكانت ابنة كمال الدين السمناني رئيس الشافعية بمدينه نيسابور والدي كان يصل نسبه من ناحية أمه إلى الإمام محمد بن يحيى فقيه خراسان الكبير والذي قتل اثناء هجوم الغز عليها .

وقد ذكر المختصر شيئا عن والدي المؤلف في بداية فصل عنوانه (ذكر والدة مؤلف أصل ذلك المختصر ووالده الأمير ناصر الدين أمير ديوان الطغراء الذي يلتزم بتبعيته لهذا المقام) . ويحسن أن نترك المؤلف يتحدث على لسان المختصر عن نفسه ، فيقول (والدته هي بيبي المنجمة التي كانت ابنه كمال الدين السمناني رئيس الأصحاب الشافعيين في نيسابور ، وكان لها مهارة تامه في علم النجوم من قبل الوالدة حفيدة محمد بن يحيى ، وبحكم أن كان لها سهم الغيب في الطالع كانت أحكامها تأتي موافقه مع القضاء والقدر . وفي الوقت الذي كان كمال الدين كاميار قادماً بسفارة إلى السلطان جلال الدين على أبواب أخلاط رآها مقربة إلى خدمة السلطان ووجدها مرجوعا إليها في الأحكام النجومية ، وعرض في وقت رجوعه لحضرة السلطنة هذه الحكاية على سبيل النادرة في أثناء المحاورة . ولما أصيب السلطان جلال الدين بنكبة من عسكر المغل على غرة انقلبت هذه المرأة مع زوجها إلى دمشق . ولما وصل خبرها السلطان علاء الدين أرسل رسولاً إلى الملك الأشرف لاستدعائهما وأدخلهما ممالك الروم بإعزاز وإكرام . ولما قدم الجيش إلى (خرتبرت) حكمت بيبي المنجمة بأن في اليوم الفلاني الساعة الفلانية يصل مبشر الظفر . وكان السلطان يترصد ذلك اليوم ويتطلع في تلك الساعة إلى ورود القاصد . وإذ بالقصاد يصلون بانخذال عساكر الشام وامتناعهم بخرتبرت ، واذا نهضت الرايات إلى هذه الصوب ليتسير فتح القلعة بلا أدنى منازعة . فزاد اعتقاد السلطان لموافقة ذلك الحكم في مهارتها في ذلك العلم ، وفي الحال سار الغلمان الخواص لإحضارها . ولما دخلت قال إن حكم (بيبي خاتون) وافق التقدير الرباني ، وألبسوها الخلعة السلطانية وأمر بأن تعرض كل أمنيه في خاطرها فالتمست إنشاء حضرة السلطنة لزوجها مجد الدين

محمد الترجمان ، وكا من سادات گورسرخ ومعتبري جرجان ، فتيسر لهما ذلك بلا توقف . وظل ملازماً للسلطان في الحضر والسفر مخصوصا بالإكرام الخسرواني ، وبلغ أمره في هذه الدولة حد أنهم لم يكونوا يرون أوفق منه للرسالات الكبار لمثل بغداد والشام والخوارزميين وعلاء الدين نومسلمان والسفارة إلى خدمة المعسكرات ، وانتقل في شعبان سنة ٦٧٠ هـ إلى جوار ربه تعالي) (١) .

وولد ناصر الدين يحيى عن زواج محيي الدين محمد الترجمان الگورسرخي الجرجاني بالمنجمة (بيبي) ابنة كمال الدين سمناني ، وورث يحيى أباه في لقب (الإمارة) والعمل والشهرة والحظوة لدى السلاجقة ، إذ ترأس ديوان الطغراء والإنشاء (٢) عهد سلطنة غياث الدين كيخسروبن قلج أرسلان (٦٦٦ - ٦٨٢ هـ) بعد وفاة أبيه وبقي في منصبه على الأرجح حتى وفاته (شوال ٦٨٤ هـ) - كما هو مكتوب على ضريحه بقونية - أو ديسمبر ١٢٨٥ م (٣) .

أما فيما يتعلق بالمختصر لأصل الكتاب فما يعلم عنه أقل من القليل المعروف عن المؤلف وهو الوارد بأول المختصر على لسان المختصر(بكسر الصاد) إذ يقول : (لا يخفى على مطالعي هذه الأوراق أن كتاب (سلجوق نامه) من منشئات الصدر والعلامة نادرة الأدوار مالك ديوان الطغراء ناصر الملة والدين يحيى بن محمد المعروف بابن البيبي دامت فضائله هو كتاب عديم

---

(١) الأصل الفارسي صـ ١٩٦ - ٧ من كتاب هوتسما (Recueil de Textes Relatifs a l' Histoire des Seljoucides)

(٢) للوقوف على تفاصيل تعرف بديوان الإنشاء والصفات التي تلزم صاحبه وفي بحث نشأته في الإسلام حتى زمن القلقشندي ، انظر الجزء الأول من كتاب صبح الأعشى في صناعة الانشا من ص- ٩١ - ١٠٤ ، جـ ٣ ص ٤٩٠ - ٤٩٢ ، جـ ٥ ص ٤٦٤-٤٦٥ .

(3) Recueil de Textes . . . . préface P. IX -
تاريخ ادبيات درايران جلدسوم ، بخش دوم ، ذبيح الله صفا ص ١٢١٥

النظير وفقيد المثيل ، وفي ذاك الأسلوب الذى انتهجه وعلى ذلك الوجه الذي أوفى فيه الحديث حقه ليس بمقدور صاحب صناعة قط مجاراته ومباراته الإحين تشكى جماعة من الإخوان من كبر حجمه فحرموا مطالعته والإفادة منه، فتعهدت أنا الضعيف وتداركت مع قلة البضاعة في هذي الصناعة إيراد مقاصد الكتاب ومغازيه في أجزاء عدة بلا إطناب في الأوصاف واغراق في التشبيهات ، لكي يكون بمكنة كل امرئ تحصيل نسخه منه وتيسير مطلوبه ويعم نفعه عموم الخلق والله ولي ذلك)[1] . ولعل هذه الكلمات التي قدم بها المختصر وبعض الألفاظ التي أنهى بها الكتاب هي ما أضاف وحسب إلى ألفاظ ابن البيبي بعد اختصارها ، ولايظهر في أي من المقدمة والخاتمه شئ عن اسمه أو عمره أو عمله أو موطنه أو حتى التاريخ الذي قام فيه بإيجاز الأصل .

ب - كتاب سلجوقنامه :

١ - أهمية الكتاب

لعل أهمية الكتاب تتضح بين عرضنا لمصادر تاريخ سلاجقة الروم النثرية المكتوبة بالأناضول ، وهي بجملتها معدودة على الأصابع ، أولها كتاب « راحة الصدور وآية السرور) من تصانيف نجم الدين أبي بكر محمد بن علي بن الراوندي الكاشاني ، وقد عاش أولاً في بلاط السلاجقة في العراق حتى عام (٥٩٠ هـ) ، ثم انتقل بعد مقتل السلطان ألب أرسلان إلى آسيا الصغرى حيث عاش في بلاط غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان والذي ألف باسمه هذا الكتاب راحة الصدور عام (٥٩٩ هـ / ١٢٠٢ م) ، ورغم ما بالكتاب من فائدة تاريخية إلا أنه لا يخلو من الحشو الزائد والمبالغات المتكلفة[2] ، كما أنه لايؤرخ إلا لبداية سلاجقة الروم الذين حكموا حتى أواخر القرن السادس الهجري ولا يمتد زمنا امتداد كتاب ابن البيبي . وقد نشر محمد إقبال الكتاب في ليدن

(١) الأصل الفارسي صـ ٢

(٢) النثر الفارسي منذ نشأة حتى نهاية العصر القاجاري ، د . السباعي محمد السباعي (مصر ١٩٧٨) صـ ٧٩

ضمن سلسلة جب التذكارية سنة ١٩٢١ وترجمة إلى العربية الأساتذة ابراهيم الشواربي وعبد النعيم حسنين وفؤاد الصياد ونشرت هذه الترجمة سنة (١٩٦٠م) . ثم يلي هذا الكتاب كتاب يعرف باسم تاريخ آل سلجوق مجهول المؤلف وان كان ألف باسم السلطان علاء الدين بن سليمان شاه ، وقد تحدث هذا الكتاب باختصار عن بداية السلاجقة وأنهي هذا الكتاب بالحديث عن الثورات وتغير الأمور في الأناضول وبعض الأحداث الأخرى حتى عام ٦٤١هـ / ١٢٤٣م [١] .

هذان هما الكتابان النثريان اللذان سبقا كتاب ابن البيبي لكنهما أوجزا حين فصل صاحبنا ووقفت بهما السنون وقت أن امتدت لابن البيبي الذي أنهى كتابه بذكر حوادث عام (٦٧٩ هـ / ١٢٨١ م) كما سنرى في ترجمته .

ويلي كتاب ابن البيبي حوليات محمود بن محمد الأقسرايي الذي يتكون من أربعة أجزاء أضخمها وأهمها هو الأخير الذي يكون ثلثي الكتاب والذي يعالج - معتمداً على مشاهدات المؤلف - تاريخ الإيلخانيين ومتأخري السلاجقة الذين كانوا تحت حمايتهم ، ولهذا الكتاب نسختان إحداهما في مكتبة أياصوفيا تحت رقم ٣١٤٣ والأخرى بمكتبة يكي جامع تحت رقم ٨٢٧ ، وقد نشر في الفترة ١٩٤٣ بتصحيح واهتمام عثمان توران . وإن كانت قيمة الكتاب قائمة في أنه شاهد ما عاصرها حتى انتهائه من تأليفه عام ٧٣٤ هـ إلا أنه نقل عن ابن البيبي بإيجاز الأحداث السابقة التي لم يرها كما يعيبه كثره الاستطرادات والخروج عن الموضوع في كثير من الأحيان بهدف النصح والموعظة لأميره الذي ألف له كتابه وهو الحاكم الإيلخاني للأناضول دميرداش ابن الأمير چوبان [٢] .

---

(١) النثر الفارسي صـ ٧٩ .

(٢) راجع مقدمة كتاب مسامرة الأخيار ومسايرة الأخبار لمحمود بن محمد الأقسرايي باهتمام عثمان توران طبعة أنقرة ١٩٤٣ وقيام الدولة العثمانية لمحمود فؤاد كوبريلي ترجمة د . أحمد السعيد سليمان (مصر ١٩٦٧) ص ٢٩ ، ٣٠ وكتاب النثر الفارسي للدكتور السباعي ٧٩ ، ٨٠ .

ويأتي مع هذا الكتاب (الولد الشفيق) المحرر عام ٧٣٣ هـ / ١٣٣٢ م وهو كتاب القاضي أحمد النيكدي وتوجد له نسخة وحيدة في مكتبة الفاتح تحت رقم ٤٥١٩ وهو وإن كان قيماً فيما يتعلق بالتاريخ الاجتماعي للأناضول لكن كلامه في تاريخ السلاجقة غير هام ، وقد ذكر المؤلف أنه أفرد تاريخ السلاجقة بكتاب لكن هذا الكتاب لم يعثر عليه من أسف حتى الآن[١] .

وأخيراً يلي هذا الكتاب كتاب يختم المؤلفات التاريخية باللغة الفارسية في الأناضول من تأليف عزيز بن أردشير الاسترابادي والمعنون بـ(بزم ورزم) والمقدم إلى القاضي برهان الدين سلطان سيواس ، وقد نشره معهد الدراسات التركية باستانبول سنة ١٩٢٨ ويتأخر عن كتاب ابن البيبي بنحو قرن إذ أنه قد ألف في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي[٢] ولابن البيبي الفضل عليه فيما أثبته من أخبار مروية أو مشاهدة لم يعاصرها الاسترابادي فنقلها عنه .

صفوة القول إذن إن كتاب ابن البيبي واسطة العقد بين السابق من المصادر واللاحق ، وأنه يفضلها جميعا ، وهو بمجلداته الأربعة ، في كثرة تفضيلاته وسعة مروياته ، ولم يفقد هذه الصفة حتى بعد إيجازه ، فقد أبقى المختصر على الحوادث التاريخية بما يفي أن يحيط القارئ بما يريد منها ويجعله في غنية عن أن يراجع مصادر أخرى .

ويزداد الكتاب في موضوعه أهمية وكذلك المصادر المذكورة حين يتلمس الدارس أخبار السلاجقة في الحوليات العربية فلا يجد غير إشارات متناثرة بين طياتها ولم ترد إلا لأنها أخبار علاقات طعن وموادعة بين الحكومات العربية والسلاجقة . ونفس الأمر والسبب يصادفهما القارئ لكتب التاريخ الفارسية المؤلفه خارج الأناضول . فالمتصفح لكامل ابن الأثير وتاريخ أبي الفداء وسلوك المقريزي والبداية والنهاية لابن كثير ومفرج الكروب لابن واصل وصبح الأعشى للقلقشندي ونهاية الأرب للنويري ومشاهدات ابن بطوطة ومن

---

(١) قيام الدولة العثمانية ص ٣٠ .

(٢) المرجع السابق ص ٣١ .

الكتب الفارسية جامع التواريخ لفضل الله الهمداني وتاريخ أولجايتو وتاريخ وصاف الحضرة وتاريخ گزيده يخرج بأخبار السلاجقة أشتاتاً لا يمكن أن يكون تاريخاً متصل الأحداث متكامل الموضوع تام الوقائع . لذلك فان المعول الأول لتاريخ سلاجقة الروم هي هذه المصادر التي ألفت عهد حكمهم أو تبعيتهم للمغول والتي أشرنا إليها .

وربما يكون السبب في إغفال أصحاب الحوليات العربية والتواريخ الفارسية الإسهاب في تاريخ سلاجقة الروم ودورهم إلى أن قبائل الأتراك الغزعامه ظلت سنوات طويلة على بداوتها وتنقلها في البلاد غير الإسلامية التي جعلوها صوائف لهم وشواتي ولما استقرت جماعاتهم آخر الأمر في الأناضول بصفة خاصة تعددت جماعاتهم وتباعدت المناطق التي تسربوا إليها ولم يحفل بهم المؤرخون المسلون الا اذا اتصل تاريخهم بالدول الإسلامية . كما نرى احتفاءهم بإخوانهم من السلاجقة العظام الذين اتخذوا من أقاليم الخلافة العباسية – ناهيك عن استيلائهم على بغداد فترات طويلة – مجالاً لحكمهم ونشاطهم .

٢ – نسخة الكتاب :

ذكرنا في الحديث في اسم مؤلف الكتاب إن النسخة الوحيدة لهذا المختصر المسمى (سلجوق نامه) كانت ملك الأستاذ (م . شفر) ثم آلت إلى المكتبة الأهلية بباريس وقد تولاها الاستاذ (م . ث . هوتسما) بالتحقيق وقدم لها تاريخاً موجزاً في اثنتى عشرة صفحة نقلنا منها ما اقتضى المقام . وليس هذا المختصر هو الوحيد للأصل ذي الأجزاء الأربعة المعنون بـ (الأوامر العلائية في الأمور العلائية) وانما هناك مختصر ثان يقترب نصه من الأصل تحت رقم (٣١) من المكتبة العاشرة لجوته قدم له بالألمانية (م . برتخ) وقد رمز (هوتسما) اليها بالرمز (ms) ولم تكن بذي أهمية كبرى في تحقيقه لسلجوقنامه لأنها تنقص عن المختصر الأول (٨٤ صفحة) وتحوي تاريخاً أيضاً للعثمانيين وتقص تاريخ السلاجقة من بداية حكم قلج أرسلان

الثاني حتى تاريخ سفارات كيقباد والذي يقع من (سلجوقنامه) ص ١٢٧ وما يليها ، وقد حذف بهذا المختصر أبواب كامله بلا مبرر من الأصل وانتقى منه أجزاء انتقاء سيئاً وكان النقل عن الأصل نقلاً حرفياً .

وللأوامر العلائية ترجمة تركية أيضا عمد المترجمون فيها إلى حذف الأشعار الشواهد العربية وإضافة أخري فارسية من لدنهم لأجادتهم الفارسية عن العربية وقد أخلصوا في الترجمة إلى حد لا يفوق أخلاص الموجز صاحب (سلجوقنامه) الذي أنجز عمله بمهارة دون أن يهمل شيئاً من جوهر الأصل[1] .

وقد صدر الأصل (الأوامر العلائية) مطبوعاً بأجزائه الأربعة بهمة (عدنان صادق أرزي) في أنقرة سنة ١٩٥٦ ، ثم طبع جزء منه في مجلد واحد بتصحيح واهتمام (نجات لوغال) (وعدنان صادق أرزي) في أنقرة أيضاً سنة ١٩٥٧[2] .

وقد ظهر أخيرا بإيران المختصر علق عليه وأضاف اليه د . محمد جواد مشكور عام (١٣٥٠هـ . ش) ولكن بسبب الظروف الصعبة الأخيرة التي ألمت بمصر وإيران لم أصل إلى هذه النسخة للإفادة منها .

٣ - مصادر الكتاب :

بدا من الوهلة الأولي دقة ابن البيبي وتعصبه للحقيقة التاريخية حين ذكر له المختصر في المقدمه اعتذاره عن عدم التأريخ لسلاجقة الروم الأوائل وبداية التاريخ من حكم غياث الدين كيخسرو وذلك لشكه في الروايات التي تنقل عن الأوائل وتعذر الكتب الموثوق بها التي تؤرخ لهم ، قال المختصر : (أول عذر اعتذر به مؤلف الأصل في ديباجته هو قوله إن كيفية تسلط السلطان سليمان ابن قتلمش وأحوال أمرائه الكبار كالأمير أرتق والأمير الدانشمند لم تكن محققة ، وتعذرت تماماً الكتب المؤرخة لذلك العهد ، ولم يوثق بأقوال النقلة

(1) Recueil de Textes . . préface pp. X, XI.

(٢) تاريخ أدبيات درايران . جلدسوم ، بخش دوم صـ ١٢١٦

وأقاصيص السمار البعيدي العهد بحسب اختلاف الروايات ، لذا بدئ بعهد دولة السلطان غياث الدين كيخسرو والد السلطان المعظم علاء الدين كيقباذ)[١] .

بيد أن المؤلف وأسرته لم تنزل الأناضول إلا على السلاجقة في عهد حكم كيقباد لذلك لم يك المؤلف معاصراً لفترة حكم غياث الدين كيخسرو وعز الدين كيكاوس والقسم الأعظم من حكم كيقباد ، فلا بد أن يكون مصدره شيئين أوردهما بالنص السابق : الكتب المؤلفه الموثوق بها ، والروايات المسموعة المنقولة عن الثقات . وإذا تعددت مصادر الكتاب إذن إلى المنقول من التواليف والمسموع من الروايات والمشاهدات المرئية للمؤلف لما عاصره من الأحداث فلا بد أن تختلف أجزاء الكتاب تبعا لاختلاف المصادر ، ويظهر هذا في الإيجاز والإسهاب في التاريخ مثلاً فتراه يوجز حين ينقل أو يروي عن راو ويسهب فيما رأي بعينه ، ويذكر بلفظه أنه سمع أو رأي أو من قبيل هذا . وهذا نفس ملاحظة (هوتسما) حين تحدث في تغاير الفصول الأولى من الكتاب عن الأخيره أو عهود حكم السلاجقة قبل لحوق والد المؤلف بكيقباد وبعده[٢] . وقد تبنى (د. صفا) ملاحظة (هوتسما) وتتبع المصدر الأول للكتاب وهو المؤلفات التاريخية السابقة له فاكتشف علاقة بينه وبين المثنوي التاريخي الطويل (سلجوقنامه) الذي نظمه ملك الشعراء الأمير بهاء الدين أحمد بن محمود القانعي الطوسي من متقدمي الشعراء الفرس في الأناضول والذي عاش في كنف علاء الدين كيقباد وكان مداح بلاطه وبلاط أخلافه غياث الدين كيخسرو الثاني وعز الدين كيكاوس حتى أنه أدرك منهم حكم غياث الدين كيخسرو الثالث (٦٦٦ - ٦٨١ هـ) . ويحسن أن ننقل ترجمة لما ذكره (صفا) في العلاقة بين كتاب ابن البيبي ومنظومة القانعي الطوسي لما نرى أهميته في إيراد إيضاحات أكثر وتفصيلات لا تخلو من فائدة يقول : (يتصورجميع الدارسين أن سلجوقنامه نظم القانعي من بين الآثار المفقودة ، لكني أتصور

---

(١) الأصل الفارسي لسلجوقنامه ص ٢ ، ٣ .

(2) Recueil de Textes.. préface p. XIV .

أن جزءا منه نقله ناصر الدين حسين بن محمد بن على المعروف بابن البيبي في كتابه (الأوامر العلائية) الذي شهر بسلجوقنامه منذ عهد انتشاره من دون أن يشير ولومرة واحدة للقانعي المسكين ، بل ان ما يتعلق بحكم غياث الدين كيخسرو الأول وعلاء الدين كيقباد وورد بالأوامر العلائية انما هو في نظري تلخيص عن سلجوقنامه نظم القانعي ، وربما هذا هو السبب في أن هذا الكتاب كان يعد بديلاً عن سلجوقنامه القانعي فاشتهر باسمه (سلجوقنامه) ، حتى أنه في بعض مواضع من الكتاب أي في شرح سلطنة علاء الدين كيقباد ، يلاحظ أن الموجز نقل كل أشعار قسم من سلجوقنامه القانعي بلاد أدني تغيير .

ألف ابن البيبي الأوامر العلائية باسم عطاملك الجويني وعلي أساس أنه ذيل لكتابه (جها نگشا) ، وكان منظوره في الحقيقة من تأليفه كتابه هذا في الأغلب إيجاد أثر أدبي ونظير لكتاب الجويني الخالد .

ومع أن ابن البيبي كان يريد بناء عن تصوره أن يقتصركتابه على (ذكر ابتداء دولة السلاطين السلاجقة الذين ندبوا وحدوا لهدف غزو ممالك الروم في زمان السلطان ملكشاه ...و ... كيفية فتوح البلاد والبقاع والقلاع ..) لكنه سرعان ما انصرف عن مقصده الأصلي بحجة أن (كيفية تسلط السلطان سليمان بن قتلمش بن اسرائيل وكيفية أحوال الأمراء الكبار مثل الأمير منگوجك والأمير ارتق والأمير الدانشمند لم تكن محققه وأن كتب المؤرخين لتلك المملكة تعذرت كبيرا ولا يتيسر أثر لطلبها) وأرخ من بداية دولة غياث الدين كيخسرو الأول والد علاء الدين كيقباد وما بعدها وأطنب في سيرتهما بوجه خاص بسبب إفادته من سلجوقنامه القانعي .

وحين ندرس كتاب الأوامر العلائية نلحظ أن العلة الأساسية لا نصراف ابن البيبي عن مقصوده الأصلي وحصر موضوعات كتابه الأساسية علي شرح سلطنة غياث الدين كيخسرو الأول وعز الدين كيكاوس وإطنابه وإسهابه على وجه الخصوص في سيرة السلطان علاء الدين كيقباد هذه العلة هي وقوعه على سلجوقنامه القانعي التي فصلت في تاريخ كيخسرو وكيقباد

وسهلت أمر البحث عليه ، وجلي أن الحصول على المعلومات المتعلقة بخلفاء كيقباد كان أمراً ميسوراً عل المؤلف بسبب قرب العهد بهم ، ولذا كانت مشكلات عمله في تدوين الأوامر العلائية المشهور بسلجوقنامه محلولة . ومع هذا فإننا نلحظ بعجب أن المؤلف مع أن والده كان شريكاً في أمور الحكم السلجوقي من أواخر علاء الدين كيقباد فصاعدا ومع أنه كان بميسوره أن يحصل علـى المعلومات المباشرة للعهد الأخير للسلاطين السلاجقة لآسيا الصغرى إلا أنه لم يستطع أن يفصل في الوقائع الهامه التي حدثت في عهود حكم هؤلاء السلاطين الستة الأخيرين تفصيله في وقائع السلاطين الثلاثة الأوائل خاصة كيقباد ، وهذا دليل على أن حيازته لنص سلجوقنامه القانعي الذي فصل فيه القول في ممدوحه علاء الدين كيقباد قد منحته مثل هذه الإمكانيه . على أية حال يجب أن نأخذ في الحسبان هذه النقطة وهي أن عمل ابن البيبي في إعداد كتابه هو إيجاز أدبي لسلجوقنامه القانعي ، على الأقل ما يتعلق بكسخرو وكيقباد ، مع إيراده قطع شعرية منه في تضاعيف كلامه . بل أنه يبدي رغبة في نقل أجزاء مفصلة إلى حد ما من ذلك الكتاب بدون إيجاز أو تحويلها نثراً .

اهتم ابن البيبى شأنه شأن المترسلين بإيراد أشعار عربية وفارسية كثيرة في كتابه ولم ير من اللازم كما هو شأنهم كذلك أن يذكر أصحاب هذه الأشعار ضمن كلامه إلا في مواضع معدودة نظم فيها شعراء العهد بمناسبة جلوس السلاطين أو في ذكر مآثر ممدوحه عطا ملك الجويني . أورد في بعض أجزاء كتابه قطعاً مفصلة من (خسروشيرين) للنظامي بدون ذكر اسمه على نحو يشعر فيه القارئ أنه هو مؤلف هذه الأشعار ، كالأبيات المنقولة في صفحات ١٥٢ ، ١٥٤ ، ١٥٥٦ من طبعة فاكسيمليه ، وأورد في بعض المواضع مثل صفحات ٢٢ ، ١٣٨ ، ٢٦٩ أبيات من شاهنامه الفردوسي في كتابه . والمتصور هو أن ابن البيبي لم يشعر بالحاجة إلى ذكر الشعراء بسبب اشتهار هذه الأشعار وكذلك الأشعار العربية وربما يصدق هذا الحكم بشأن أشعار القانعي . وعلي أية حال فلا يبدو في أي موضع من الأوامر العلائية قط أن

الأشعار التي أثبتها في حق غياث الدين كيخسرو وعز الدين كيكاوس الأول (وهي بحد الندرة) وعلاء الدين كيقباد (وهي كثيرة وافرة) وكلها من بحر المتقارب لايبدو أنها من نظم ابن البيبي ، بينما تسمح لنا القرائن الموجودة أن نعدها من شعر القانعي مداح كيقباد الذي أمره بأن ينظم تاريخه وتاريخ أبيه فخلد ذكرهما بنظمه .

ولا يمكن أن يكون هذا المادح الذي نظم منظومة في قالب الحماسة التاريخية لممدوحه كيقباد هو ابن البيبي لأن حتى أباه مجد الدين الترجمان وأمه (بيبي) المنجمة لم يصلا بلاط علاء الين كيقباد إلا في حدود سنة ٦٣٠ (أي بعد انقلاب أمر بلاط جلال الدين خوارزم شاه وقتله بعامين ومكثه فترة قبل في دمشق) وكان هذا قبل موت كيقباد بأربع سنوات ولم يدرك ابنهما ابن البيبي خدمة كيقباد وحسب بل ظل لفترة بعد هذا التاريخ حتى عد بين رجالات الأناضول وصنف كتابه في بداية سلطنة غياث الدين مسعود الثاني (٦٨١ - ٦٩٦ هـ) وأواخر حياة عطا ملك الجويني (متوفى عام ٦٨١ هـ) وكان هذا موافقاً للعام السابع والأربعين بعد وفاة كيقباد . وبناء على ما تقدم فحين نصادف في كتاب ابن البيبي أبياتاً في بحر المتقارب تمدح كيقباد وحكمه أو تمدح أباه وأخاه فلا بد أن نعدها أشعاراً للشاعر الذي عاصر كيقباد وذكر بخير أيضا أباه وأخاه وهو القانعي بالظن القوي وليس ابن البيبي . حتى أبوه الترجمان وإن كان قد أدرك السنوات الأربع الأخيرة من حكم كيقباد وهي فترة لم يتمكن فيها لقصرها أن يفتح ناظريه على الدنيا أو يرتبط بسهولة بخليفته المباشر .

وأمر آخر يجدر بالذكر وهو اذا كان ابن البيبي قد تكلف مشقة نظم أشعار بحر المتقارب في سيرة كيقباد فما العلة في أنه لم ينظمها في سيرة غيره من السلاطين السلاجقة بالأناضول أو حتى في حق السلطان غياث الدين مسعود الثاني معاصره ؟ ولماذا هذه الأشعار في بحر المتقارب وتنتهي في فترة وقائع السلاطين السلاجقة والتي تطابق موت ملك الشعراء القانعي الطوسي ؟!

وأمر تال يصرفنا عن نسبه الأشعار المذكورة إلى ابن البيبي ويجعلنا نقطع بنسبتها إلى القانعي هو أن كيقباد يذكره القانعي في منظومته سلجوقنامه التي ألفها باسمه وفي عهده بألقاب مثل (ظل الله) و(شاهنشاه أعظم) و(خديوجهان) و (شهريار زمين) و (شهنشاه أعظم ألغ كيقباد) . وواضح أن مثل هذه الالقاب يذكرها شاعر مداح لممدوحه الذي يعاصره وليس لأحد السلاطين السابقين بعينه بدون أن يذكرها لمن سبقه من السلاطين أو خلفه . وليس من شك أن هذا الشاعر المعاصر لكيقباد ليس هو ابن البيبي وأنما هو بالاحتمال الأقرب إلى الصواب وأخذاً في الحسبان القرائن الأخرى ملك الشعراء القانعي الطوسي . وننقل من صفحة (٣١) من الأوامر العلائية نموذجاً هذه الأشعار التي تحوي الألقاب المذكورة :

لما سارت من قونية مظلة ظل
الإله متبخترة كالقمر المنير
زفت إلى الدنيا بشرى من الشمس
أنه لن ينقلب الزمان بعد ذاك انقلاب شر
ولن تمطرعين السحب غير السعادة
ولن يكون لدى فلك السعادة أحزان
كل النقع الذي كان يثيره الجيش
كان يبدو منيرا بعين القمر تلك
سار إلى قيسارية ملك الدنيا
سعيدا بنصر الخالق
تفتح وجه العالم بطلعته
وامتلأت الدنيا بنسيم الزهر بنشره
ودق الطبول وصوت الناي
وصحيات الناس وجلباتهم
أبلغت إلى الفلك الفيروزي
الذهبي الضياء صيت الملك

دخل قاهر العالم المستقر بالفلك
بتقدير الله ببرج الحمل
فأينعت زهور الأرض سعادة
وأمتلأت الفضاء بصداح البلابل
ملك الدنيا سلطان الأرض
تنطلق عظمته من بلاط الثناء
صار الفلك سخرة لحكم صولجانه
وغدت الدنيا بأسرها تحت طاعته
جلس على صدر عرشه واستمع للناس
فأسرع طلاب العدل إليه من كل مكان[1]

فأنت ترى أن هذه الأشعار قد نظمها قطعا شاعر معاصر لملك في حق هذا الملك وأعماله وليس شاعر بعيد العهد في حق أحد السلاطين الغابرين دون سلاطين آخرين سبقوهم أو خلفوهم . وأنظر أيضا إلى هذه الأبيات

---

(١) أصل الأبيات الفارسى (وتحت الالقاب المذكورة خط)

چواز قونيه چتر ظل إله	خراميد برسان رخشنده ماه
جهان راهمي مژده آمد زمهر	كزين پس بتندي نگردد سپهر
نبارد بجز شادي ازچشم ميغ	فلك خرميها ندارد دريغ
هرآن گرد كانگيختندي سپاه	همي كشت روشن بدان چشم ماه
خرامان بپيرزوي كردگار	بقيساريه شد جهان شهريار
شكفته رخ عالم ازروي او	جهان پرنسيم گل ازبوي أو
بغريدن طبل وآواز ناي	بجوشيدن مردم وهاي هاي
بگردون پيروزهٔ زرنگار	رسانيد آوازة شهريار
درآمد جهانگير گردون محل	بتقدير ايزد ببرج حمل
زمين راگل ازخرمي تازه شد	زبلبل هواپرز آوازه شد
خديو جهان شهريار زمين	كه فرش بودازدر آفرين
فلك سخره حكم چوگان أو	سراسرجهان زير فرمان او
نشست ازبرتخت وبگشود راه	زهر جايگه شد روان دادخواه

(تاريخ ادبيات درايران جلد سوم بخش أول (طهران ١٩٧٤) ص ٤٩٩).

المنقولة من بضعة أبيات عن الأوامر العلائية ص ٤٣٨ - ٤٣٩

حين طوت الرياح البيـــــــرق　　كأن درع السحاب تمزقـــــت

أبلغت الطبول البشرى أذن الظفر　　وضمن السنان سر الصدور

فدخل الشهنشاه الأعظم ألغ كيقباد على ظهر جواده الأصفر دخول الرياح

وهجم هجوم الشمس على قمة الجبل

لكي يستطلع أحوال الجيش الشامـــي[١]

ونقل ابن البيبي حتى الأبيات التي كان القانعي نظمها في الثناء على نعم كيقباد على لسان الملك الأشرف ملك الشام ومصر وأوردها في كتابه صفحة (٣٨٩) وهي :

رأيت من نعمة الملـــــــــــك　　ما عجز عن شكره لسانـــــــــي

كل ما أصابني من نعم الملك الفاتح　　لم يصبني من السحاب أو الشمس

كان يراعني بنعمـــــــــــــه　　كأننـــــــــي عبد أعتقـــــــه

فليخلد دائما هذا الملك الكريـــــم　　ولترتهن قلوب خصومه بالحســره[٢]

---

(١) الأصل الابيات الفارسي واللقب تحته خط :

جو در بيرق افتاد ازبادتـــــاب　　توكفتي كه بدريد درع سحاب

بكوش ظفر كوس مـژده رســـان　　شدة ضامن سرسينه سنـــان

شهنشاه اعظم الغ كيقبـــــــاد　　بپشت سمند اندرآمد چوبـــاد

چو خورشيد برتاخت برتيغ كـــوه　　كه تابنكرد حال شامي كروه

(تاريخ ادبيات درايران ص ٤٩٩)

(٢) أصل الأبيات :

من آن ديدم از نعمت شـــــهريار　　كه از شكر آن شدزبـانم زكار

هر آنچ آمداز خسرو فتح يـــاب　　نه ازابرآمد نه از آفتـــــاب

بنعمت چنان پروريدي مـــــرا　　همانا چوبنده خريدي مـــرا

هميشه چنين باد بنده نــــــواز　　دل دشمنانش رهين كـــداز

(المرجع السابق ٤٩٩ - ٥٠٠)

وأكرر القول هنا أن القسم الكبير من كتاب الأوامر العلائية أي القسم المتعلق بفترة حكم غياث الدين كيخسرو الأول وكيكاوس وكيقباد هو في حكم إيجاز من المنظومة المفصلة للقانعي سلجوقنامه التي أوجز ابن البيبي موضوعاتها بالأسلوب الإنشائي ومزج هذا الملخص حينا بأبيات وأشعار فارسية وعربية لشعراء متعددين ، واستصوب في بعض المواضع أيضا أن يورد أبياتا أيضا عن القانعي في طي عباراته وقد بلغ هذا النقل حينا صفحة واثنتين وحينا صفحات عدة (خاصة مايقع بين صفحات ٣٩٢ ، ٤٠٦) وبهذه الطريقة لحسن الحظ حفظ قدر هام من أبيات سلجوقنامه)[1] .

٤ – دراسة الكتاب

دراسة الأسلوب :

أسلوب كتاب سلجوقنامه هو أسلوب النثر المصنع أو النثر الفني أو نثر كتاب الرسائل الديوانية أو السلطانية وهو النثر القائم على الصنائع اللفظية والبدائع الكلامية يراعي الإطناب ويورد كثرة من الأشعار والأمثال العربية والفارسية وغير ذلك مما سوف نفصل في دراستنا لأسلوب ابن البيبي . وقد ظهر هذا النوع من الأساليب الأدبية متأثراً بالعربية ، بعد أن أثر الأدباء العرب الأسلوب المصنع المسجع منذ منتصف القرن الرابع الهجري وتأممه كتاب من أصل فارسي كابن العميد (متوفى ٣٦٠ هـ) وتلميذه الصاحب بن عباد (متوفى ٣٨٥ هـ) وأبو بكر الخوارزمي (متوفى ٣٨٣ هـ) وبديع الزمان الهمذاني (متوفى ٣٩٨ هـ) وكلهم من أصل فارسي وصارت تواليفهم المثال المحتذى لمن أعقبهم . وأول من حرر بهذا الأسلوب من الفرس أبو المعالي نصر الله بن محمد في كتابه (كليله ودمنه) الذي ألفه عام (٥٣٦ هـ) ثم تأسى به كاتب ديوان إنشاء السلطان أتسز خوارزم شاه وهو الأديب المشهور رشيد الدين الوطواط (متوفى ٥٧٣ هـ) ، ثم أنشأ قاضي قضاه بلخ حميد الدين عمر البلخي (متوفى ٥٥٩ هـ) مقاماته الفارسية على غرار مقامات

(١) تاريخ ادبيات درايران المرجع السابق ٤٩٤ – ٥٠٠

الهمداني والحريري قاصداً تعليم الشباب اللغة وأسرارها . ثم لاقى هذا الأسلوب رواجاً عند كتاب التاريخ منذ أواخر القرن السادس الهجري ، فأنشأ أفضل الدين الكرماني الطبيب والأديب المعروف في أواخر السادس وأوائل السابع الهجري كتابين بهذا الأسلوب وهما (عقد العلى) و (المضاف إلى بدايع الأمان) . وتبعه في بداية القرن السابع في اتخاذ هذا الأسلوب أبو الشرف ناصح بن ظفر الجرفادقاني في ترجمته إلى الفارسية الكتاب العربي (تاريخ اليميني) ، وتلاه صاحب ديوان رسائل السلطان جلال الدين خوارزم شاه في مراعاه الصناعة اللفظية والمعنوية وهو نور الدين محمد النسوي فبالغ في استخدامها .

وقد صادف التوفيق حركة تأليف النصوص التاريخية بالأسلوب المصنوع الإنشائي التي بدأت من أواخر القرن السادس فظهرت مؤلفات عدت من أمهات الكتب التاريخية الفارسية ومهدت لاستمرار هذه الحركة حتى منتصف القرن الثالث عشر الهجري ، وأول هذه المؤلفات كتاب تاريخ جهانگشا لصاحبه علاء الدين عطا ملك الجويني (توفي ٦٨١ هـ) الذي زاوج تعبيره بين الصناعة في مواضع فرقى فيها إلى سماء الشعر والاعتدال والبساطة التي اقتضاها القص والتاريخ في مواضع أخرى ، فلم يك رهين الصنعة دفعة واحدة وإنما كانت عنده جمالاً للكتابه وطلاوة للتعبير.

لكن تلامذة عطا ملك الذين ألفوا كتبا تممة لجهانگشا أو ذيلا له لم يدركوا مرتبة استاذهم كما يذكر ذبيح الله صفا ، فعلى سبيل المثال ترى ابن البيبي في كتابه سلجوقنامه قاصراً في بلوغ الجويني أو حتى في تقليده ، وكان يتصور - بحد لفظ ذبيح الله - أنه باستخدامه الألفاظ الصعبة المهجورة العربية والصناعات والتكليف الزائد عن الحد يمكنه أن يخلف أستاذه وممدوحه ، برغم أنه ألف كتابه بقصد إتمام فائدة كتاب الجويني أو إخراج كتاب نظير له الواقع كما يتضح من فحوي مقدمة كتابه (الأوامر العلائية)[1] .

(١) تاريخ ادبيات در ايران . جلدسوم ، بخش دوم ص ١١٥٧ ، ١١٥٨ وأنظر أيضا : النثر الفارسي . السباعي محمد السباعي ٤١ - ٤٥ .

ويجلي ذبيح الله صفا العلاقة بين المؤلفين والأثرين في موضع آخر متصوراً أن هذه العلاقة بدأت بعد أن أوكل الأناضول السلجوقي بعد قتل معين الدين البرواناه إلى شمس الدين الجويني صاحب الديوان أخي علاء الدين عطا ملك بأمر من المغول . ونتيجة لتقرب ابن البيبي لعطا ملك وخدمته له وسفره إلى بغداد مقر حكمه أن ألف كتابه (الأوامر العلائية) باسم علاء الدين عطا ملك وقدمه له مع شرح مبسوط في مقدمه الكتاب عن تأثر عطا ملك ومناقبة وحديث مفصل آخر في نهاية الكتاب عنه وعن أخيه شمس الدين وابنه شرف الدين هارون[1] .

ويورد (هوتسما) عن مقدمة النسخة الفارسية التي نشرها (م . برتخ) نصاً يوضح فيه هذه العلاقة بين الكتابين والأسلوبين ، وتختلط بالنص العبارات العربية والفارسية كما يلي : (هذا كتاب مختصر والمختار من تاريخ سلاجقة الروم وأصله تأليف مولانا الفاضل المنشى سحبان الزمان ناصر الملة والدين الشهير بابن البيبي وهو كتاب جليل المقدار مشحون بأنواع الأحاديث الشريفة والأشعار العربية ولمصنفه رحه يد طولى في فن الإنشاء وبلاغة بليغة ، وإلى تاريخ تأليفه ما كان صنف مثل هذا الكتاب باللسان الفارسية ، وفي عصره صنف المولى الخطير والصدر الكبير عطا ملك الجويني كتاب المسمي بتاريخ جهانگشاي وفي الحقيقة هذين الكتابين من أفراد الكتب المؤلفه في فن التاريخ ، ولكن بعدهما ذيل كتاب جهانگشاي الجويني وصاف الحضرة بكتابه المشهور بتاريخ الوصاف وله اسم آخر لم يحضرني وكذلك في عصره صنف المولى الفاضل معين الدين المحتسب اليزدي كتاب المسمى بمواهب الألهية في الآثار المظفرية ، وچون برمقتضاي الفضل للمتقدم هرچندكه كتاب سلجوقنامه ناصري وكتاب جهانگشاي الجويني في فنهما من الأفراد ولكن مزية الكتابين المسفورين (كذا) عليهما وهما تاريخ الوصاف وتاريخ آثار المظفري لا يخفي على من له أدنى بصيرة في فن الإنشاء والبلاغة الخ)[2] .

(١) تاريخ ادبيات در ايران ، جلد سوم ، بخش دوم ص ١٢١٦ .

(2) Recueil de Tex tes . . . préface , p. XII

وبغض النظر عن الأخطاء النحوية بالنص إلا إنه يزيل عن ابن البيبي التهمة التي حملها ذبيح الله عليه وهي المبالغة في الصنعة والقصور في تقليد الجويني ، وسوف يظهر هذا الأمر للقارئ جلياً بعد ، ويضعها موضعها وهو كتابا الوصاف واليزدي . فمع أن الكتابين من بين سلسلة الكتب التاريخية التي ألفت ذيلاً لجهانگشا ، والتي تَضُمُّ مع الكتب الثلاثة السابقة سمط العلى لناصر المنشي وتاريخ نامهء هرات لسيفي الهروي وتاريخ معجم لشرف الدين القزويني في نفس الفترة ، إلا إن ابن البيبي قد زاوج في كتابه بين الصنعة والسلاسة ولم يطغ اللفظ على المعنى وكانت الصناعة بين يديه جمالاً لا تعقيداً عكس ماراه الدارسون عند الوصاف واليزدي والباقين . وخير دليل على مانقول هو أن نعرض بشئ من التفصيل سمات أسلوبه النحوية والصرفية ثم البلاغية بما تشمل من معان وبيان وبديع :

أ - من السمات النحوية والصرفية لأسلوب الكتاب :

تنويع استخدامه للأداه (را) بما تدل عليه من استخدامات غير استخدامها الأصلي وهو راء المفعول المباشر :

١ - (را) لفك الاضافة :

مثل قوله : (وايماني كه اهل ايمان را در نقض أن تأويل ممكن نگردد).

وقوله : (چون ملكان را سوداء ملكداري وغوغاء شهرياري درحركت آمد) .

وقوله : (پيش از آنك اورا أين فكر ازقوت بفعل رسد) وغير ذلك ، ففي المثال الأول يقصد (وايماني كه تأويل اهل ايمان در نقص أن ممكن نگردد) وفي المثال الثاني يعني (چون سوداء ملكداري ملكان وغوغاء شهرياري در حركت آمد) وفي المثال الأخير يعني المؤلف (پيش از آنك اين فكرا وازقوت بفعل رسد) [١] .

---

(١) النص الفارسي لسلجوقنامه ص ٤ ، ٥ ، ٢٠١ .

٢ - (را) بدلاً من المصدر (داشتن) :

كما في قوله : (تخت را چون توبه نشينى نيست وبرتو ديهيم راگزيني نيست) ويعني (تخت چون توبه نشيني ندارد وبرتوديهيم گزيني ندارد) وأيضا : (وآن ملاعين رابجز سنگك انداختن چاره نبود) [١] .

ويعني (وآن ملاعين بجز سنگك انداختن چاره نداشتند) .

٣ - (را) بمعنى (براي) :

من مثل قوله : (فاسيلوس را اين رأي صواب نمود) أي (براي فاسيلوس اين رأي صواب نمود) وكذلك (چون فتح سينوب سلطان راميسر شد) يعني به (چون فتح سينوب براي سلطان ميسر شد)

وكذلك : (وچون لشكر قونيه را آمدن عساكر جَرَّار محقق شد . . . ومحاصرت را آماده شدند) أي (وچون براي لشكر قونيه . . . . وبراي محاصرت . .) [٢] وهكذا .

٤ - (را) زائدة بلا معنى :

زاد (را) على الجملة لتحقيق السجع كما نري في المثال الآتي الذي يحقق بها سجعة مع (را) الأولي التى تفيد المفعول المباشر :

(واين قلعة را عوض رابي زحمتي در تصرف گيرند) [٣] .

٥ - استخدام (را) مراراً لتحقيق السجع :

كما ظاهر في قوله : (وچنانك مصلحت وتدابيررا بايكديگر مجهز گردانيده مصالحت را بناء محكم وقاعدهٔ پايدار نهند) [٤] .

---

(١) النص الفارسي ص ٣ ، ٥٢

(٢) النص الفارسي ص ٤٦ ، ٥٩ ، ٣٢٨

(٣) النص الفارسي ص ٧٥

(٤) النص الفارسي ص ١٠٨

- الصيغة الوصفية

كثر استخدام الصيغة الوصفية كما ترى في المثال السابق أو في المثال الآتي حين يتحدث المؤلف عن هزيمة الملك الكامل من السلطان علاء الدين كيقباد فيقول على لسان الأخير : (اميداست كه هرچه زودتر مقهور روى بقاهره نهد وازمكافات سيئة كه برآن مُصِرُّ ست تامصر گريخته) أي (گريزد)[1] .

أو كما في قوله في الملك الكامل أيضا : (وبوجه محاصرت قلعة راباز در تصرف خود آورد وكوتو الان ومتجنده ونواب رادر جوالها نهاده وبر اجمال باركرده بجانب مصر فرستاد) أي (درجو لها نهاد وبراجمال باركرد)

وكذلك : (ولشكرها رابازردخانه وبرگ وعدت آراسته درصحبت او روانه كرد) .

والملاحظ أنه قد يذكر (واو) العطف قبل الصيغة الوصفية كما في المثال الأول والثاني وقد لا يذكرها كما في المثال الثالث .

- إحلال المصدر محل الفعل

وقد أحله المؤلف في أكثر من موضع كما هو وارد على لسان الخان المغولي يخاطب علاء الدين كيقباد : (ما را واجب گشت حال خود بشما نمودن وبراه ايلي وفرمان برداري خواندن) أي (حال خودبشمانمايم وبراه . . خوانم) وكذلك (وسلطان بدين قرصه ٔ ملطيه قناعت فرمايدتا ايام بؤس ونحوس منقرض شدن) يريد (منقرض شود) .

وكذلك في قوله (اگرديگري قصد أو كردي استعداد ازين دولت خواست كردن وعنايت ازينجا طلبيد) يريد أن يقول (استعدادا زين دولت خواست كرد)[2] في الماضي التام نفس زمن الفعل المعطوف عليه وهو (طلبيد) .

---

(١) النص الفارسي ص ١٩٢ ، ٢٠٠ ، ٢٠١

(٢) النص الفارسي ص ٢٠٣ ، ١٠ ، ٢٤٥

- استخدام الجملة الحالية محل المفعول المباشر :

ولم يستخدمه المؤلف إلا في هذا الموضع حين يقول : (ونامهاء مترجم مطول در قضاياء مختلف وتعليمات كه باخصوم حضرت سلطنت برد بايجو چه گويد وچگونه جواب دهد در قلم آورد وبقصاد داد) [١] .

يريد أن يقول : (گفتن بايجو وچگونگى جواب دادنش را درقلم آورد)

- استخدام همزة الإضافة بدل يائها :

وكانت هذه الهمزة تستخدم بدل الياء التي آثر الفرس استخدامها بدل الهمزة للتسهيل وقد حافظ المؤلف على هذه الهمزة في أغلب التركيبات الإضافية من ذلك قوله فضلاً عما رأينا في المثال الأخير : (كمرهاء مرصع) و (سراء سلطنت) و (بالاء جمله امراء) [٢] .

- استخدام الياء

ونخص إيجازاً ياء الضرورة واللزوم وياء الماضي المستمر الناقص بالذكر ، فمثال الياء الأولى : (وبودني بود) اى (وكان ما وجب أن يكون أو حدث اللازم حدوثه) ومثال الثانية : (وچون مؤذن صلاة قد قامت درداي خرد وبزرگ باتفاق باداء مكتوبه قيام نمو دندي) أي (درمي داد . . قيام مي نمودند) بيدأن المؤلف يستخدم استخداماً طريفا ربما من غير سابقة يدلل بها على دقة الوقت أو ضبطه كما في قوله عن (كمال الدين كاميار) حين أتى بلاط علاء الدين قبيل موته (غلامان خاص بطلب أو دوان گردانيدند نماز خفتني بودكه بحضرت رسيد) [٣] أي يريد أن يقول (در نماز خفتن بي تقديم وبي تأخير بودكه بحضرت رسيد) أو من هذا القبيل .

---

(١) النص الفارسي ص ٢٧٢ .

(٢) النص الفارسي ص ٩ ، ١٠ ، ٥٧ .

(٣) النص الفارسي ص ٣١٧ ، ٢٦٢ ، ٢٠٧

- تصريف الفعل مع الجمع الغائب للدلالة على المبني للمجهول :

وهذا الاستخدام الشائع قديما وحديثا من قبيل الإيجاز ومثل ذلك قول المؤلف : (پادشاهان را ازعدل پرسند) بدلاً من قوله (پادشاهان از عدل پرسيده شوند) (١) وغير ذلك .

- المصدر الكامل بعد (خواستن) الاستقبالية :

وكان هذا دَيْدَن قدامى المؤلفين قبل حذف نون المصدر للتخفيف أو ترخيم المصدر كما في قول المؤلف : (جواب دادكه روزي توخواست شدن مرا درآن چه تصرف بودي ؟) وكذلك (فند قدار در فلان روز بالشكر گران خواهد رسيدن) وأيضا : (وامروز وفردا عزايم تصميم خواست يافتن) (٢) .

- المصادر الجعلية :

من هذه ما ذكره المؤلف في قوله : (هركه برادر سلطان راغارتيده) يريد (غارت كرده) أو (وبا ارزرومي عتاب آغازيد) أي (آغاز كرد) (٣) .

- دلالات جديدة :

ونريد بها دلالات جديدة من مصادر ذوات معاني مختلفة من مثل قوله : (امير كمال الدين را آهك بجهت اشادت ابنيهٔ خراب قلاع بايست شده بود سنگ آهك وهيمه در نواحي عاد لجواز دست ميداد) فدل بالمصدر (بايست شدن) عن معنى الترتيب والتجهيز . وكذلك استخدامه للمصدر (نقل كردن) بمعني الانتقال وليس النقل كما هو معناه وقد كرر هذا الاستخدام ، من ذلك (سلطان از سراي كيقباديه بمنزل رضوان نقل كرد) وكذلك استخدام

---

(١) النص الفارسي ص ٣

(٢) النص الفارسي ص ٢٣٥ ، ٣١٣ ، ٢٤٥

(٣) النص الفارسي ص ٨ ، ١٧٠

المصدر (تقديم داشتن) بمعني (كردن) مثل قوله (واتفاق بران كردندكه نظام الدين خورشيد پروانه را باستقبال فرستدتا تدارك احوال تقديم دارد) وكذلك (پيش ازانك اورا اين فكراز قوت بفعل رسد تلافي حال تقديم داريد)[١] .

- استخدام (بودن) بمعني الدوام :

استخدام الكينونه (بودن) بمعناها التام من مثل ذلك قوله (ومدت دوسال درآن محاصرت بود)[٢] .

- استخدام (نيك) بمعني (بسيار) :

كما في قوله (سلطان نيك پريشان شد) أي (بسيار پريشان شد)[٣] .

- استخدام (مر) بمعني (براي) قبل المفعول غير المباشر

كما ذكر بقوله : (درجواب آن الزام فرمودكه بشرطيكه جامگي مرهر روز دو عدد بيش نباشد)[٤] .

- تسرب الألفاظ التركية والمغولية واليونانية :

تسربت هذه الألفاظ بحكم تأريخ المؤلف لقوم ترك ثم بظهور المغول اضطر إلى استخدام كثير من مصطلحاتهم ولأن السلاجقة استقروا بآسيا الصغوي موطن الحضارة اليونانية التي آلت اليهم جرى على ألسنتهم وألسنة كتاب دواوينهم ألفاظ لها ، فمن الألفاظ التركية والمغولية ترى (الْي باشي - أوج - بكلربكي - يياق - اولاق - باسقاق - قراول - اردو - ايلچي - وارمتاي - پايزة - يرليغ - سيورغاميشي - اروغ - ايل - بيچين - يرغوچي - ياسا - طرغو - اورتاق - اينجو . . . الخ).

---

(١) النص الفارسي ص ١٨٦ ، ٢٠٧ ، ٢٨٥ ، ٣٠١

(٢) النص الفارسي ص ٢٩٩

(٣) النص الفارسي ص ٢٧٧

(٤) النص الفارسي ص ٢٧٠

ومن الألفاظ اليونانية والأرمنية هذه الالقاب العسكرية والديوانية : (بارون - كندصطبل - نوطار - مفرزوم - تكفور - كيرفارد . . .

- قيام الصفة مقام الموصوف

كما في قوله (بطرف قلعة چمشكزاك روان شد سنگى ديد سرير آسمان كشيده) يعني (قلعهٔ سنگى) وكذلك (ملك برموجب حكم مقربي از خواص خودرا . . فرستاد) يعني (فرستادهٔ مقربي) وأيضا (سلطان از استماع آن لطيفه ابتسام فرمود) أو (خرد وبزرگ باتفاق باداء مكتوبه قيام نمودندي) [1] .

- كثرة الاستشهاد :

أكثر المؤلف من الاستشهاد العربي كما هو من سمات النثر الفني البارزة ، فاستشهد بآيات من القرآن الكريم وبالحديث [2] والأمثال العربية والفارسية [3] بالشعر العربي والفارسي [4] كما استخدم المصطلحات الفلسفية كما في قوله (وازقوت بفعل آورده) أو (پيش از آنك اورا اين فكر ازقوت بفعل رسد) [5] .

ب - وأقرب أقسام البلاغة إلى علم النحو هو علم المعاني وقد أفاد منه المؤلف من ذلك استخدامه للإيجاز والإطناب :

أما الإيجاز فنوعان إيجاز قصر وإيجاز حذف والأول عند البلاغيين يعني تضمين العبارات القصيرة معاني كثيرة من غير حذف عن طريق حسن انتقاء الألفاظ الحافلة بالمعاني والدلالات . أما إيجاز الحذف فهو بإسقاط عنصر أو

---

(١) النص الفارسي ص ١٢٠ ، ١٧٧ ، ١٩٨ ، ٣٦٢
(٢) راجع النص الفارسي ص ٣ ، ١٢ ، ٣١٧
(٣) النص الفارسي ص ٣ ، ٤ ، ١١ ، ١٣ ، ١٥ ، ٢٠ ، ٣٧
(٤) النص الفارسي ص ١١ ، ٢٣ ، ٣٧ ، ٥٦ ، ٤ ، ٦ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٩-٣٢ ، ٣٣
(٥) النص الفارسي ص ٦ ، ٣١٧

أكثر من عناصر التركيب اللغوي مع وجود قرينه مقالية أو حالية تسعف القارئ في استنباط المحذوف وتقديره . وَفنيَّة هذا اللون من الإيجاز تتمثل في أن فيه تنشيطا لخيال المتلقي ودعوى غير مباشرة له كي يحدس بالمحذوف ويكتشف ماوراء حذفه من أسرار جمالية وفنية .

ونمثل لإيجاز القصر بقوله عن ملك حماة في قدومه طائعا لبلاط السلاجقة : (ملك حماه كه اين رأي زده بود بخدمت سلطان آمد وبعاطفت خسروانه مخصوص شد وشفاعات أو باجابت مقرون گشت) فحين جمع (شفاعت) أفرد (أجابت) ولم يجمعها للدلالة على سرعة إجابة السلطان السلجوقي له مع كثرة الشفاعة أو حسم الإجابة ونفاذها المبرم .

و حين يقول (پراونه باستسلام قلعة واستنزال كوتوال كه تعلق بدو داشت فرمان آمد) فهنا يحسن استخدام (است) الطلبية العربية أو حين يذكر محسناً انتقاء الصفات للموصوفات (چون تطاول رمح وتعدي تير ووقاحت سپر وسلاطت تيغ وخشونت سنان وسرزنش گرز گران مشاهده كرد) .

أوحينما يتهكم ويسخر بقوله (كارش بجاي رسيد كه دلها بيشتر امراء رغبة ورهبة برهوا وولاء أو قرار گرفت وبزرگان را ازبيم او خواب نوشين درديده جهان بين نمي آمد . مادر او شهناز خاتون ازدختران معتبران شهر قونيه بود وغياث الدين كيخسرو والد علاء الدين كيقباد بردوگيسوي مفتول أو مغبون ، وبرجمال بي همتايش كه ليلى ازحسن آن چون مجنون محزون بودي مهرانداخته بود . .) [1] .

أما عن إيجاز الحذف فقد أكثر المؤلف من استخدامه وهو عنده على ضروب :

١ - حذف الرابطة بقرينه وبغيرها :

أ - (نقض عهود مذموست وعاقبت آن شوم) .

(١) النص الفارسي ص ١٩٧ ، ٣١٩ ، ٣٨ ، ٢١٤

ب - (ازعهده ؑ امانت باري تعالي وتقدس بيرون آمده باشيم وبذل محمود كرده) .

جـ - من بنده آم تازنده ام ودر راه مهر خدايگاني اسپ خلاص تازنده) .

د - (امراء كشته وملك برگشته ولشكر يكسر بقتل رفته) .

هـ - (استفتاكردكه حد زانى محصن . . . در شرع چه فرماييد ؟ فتوى دادند رجم) .

و - (ونايب فرصت جسته بود واز شهر بدر جسته) .

ز - (تيرچون انديشه ، وتذمر در صميم دلها جايگير شد)[١] .

٢ - حذف تصريف المصدر (داشتن) :

في قوله (نه سامان پيش رفته داشت ونه مجال باز آمدن [٢]) .

٣ - حذف تصريف المصدر (گفتن) : -

كما يذكر : (واثناء اين حكايت چون از ملك معظم سوال كردند : سوار افتاده ملك غازي بود وأنك اسير شد استاد الدار أو ؟ آري) [٣] يعني (گفت آري) .

٤ - حذف (به) حرف الجر :

كما يقول : (چون بحر اخضر ناگاه پيرامن باره ؑ طرسوس درآمدند) أي (به بحر أخضر) أو في قوله : (سلطان نيك پريشان شد واحوال ملك وممالك رابي سر وسامان ديد وايلچيان عذرها خواسته براه كرد) أى (وبه ايلچيان عذرها خواسته) [٤] .

---

(١) النص الفارسي ص ٣٦ ، ١٦٢ ، ١٥١ ، ٢١٣ ، ٦٥ ، ٢٣٥ ، ١٣٩ .
(٢) النص الفارسي ص ٢١١
(٣) النص الفاسي ص ٢٣٣
(٤) النص الفارسي ص ٢٤٩ ، ٢٧٧

٥ - حذف علامه الجمع :

وقد ورد هذا في قوله : (واتابك مجد الدين وجلال الدين مستوفي وسيف الدين طرمطاي را ملزم گردانيد تابرادران وپسر را در صحبت ضيا روان كردند) يريد : (وپسران را) [١] .

٦ - حذف المضاف :

كما في قوله : (سلطان فرمودتابشارتها زدند) يعني (كوسهاي بشارت) وأيضا (وفرمود كه نمازديگر ببزم جهان افروز حاضر شوند) [٢] يريد (وقت نماز ديگر) .

٧ - حذف المضاف اليه :

وهذا وارد في قوله : (وبحكم آنك امير آخرست عنان سلطان گرفته) [٣] يرد (عنان اسب سلطان) .

أما الاطناب فمن أقسامه الاعتراض والتكرير وقد استخدم المؤلف الأول كثيرا حتى طالت الجملة الاعتراضية في بعض مواضعها من ذلك تلك التي بلغت أربعة سطور في وصف مشنقة الأمير (كوبك) [٤] ، ومن أمثلة التكرير قوله (ابراج آن آسان آسان ودر مغاك خاك اندازند . . . هلاهلا ميسر نتوان كرد) [٥] لإفادة التأكيد . ومن أقسام الإطناب أيضا الإيغال وسوف نشير إليه مع (التورية) .

---

(١) النص الفارسى ص ٣١٣
(٢) النص الفارسي ص ١٩٧ ، ١٩٨
(٣) النص الفارسي ص ٢٦٩
(٤) راجع النص الفارسي ص ٢١٩ ، ٦
(٥) النص الفارسي ص ٢٠٠

- **التقديم والتأخير :**

وقد أفاد المؤلف منهما في مواضع من كتابه شتى نوجز تمثيلهما بمثال حذف تصريف المصدر (داشتن) الآنف فقد قدم علامة النفي أو تقديم الخبر على المبتدأ في المثال التالي له (سوار افتادة ملك غازي بود وآنك اسير شد استاد الدار أو ؟) وكذلك تقديمه للفعل (بودي) تأثرا بمعناه في العربية في قوله -(وبودي كه درخت وجود شان راكأعجاز نخل منقعر بفأس بأس وتوبيخ ازبيخ بركندي) بمعني -(وحدث أن) أو (وكان أن) . أو تقديم الفعل للتجنيس في قوله (كجابريم ننگ وچون كشيم اين عار ؟)[١] .

الالتفات :

وهو تغير الضمائر بهدف اثارة الانتباه والاهتمام من مثل قوله تعالى (هو الذي يسيركم في البر والبحر حتى إذا كنتم في الفلك وجرين بهم بريح طيبة وفرحوا بها جاءتها ريح عاصف[٢]) ومن أمثلة هذا الالتفات حديثه عن شهاب الدين الزندري المنشئ غائبا ثم متكلماً في قوله : (شهاب الدين زندري منشى حضرت جلالي كه درآن وقت متقلد وزارت بركت خان بود برقلعة حران نايب شد چون خبر انكسار ولي نعمت خود شنيد انديشه كردكه هرآينه بجانب روم رود ودر سلك بند گان آن دولت منتظم گردد واگر من قلعة را بسلطان روم سپارم مرا بي گمان هم آنجا بايد رفت) [٣] .

- **تعانق اللغتين العربية والفارسية :**

ولانقصد منه تضمين الألفاظ العربية عباراته الفارسية وحسب بل صياغة جمله على أساس أن تكون الألفاظ العربية جزءا من الجملة الفارسية لاتقوم بغيرها ولايفهمها غير المطلع على اللغتين معاً ومن ذلك قوله (ولشكري بعدد الرمل والنمل والمطر والحصى ما لا يعد ولا يحصى فراهم آورد) وكذلك

---

(١) النص الفارسي ص ٦

(٢) يونس / ٢٢ .

(٣) النص الفارسي ص ٢٢٣ .

(اعداد رجال كالرمال بصحاري قونيه نزول كردند) وكذلك قوله :(وباقيان مقرنين في الأصفاد بخدمت زرد خانه خاص آمدند) وأيضا (وكالباحث عن حتفه بظلفه روي بمحاربت نهاد) وأيضا (وبعد طول الاستخارة ويمن الاستشارة برين اختيار مزيدي نيافت) (بالرأس والعين قبول كردم) (وتجهيزي كه يليق بالبنات باشد) (جواناني كه درصحراء ملحمه كلحم على وضم افتاده اند) (شاء أم أبي بقضاء رضا داد) (وظهر الدين پسر گرجي رادر أن باب سمح العنان وسريع الاجابة يافت) وغير ذلك [1] .

بيد أن ثمة عيوباً من ناحية المعاني بدت عند المؤلف ومنها التطويل والاستطراد المعيب والتكلف والمبالغة والإغراق ، فمن التطويل قوله (مبارز الدين فرمود وگفت شمارا درميان گنا هي نيست) وكذلك (وساير ملوك سلوك جادة خدمت پيش گرفتند) فكلمة سلوك تغني عنها (پيس گرفتند) وانما آتى بها للتجنيس مع (ملوك) ، وكذلك قوله (استمداد مي جست) لأن (جستن) تغني عن (است) في (استمداد) وكذلك (وطلب مصالحت مارا بحضرت درگاه سلطنت اعلام دهد) فكلمة (حضرت) و (درگاه) احداها تغني عن الأخرى [2] .

أما عن الاستطراد المعيب الذي يطول بحيث ينسي القارئ الموضوع الأصلي فقد كان عند المؤلف قليلا على غيره عادة بعض المؤرخين ولم يطل أيضا بحيث يفقد الكلام صلة أوله بآخره وكان المؤلف يستدرك أمره ويقول معجلاً (برسرسخن رويم)أو بمعناها العربي في موضع آخر (نرجع إلى ما كنا بصدده) كما نرى في خروجه عن الموضوع لكي يقص شيئا عن أسرته وغير ذلك [3] .

ويبدو تكلفة في زَجّه ورصه لألفاظ العدد في وصفه لأحد المساجد بقوله (ودر كمتر دو هفته يك جاتمع كه سه چهاز پنج بار درشش جهت هفت

---

(١) النص الفارسي ص ٣٧، ٥١ ، ٥٥ ، ٦١ ، ٦٧ ، ٦٨ ، ١٣٦ ، ٢٠٦ ، ٢٠٨
(٢) النص الفارسي ص ١٤٠ ، ١٦٧ ، ١٧٣ ، ١٨٤
(٣) النص الفارسي انظر هذه المواضع في صفحات ٢٢ ، ٤٩ ، ١١٧ ، ١٩٧

كشور محاكي هشت بهشت ونه فلك بود بر أوردند)[١] .

وكعادة الفرس ينحو المؤلف نحو المبالغة والإغراق والتهويل وهذا بين بين وصفه الذي يخلع عليه ثوب الفخر فيؤدي به إلى المبالغة كما تري في وصفه لقلعة (كلورنوروس) التي تبدو السماء أمامها صحراء أو وصفه لجيش علاء الدين كيقباد[٢] أو حين يسبغ المحامد على السلاطين أو يبالغ في كثرة قتلى المعارك[٣] وقد يوقعه هذا في التناقض الظاهر كما هو ظاهر في نعته لقوة جيش كيقباد وعجزه عن استرجاع قلعة حران في آن واحد : (اگر عساكر منصور قصد قلاع افلاك كنند ابراج آن را آسان آسان در مغاك خاك اندازند اما چون (آمد) شهري راكه باره‌ء آن كوه خاره است وهيچ پادشاهى آن رابجنك ومحاصرت فتح نكرده است هلاهلا ميسر نتوان كرد)[٤] .

واذا تركنا المعاني وأتينا البيان من تشبيه واستعاره وكناية ومجاز مرسل رأينا المؤلف يكثر منه إلى حد المبالغة خاصة من الاستعارة والكناية يفتتح بالصور الاستعارية بعض فصوله اذا اقتضى المقام ذكر حلول فصل من الفصول الأربعة أو بزوغ النهار أو حلول الليل كما يظهر في قوله (چون روي ربيع از وراء نقاب سحاب كافور بار گشوده شد وفراشان طبيعت بساط گونا گون حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت برچهره كوه وهامون كشيدند .. همه در وادي غضب وغيضه‌ء غيظ شدند) (چون مادر جهان درچادر نيلي رفت ونبات سمن سيما سيم اندام ازبام قصر مينا فام درجلوه گري آمدند وفراشان (ولقد زينا) تتق لاجوردي برعروسان سيارات كشيدند) ثم (سحري كه سپهدار سياره برخنك ديزه سپهر سوار گشت)[٥] .

---

(١) النص الفارسي ص ١٣٨

(٢) النص الفارسي ٩٨ - ١٠٠

(٣) النص الفارسي ص ١٧١

(٤) النص الفارسي ص ٢٠٠

(٥) النص الفارسي ص ٥٤ . ١٢٦ . ١٩٣

وأداة المؤلف في صورة البيانية هي ماتقع عليه عيناه من مظاهر الطبيعة الخلابة من زهور ونباتات ونجوم وكواكب وطير وانسان ويحشر كل هذه الصور بمناسبة وبغير مناسبة فمع أن الموت والدفن لا يناسبه الحديث عن الجمال والبهاء إلا أن المؤلف يتخذ منهما وسيلته للتأثير والإبكاء كماذكره في حادثه قتل (تاج الدين پروانه) رجماً بتدبير (كوپك) يقول (وچنان اميري نازنين راكه خورشيد انور از رشك روي ازهراو در حجاب تواري گزيدي وعطارد از رشك خط وبلاغتش انگشت حسد بدندان كزيدي وهيچ صاحب جان رادل ندادي كه برگ گلي برسينهٔ سمن سيماء او زدي درخاك تاناف دفن كرد)[1] .

ويجد المؤلف الصورة الاستعارية مطواعة له لإثارة الخيال فتكتظ لديه ويشعر بجمالها فيغرب فيها ، وهاك بعض هذه الصور الخيالية القريبة والمغربة (طاير فكر) (پر وبال عقاب چتر) (بكشتى دل آب شكافتن) (مذاق أيام) (سلطان ازسر مكرمت ذيل عفو برهفوات أو مي كشيد) (ازجزع جهان بين بر صحن خد لعل فام روان كرده) فيكني عن العين بأنها (جهان بين) وقوله (چون سورت شراب تأثير كرد وجلباب حيامرتفع شد أمراء مغول حبل عتاب را باسلطان تاب دادند) و (گريبان حال) (نقاب حيا ازرخسار وفا برانداخته بود) (علف تيغ بيدريغ) (چنبر طاعت) (دايرهٔ استقامت) (عروس چمن) (سرو سيارگان) (سپر ممانعت) وغير ذلك .

ويمكن أن تكون كل صوة استعارية كناية وليس العكس كما يذكر البلاغيون فما سبق يزيد عليه ما نذكر كنايات نسوقها بحسب ما تدل عليه :

فمن كناية الموت قوله (آفتاب اقبال من بدرجه زوال رسيد) وقوله (وبعد روزي چند فرمان يافت) أى مات ، وقد تكررت كنايته عن الموت بهذا المصطلح (فرمان يافتن) . ومن كنايات الطاعة والولاء: (جمله امير مبارز الدين رانماز بردند) وقوله (شكر آبداني تقديم كرده) أو بالكناية التي

(١) النص الفارسي ص ٢١٤

تحكي التأثر بالثقافة الشرقية القديمة (وبآب وزمين قديم بازآوردند) أي أعادهم إلى طاعته ، وكذلك (ظاهر وباطن درحضور وغيبت او يكسان داريم وبا مخالفان دولت او چون شمشير وسنان طريق حدت وخشونت سپريم) كناية تحكي أيضا التأثر بالثقافة الإسلامية وقوله ((هرروزديك روز دستبوس كردند) كناية تحكي التأثر بالثقافة الإيرانية القديمة . أما عن العصيان فمن كنايته (سراز چنبر طاعت وپاي ازدايره ٔ استقامت بيرون نهادند) ومن كناية الحسد والبغض (هربرادري بر آذري نشست) .

ومن كناية الغضب وسكونه (سيماكه سيماء كريمش وشرع ناز ونعيم متكدر شده است) (ماده ٔ سودايي كه بدماغشان راه يافته بود منحسم شد) .

ومن كناية القتال الشديد (وشمشير آبدار بجاي سر محمول گردنها شد) وما أبلغها من كناية ، أو تلك الكناية الشائعة لديه (سپر ممانعت در روي كشيدند) . ومن كناية التوسل بالعاجز دون المكين والضعيف دون القوي قوله (باوجود آب زلال تيمم ببقاية زبال وبااستعداد صولت پلنگ استنجاد بحيلت روباه لنگ كرده است) ومن كناية المجون والشراب (وآن روز احياء موات عشرت در اراقت دم دين كه در شرع ندامي مي محلل واجب ديدند) و (ودر شيوه ٔ عشرت جز جرعهء ساقي هيچ باقي نگذا شتند) .

ومن كناية السعادة (سلطان ازين خبر كلاه شادماني برفلك كامراني انداخت) ومن كناية النكاح : (فض ختام وقض رخام واجب ديد) .

ومن كناية حلول الربيع وهي كثيرة قوله (چون رايت خسروسياركان بمنطقهء اعتدال ربيعي رسيد وباد صبا درپرده دري وعروس چمن در جلوه گري آمد) .

ومن كناية حلول الشتاء وشدة برودته (ماهي شيم ازبيم سنان زمهرير زير زره غدير جوشن پوشيد) .

ومن كناية التغير من الضعف إلى القوة (ازپيادگي بسواري رسيد) (آن

ماربچگان بمرور أيام اژدها شدند)[1] .

والاستعارة والكناية ولدا التشبيه وكل صورهما صور تشبيهية في الأصل كما هو معلوم أما التشبيه المتحقق فيه أركانه أو بعضها فمنه : (وتو بحمد الله نوباوهٔ باغ شاهي وشكوفهٔ حديقهٔ الطاف الهي) - (شما با او بيعت كنيد وچون صخرهٔ صما برهوا وولاء او ثبات قدم نماييد) - (درنمازشام كه دراري كواكب درچمن لاژوردي گنبد نيلوفري برمثال ازهار طري ظاهر شد) - (قطرات عبرات بررخسارچون گلنا رمدرار گردانيدند) .

ويستخدم أداه التشبيه (وار) الفارسية فضلاً عن (چون) في الجملة الآتية التي تزدحم بالصور التشبيهية الجميلة :

(ناگاه از در دادگاه بازرگاني ازپي سود وزيان چون گوي گرد جهان سرگردان بودي وهمواره ازديارگذر كردي ودر آرزوي زرچون نيلوفر سپر برآب انداختي چون سوسن برزبان بثناء بگشود وچنار وار دست بدعا برداشت شت) .

ومن التشبيه التمثيلي قوله (مقيمان أقسرا كه مشتاق طلعت عالم آراي سلطان بودند چون عاشق مهجور سوي وصال وياتشنه رنجور بطلب آب زلال متوجه استقبال شدند) .

وما أشد هذه الصورة التشبيهية التمثيلية إيضاحاً وتعبيراً عن شدة القتال والقتل : (والتطام فريقين واصطدام طائفتين سررا درخود وتن رادر جوشن چون مغزپسته درهاون خرد كرد) .

ومن الصور التشبيهية الديوانية التي استقاها من وحي عمله : (آن مروت مزور را سر دفتر تقييد نا مفيد نبايد ساخت)[2] .

أما المجاز المرسل فقد قل لدي المؤلف وربما لأن الذوق الفارسي

---

(١) النص الفارسي بالترتيب صفحات : ٤ ، ٤٤ ، ١١٩ ، ٥٨ ، ٤ ، ٢٨٨ ، ٥٦ ، ٥ ، ٦ ، ١٣٩ ، ٧ ، ٥ ، ١٧ ، ٥ ، ٢٧ ، ١٢٦ ، ٤٩ ، ٦٠ ، ٣٢٢ .

(٢) النص الفارسي بالترتيب صفحات : ٤ ، ٧ ، ٨ ، ٩ ، ١٢٧ ، ٨٩ ، ١٧٠ ، ٧٤ .

لايستعذبه قدر الاستعارة والكناية والتشبيه ومن أمثلته قوله :

زيرا صدف أن درة الغواص ويتيمة الدهر ازعمان فضل واحسان)[1] يقصد (بحرعمان) واذا كان (عمان) يعني بهما البحر بإطلاق فهي صورة استعارية وليست مجازاً مرسلاً ومن المجاز المرسل وعلاقته الحالية قوله (كتاباده امروز باهم خوريم)[2] فاللفظ (كت) هو عرش الملك والمراد به الملك نفسه ، وكذلك التعبير عن السلطان بالألفاظ (خدمت) و (بندگي) و (حضرت) كما في قوله على لسان أحدهم يخاطب السلطان (ازخدمت پوشيده نيست)[3] .

استخدم المؤلف ألوان البديع بحد يبلغ الإفراط لاسيما الجناس والسجع فلا يكاد يخلو سطر من كتابه منهما وذلك لعلل شتى منها سهولة هذين المحسنين وقرب تأتيهما له وحسن قبول السامع لهما ومطابقتهما للتذوق الفارسي وتوائمهما مع الكتابة التاريخية فاذا وصف معركة على سبيل المثال رأي السجع أيسر طريقة لتصوير انفعالاتها وحماسها ولنقل كل هذه الانفعالات إلى السامع . وقد جرت الرواية التاريخية العربية على أن تساق موزونه الجمل متحدة الفواصل في الروي كأنها قطعات موسيقية عجلى فتحقق شرطى التأثير مع تتابع الأخبار وقصها في آن واحد ، اقرأ مثلاً هذه الأسجاع والموازنات تراها أنغاما على وتر راو من الرواة الغنائيين :

١- (بعداز حمد آفريدگار ودرود بي شمار برسيد مختار عليه السلام وعلى آله الأخيار . . ازاين نوع سخنان مغشوش كالعهن المنفوش يادكردند . .فرنگي بود بمردانگي وصرامت مذكور وبدلاوري وشهامت مشهور . . .برخي بطرف سلطان ميلان نمودند وقومي بطرف فرنگ نگران جنگ شدند . . .چون آفتاب در برج شرف بهر طرف سيران فرمود وچون بدر زاهر گرد عساكر برمي آمد . . .هريكي برآسمان

(١) النص الفارسي ص ٦٧
(٢) النص الفارسي ص ١٤٥
(٣) النص الفارسي ص ١٥٨

ملاحت ما هي ودرجهان صباحت شاهي . . . فصار الأميرُ أميراً والأمير أسيراً وكان ذلك على الله يسيراً . . وباستظهار فضل كرد گار بالشكر جرار روي بديار كفار نهاد . . . اركان ايوان تدبير وحافظان ناموس تاج وسرير قداح استخارت وزناد استشارت را اجالت واستنارت كردند . . . تمامت لشكر چون ريب المنون دركوه وهامون بطلب ليفون متوجه شدند . . چون لشكر منصور ودشمن مقهور ومخالف محصور گشت . . . ويكهفتهء مدام بشرب مدام واكرام امراء كرام مشغول بود . . سلطان روم بالشكري بعدد نجوم در تخوم ولايت ما هجوم كرده است . . وازترس كمن يتخبطه الشيطان من المس ازخواب در آمد . . . ودرم ودينار بل لؤلؤ شاهوار برشهريار چون قطرات امطار نوبهار انتشار گرفت ،. . وازآن شاد ماني گنج شايگاني بدايگاني كه ازطرف شام باوميد شم بشام انعام خسرو كامران آمده بودند بذل فرمود . . . برف چون تن عاشقان در نوبان وعروق خاك چون دل مشتاقان در خفقان وضربان آمد . . حالات عجيب تجعل الولدان شيب ازپردهء تقرير ظاهر شد . . . الخ)[1] .

وقد أدي بالمؤلف كلفه بالسجع – الذي بلغ لفظه سبعة ألفاظ في بعض الجمل السابقة – إلى التكلف كقوله : (وبملك منصور صاحب حمص كه متولي قيادت عساكر شام بنام او متصل گشتند . .) فلفظة (متولي قيادت عساكر الشام) تغني عن (بنام او) .

ولأن المؤلف فرض على نفسه التزام السجع والجناس في كل جملة تقاضانا هذا أن نبقي ما استطعنا إلى ذلك سبيلا على هذا الالتزام فترجمنا السجع بحيث نبقي على المعني أيضا فلايضيع المعني من أجل ترجمة السجع سجعاً واذا لم نستطع عوضنا في الترجمة السجعة بسجعة أخرى ، وهذه أمثله لما جرينا عليه في هذه الترجمة :

(١) النص الفارسي بالترتيب صفحات ٢ ، ٦ ، ١٤ ، ١٦ ، ٢٠ ، ٣٣ ، ٣٩ ، ٦٥ ، ٧٢ ، ٧٦ ، ٨١ ، ٨٢ ، ١٢٧ ، ٣١٦ .

١- ذكر المؤلف في مكارم أخلاق عزالدين كيكاوس (قدي رشك سروجويبار وخدي غيرت محاسن طراز نوبهار . كماني چون طاق ابروان دلبران جان فرساي وتيري ما نند دعاء مظلومان من گردون گذار وحادثة زاي).

فالترجمة الحرفية للأسجاع الأربعة (جويبار ، نوبهار ، جان فرساي ، حادثة زاي) هي (الجدول ، الربيع ، مُبْل للروح ، مولد للحادثات) أما ترجمتنا فقد راعت هذه الأسجاع ومعانيها معاًفقلنا : (بقد ينفسه عليه سرو الينابيع ، وخد تغار منه المحاسن المزيّنة للربيع ، بقوس كأنه طاق حواجب الحسان المبلي للأنفاث ، وسهم كأنه دعاء المظلومين الواضع للفلك المولد للأحداث) .

٢ - قال المؤلف (وجانبين بوفورسرور وحبور معمور شد) وترجمة الفعل حرفياًهي (وعُمّر الجانبان) فتقاضانا الابقاء على المحسنات أن تقول (وغدا كلا الجانبين هو المعمور بوفور السرور) .

٣ - قال المؤلف في أحد مبارزات القواد السلاجقة (هردو بنيزه بي درنگ چون شير وپلنگ درجنگ آمدند) ومعني الأسجاع الثلاثة (بي درنگ ، پلنگ ، جنگ) هو (المعجل ، النمر ، الحرب) فراعينا السجع والمعنى بقولنا في الترجمة : (برمحين بلانَظِر كالأسد والنمر في ميدان الكسر) والنظر من الانتظار والتأجيل والكسر هي الحرب .

٤ - ذكر يتحدث عن حصر عز الدين كيكاوس لأنقرة (ساكنان شهر ومحصوران آن قهر ازساقي دهر كاس زهر مي خوردند) والمعنى الحرفي للأسجاع (شهر ، قهر ، دهر و زهر) هو (المدينه ، القهر ، الدهر ، السم) فترجمنا الأسجاع الأربعة بقولنا : (وكان ساكنو هذا المصر ومحصورو ذاك القهر يتجرعون من ساقي الدهر كأس سم الحصر) فأتينا بلفظ (الحصر) مضافاً إلى السم لتحقيق السجع والمعنى معاً .

٥ - قوله في فتح أنطالية وتوسل سكانها بالإفرنجة (ازسراضطرار ورنج بملوك افرنج توسل نمودند) فترجمنا (رنج) بمعني (كرب) لتحقيق

السجع مع (الغرب) أي (الإفرنج) .

٦ - ذكر في تتويج السلطان علاء الدين كيقباد : (وچون ماه ازغمام وتيغ ازنيام از زندان خانه روى بايوان وكاشانه نهاد) فقلنا مسجعين محافظين على المعنى (وتوجه من مكان السجن إلى الإيوان والوكن كالقمر من غمام الرعد والسيف من لجام الغمد) فأتينا (بالرعد) مضافاً إلى (الغمام) لتحقيق السجع مع (الغمد) أو (نيام) الفارسية.

٧ - أما الشاهد الذي بلغ ألفاظ السجع فيه سبعة (ودرم ودينار بل لؤلؤ شاهورا برشهريار . .. الخ) وقد ذكرناه آنفا فترجمنا أسجاعه السبعة ثمانية بقولنا : (وكان للدرهم والدينار بل اللؤلؤ الكبار على ملك الأمصار كقطرات الأمطاربالربيع الأبكار الانتثار والانتشار) .

٨ - اذا لم نستطع ترجمة السجع والإبقاء على معناه في مثل قول المؤلف (وچون جان فرشته همه خير گشته) أي (صار بكليته خيراً كروح الملاك) عوضنا بالجناس عن السجع فقلنا (وصار ملاكه خيرا كأنه روح الملاك) وهكذا لكي نبقي على جمال النص وفنيته بقدر المستطاع لأن الترجمة الحق ليست مجرد المحافظة على المعنى بل وعلى اللفظ وجماله ومحسناته بحيث لا يطغي أحدهما على الآخر .

ومن شواهد الجناس المختلط به السجع والصور البيانية ما يلي :

(وبرآن وجه كه او داد سخن داده . . من ازاين فناء فنامي روم . . وايمان كه اهل ايمان رادر نقض آن تأويل ممكن نگردد . . وبعد از مخالفت بررفع مخالفت ونصب رايت موافقت واحكام نصرت ومعاضدت . . مسرعان بجمعيت اجناد اغوار وانجاد باعوان واعضاد روانه كرد . . ولُاح وخرّاج مؤكد باقسام اقسام . . روع روع وجيشان جأش راتسكين داد . . سلطان را در خاطر عزم آمد آمد - فردا روز زور آزمايست - اسپ فرنگ را ازنكايت گرز ازگريز گزير نبود - وآنجاعزم عودت واعادت دعوت ميكرد هنوز بحد بلوغ بلوغ نيافته بود - چنگ جنگ سازكردند - فرمود تاجمله* باغهارا

بتبرضرر وفأس بأس قطع كردند - ولشكر لشكري را انتعاش وارتياش ظاهر شد - وباز هوا گرفته راباز درقيد صيد كشيد - وآن روز بصحراء روزبه بروزبهي وفرخي بشب آوردند - ودر قلعة كه هموارة حرسه آن باتير چرخ در محادثة باشند تيرچرخ چه أثر نمايد ؟ - آيخه داني وتواني بي تواني تقديم دار - وراي بايجواز ازبازگشت بازگشت . .)[١] .

ومن الجناس المتكلف قوله (اورا ازمقام معلوم معدوم ديدند) فالعدم هنا لايعني به الموت وإنما الغياب وأتي به لتحقيق الجناس فأغرب في المعنى .

وقوله في هزيمة الملك الكامل من كيقباد على لسان الأخير : (اميداست كه هرچه زودتر مقهور روي بقاهرة نهد وازمكافات سيئة كه بآن مصرست تامصر گريخته درمأتم شام جامه درنيل بزند)[٢] .

وقد استكره هذا الجناس (گروهي چون پلنگ بي درنگ برخاره وسنگ گرازان وتازان كردند) فاللفظ (گرازان) بمعني المتنجتر لايتفق مع (تازان) بمعني المغير[٣] وقد حاولنا المحافظة بقدر المستطاع على جمال التجنيس في الترجمة كما سبق مع السجع أو التعويض كما في قوله (ازآن آبهاء خون خوارگذار فرمود) قلنا (قد جاز ذاك اليم البالع للدم) وغير ذلك[٤] .

أما المقابلة والطباق فكان استخدام المؤلف لهما معتدلاً وقصد منهما إثارة الانتباه والتأثير فضلا عن الإيضاح والإبانه عما يريد قوله ، من ذلك مثلا طباقه مع مراعاة السجع والجناس والبيان (خنده او چون گريه ابربي دوام است وگريه او چون خنده برق بي آرام - ظاهر وباطن در حضور وغيبت او يكسان داريم - خلايق آن ديار از صغار وكبار وقاري وامي ومسلم

---

(١) النص الفارسي بالترتيب صفحات ٢ ، ٣ ، ٤ ، ٧ ، ١١ ، ١٦ ، ٣٢ ، ٧٢ ، ٣٩ ، ٥٣ ، ٨٩ ، ٩٩ ، ٢٠٤ ، ٢٤٢ .

(٢) النص الفارسي ص ٦٣ ، ١٩٢

(٣) النص الفارسي ص ٩٨

(٤) النص الفارسي ص ٩٩

وذمي دوگروه شدند - از موماة فقر وفاقت برياض دعت ونعمت رهنموني ميفرمود - وحالت كر بفر مبدل شد ضارب مضروب وقاتل مقتول گشت - وشريف ووضيع وكبير ورضيع جريح وقتيل حسام انتقام گردانيدند - ومعدوم را موجود وكم رابيش گردانيد واز حد نقصان بپايان كمال رسانيد - اماثل طرفين ازقائم وقاعد شاهد شدند - چون قناديل سيمين بزير قبهٔ برين ظاهر گشت - چون ايشان در سخن در بستند مارا راه جنگ مي بايد گشادن - وسپاه ازبيرون براهل اندرون قلعه اززخم تير روز را چون شب دلگير سياه گردانيدند - سخنها كوتاه كرده ايمان بمبايعت او دراز كردند - وسور بسوز وفرح بترح وراحت با ماتم وشادي بغم تبديل يافت) (١) .

ومن الطباق المستكرة المبرر له قوله (روز ديگر ازاوج قلعة بحضيض باركاه سلطان كه مماس اوج كيوان بود فرود آمد) (٢) .

أما التورية فقد شاعت لدى المؤلف إلى حد الولع بها ولن نحصيها توخياً للإيجاز وانما يكفينا بضعة شواهد للتمثيل :

١ - (وانصاف ومعدلتش بغايتي بودكه آيازنا مي غلامي محمود سيرت داشت) والتورية في (محمود) المعني القريب هو معناه العربي والبعيد (محمود الغزنوي) والذي أُشيع عنه ولعه بغلام له اسمه (آياز) .

٢ - (بشيرين زباني خسروپرست هراستادي فرهادي شد) هناتوية وتضمين وإيغال فكلمة (شيرين) لاتعني (شيرين) محبوبة خسرو برويز وفرهاد وإنما (شيرين زباني) هي حلاوه اللسان و(خسروپرست) أي المحب للملك وأتي (بفرهاد) للإيغال في التورية ، والإيغال أيضا قسم من أقسام الإطناب وقد سبق الإِشارة إلى بعضه .

٣ - (بمرضي كه عرض جوهر بدن او شد فرمان يافت) عرض لها معنيان

---

(١) النص الفارسي بالترتيب صفحات : ٣ ، ٤ ، ١٦ ، ١٩ ، ٢٢ - ٢٣ ، ٥١ ، ٥٣ ، ٥٨ ، ٩١ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ٢٥١ ، ٣١٦

(٢) النص الفارسي ص ١٠٢

بعيد هو العارض . . وقريب غير مراد هو النقيض للجوهر .

٤ - (سردر معرض خطر نهاد ونيشتر فرو برد) (معرض خطر) ليس المراد منها معناها القريب وإنما البعيد وهو (رأس السلطان) وكلمة (سر) تعني رأس الإبرة التي وضعها الحكيم لإخراج دمل ظهر برأس السلطان كيقباد .

٥ - (امير مبارز الدين فرمود كه بزم نهادند ومطربان بر فروداشت نوبت دولت كفار پيشروي دلپذير برداشتند ودلاوري پهلوانان جنگر ابآهنگي هرچه خوبتر بقول راست باسماع مير سانيدند) .

(پيشروي) المعني القريب غير المراد هو (الانتصار) والمراد البعيد هو (المقدمه الموسيقية) وكذلك (راست) تعني الصحيح غير المراد ومقام الرست المراد .

٦ - (وفوجي از دليران تهتمن تن چون بيژن دراں چاه فرو برند) (تهتمن) أحد القاب البطل رستم الأسطوري وهو غير المراد أما المراد فالمعني البعيد وهو (القوي) وقد أوغل في التورية بإيراده (بيژن) صاحب (منيژه)

مما أوردناه من دراسة أسلوب المؤلف نخرج بهذه النتائج :

١ - لم يكن المؤلف يقصد إلى التعقيد والتكلف في الصناعة كما أتهمه د . صفا في مقدمة الدراسة لأن المعني كان ظاهراً عنده وكما سوف نري في ترجمة كتابه رغم أننا نحونا في هذه الترجمة إلى الترجمة الملتزمة بالنص لفظا ومعني .

٢ - إن إدخال أي نص تاريخي ضمن النثر المصنوع أو المصنَّع مهما تعمد مؤلفه من إيراد الصناعات اللفظية فيما نري أمر يتنافى مع القص والرواية والتاريخ لأن التاريخ لايمكن أن تروي وقائعه وتقص أحداثه بغير البساطة في الأسلوب والسلاسة ولأن المؤرخ يحكي أموراً وقعت وأحداثا

جرت بهدف الوعظ والحكمة أو لمجرد الإثبات والتقييد فلابد أن يكون واضحا في تحريره بسيطا في تأليفه ، والتاريخ أولا علم لايقصد منه إظهار الفضل والبراعة في التأليف كما هو مقصود في علوم الأدب والبلاغة واللغة . ولذلك فمهما تصنع المؤرخ أو تكلف فليس ببالغ مرتبة الأديب وحسبه أن تكون مقدمة كتابه مصنوعة أو مقدمات فصوله وبقية أسلوبه بسيط سلس سهل والشاهد على هذا كتاب (جها نكشا) الذي يعتبر أنموذج التاريخ المصنع فأسلوبه الأغلب هو السهل السلس لا يتعمد مؤلفه التصنُّع إلا حين الوصف أو المدح .

٣ - كان المؤلف فيما نرى موفقاً إلى حد كبير في الجمع بين السهولة والسلاسة من ناحية وجمال الأسلوب وتأنقه من ناحية أخري وإيراد ما شاء إيراده من الأحداث والروايات والوقائع التاريخية من ناحية ثالثة دون أن يطغى عنصر من هذه العناصر على غيره ولذا فقد كان كتابه منهلا لطالب الأدب والبلاغة ومنبعاً لمن ينشد الحقائق التاريخية سواءً بسواء .

دراسة الموضوع :

موضوع الكتاب هو تاريخ لسلاجقة الروم خاصة الأواخر منهم ، وقد اعتذر المؤلف عن تأريخه لأحداث حكم أوائلهم بقلة مصادره وعدم وثوقه بالروايات المأثورة عنهم فبدأ بقص تاريخ غياث الدين كيخسرو حتى نهاية حكم السلاجقة تقريباً .

واذا طاب لنا إيجاز تاريخ سلاجقة الروم بوجه عام فلابد أن نركز على ما أوردته المصادر العربية على أساس أن النظرة غير العربية قد أوفاها المؤلف حقها ، ومن النظرتين العربية والسلجوقية تتضح روية أشمل وأعم .

لم يكن مقصد السلاجقة العظام الأوائل من عبورهم جيحون الحد الفاصل بين موطنهم بالتركستان ومراعي خراسان الخصبة الفسيحة هو مجرد البقاء بخراسان والاكتفاء بها وإنما رنت أبصارهم إلى الاستيلاء على غرب آسيا والوصول إلى حاضرة المسلمين إذ ذاك والتمكن منهم عن طريق

السيطرة على بغداد كما فعل اليويهيون من قبلهم ، وقد حثهم إلى هذا الغرض عوامل دينية وسياسية واقتصادية برزت بعد أن سقطت إيران وماوراء النهر تحت أيديهم ، والدليل على هذا أن طغرل الأول وأتباعه حينما كانوا تحت حماية الغزنويين كان أتباع أرسلان ابن سلجوق الذين عرفوا بالغز العراقيين يسيحون في العراق وآذر بايجان وأرمنية وقد ذكر من قوادهم الأوائل قزل وككتاش ، وتمكنت قبيلة تركية من عبور الدانوب والاستقرار ببلغاريا . ولما تمكن طغرل وبنوه من إيران جرت عادتهم على أن يدفعوا بقبائل الغز والقارلوق والقبجاق والقالاج إلى مجاهدة البيزنطيين لاضعاف دولتهم وتجنيب المسلمين غاراتهم وضمان الحصول على الأرض والغذاء لقبائلهم والأهم من ذلك كله حتي لا يكونوا مثار قلاقل واصطراب وخطراً على دولة السلاجقة الناشئة بفارس . وقد أشار إلى هذا النهج المؤرخون العرب كابن الجوزي وابن الأثير يقول الأول على لسان ابراهيم بن ينال حاكم إقليم آذربايجان من قبل طغرل أخيه لأمه لما جاءته الغز فمضى بهم إلى قطلمش بن اسرائيل بن سلجوق لجهاد الروم (أتى كثير من الغز من ما وراء النهر إلى ينال فقال لهم نضيق عن مقامكم عندنا والوجه أن نمضى إلى غزاة الروم ونجاهد فساروا وسار بعدهم) [1] .

ويفصل ابن الأثير مقاله ابن الجوزي قائلا على لسان ابن ينال (بلادي تضيق عن مقامكم والقيام بما تحتاجون إليه والرأي أن تمضوا إلى غزو الروم وتجاهدوا في سبيل الله وأنا سائر على أثركم ومساعد لكم على أمركم ففعلوا وساروا بين يديه وتبعهم فوصلوا إلى ملا زكرد وأرزن الروم وقاليقلا وبلغوا طرابزون) فهزموا جيشا للروم وأسروا ملك الأبخاز وبقي بينهم وبين القسطنطينية مسيرة خمسة عشر يوماً وحملت غنائمهم على عشرة آلاف عجلة[2] .

---

(١) المنتظم في تاريخ الملوك والأمم جـ ٨ ص ١٣٧ (حيدر آباد ١٣٥٩ هـ)

(٢) الكامل في التاريخ لابن الاثير (مصر ١٣٠١ هـ) جـ ٩ ص ٢٢٦ - ٢٢٧ ، ٢٤٩
والأبخاز أو أيبيريا عند البيزنطيين اسم ناحية من جبل القبق (جبال القوقاز) وتقع شمال أرمنية الكبرى وتؤلف شطراً من جورجيا الحالية في روسيا وهي بين =

ولم يكن ابن ينال هو القائد الوحيد الذي يغزى تحت قيادتة بل سار طغرل على حد ذكر صاحب الكامل إلى أرمينة وملازكرد وبلغ أرزن الروم غازيا عام ٤٤٦ هـ إلا إن قطلمش بن إسرائيل كان أكثر القواد دأباً وتوفيقا في فتوحات الغرب فقد دخل الأناضول وفتح بقول القلقشندي قونية وأقصرا وأعمالهما ثم وقعت الفتنه بينه وبين ألب أرسلان خليف طغرل وقتل قطلمش في صراعه معه سنة (٤٥٦ هـ) [1] .

ولم تسكن غارات السلاجقة على الأناضول بقتل قطلمش إذ أن ابنه سليمان واصل سياسة أبيه خاصة بعد أن انفتح الطريق أمامه وأمام غيره من الغزاه بزوال أرمنية على يد ألب أرسلان (٤٥٦ هـ) وهزيمة البيزنطيين المشهورة على يده وأسره للامبراطور البيزنطي رومانوس في مانزكرت (٤٦٣ هـ / ١٠٧١ م) وقد ذكر ابن الأثير والقلقشندي وابن العديم قواداً من التركمان كانوا يغزون الأناضول إلا أن سليمان كان أبرزهم وأشدهم نشاطا وهم طغتكين وصندق ومماني [2] .

وكانت أمور بيزنطية بعد هزيمة ما نزكت (ملا ذكرد) المرة رهن الفوضى فدارت فيها رحى الحرب الأهلية بين قادتها وقد اهتبل سليمان هذه الفرصة تواتيه مساعدات قواده مثل أرتق وطوطاخ فاستولى على نيقية وأعلنها عاصمة له (٤٦٧ هـ) ثم ضم اليها قيزيقية ونيقوميدية وخلقدونية والبسفور (٤٧٠ هـ) وهزم جيشا بيزنطيا حاول استرداد نيقية (٤٧٣ هـ) بل حاول

= البحر الأسود وبحر قزوين وشرق مدينه طرابيزون وقد سكن الأبخاز وهي جبال صعبة المسالك أمة الكرج ثم استولوا على تفليس من المسلمين (٥١٥ هـ) حتى أخرجهم منها جلال الدين الخوارزمي (٦٢١ هـ) (معجم البلدان لياقوت الحموي طبعة ليبزج ١ / ٤٧٨ ، ٨٥٨) .

(١) صبح الاعشى ٥ / ٣٥٨ (مصر ١٣٣٥ هـ / ١٩١٧ م) والبداية والنهاية لابن كثير (بيروت ١٩٧٧) جـ ١١ ص ٩١ .

(٢) الكامل ١٠ /١١ ، ١٥ ، ١٧ وصبح الأعشى ٥ / ٣٥٨ وزبده الحلب في تاريخ حلب تحقيق سامي الدهان (دمشق ١٣٧٠ هـ / ١٩٥١ م) جـ ٢ صـ ٩ - ١٨) .

مهاجمة القسطنطينية[١] . وكان حاكم أرمينه الصغرى الذي يسميه ابن الأثير بالفردوس واسمه (فلاريتوس) وجبريل حاكم ملطية يهددان خط الرجعة إلى الشرق من الأناضول مما جعل سليمان يعود غازيا إلى الشرق فضم أدنة وطرسوس وماسيا وقيلقية وسائر ممتلكات فلاريتوس ، ثم دعاه أهل أنطاكية سراً ليتحاموا قتاله وملكوه إياها[٢] . غير أن تدخل سليمان في مشاكل الشام ولقائه بغير تعبئه لتتش صاحب دمشق قد أدى إلى قتله (٤٧٨ هـ) وبقاء الأناضول فترة بلا حاكم[٣] . وقد أسنح موت سليمان المجال لظهور قواد آخرين من التراكمة يجاهد كل منهم بهدف استقطاع جزء له من الأناضول وتأسيس إمارة خاصة به ، وأشهر هؤلاد القواد أحمد الغازي بن الدانشمند الذي هاجم جبريل حاكم ملطية وأسس أمارته حول قيصرية وسيواس وأماسيا على سينوب ، ومنكوجكا الذي استحوذ على أزمير وكون اسطولاً هدد به العاصمة البيزنطية نفسها ومكنه من الجزر الكبرى القريبة من شاطئ آسيا الصغرى وسالتوك (سلدق) الذي تأمر في أرزن الروم ، وكانوا جميعا يجاهدون البيزنطيين تحت حماية السلاجقة ولما قامت دولة سلاجقة الروم اندثرت إمارات هؤلاء جميعا[٤] .

ولما مات سليمان عاد ابنه قلج أرسلان إلى عرشه في نيقية فضبط ممتلكات أبيه وأعاد نباء العاصمة وأخرج الروم الذين أرادوا الاستقرار على شواطئ مرمرة واتجه إلى ملطية (٤٨٩ هـ) ليستولي عليها لكنه عجل بالعودة عند سماعه بأنباء قدوم حملة الصليبيين الأولى إلى عاصمته[٥] .

وكان قدوم الصليبيين إلى الأناضول فاتحة شرور على قلج وغيره من الأمراء الترك ، لأن تحالف قلج مع الغازي أحمد وحسن بك أمير قبادوقيا لم

---

(١) الروم في سياستهم وحضارتهم ودينهم وثقافتهم وصلاتهم بالعرب . أسد رستم (لبنان ١٩٥٦) جـ ١ ص ١١٢ - ١١٤

(٢) الكامل جـ ١٠ ص ٥٦

(٣) المصدر السابق ١٠ / ٦٠

(٤) مقدمة قيام الدولة العثمانية ص (ق)

(5) The Cambridge history of Islam (Lodon 1970) p.237-8 .

يجد فتيلا أمام جموع الفرنجة وحصرهم لنيقية ، فسقطت في أيديهم ، ثم تجمعت قواتهم ولاقوا الأتراك عند ضوروليوم (إسكي شهر) وهزموهم (٤٩٠ هـ) فاضطر قلج إلى الانسحاب . ثم واصل الصليبيون زحفهم شرقا فاستولوا على قونية وقيصرية حتى وصلوا مرعش وبدأوا غزو الشام . فقد قلج صوابه أمام هذه الضربات المتلاحقة ولم يجد بابا غير أن يحارب حليفه أحمد الدانشمندي فاستولى على ملطية منه (٤٨٩٦ هـ) وحصر فتوحاته على حساب المسلمين بغرب الأناضول ، وإن هاجم الفرنجة عامي ٤٩٥ ، ٤٩٩ هـ ، لكنه لم يفد منهم بكبير طائل ، واستولى على الموصل من صاحبها التركي (جاولي) فألب عليه سائر الأتراك ورضوان صاحب دمشق الذي تمكن من هزيمة قلج وطرده من الموصل (٥٠٠ هـ)[1] .

وتلا موت قلج أرسلان عهد سادفيه تصارع الأمراء الأتراك بعضهم مع بعض من ناحية ومع الروم البيزنطيين من ناحية أخرى فقد بدأ شاهنشاه بن قلج الأول غزوه للروم فهاجم فيلادلفيا (٥٠٤ هـ) وحاصر نيقية لاستردادها (٥٠٥ هـ) وتوغل في أرض الروم فتصدى له كومنين الامبراطور (٥٠٩ هـ) فرأى التقهقر ، لكنه بوغت بهجوم شديد فاضطر إلى مهادنة الروم والتنازل عن جزء من أرمنية وسائر طرابزون وغيرهما ودب الصراع بينه وبين غازي ابن كمشتكين (٤٩٩ - ٥٢٩ هـ) حين مد يد العون إلى زوج ابنته مسعود بن قلج أخيه بهدف توليه الحكم وانتهى الأمر بفقدان شاهنشاه قونية . واستغل الروم هذا الصراع لصالحهم خاصة وأنه لم ينته فبدأ هذه المرة بين مسعود وحميه من ناحية وطغرل أرسلان بن قلج صاحب ملطية وتوابعها من ناحية ، فلجأ الأخير إلى الروم ، وتمرد عرب أخو مسعود عليه هو الآخر (٥٢٠ هـ) فاشتعلت الحرب بينهما ، فتقدم الروم واحتلوا قسطموني . ورأى ابن كمشتكين الدانشمندي انشغال الروم بقسطموني فاحتل شواطئ البحر الأسود وقليقية التي كانت بيد الفرنج وتقدم مسعود في الأناضول الغربية . بعد موت الغازي الدانشمندي (٥٢٩ هـ) تحالف ابنه (ملك محمد) مع

(١) الروم : أسد رستم ص ١٢٦ - ٦ - The Cambridge history of Islam , P. 288

مسعوذ ومد الاثنان حدودهما على حساب يوحنا امبراطور الروم والذي فشل في حصار حاضرة الدانشمنديين (نيكسار) (٥٣٤ هـ) وقد استثمر مسعود هذا الفشل فتقدم حتى أنطاليا[١] .

ولم ينته صراع السلاجقة والتراكمة بموت ملك محمد (٥٣٦ هـ) بل ظل ناشباً وجَرَّ إلى سقوط بعض ملك بني دانشمند إلى السلاجقة وليت اكتفى مسعود بحربه التركمان الدانشمنديين وحدهم بل إنه اتجه إلى الشرق مستغلاً نزاع أتابكة الموصل وبني أرتق بينما كان التركمان يتقدمون في الأناضول الغربية مما شجع الروم على انتهاز الفرصة فطردوا التركمان من الغرب وساروا إلى قونية وأنزلوا هزيمة شديدة بالسلاجقة في (آق شهر) ودخلوا قونية ومثلوا بأهلها فحمل ذلك مسعوداً إلى ترك قتال المسلمين وواجه الروم وأجبرهم على الانسحاب (٥٤٠ هـ) . لكن حملة صليبية جديدة يقودها كونراد ملك ألمانيا ولويس التاسع ملك فرنسا قدظهرت فتعاهد السلاجقة والروم لدرء هذا الخطر القادم[٢] . وكانت هذه المعاهدة فترة استقرار لحكم مسعود إذ باشر الجهاد وأنهى محنةالسلاجقة فقد نابذ الفرنجة في سوريا واستولى على مرعش وعينتاب ورعبان ودلوك (٥٤٤ - ٥٤٥ هـ) ودخل بمساعدة ياغي باسان الدانشمندي في سيواس وملطية وضم قليقية واستولى على عدة مدن بأرمينية (٥٤٩ هـ) غير انه لم يكمل خطته بسبب نشوب قلاقل في بلاده فعاد ومات (٥٥١ هـ) بعد أنه رد أملاك السلاجقة إلى ما كنت عليه قبل الغزو الصليبي .

قلج أرسلان الثاني (٥٥١ - ٥٨٨ هـ) وحروبه المسلمين والروم :

في عهد أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان نشبت الحروب بين السلاجقة والتركمان ونور الدين زنكي وصلاح الدين الأيوبي واتسعت دائرة هذا الصراع عن ذي قبل ، وكان مثار هذه الحروب أسباباً بسيطة أو لأطماع كان

---

(1) the Combridge history of Islam, pp. 239 - 240 .

(2) The Cambridge history of Islam p. 241.

يمكن الإغضاء عنها . من ذلك ما حدث عام (٥٦٠ هـ) ففي هذه السنة ، يقول ابن الأثير ،كانت الفتنه بين الملك قلج أرسلان صاحب قونية ومايجاورها من بلد الروم وبين ياغي أرسلان بن دانشمند صاحب ملطية وما يجاورها من بلد الروم ، وجرى بينهما حرب شديدة وسببها أن قلج أرسلان تزوج ابنة الملك صلتق (سالتوك) بن على ابن أبي القاسم فسيرت الزوجة إلى قلج أرسلان مع جهاز كثير لا يعلم قدره ، وأغار ياغي صاحب ملطية عليه وأخذ العروس وما معها وأراد أن يزوجها بابن أخيه ذي النون ابن محمد بن الدانشمند ، فأمرها بالردة عن الإسلام فزوجها من ابن أخيه ، فجمع قلج أرسلان عسكره وسار إلى ابن دانشمند فالتقيا واقتتلا فانهزم قلج أرسلان والتجأ إلى ملك الروم واستنصره فأرسل اليه جيشاً كثيرا ، فمات ياغي أرسلان بن دانشمند في تلك الأيام وملك قلج أرسلان بعض بلاده واصطلح هو والملك ابراهيم بن محمد بن الدانشمند لأنه ملك البلاد بعد عمه ياغي أرسلان واستولى ذو النون ابن محمد بن دانشمند على مدينه قيسارية وملك شاهان شاه بن مسعود أخو قلج أرسلان على مدينه أنكورية (أنقرة) واستقرت القواعد بينهم واتفقوا[1] .

ومن البدهي أن يستفيد الروم من هذه الصراعات بين السلاجقة والتركمان ، ومن البدهي أيضا أن يتحرك الأرمن لضرب السلاجقة وسط هذه الحروب ، فقد دعا ما نويل الامبراطور الرومي نور الدين زنكي صاحب الشام لمعاهدة ضد قلج للاستفادة ، كما هاجم الأرمن السلاجقة مما جعل قلج أرسلان يهادن الروم أولاً قبل هزيمته لياغي باسان . وكانت هذه الحروب لصالح زنكي أيضا إذ أنه اشترط على قلج وغيره لقاء تخليه عن معاهدته مع الروم أن يعترف الجميع بسيادته وإن عادت السيطرة السلجوقية إلى ما كانت عليه من سقاريا إلى الفرات .

وكان المسلمون ينظرون إلى حكام المسلمين من السلاجقة والأتراك وآل زنكي على أنهم حماتهم ضد البيزنطين والأرمن والصليبيين وينشدون المصالحة بينهم لدرء الأخطار التي تحيق بهم ، ويذكر ابن الأثير للصالح بن رزيك الوزير

(١) الكامل ١١ / ١٤٢ وقد ذكر ابن الأثير (ياغي باسان) على أنه (ياغي أرسلان)

المصري قصيدة أرسل بها إلى قلج أرسلان ينهاه عن التباغض والتحارب مع نور الدين زنكي وينصح حكام المسلمين بنصرة الدين ونبذ الصراعات الشخصية ومواجهة العدو المشترك :

نقول ولكن أين من يتفهـــــم ويعلم وجه الرأي والرأي مبهـــم ؟
وما كل من قاسى الأمور وساسهـا يوفق للأمر الذي هو أحــــزم
وما أحد في الملك يبقى مخلــداً وما أحد مما قضى الله يسلــم
أمن بعد ما ذاق العدا طعم حربكم بفيهم وكانت وهي صاب وعلقــم
رجعتم إلى حكم التنافس بينكــم وفيكم مـن الشحناء نار تضــرم
أما عندكم من يتقي الله وحــده أما في رعاياكم من الناس مسلم ؟
تعالوا لعل الله ينصـر دينـــه اذا ما نصرنا الدين نحن وأنتُــمُ
وننهض نحو الكافرين بعزمــة بأمثالها تحوى البلاد وتقســم

وابن الأثيريروي هذا الشعر على أنه لقلج أرسلان بناء على رأى بعض العلماء ثم عاد وأجاز أن يكون التنافس بين الحاكمين أيام الصالح فكتب الأبيات ثم امتدَّ حتى عام (٥٦٠ هـ) .

غير أنه قصيده ابن رزيك أو غيرها لم تكن لتنهي حكام المسلمين عن التنازع وحسم الخلاف بالسلم دون الحرب ليتفرغ كل منهم إلى أعمال أجل ، فما أن انصرفت ثماني سنوات حتى قصد نور الدين زنكي بلاد قلج أرسلان وهي ملطية وسيواس وأقصرا وغيرها ملازماً على حربه وأخذ بلاده منه ، وكان سبب ذلك أن ذا النون بن دانشمند صاحب ملطية وسيواس قصده قلج أرسلان وأخذ بلاده وأخرجه عنها طريداً فريداً ، فسار إلى نور الدين مستجيراً به ومتلجئاً إليه ، فأكرم نزله وأحسن إليه وحمل له مايليق أن يحمل إلى الملوك ووعده النصر والسعي في رد ملكه اليه ثم أنه أرسل إلى قلج أرسلان يتشفع في إعادة ملكه فلم يجبه إلى ذلك فسار نور الدين إليه فابتدأ بكيسون وبهنسى ومرعش ومرزبان فملكها وما بينها ، وكان ملكه لمرعش أوائل ذي القعدة والباقي بعدها ، فلما ملكها سير طائفة من عسكره إلى سيواس فملكوها . وكان قلج أرسلان لما سار نور الدين إلى بلاده قد سار من طرفها

التي تلي الشام إلى وسطها وراسل نور الدين يستعطفه ويسأله الصلح فتوقف نور الدين عن قصده رجاء أن ينصلح الأمر بغير حرب ، فأتاه عن الفرنج ما أزعجه فأجابه إلى الصلح وشرط عليه أن ينجده بعساكر إلى الغزاة وقال له أنت مجاور الروم ولاتغزوهم وبيدك قطعة كبيرة من بلاد الإسلام ، ولا بد من الغزاة معي ، فأجابه إلى ذلك وتبقى سيواس على حاكمها بيد نواب نور الدين وهي لذي النون ، وعاد قلج أرسلان وملكها وهي بيد أولاده إلى الآن سنة نيف وعشرين وستمائة ، ولما كان نور الدين في هذه السفرة جاءه رسوله كمال الدين أبو الفضل الشهر زوري من بغداد ومعه منشور من الخليفة بالموصل والجزيرة واربل وخلاط والشام وبلاد قلج أرسلان وديار مصر لما عليه من جهاد الكفار وفتح بلادهم (١) .

وان استراح قلج أرسلان من جهة نور الدين محمود زنكي لموته (٥٦٩ هـ) لكنه لم يهدأ له قرار من جانب الروم ففي هذه السنة (عبر ملك الروم خليج القسطنطينية وقصد بلاد قلج أرسلان فجري بينهما حرب استظهر فيها المسلمون ، فلما رأي ملك الروم عجزه عاد إلى بلده وقد قتل من عسكره وأسر جماعة كثيره) (٢) .

بيد أن قلج أرسلان قدر له أن يستظهر بعد هذا النصر على قوى الروم البيزنطيين عام (٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م) في معركة فاصلة ، وكان القلق قد سيطر على مانويل كومنين الامبراطور البيزنطي لما رأى قوة قلج وجمعه للتركمان ليهاجم بهم تخومه وأوديته وقراه ، فعمد إلى القوة واتجه بنفسه إلى قونية ، فدخل ممراً جبليا ضيقاً بعد حصن (ميريو كيفالون)(٣) ، وما أن تم

(١) الكامل ١١/ ١٧٥ - ١٧٧ . (٢) المصدر السابق ١١ / ١٨٥ .

(٣) ميريوكيفالون حصن قديم شيده الامبراطور البيزنطي جستنيان (٥٢٧ - ٥٦٥ م) على الطريق العسكري البيزنطي الرئيسي في آسيا الصغري ، ويقع هذا الحصن في شمال غرب مدينه قونية وشرق مدينة كوماسوبليون في فريجيا وفي غرب حصن ستافروس على نفس الطريق الحربي . وتعني الكلمة (ألف رأس) لأن آلافا من البيزنطيين هلكوا عنده أكثر من مره (Ramsay: the historical geogaphy of Asia Minor, p . 80, 248 (Amsterdam, 1962)

دخول جيشه في هذا المضيق حتى أنقض الترك عليه من أعالي الجبال فأبادوا أغلب جيشه ولم يطق صبراً فطلب النجاة بشق النفس . ويعد هذا النصر الثاني بعد ما نذكرت إذ قضى على أماني الروم باستعادة الأناضول فأصبح يطلق عليه في المصادر الغربية (تركيا) منذ ذلك الوقت ، وفتح قلج أرسلان بفضله كوتاهيه وإسكي شهر وحاصر دنيزلي وأنطاليا وأرسل قواته الفاتحه حتي البحر في غربي الأناضول ، ولم يرد ذكر هذا النصر في الكامل وغيره من المصادر العربية[١] .

وقد أصاب قلج أرسلان الطمع في بلاد المسلمين بعد هذا النصر فوقعت الحرب بينه وبين صلاح الدين الأيوبي الذي كان يسد ثلمة من بلاد المسلمين أمام تقدم الصليبيين ، ففي عام (٥٧٥ هـ) كان الحرب بين عسكر صلاح الدين يوسف بن أيوب ومقدمهم ابن أخيه تقي الدين عمر بن شاهنشاه بن أيوب وعسكر الملك قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان صاحب بلاد قونية وأقصرا وسببها أن نور الدين محمود زنكي بن آقسنقر رحمة الله كان قد أخذ قديماً من قلج أرسلان حصن رعبان وكان بيد شمس الدين بن المقدم إلى الآن فطمع فيه قلج أرسلان بسبب أن الملك الصالح بحلب بينه وبين صلاح الدين فأرسل إليه من يحصره فاجتمع عليه جمع كثير يقال كانوا عشرين ألفاً ، فأرسل إليهم صلاح الدين تقي الدين في ألف فارس فواقعهم وقاتلهم وهزمهم وأصلح حال تلك الولاية وعاد إلى صلاح الدين ولم يحضر تخريب حصن الأحزان (وكان بيد الفرنج) فكان يفخر ويقول هزمت بألف مقاتل عشرين ألفا[٢] . وطوي قلج أرسلان الخوف والرهبة من صلاح الدين لهذه الهزيمة وقد واتته الظروف بسبب لمحاربته في العام التالي (٥٧٦ هـ) فلم

---

(1) the Cambridge history of Islam ,7 / 243-5.

(٢) الكامل ١١ / ٢٠٧ والبداية والنهاية لابن كثير ١٢ / ٣٠٢ - ٣٠٣ وذكر ابن كثير أن جند تقي الدين كانوا ثمانمائة فارس أغاربهم على الحصن مباغتة . أما عن تخريب صلاح الدين لحصن الأحزان فانظر الكامل ١١ / ٢٠٥ ومابعدها وابن كثير ١٢ / ٣٠٣ ومابعدها .

يستطع فقد تزوج بابنة قلج أرسلان نور الدين محمد بن قرا أرسلان بن داود صاحب حصن كيفا وغيره من ديار بكر (وبقيت عنده مدة ثم أنه أحب مغنية فتزوجها ومال إليها وحكمت في بلاده وخزائنه وأعرض عن ابنه قلج أرسلان وتركها نسيا منسياً فبلغ أباها الخبر فغرم على قصد نور الدين وأخذ بلاده ، فأرسل نور الدين إلي صلاح الدين يستجيره ويسأله كف يد قلج أرسلان عنه فأرسل صلاح الدين إلى قلج أرسلان في هذا المعنى ، فأعاد والجواب إنني كنت قد سلمت إلى نور الدين عدة حصون تجاور بلاده لما تزوج ابنتي ، فحيث آل الأمر معه إلى ما يعلمه فأنا أريد أن يعيد إلي ما أخذه مني وترددت الرسل بينهما فلم يستقر حال فيهما ، فهادن صلاح الدين الفرنج وسار في عساكره وكان الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين محمود بها فتركها ذات اليسار وسار على تل باشر إلى رعبان ، فأتاه بها نور الدين محمد وأقام عنده فلما سمع قلج أرسلان بقربه منه أرسل اليه أكبرأمير عنده ويقول له إن هذا الرجل فعل مع ابنتي كذا ولابد من قصد بلاده وتعريفه محل نفسه . فلما وصل الرسول واجتمع بصلاح الدين وأدى الرسالة امتعض صلاح الدين لذلك واغتاظ وقال للرسول : قل لصاحبك والله الذي لا إله الا هو لئن لم يرجع لأسيرن إلى ملطية وبيني وبينها يومان ولا أنزل عن فرسي إلا في البلد ثم أقصد جميع بلاده وآخذها منه . فرأى الرسول أمراً شديدا فقام من عنده وكان قد رأى العسكر وما هو عليه من القوة والتجمل وكثرة السلاح والدواب وغير ذلك ليس عنده ما يقاربه فعلم أنه إن قصدهم أخذ بلادهم فأرسل إليه من الغد أن يجتمع به فأحضره فقال له : أريد أن أقول شيئا من عندي ليس رسالة عن صاحبي وأحب أن تنصفني فقال له قل . قال : يامولانا ما هو قبيح بمثلك وأنت من أعظم السلاطين وأكبرهم شأناً أن تسمع الناس عنك أنك صالحت الفرنج وتركت الغزو ومصالح المملكة وأعرضت عن كل ما فيه صلاح لك ولرعيتك وللمسلمين عامة وجمعت العساكر من أطراف البلاد البعيدة والقريبة وسرت وخسرت أنت وعساكرك الأموال العظيمة لأجل قحبة مغنية ما يكون عذرك عند الله تعالى ثم عند الخليفة وملوك الاسلام وكافة العالم وأحسب أن أحداً مايواجهك بهذا أما يعلمون أن الأمر هكذا ؟ ثم احسب أن قلج

أرسلان مات وهذه ابنته قد أرسلتني اليك تستجيرك وتسألك أن تنصفها من زوجها فإن فعلت فهو الظن بك أن لاتردها . فقال والله الحق بيدك وإن الأمر لكما تقول ، ولكن هذا الرجل دخل على واستجار بي ويقبح بي تركه ، لكنك أنت اجتمع به وأصلح الحال بينكم على ماتحبون وأنا أُعينكم عليه وأقبح فعله ، ووعد من نفسه بكل جميل . فاجتمع الرسول بصاحب الحصن وتردد القول بينهم فاستقر أن صاحب الحصن يخرج المغنية عنه بعد سنة وإن كان لا يفعل ينزل صلاح الدين عن نصرته ويكون هو وقلج أرسلان عليه واصطلحوا على ذلك وعاد صلاح الدين عنه إلى الشام وعادنور الدين إلى بلاده فلما انقضت المدة أخرج نور الدين المغنية عنه فتوجهت إلى بغداد وأقامت بها إلى أن ماتت)[١] .

وقد أخطأ قلج أرسلان حين فتت بلاده بتقسيمها على أولاده في نهاية حياته ولم يدرك أن هذا سوف يجر إلى منازعة بعضهم بعضا والي طمع أعدائهم فيهم فأعطى قوينة وأعمالها لابنه غياث الدين كيخسرو وآقسراو سيواس لقطب الدين وتوقات لركن الدين سليمان وأنقرة لمحيي الدين وملطية لمعز الدين قيصر شاه والأبلستين لغيث الدين وقيصريه لنور الدين محمود وأماسيا لابن أخيه ، ثم ندم على هذه القسمة وأراد انتزاع الأعمال من أولاده فخرجوا عليه إلا ابنه صاحب قونية[٢] .

وكان هذا التقسيم والتفتيت في غير صالح المسملين عامة وصلاح الدين خاصة ، لأنه في (٥٨٦ هـ) خرج ملك الألمان من بلاده على كثرة من الجند

---

(١) الكامل ١١ / ٢٠ - ٢١١ - كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك للمقريزي نشر محمد مصطفى زيادة جـ١ القسم ١ ط ٢ ص ٩٣ وقد أوجز المقريزي ما قاله ابن الاثير بقوله (سار السلطان إلى حرب عز الدين قلج أرسلان وعاد بغير قتال) والجدير بالإشارة ان محمداً بن قرا أرسلان بقي على وفائه لابنة قلج أرسلان حتى توفي عنها فتزوج بها الخليفة الناصر لدين الله وكان اسمها (سلجوقة خاتون) ولما ماتت (٥٨٤ هـ) (وجد الخليفة عليها وجداً عظيما ظهر للناسر كلهم وبنى على قبرها تربة بالجانب الغربي والي جانب التربة رباطه المشهور بالرملة) الكامل١٢ / ١٢

(٢) صبح الأعشى ٥ / ٣٥٩

بعد أن أزعجه فتح صلاح الدين للقدس (٥٨٣ هـ) وتقدم إلى القسطنطينية فأرسل ملك الروم بهذا الخبر إلى صلاح الدين ويعده أنه لا يمكنه من العبور في بلاده ، لكنه عجز عن منعه من العبور لكثرة جموعه ، فلما عبر خليج القسطنطينية (وصاروا على أرض بلاد الإسلام وهي مملكة الملك قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن قتلمش بن سلجق فلما وصلوا إلى أوائلها ثاربهم التركمان الأوج[1] ، فمازالوا يسايرونهم ويقتلون من انفرد ويسرقون ما قدروا عليه ، وكان الزمان شتاء والبرد يكون في تلك البلاد شديدا والثلج مترا كماً فأهلكهم البرد والجوع والتركمان فقل عددهم . فلما قاربوا مدينة قونية خرج إليهم الملك قطب الدين قلج أرسلان ليمنعهم فلم يكن له بهم قوة فعاد إلى قونية وبها أبوه قد حجر ولده المذكور عليه وتفرق أولاده في بلاده وتغلب كل واحد منهم على ناحية منها . فلما عاد عنهم قطب الدين أسرعوا السير في أثره فنازلوا قونية وأرسلوا إلى قلج أرسلان هدية وقالوا له ماقصدنا بلادك ولا أردناها وأنا قصدنا البيت المقدس وطلبوا منه أن يأذن لرعيته في إخراج ما يحتاجون إليه من قوت وغيره ، فأذن في ذلك فأتاهم مايريدون فشبعوا وتزودوا وساروا ثم طلبوا من قطب الدين أن يأمر رعيته بالكف عنهم وأن يسلم إليه جماعة من أمرائه رهائن وكان يخافهم فسلم إليهم نيفا وعشرين أميرا كان يكرههم فساروا بهم ولم يمتنع اللصوص وغيرهم من قصدهم والتعرض اليهم فقبض عليهم ملك الألمان وقيدهم فمنهم من هلك في أسره ومنهم من فدى نفسه . . . وكان الملك قلج أرسلان يكاتب صلاح الدين بأخبارهم ويعده أنه يمنعهم من العبور في بلاده فلما عبروها وخلفوها أرسل يعتذر بالعجز عنهم لأن أولاده حكموا عليه وحجروا عليه وتفرقوا عنه وخرجوا عن طاعته)[2] .

---

(١) في نص الكامل (الأرج) والصحيح (الأوج) وهي تركية تعني (الحد) وهي الأنسب في موضعها هذا وتركمان الأوج أي المحافظون لحدود المملكة . وتجدر الإشارة إلى حسن علاقات قلج أرسلان بصلاح الدين فقد ساعده في حربه لمظفر الدين الكوكبري-(كتاب السلوك جـ١ / ١١٤)

(٢) الكامل ١٢ / ٢٣ - ٢٤

وذكر المقريزي أن حرباً وقعت بين ملك الألمان وقلج أرسلان الذي (وافقهم فانكسر منهم فلحق به الفرنج إلى قونية وهاجموها وأحرقوا أسوارها)[١] على غير ماأورده ابن الأثير .

الحرب الأهلية بين أولاد قلج أرسلان الثاني :

ولما دخلت سنة سبع وثمانين وخمسمائة قدم معز الدين قيصر شاه بن قلج أرسلان صاحب بلاد الروم على صلاح الدين في رمضان ، وكان سبب قدومه أن والده عز الدين قلج أرسلان فرق مملكته على أولاده وأعطى ولده هذا ملطية وأعطى ولده قطب الدين ملك شاه سيواس ، فاستولى قطب الدين على أبيه وحجر عليه وأزال حكمه وألزمه أن يأخذ ملطية من أخيه ويسلمها إليه ، فخاف معز الدين فسار إلى صلاح الدين ملتجئا إليه معتضدا به فأكرمه صلاح الدين وزوجه بابنة أخيه الملك العادل فامتنع قطب الدين من قصده وعاد معز الدين إلى ملطية في ذي القعدة .

يقول ابن الأثير : وحدثني من أثق به قال رأيت صلاح الدين وقد ركب ليودع معز الدين هذا فترجل له معز الدين وترجل صلاح الدين وودعه راجلاً ، فلما أراد الركوب عضده معز الدين وركب وسوى ثيابه علاء الدين خرمشاه ابن عز الدين صاحب الموصل ، قال فعجبت من ذلك وقلت ما تبالي يا ابن أيوب أي موتة تموت يركبك ملك سلجوقي وابن أتابك زنكي[٢] .

وكان حال قلج أرسلان قبيل موته تدعو إلى الرثاء ، فلم يكد ينقضي عام على التجاء ابنه معز الدين بصلاح الدين حتى توفي قلج أرسلان (منتصف شعبان من عام ٥٨٨ هـ) بمدينة قونية وكانت مدة حكمه نحو تسع وعشرين سنة (وكان ذاسياسة وهيبة عظيمة وعدل وافر وغزوات كثيرة إلى بلاد الروم . فلما كبر فرق بلاده على أولاده فاستضعفوه ولم يلتفتوا إليه وحجر عليه ولده قطب الدين ، وكان قلج أرسلان قد استناب في مدينة ملكه رجلاً يعرف

---

(١) كتاب السلوك جـ١ / ١٢٠ - ١٣١

(٢) الكامل ١٢ / ٣٦ - ٣٧

باختيار الدين حسن ، فلما غلب قطب الدين على الأمر قتل حسناً ثم أخذ والده وساربه إلى قيسارية ليأخذها من أخيه الذي سلمها إليه أبوه ، فحصرها مدة فوجد والده قلج أرسلان فرصة فهرب ودخل قيسارية وحده فلما علم قطب الدين ذلك عاد إلى قونية وأقصرا فملكها . ولم يزل قلج أرسلان يتحول من ولد إلى ولد وكل منهم يتبرم به حتى مضى إلى ولده غياث الدين كيخسرو وصاحب مدينة برغلو ، فلما رآه فرح به وخدمه وجمع العساكر وسارهو معه إلى قونية فملكها وسار إلى أقصرا ومعه والده فحصرها فمرض والده فعاد به إلى قونية فتوفي بها ودفن هناك ، وبقي ولده غياث الدين في قونية مالكاً لها حتى أخذها منه أخوه ركن الدين سليمان على ما نذكره إن شاء الله تعالى) .

ويعدل ابن الاثير في هذه الرواية فيقول (وقد حدثني بعض من أثق إليه من أهل العلم بما يحكيه وقد وصل تلك البلاد بغير هذا ونحن نذكره ، قال إن قلج أرسلان قسم بلاده بين أولاده في حياته . . . ثم إنه ندم على ذلك وأراد أن يجمع الجميع لولده الأكبر قطب الدين وخطب له ابنة صلاح الدين يوسف صاحب مصر والشام ليقوى به ، فلما سمع باقي أولاده بذلك امتنعوا عليه وخرجوا عن طاعته وزال حكمه عنهم فسار يتردد بينهم على سبيل الزيارة فيقيم عند كل واحد منهم مدة وينتقل إلى الآخر ثم أنه مضى إلى ولده كيخسرو صاحب قونية على عادته فخرج إليه ولقيه وقبل الأرض بين يديه وسلم قونية إليه وتصرف عن أمره ، فقال لكيخسرو : أريد أسير إلى ولدي الملعون محمود وهو صاحب قيسارية وتجئ أنت معي لأخذها منه ، فتجهز وسار معه وحصر محموداً بقيسارية فمرض قلج أرسلان وتوفي بها فعاد كيخسرو وبقي كل واحد من الاولاد على البلد التي بيده . وكان قطب الدين صاحب أقصرا وسيواس إذا أراد أن يسير من إحدى المدينتين إلى الأخرى يجعل طريقه على قيسارية وبها أخوه نور الدين محمود وليست على طريقه إنما كان يقصدها ليظهر المودة لأخيه والمحبة له وفي نفسه الغدر فكان أخوه محمود يقصده ويجتمع به ففي بعض المرات نزل بظاهر البلد على عادته وحضر أخوه محمود عنده غير محتاط فقتله قطب الدين وألقى رأسه إلى أصحابه وأراد أخذ البلد

فامتنع من به من أصحاب أخيه عليه ثم إنهم سلموه إليه على قاعده استمرت بينهم . وكان عند محمود أمير كبير وكان يحذره من أخيه قطب الدين ويخوفه فلم يصغ إليه وكان جواداً كثير الخير والتقدم في الدولة عند نور الدين ، فلما قتل قطب الدين أخاه قتل حسناً معه وألقاه على الطريق فجاء كلب يأكل من لحمه فثار الناس وقالوا لاسمعا ولاطاعة هذا رجل مسلم وله هـهنا مدرسة وتربة وصدقات دارة وأفعال حسنه لانتركه تأكله الكلاب فأمر به فدفن في مدرسته . وبقي أولاد قلج أرسلان على حالهم ثم أن قطب الدين مرض ومات فسار أخوه ركن الدين سليمان صاحب دوقاط إلى سيواس وهي تجاوره فملكها ثم سار منها إلى قيسارية وأقصرا . ثم بقي مُدَيْدة وسار إلى قونية وبها أخوه غياث الدين فحصره بها وملكها ففارقها غياث الدين إلى الشام ثم إلى بلد الروم ، وكان من أمره ما نذكره إن شاء الله تعالى . ثم سار بعد ذلك ركن الدين إلى نكسار وأماسيا فملهكا وسار إلى ملطية سنة سبع وتسعين وخمسمائة فملكها وفارقها أخوه معز الدين إلى الملك العادل أبي بكر بن أيوب وكان هذا معز الدين تزوج ابنة للعادل فأقام عنده ، واجتمع لركن الدين ملك جميع الأخوة ماعدا أنقرة فإنها منيعة لا يوصل إليها فجعل عليها عسكراً يحصرها صيفاً وشتاء ثلاث سنين فتسملها سنة إحدى وستمائة ووضع على أخيه الذي كان بها من يقتله إذا فارقها فلما سارعنها قتل وتوفي ركن الدين في تلك الأيام ولم يسمع خبر قتل أخيه بل عاجله الله تعالى لقطع رحمه[1] .

ومد ركن الدين سليمان بن قلج أرسلان حدود بلاده إلى ما جاوز ملك أبيه وهي أرزن الروم وكانت لولد الملك ابن محمد بن صلتق وهم بيت قد ملكوا أرزن الروم مدة طويلة فلما سار إليها وقاربها خرج صاحبها إليه ثقة به ليقرر معه الصلح على قاعدة يؤثرها ركن الدين فقبض عليه واعتقله عنده وأخذ البلد وكان هذا آخر أهل بيته ملكوا[2] .

---

(١) الكامل ١٢ / ٤١ - ٤٣ وأنظر ايضا كتاب السلوك ١ / ١٣٩ - ١٤٠ الذي يوجز ماذكره ابن الأثير وكذلك البداية والنهاية ١٢ / ٣٥٢ .

(٢) الكامل ١٢ / ٧٩

أما موت ركن الدين سليمان فقد حدث سادس ذي القعدة من عام (٦٠٠ هـ) وكان موته بمرض القولنج في سبعة أيام وكان قبل مرضه بخمسة أيام قد غد بأخيه صاحب أنكورية وتسمي أيضا أنقرة وهي مدينة منيعة وكان مشاققا لركن الدين ، فحصره عدة سنين حتى ضعفت وقلت الأقوات عنده فأذعن بالتسليم على عوض يأخذه فعوضه قلعة في أطراف بلده وحلف له عليها فنزل أخوه عن مدينه أنقرة وسلمها ومعه ولدان له فوضع ركن الدين عليه من أخذه وأخذ أولاده معه فقتله ، فلم يمض غير خمسة أيام حتى أصابه القولنج فمات . واجتمع الناس بعده على ولده قلج أرسلان وكان صغيرا فبقي في الملك إلى بعض سنة إحدى وستمائة وأخذ منه على ما نذكره بعد ذاك . وكان ركن الدين شديدا على الأعداء قيماً بأمر الملك إلا إن الناس كانوا ينسبونه إلى فساد الاعتقاد . كان يقال إنه يعتقد أن مذهبه الفلاسفة وكان كل من يرمى بهذا المذهب يأوي إليه ولهذه الطائفة منه إحسان كثير إلا إنه كان عاقلا يحب سترهذا المذهب لئلا ينفر الناس عنه . حكي ابن الاثير عنه إنه كان عنده إنسان وكان يرمى بالزندقة ومذهب الفلاسفة وهو قريب منه فحضر يوما عنده فقيه فتناظرا فاظهر شيئا من اعتقاد الفلاسفة فقام الفقيه إليه ولطمه وشتمه بحضرة ركن الدين وركن الدين ساكت وخرج الفقيه فقال لركن الدين يجري على مثل هذا في حضرتك ولاتنكره فقال لوتكلمت لقتلنا جميعاً ولايمكن إظهار ماتريده أنت[١] .

ولما مات ركن الدين سليمان ملك أخوه غياث الدين كيخسرو أملاكه وسبب ذلك يقول انن الاثير أن ركن الدين كان قد أخذ ما كان لأخيه غياث الدين وهو مدينة قونية فهرب غياث الدين منه وقصد الشام إلى الملك الظاهر غازي بن صلاح الدين صاحب حلب فلم يجد عنده قبولا وقصر به ، فسار من عنده وتقلب في البلاد إلى أن وصل إلى القسطنطينية فأحسن إليه ملك الروم فأقطعه وأكرمه فأقام عنده وتزوج بابنة بعض البطارقة الكبار ، وكان لهذا البطريق قلعة من عمل القسطنطينية ، فلما ملك الفرنج القسطنطينية وقامت

(١) الكامل ١٢ / ٩١ وكتاب السلوك ١ / ١٩٦ والبداية والنهاية جـ ١٣ ص ٣٧

دولة روميه يونانية في طرابزون ونيقية (٦٠٠ هـ) هرب غياث الدين إلى حميه وهو بقلعته فأنزله عنده وقال له نشترك في هذه القلعة ونقنع بدخلها فأقام عنده فلما مات أخوه سنة ستمائة كما سبق اجتمع الأمراء على ولده وخالفهم الأتراك الأوج وهم كثير بتلك البلاد وأنف من اتباعهم وأرسل إلى غياث الدين يستدعيه إليه ليملكه البلاد فسار إليه فوصل في جمادي الأولى واجتمع به وكثر جمعه وقصد مدينه قونية ليحصرها وكان ولد ركن الدين والعساكر بها . فأخرجوا إليه طائفة من العسكر فلقوه فهزموه فبقي حيران لايدري أين يتوجه فقصد بلدة صغيرة يقال لها (أوكرم) بالقرب من قونية فقدر الله تعالى أن أهل مدينه أقصرا وثبوا على الوالي فأخرجوه منها ونادوا بشعار غياث الدين . فلما سمع اهل قونية بما فعله أهل أقصرا قالوا نحن أولى بفعل هذا لأنه كان حسن السيرة فيهم لما كان ملكهم فنادوا باسمه أيضا وأخرجوا من عندهم واستدعوه فحضر عندهم وملك المدينة وقبض ابن أخيه ومن معه وأتاه الله الملك وجمع له البلاد في ساعة واحدة فسبحان من إذا أراد أمراً هيأ أسبابه . وكان أخوه قيصر شاه الذي كان صاحب ملطية لما أخذها ركن الدين عنه سنة سبع وتسعين خرج منها وقصد الملك العادل أبا بكر بن أيوب لأنه كان زوج ابنته مستنصراً به فأمره بالمقام بمدينة الرها فأقام بها فلما سمع بملك أخيه غياث الدين سار إليه فلم يجد عنده قبولا إنما أعطاه شيئاً وأمره بمفارقة البلاد فعاد إلى الرها وأقام بها(١) .

فتوحات غياث الدين كيخسرو :

ولما استقر ملك غياث الدين سار إليه الأفضل صاحب سميساط فلقيه بمدينة قيسارية وقصده أيضا نظام الدين صاحب خرتبرت وصار معه فعظم شأنه وقوي أمره ، وكان فتحه بهدف تأمين التجارة . ذكر ابن الأثير في حوادث سنة اثنتين وستمائة أن غياث الدين كان أولاً قد تجهز إلى مدينة طرابزون وحصر صاحبها لأنه كان قد خرج عن طاعته فضيق عليه فانقطعت

(١) الكامل ١٢ / ٩٣ والبداية والنهاية ١٣ / ٤١

لذلك الطرق من بلاد الروم والروس وقفجاق وغيرها براً وبحراً ولم يخرج منهم أحد إلى بلاد غياث الدين ، فدخل بذلك ضرر عظيم على الناس لأنهم كانوا يتجرون معهم ويداخلون بلادهم ويقصدهم التجار من الشام والعراق والموصل والجزيرة وغيرها فاجتمع منهم بمدينة سيواس خلق كثير فحيث لم يتفتح الطريق تأذوا كثيرا فكان السعيد منهم من عاد إلى رأس ماله . . ولم يذكر ابن الأثير مصير هذا الحصر وسوف نعود إليه .

وقد سبقت بعض مداخلات من قبل غياث الدين كيخسرو لصالح صاحب خر تبرت في مواجهة صاحب آمد المتقوي بالملك العادل وفي طاعته والطامع في خرتبرت ، ولم تسفر مساعدة غياث الدين لحليفة أو مساعدة العادل لصاحب آمد عن شئ[1] .

أما الفتح الهام فهو استيلاؤه على مدينه أنطاليا وهي للروم على ساحل البحر الأبيض ، وسبب ذلك أنه كان حصرها قبل هذا التاريخ (ثالث شعبان ٦٠٣ هـ) وأطال المقام عليها وهدم عدة أبراج من سورها ولم يبق ألا فتحها عنوة . فأرسل من بها من الروم إلى الفرنجة الذين بجزيرة قبرس وهي قريبة منها فاستنجدوهم فوصل إليها جماعة منهم فعند ذلك يئس غياث الدين منها ورحل عنها وترك طائفة من عسكره بالقرب منها بالجبال التي بينها وبين بلاده وأمرهم بقطع الميرة عنها ، فاستمر الحال على ذلك مدة حتى ضاق بأهل البلد واشتد الأمر عليهم فطلبوا من الفرنج الخروج لدفع المسلمين عن مضايقتهم فظن الفرنج أن الروم يريدون إخراجهم من المدينة بهذا السبب لحلف بينهم فاقتتلوا فأرسل الروم إلى المسلمين وطلبوهم ليسلموا اليهم البلد فوصلوا إليهم واجتمعوا معهم على قتال الفرنج فانهزم الفرنج ودخلوا الحصن فاعتصموا به فأرسل المسلمون يطلبون غياث الدين وهو بمدينة قونية فسار إليه مجدًا في طائفة من عسكره فوصلها ثاني شعبان ، وتقرر الحال بينه وبين الروم وتسلم المدينة ثالثه وحصر الحصن الذي فيه الفرنج وتسلمه وقتل كل من كان به من الفرنج[2] .

---

(١) الكامل ١٢/٩٣ - ٩٤ والبداية والنهاية ١٣ / ٥٦ . (٢) الكامل ١٢ / ١١٧ - ١١٨

ذكرنا ان المصادر العربية لم تفصح عن علاقة السلاجقة بامبراطورية طرابزون وكانت عاصمة دولة ساحلية استطاعت أسرة كومنين بمساعدة (تامارا) ملكة جورجيا أن تقيمها على البحر الأسود إلا أن تأسيس دولة طرابزون لم يكن له تأثير كبير على مجرى الحوادث التاريخية بالأناضول قدر ما كان لتأسيس دولة نيقية وقد نشأت الدولتان نتيجة عن انتهاء الحرب الصليبية الرابعة .

وبعد أن استولى غياث الدين على أنطاليا وثبت قدمه في الداخل انقض على تيودور لاسكاريس امبراطور نيقية بهدف إجلاس اليكس أنج الثالث على عرشه كما تذكر المصادر البيزنطية أو بسبب خصومه قديمة بينهما على حد ذكر ابن البيبي . والتقى الجيشان وكان النصر حليف غياث الدين في أول الصدام وسقط غريمه من فوق جواده فمنع السلطان رجاله من قتله ، وولى الروم أدبارهم وانطلق رجال السلطان من جشعهم يجمعون الغنائم وانفض عن السلطان خاصته ورآه أحد الجنود اللاتين فاغتاله ولبس ثيابه السلطانية وعاد إلى جيشه فتشجع الجيش وكروا ثانية على السلاجقة وهزموهم [١] .

ولم يذكر ابن الأثير عمدة المصادر العربية شيئا عن هذه المعركة ولا عن قتل غياث الدين ولهذا ذهب المقريزي الذي ينقل عن ابن الأثير مذهبا يغاير ابن البيبي والمصادر البيزنطية تماماً إذ ذكر أنه قتل في أوائل سنة (٦٠٧ هـ) وهو يواقع الأرمن حلفاء الروم عند بلدة خونا من أعمال أذربايجان [٢] .

عز الدين كيكاوس الأول (٦٠٧ - ٦١٦ هـ)

تابع عز الدين سياسة أبيه في التوسع لتأمين طرق التجارة فاستولى على سينوب ميناء البحر الأسود (٦١١ هـ) وطرد ملك قبرس من أنطاليا وش حرباً على الملك الأرمني لانتقاضه على الحدود (٦١٣ هـ) . ذكر ابن

---

(١) قيام الدولة العثمانية ٥١ - ٥٢

(٢) كتاب السلوك ١ / ٢٠٧ . أشار ابن كثير إلى وفاته وقيام ولده من بعده في ١٣ / ٦٣

الأثير من أخبار هذا السلطان علاقته بحلب بينما أشار المقريزي إلى ظفره بالأشكري (لشكري عند ابن البيبي) واسترداد الفرنجة لأنطالية (ويسميها خطأ أنطاكية) ومسيره لحلب والأرمن وهذا إيجاز له تفصيل :

فَصَّلَ ابن الأثير في حوادث سنة (٦١٥ هـ) : قصد كيكاوس ولاية حلب وانهزامه (سار عز الدين كيكاوس بن كيخسرو ملك الروم إلى ولاية حلب قصدا للتغلب عليها ومعه الأفضل ابن صلاح الدين يوسف ، وسبب ذلك أنه كان بحلب رجلان فيهما شر كثير وسعاية بالناس فكانا ينقلان إلى صاحبها الملك الظاهر بن صلاح الدين عن رعيته فأوغرا صدره ، فلقي الناس منهما شدة ، فلما توفي الظاهر وولي الأمر شهاب الدين طغرل أبعدهما وغيرهما ممن يفعل فعلهما وسد هذا الباب على فاعله ولم يطرق إليه أحد من أهله . فلما رأى الرجلان كساد سوقهما لزما بيوتهما وثار بهما الناس وآذوهما وتهددوهما لما كان أسلفاه من الشر ، فخافا ففارقا حلب وقصدا كيكاوس فأطمعاه فيها وقررا في نفسه أنه متى قصدها لايثبت بين يديه وأنه يملكها ويهون عليه ملك ما بعدها . فلما عزم على ذلك أشار عليه ذوو الرأي من أصحابه وقالوا له لايتم لك هذا إلا بأن يكون معك أحد من بيت أيوب ليسهل على أهل البلاد وجندها الانقياد إليه وهذا الأفضل بن صلاح الدين هو في طاعتك ، والمصلحة أن تستصحبه معك وتقرر بينكما قاعدة فيما تفتحانه من البلاد فمتى كان معك أطاعك الناس وسهل عليك ما تريد . فأحضر الأفضل من سميساط إليه وأكرمه وحمل إليه شيئا كثيرا من الخيل والخيام والسلاح وغير ذلك .

واستقرت القواعد بينهما أن يكون مايفتحه من حلب وأعمالها للأفضل وهو في طاعة كيكاوس والخطبة له في ذلك أجمع ، ثم يقصدون ديار الجزيرة فما يفتحونه من بلاد الملك الأشرف مثل حران والرها من البلاد الجزرية تكون لكيكاوس . وجرت الأيمان على ذلك وجمعوا العساكر وساروا فملكوا قلعة رعبان فتسلمها الأفضل فمال الناس حينئذ إليهما ثم سار إلى قلعة تل باشر

وفيها صاحبها ابن بدر الدين دلدرم الياروقي فحصروه وضيقوا عليه وملكوها منه فأخذها لنفسه ولم يسلمها إلى الأفضل فاستشعر الفضل من ذلك وقال هذا أول الغدر وخاف أنه إن ملك حلب يفعل به هكذا فلا يحصل إلا أن يكون قد قلع بيته لغيره ففترت نيته وأعرض عما كان يفعله، وكذلك أيضا أهل البلاد فكانوا يظنون أن الأفضل يملكها فيسهل عليهم الأمر فلما رأوا ضد ذلك وقفوا . وأما شهاب الدين أتابك ولد الظاهر صاحب حلب فإنه ملازم قلعة حلب لاينزل منها ولايفارقها البتة وهذه كانت عادته مات الظاهر خوفا من ثائر يثور به فلما حدث هذا الأمر خاف أن يحصروه وربما سلم أهل البلد والجند المدينة إلى الأفضل لميلهم إليه فأرسل إلى الملك الأشرف ابن الملك العادل صاحب الديار الجزرية وخلاط وغيرها يستدعيه لتكون طاعتهم له ويخطبون له ويجعل السكة باسمه ويأخذ من أعمال حلب ما اختار . ولأن ولد الظاهر هو ابن أخته فأجاب إلى ذلك وسار إليهم في عساكره التي عنده وأرسل إلى الباقين يطلبهم إليه وسره ذلك للمصلحة العامة لجميعهم وأحضر إليه العرب من طيئ وغيرهم ونزل بظاهر حلب . ولما أخذ كيكاوس تل باشر كان الأشرف يشير بمعالجة حلب قبل اجتماع العساكر بها وقبل أن يحتاطوا ويتجهزوا ، فعاد عن ذلك وصار يقول الرأي أننا نقصد منبج وغيرها لئلا يبقى لهم وراء ظهورنا شئ قصداً للتمادي ومرور الزمان في لاشئ . فتوجهوا من تل باشر إلى جهة منبج وتقدم الأشرف نحوهم وسارت العرب في مقدمته ، وكان طائفة من عسكر كيكاوس نحو ألف فارس قد سبقت مقدمة له فالتقوا هم والعرب ومن معهم من العسكر الأشرفي فاقتتلوا فانهزم عسكر كيكاوس وعادوا إليه منهزمين وإكثر العرب الأسر منهم والنهب لجودة خيلهم ودبر خيل الروم . فلما وصل إليه أصحابه منهزمين لم يثبت بل ولى على أعقابه يطوي المراحل إلى بلاده خائفا يترقب فلما وصل إلى أطرافها أقام وإنما فعل هذا لأنه صبي وغر لا معرفة له بالحرب والا فالعساكر ما برحت تقع مقدماتها بعضها على بعض ، فسار

حينئذ الأشرف فملك رعبان وحصر تل باشروبها جمع من عسكر كيكاوس فقاتلوه حتى غلبوا فأخذت القلعة منهم وأطلقهم الأشرف . فلما وصلوا كيكاوس جعلهم في دار وأحرقها عليهم فهلكوا فعظم ذلك على الناس كافة واستقبحوه واستضعفوه لاجرم لم يمهله الله تعالى وعجل عقوبته للؤم قدرته وشدة عقوبته ولعدم الرحمة في قلبه ومات عقيب هذه الحادثة . وسلم الأشرف تل باشر وغيرها من بلد حلب إلى شهاب الدين أتابك صاحب حلب وكان عازماً على اتباع كيكاوس ويدخل بلاده فأتاه الخبر بوفاة أبيه الملك العادل فاقتضت المصلحة العودة إلى حلب لأن الفرنج بديار مصر ومثل ذلك السلطان العظيم اذا توفي ربما جرى خلل في البلاد لا تعرف العاقبة فيه فعاد إليها وكفى كل منهما أذى صاحبه[1] .

غير أن المقريزي قد تفرد عن ابن الأثير بإيراده ظفر كيكاوس بالأشكري ملك الروم وملك الفرنجة لأنطالية ومسير السلطان السلجوقي للأرامنة ، وإن لم يفصل فيها قليلا أو كثيراً ، ذكر أنه في سنة اثنتي عشرة وستمائة ملك الفرنج أنطالية وقتلوا من بها من المسلمين وكانت بيد الملك غياث الدين كيخسرو منذ فتحها سنة اثنتين وستمائه إلى أن أجلاه الفرنج عنها سنة سبع وستمائه ثم استردها منهم الملك الغالب عز الدين كيكاوس سنة ثلاث عشرة وستمائه بعد أن بقيت بأيدي الفرنج تلك المدة ، وفي هذه السنة أيضا سار عز الدين إلى بلاد الأرمن وحاصر قلعة جابان وهزم عندها جيوش الأرمن ورجع إلى قيصرية قبل أن يستولي على قلعة جابان ، ثم طلب الأرمن الصلح وأجابهم إليه عز الدين فأخذ في مقابل الصلح من بلاد الأرمن قلعة لؤلوة ولوزاد[2] .

---

(١) الكامل ١٢ / ١٦٠ - ١٦١ وقد أوجز المقريزي كعادته ماذكره ابن الأثير في الجزء الأول ص ٢٢٥ .

(٢) كتاب السلوك ١ / ٢١٥ - وانظر أيضا البداية والنهاية ١٣ / ٦٩

علاء الدين كيقباد (٦١٦ - ٦٣٤ هـ)

تمثل فترة سلطنه كيقباد فترة الازدهار والزهوة السلجوقية التى يتبعها الضعف والزوال لا محالة كما يذهب الشاعر العربى :

إذا تم شئ بدا نقصه توقع زوالاً إذا قيل تمّ

فقد امتدت حدود الدولة على حساب المسلمين وغيرهم ، إذ استولى لغايات تجارية على كثير من المدن الحصينة بالساحل الجنوبى للأناضول مثل أنامور وعلائية وسير جيشا إلى ميناء صو غداق على القرم وشن إغارات تأديبية على أرمينية الصغرى ، واستولى فى شرق الأناضول على أرزنجان وأرضروم وخلاط ، وجالد دولة جلال الدين خوارزم شاه فى إيران وآذربايجان وحاول الاستيلاء على حلب وشمال سوريا كما هى العادة المتبعة لدى السلاجقة من قبل لكنه ارتد حسيراً . كما حاصر طرابزون وشغل المناطق حتى أونية وأخضع ملكة جورجيا وجدد جميع القلاع فى الشرق أمام الخطر المغولى الذى أخذ يلوح إذ ذاك . وبهذا كسب كيقباد نفوذا كبيرا حتى لقد استطاع ولده غياث الدين كيخسرو الثانى أن يستولى على سميساط وديار بكر وميا فارقين رغم ظهور المغول . وكان اتجاه السلاجقة إلى الشرق واتجاه امبراطورية نيقية إلى الغرب دافعاً إلى الوفاق بينهما [١] .

أما المصادر العربية فقد أوردت ما يخص علاقة كيقباد بملوك مصر والشام على الأغلب ، بعد ذكر ماخبر وفاة كيكاوس وملك أخيه كيقباد (٦١٦ هـ) وكان الأول قد جمع عساكره وحشد وسار إلى ملطية على قصد بلاد الملك الأشرف لقاعدة استقرت بينه وبين ناصر الدين صاحب آمد ومظفر الدين صاحب إربل وكانوا قد خطبوا له وضربوا اسمه على السكه فى بلادهم واتفقوا على الملك الأشرف وبدر الدين بالموصل فسار كيكاوس إلى ملطية ليمنع الملك الأشرف عن المسير إلى الموصل نجدة لصاحبها بدر الدين لعل مظفر الدين يبلغ من الموصل غرضا وكان قد علق به السل . فلما اشتد

---

(١) قيام الدولة العثمانية٤٢ - ٥٥ ، The cambridge history of Islam, 277 - 278

مرضه عاد عنها فتوفى وملك بعده أخوه كيقباد وكان محبوساً قد حبسه أخوه كيكاوس لما أخذ البلاد وأشار عليه بعض أصحابه بقتله فلم يفعل . فلما توفى لم يخلف ولداً يصلح للملك لصغرهم فأخرج الجند كيقباد وملكوه ومن بغى عليه لينصرنه الله . وقيل بل أرسل كيكاوس لما اشتد مرضه فأحضره عنده من السجن ووصى له بالملك وحلف الناس له فلما ملك خالفه عمه صاحب أرزن الروم وخاف أيضا من الروم المجاورين لبلاده فأرسل إلى الملك الأشرف وصالحه وتعاهدا على المصافاة والتعاضد وتصاهرا وكفى الأشرف شر تلك الجهة وتفرغ باله لإصلاح ما بين يديه (١) .

وفى شهر شعبان من سنة ثلاث وعشرين وستمائة جرت الحرب بين كيقباد والملك المسعود صاحب آمد وملك عدة من حصونه بسبب اتفاق صاحب آمد مع جلال الدين خوارزم شاه والملك المعظم صاحب دمشق وغيرهما على خلاف الأشرف ، فلما رأى الأشرف ذلك أرسل إلى كيقباد ملك الروم وكانا متفقين يطلب منه أن يقصد بلد صاحب آمد ويحاربه وكان الأشرف حينئذ على ماردين فسار ملك الروم إلى ملطية وهى له فنزل وسير العساكر إلى ولاية آمد ففتحوا حصن منصور وحصن شمكا زاد وغيرهما ، فلما رأى صاحب آمد ذلك راسل الأشرف وعاد إلى موافقته فأرسل الأشرف إلى كيقباد يعرفه ذلك ويقول له ليعيد إلى صاحب آمد ما أخذ منه ، فلم يفعل وقال لم أكن نائبا للأشرف يأمرنى وينهانى ، فاتفق أن الأشرف سار إلى دمشق ليصلح أخاه الملك المعظم وأمر العساكر التى له بديار الجزيرة بمساعدة صاحب آمد أن أصر ملك الروم على قصده فسارت عساكر الأشرف إلى صاحب آمد وقد جمع عسكره ومن بلاده ممن يصلح للحرب وسار إلى عسكر ملك الروم وهم يحاصرون قلعة الكختا ، فالتقوا هناك فى شوال فانهزم صاحب آمد ومن معه من العساكر هزيمة عظيمة وجرح كثير وأسر كثير وملك عسكر كيقباد قلعة الكختا بعد الهزيمة وهى من أمنع الحصون والمعاقل فلما ملكوه عادوا إلى

---

(١) الكامل ١٢/١٦٣ وكتاب السلوك١/٢٤٠ وقد أبرز صاحبه أن كيكاوس غلب عمه طغرل شاه على أرزن الروم وأخاه كيقباد على أنقرة فصار سلطان الروم .

صاحبهم[1] .

وكانت علاقة كيقباد بمصر والملك الكامل تتسم بالود والتحالف ، فقد قدم رسول كيقباد(بتقدمه جليلة إلى الملك الكامل) عام (٦٢٣ هـ) ثم سافر من مصر إلى مخدومه فى العام التالى على نحو يطمئن قلبه[2] .

ومن فتوحات علاء الدين كيقباد من بلاد المسلمين وغيرهم فتحه أرزنكان (٦٢٥ هـ) وكانت أولا لبهرام شاه المطيع للسلاجقة ، فلما مات وولى بعده ابنه داود شاه أرسل إليه كيقباد يطلب منه عسكرا ليسير معه إلى مدينة أرزن الروم ليحصرها ويكون هو مع العسكر ففعل ذلك وسار فى عسكره إليه . فلما وصل قبض عليه وأخذ مدينة أرزنكان منه وله حصن من أمنع الحصون اسمه (كماخ) وفيه مستحفظ لداود شاه فأرسل إليه كيقباد يحصره فلم يقدر العسكر على القرب منه لعلوه وارتفاعه وامتناعه فتهدد داود شاه ان لم يسلم كماخ فأرسل إلى نائبه فى التسليم فسليم القلعة إلى كيقباد . وأراد كيقباد المسير إلى أرزن الروم ليأخذها وبها صاحبها ابن عمه طغرل شاه بن قلج أرسلان فلما سمع صاحبها بذلك أرسل إلى الأمير حسام الدين على النائب عن الملك الأشرف بخلاط يستنجده وأظهر طاعة الأشرف فسار حسام الدين فيمن عنده من العساكر وكان قد جمعها من الشام وديار الجزيرة خوفا من ملك الروم ، خافوا أنه اذا ملك أرزن الروم يتعدى أو يقصد خلاط فسار الحاجب حسام الدين أرزن الروم ومنع عنها . ولما سمع كيقباد بوصول العساكر إليها لم يقدم على قصدها فسار من أرزنكان إلى بلاده وكان قد أتاه الخبر أن الروم الكفار المجاورين قد ملكوا منه حصناً يسمى صنوب (سينوب) وهو من أحصن القلاع مطل على البحر بحر الخزر فلما وصل إلى بلاده سير العسكر إليه وحصره براً وبحراً فاستعاده من الروم وسار إلى أنطالية ليشتى بها على عادته[3] .

---

(١) الكامل ١٢ / ٢١١ - ٢١٢ . (٢) كتاب السلوك ١ / ٢٥٨ .

(٣) الكامل ١٢ / ٢٢١ وسينوب ميناء على البحر الأسود وليس على بحر الخزر كما ذكر ابن الأثير وكان أول من فتحه هو أخاه كيكاوس (٦١١ هـ) .

وكان جلال الدين خوارزم شاه قد واقع الملك الأشرف فى خلاط ونهبها وأسر بعض أهله وأوقع الرعب فى سلاطين بنى أيوب وخاصة الكامل بمصر والأشرف صاحب دمشق وديار الجزيرة وخلاط فتعاقدا مع كيقباد للانتقام من خوارزم شاه خاصة بعد أن انحاز إليه صاحب أرزن الروم ابن عم كيقباد وعدوه اللدود وأعانه فى حصر خلاط ، فخافهما كيقباد فراسل الكامل وهو حينئذ بحران يطلب منه أن يحضر أخاه الأشرف من دمشق فاء كان مقيماً بها بعد أن ملكها وتابع علاء الدين الرسل ذلك خوفا من جلال الدين ، فأحضر الملك الكامل أخاه الأشرف من دمشق فحضر عنده ورسل علاء الدين إليهما متتابعه يحث الأشرف على المجئ إليه والاجتماع به حتى قيل انه فى يوم واحد وصل إلى الكامل والأشرف من علاء الدين خمسة رسل ويطلب مع الجميع وصول الأشرف إليه ولو وحدة فجمع عساكر الجزيرة والشام وسار إلى علاء الدين فاجتمعا بسيواس وسارا نحو خلاط فسمع جلال الدين بهما فسار إليهما مجداً فى السير فوصل إليهما بمكان يعرف بياسى حمار وهو من أعمال أرزنجان فالتقوا هناك وكان مع علاء الدين خلق كثير قيل كانوا عشرين ألف فارس وكان مع الأشرف نحو خمسة آلاف إلا أنهم من العساكر الجيدة الشجعان لهم السلاح الكثير والدواب الفارهة من العربيات وكل منهم قد جرب الحرب وكان المقدم عليهم أميراً من أمراء عساكر حلب يقال له عز الدين عمر بن على وهو من الأكراد الهكارية ومن الشجاعة فى الدرجة العليا وله الأوصاف الجميلة والأخلاق الكريمة فلما التقوا بهت جلال الدين لما رأى من كثرة العساكر لاسيما لما رأى عسكر الشام فإنه شاهد من تجملهم وسلاحهم ودوابهم ما ملأ صدره رعباً فأنشب عز الدين بن على القتال ومعه عسكر حلب فلم يقم جلال الدين ولا صبر ومضى منهزما هو وعسكره لا يلوى الأخ على أخيه ، وتفرقت أصحابه وتمزقوا كل ممزق . . ولما انهزم جلال الدين أخذ صاحب أرزن الروم أسيرا فأحضر عند كيقباد ابن عمه فأخذه وقصد أرزن الروم فسلمها صاحبها إليه هو وما يتبعها من القلاع

والخزائن وغيرها ، وتسلم الأشرف خلاط وهو خاوية على عروشها[1] .

كانت سياسة السلاطين السلاجقة من عهد سليمان بن قطلمش ومن قبل أن تقوم لهم دولة حتى انتهاء قوتهم وسيطرة المغول على الأناضول هى الاتجاه إلى الشرق والسيطرة على شمال الشام ومعابر الفرات الحصينة وبلاد الجزيرة وذلك لتأمين ظهورهم أمام الغزاه القادمين من الشرق من قبائل السلاجقة والتراكمة والخوارزمية وغيرهم ، وقد كانت ثغور الشام بالنسبة لهم أيضا الحصن الواقى لقاء أطماع بنى أيوب فى الأناضول وكانوا يرنون بأبصارهم للاستيلاء عليه وقد تابع المماليك خطتهم هذه كما سيلى ولذلك فما أن ارتاح خاطر كيقباد من ناحية جلال الدين الخوارزمى بموته وانتهاء أجناده حتى عمد إلى السيطرة على المعاقل الشمالية من الشام فتبدل الحلف بين الجانبين إلى خلف والوئام إلى خصام وكان بداية هذه الشقة فى عام (٦٣١ هـ) حين قصد كيقباد مدينة خلاط فخرج الكامل من القاهرة بعسكره ليلة السبت خامس شعبان واستناب ابنه الملك العادل فوصل إلى دمشق وكتب إلى ملوك بنى أيوب يأمرهم بالتجهيز للمسير بعساكرهم إلى بلاد الروم . وخرج الكامل من دمشق فنزل على سلمية فى شهر رمضان ورتب عساكره وسار إلى منبج فقدم عليه عسكر حلب وغيره من العساكر . فسار وقد صار معه ستة عشر دهليز (خيمة) لسته عشر ملكا ، وقيل بل كانوا ثمانية عشرا ملكاً . فعرضهم الكامل على البيرة أطلابا (كتائب) بأسلحتهم فلكثرة ما أعجب بنفسه قال (هذه العساكر لم تجتمع لأحد من ملوك الإسلام) .

---

(١) الكامل ١٢ / ٢٢٧ ، ٢٢٨ ، وكتاب السلوك ١ / ٢٧١ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ، وقد أوجز المقريزى إلى حد الإبهام فقد ذكر فى حوادث (٦٢٦ هـ) أنه (وصل ملك ملطية (وهو كيقباد) فكثرت غاراته وقتله وسبيه) وفى حوادث السنة التالية ذكر أنه (قدم رسول السلطان علاء الدين كيقباد السلجوقى صاحب الروم على الملك الكامل وأخبره بأنه جهز خمسة وعشرين ألفاً إلى أرزنجان (أرزنكان) وعشرة آلاف إلى ملطية (وأنا حيث تأمر) فطاب قلب السلطان الكامل بذلك وكان مهتما من أمر الخوارزمى . ثم ذكر مقاتله كيقباد والأشرف للخوارزمى باقتضاب ، وأفاض ابن كثير على غير المعهود فى ذكر هذا القتال فى حوادث (٦٢٧ هـ) ١٣ / ١٢٧ .

وأمربها فسارت شيئا بعد شئ نحو الدربند (المعابر الضيقة شمال البيرة والنهر الأزرق من نهيرات الفرات الأعلى) وبنوا عليه سوراً يمنع العساكر من الطلوع ، وقاتلوا من أعلاه فقلت الأقوات عند عسكر الكامل . واتفق مع قلة الأقوات وامتناع الدر بند نفور ملوك بنى أيوب من الملك الكامل بسبب أنه حفظ عنه أنه لما أعجبته كثرة عساكره بالبيرة قال لخواصه (إن صار لنا ملك الروم فانا نعوض ملوك الشام والشرق مملكه الروم بدل ما بأيديهم ونجعل الشام والشرق مضافاً إلى ملك مصر) فحذر من ذلك المجاهد صاحب حمص وأعلم به الأشرف موسى صاحب دمشق فأوجس فى نفسه خيفة موسى وأحضر بنى عمه وأقاربه من الملوك وأعلمهم بذلك فاتفقوا على الملك الكامل وكتبوا إلى السلطان علاء الدين بالميل معه وخذلان الكامل وسيروا الكتب بذلك فاتفق وقوعها فى يد الملك الكامل فكتمها ورحل راجعاً ، فأخذ السلطان علاء الدين كيقباد ملك الروم قلعة خرتبرت وست قلاع أخر كانت مع الملوك الأرتقية فى ذى القعدة . فاشتد حنق الملك الكامل لماحصل على أمرائه وعساكره من صاحب الروم فى قلاع خرتبرت ونسب ذلك إلى أهله من الملوك فتنكر ما بينه وبينهم . وفى السنة التالية (٦٣٢ هـ) عاد الكامل إلى قلعة الجبل من بلاد الشرق فى جمادى الأولى وقد توحش ما بينه وبين أخيه الملك الأشرف صاحب دمشق وغيره من الملوك فملك صاحب الروم الرها وحران بالسيف وعاد إلى بلاده بعد ما استولى على ما كان بهما من الأموال . فلما بلغ الكامل ذلك امر العساكر أن تتجهز للمسير إلى الشرق . وفى جمادى الأولى (٦٣٣ هـ) نازل الكامل الرها حتى أخذها وأسر منها زيادة على ثمانمائة من الأمراء وهدم قلعتها ونازل حران وأخذها بعد حصار وقتال فى منتصف جمادى الآخرة وأسر من كان بها من أجناد السلطان علاء الدين وامرائه ومقدميه وكانوا سبعمائه وخمسة وعشرين رجلاً فمات كثير منهم فى الطرقات . ثم نزل الكامل على دنيسر وخربها وأخذ قلعة السويداء عنوة وأسر من بها وهدمها وأخذ قطينا وأسر من بها فى رجب ثم بعث جميع الأسرى إلى ديار مصر وعدتهم تزيد على الثلاثة آلاف وعاد إلى دمشق وسلم الشرق لابنه الملك الصالح أيوب . ولما عاد الكامل قوى كيقباد وخرج عسكره فحاصر آمد وخرّب دارا

فى ذى القعدة من نفس العام ، لكنه لم يجبر كسرته ، فآثر المهادنة فترددت الرسل بينه وبين الكامل عام (٦٣٤ هـ) . ولما حصلت الجفوة بين الأشرف والكامل وراسل الأول أهل حلب وافقوه على منع الكامل من بلاد الشام ومكاتبة السلطان ليكون معهم ، لكن المنون لم يمهل كيقباد لانتهاز الفرصة فاتفق موته فى نفس العام (٦٣٤ هـ) فى سابع شوال منه وقبل اجتماعه برسول الكامل ، فقام ابنه غياث الدين كيخسرو الثانى ، فبعث ملوك الشام إليه يعزونه فى أبيه ويحلفونه على ما اتفقوا عليه من مخالفة الكامل . وسير الكامل أفضل الدين الخونجى يعزى غياث الدين بأبيه ومعه ذهب برسم الصدقة عنه وثياب أطلس برسم أغشية القبر . ولم يتمكن ملوك الشام من الافادة بمعونة كيخسرو الذى لم تكن قدماه قد ثبتت فى حكمه بعد ، وأراح الموت الجميع من الكامل فوافته منيته فى رجب من (٦٣٥هـ)[1] .

الغزو المغولى ونهاية السلاجقة :

كان الخطر المغولى أخذ يتراءى للمناطق الشرقية للأناضول فى عهد كيقباد الأول فارتاعت له قلوب سكان الأناضول من الترك والروم على السواء ، ونحا السلطان المذكور نحوه بسياسة المداراة والمصانعة وسار ابنه كيخسرو الثانى سيرته فبقى الأناضول محفوظاً من إغارتهم لبعض من الوقت لكن الأحوال الداخلية لحكم كيخسرو بلغت حداً كبيراً من السوء ، فقد فسدت الادارة وتلقت حدود الدولة ضربات متلاحقة وجهتها القبائل التركية والخوارزمية وكان كيقباد قد أسكنها بالأناضول بعد زوال الخوارزمى فاتجهت القوى السلجوقية لخوض حروب ضد هذه القبائل . وبينما كان اهتمام كيخسرو كله موجهاً إلى إزالة هذه القبائل بالشرق أعلن بابا اسحاق فى كفر سود على حدود الشام نبوته ، وبث دعوته فى جموع التراكمة السذج الفقراء فانضووا تحت دعوته وانظم إليه جماعاتهم فى الجنوب الشرقى لجبال طوروس وفى سلطنة أما سيا وما جاورها وانتهز هذا الدعى انشغال الحكومة فى مشاكلها فى الشرق فأمر إتباعه بالانقضاض على المدن والقرى طمعاً فى الغنائم

(١) كتاب السلوك ١ /٢٨٧ - ٢٨٩ ، ٢٩١ - ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ ، ٢٩٩ .

ورغبة فى الجنة ، وبددوا شمل عدة من الجيوش السلجوقية واستحوذوا على ملطية وتوقات وأماسيا وانضم إليهم تراكمة هذه المناطق . ومع أن الجيش السلجوقى قد تمكن من بابا اسحق وشنقه لكنه ارتد أمام جموع التركمان ، ولم ينته هذا العصيان إلا حين استقدم كيخسرو جيشاً آخر من المناطق الشرقية فقمع الثوار وهدأت الاحوال (٦٣٧ - ٦٤٠ هـ) . ومن المحتمل أن هذا الدعى لقى تشجعا من العشائر الخوارزمية انتقاماً لما فعله كيخسرو ومن بعض الأمراء الأيوبيين والمغول . ومع زوال هذا الخطر إلا أن فساد الوضع الاقتصادى وسوء الإدارة وسخط الطوائف الاجتماعية على الحكم السلجوقى لم يزل . وبينما الحال على هذا ظهر الخطر الاعظم متمثلا فى المغول من جديد قدموا بهدف الاستقرار وضم الأناضول لإيران تحت سيطرتهم . ففى عام (٦٤٠) استولوا على أرزن الروم وخربوها ، وخرج السلطان السلجوقى على رأس قوة كبيرة غير متجانسة فدحروه على مقربة من الجبل الأقرع (كوسه طاغ) (٦٤١ هـ / ١٢٤٣ م) ثم استولوا على سيواس وقيصرية وخربوهما وعلى أرزنجان فى عودتهم ، ووقع الاناضول بعد ذلك تحت السيطرة المغولية فى الواقع ولم يعد للسلطان السلجوقى إلا سلطة ظاهرية إذ كان تحت رحمتهم يتولى بأمرهم وخضعت الحياة السياسية والعسكرية والاقتصادية لهم ، وكان الأهالى الذين يدفعون باهظ الأموال للمغول والسلاجقة وكبار رجال الإدارة الفاسدة ونفقات الحروب بين سلاطين السلاجقة وأمرائهم من ناحية وبين القواد والمغول من ناحية أخرى .

واذ لم تنصلح الأمور اجبر أهالى الأناضول فى عهد الوزير المشهور (البرواناة) على استصراخ الظاهر بيبرس فتقدم لتخليص المسلمين من السيطرة الوثنية المغولية وأوقع بهم هزيمة فى الأبلستين ، لكن الأناضول لم يحرك ساكناً لمؤازرته فلم ير غير الرجوع إلى مصر ، وقدم المغول للانتقام من الأناضول والوزير فأهلكوا كثيراً من سكانه والوزير نفسه .

ولم ينته الاضطراب فى الأناضول بقتل البرواناه لأن المغول رغم شدتهم وتوالى حملاتهم التأديبية لم يستطيعوا السيطرة النهائية على المناطق الجبلية

والنائية . كما ظل الثوار عليهم يجدون العون من المماليك وحلفائهم من مغول القبيلة الذهبية أعداء المغول الأيلخانيين ، ولم يلبث أن ظهرت قوى تركية جديدة متزايدة النمو والقوة من أشدها بأسا القرمانيون فى غرب قيلقية ، وأخذوا فى التدخل فى أمور السلاجقة فى حدود (٦٦٠ هـ) فصاعداً يساعدهم المماليك ووقعت قونية مرتين فى أيديهم حتى صارت نهائيا عاصمة لهم ، ونمت قوة أخرى هى الكرميانيون فى غرب الأناضول وصارعت السلاجقة والمغول وضمت إليهم أنقرة ، وانصاع إليها بيوت تركية أخرى . وإذا أضفنا إلى هاتين القوتين قوى أخرى ظهرت ومنها إمارة أولاد حميد وأشرف وجاندار فى بيسيديا وبافلا جونيا تصورنا مدى تناقص أراضى السلاجقة الخاضعين للإيلخانيين أواخر القرن السابع وأوائل الثامن الهجريين إلى أن ورثتها نهائيا وقامت على أنقاضها [١] .

من البدهى أن تركز المصادر العربية على العلاقة بين السلاجقة وبنى أيوب ثم بيبرس فى هذه الحقبة الأخيره لتاريخ السلاجقة فضلاً عن أخبار بابا إسحاق والمغول . وكانت العلاقة بين الطرفين تتشح غالبا برداء المودة والمصانعة لتغير الأحوال إذا مالت الدولتان إلى الضعف أقصد بنى أيوب والسلاجقة ولم يعد بمقدور إحداهما الانتقاض على الأخرى . بدأ المقريزى فى تأريخه لهذه الفترة بإظهار طمع السلاجقة فى عهد كيخسرو فى شمال الشام بعيد موت الكامل وما نشأ عنه من تنازع بين الأمراء الأيوبيين . فقد قوى أسد الدين صاحب حمص وأغار على حماة وحصرها فى فاستنجد أهل حلب بعسكر من الخوارزميين والتركمان وبعثوا إلى كيخسرو يسألونه النجدة فأمدهم بخيار عسكره وخرجوا فملكوا المعرة ونازلوا حماه وقاتلوا المظفر صاحبها فثبت لهم وامتنع عليهم وقاتلهم وطمع الخوارزمية فى الملك الصالح لما انشغل لسماعه نبأ موت أبيه الكامل فنهبوا خزائنه وتحكموا فى البلاد الجزرية ، وطمع فيه كيخسرو كذلك وبعث إلى الناصر صاحب حلب توقيعاً

(١) للتفاصيل انظر قيام الدولة العثمانية ٥٥ - ٦٧ -
The Cambridge history of Islam 249 - 255.

بالرها وسروج وكانتا مع الملك الصالح وأقطع صاحب ماردين مدينتي سنجار ونصيبين من بلاد الصالح أيضا وأقطع صاحب حمص عانة وغيرها ، وعزم كيخسرو على أن يأخذ لنفسه من بلاد الصالح أيضا آمد وسميساط ولما ضاق الأمر على الصالح استمال الخوارزمية ووعدهم جزيل العطاء فمالوا إليه فمالت كفته على أعدائه واسترد ما أخذ منه وسير الخوارزمية إلى آمد وعليها عسكر كيخسرو يحصر توران شاه بن الصالح فأوقعوا بهم ورحلوهم عن آمد .

ولما طلب الملك العادل فى مصر إلى اهل حلب طاعتهم واجراء الخطبة والسكة له كما كان الحال مع أبيه فلم يجيبوه إلى ذلك عاجل كيخسرو برسوله إليهم فزوج غازية خاتون ابنه الملك العزيز للسلطان كيخسرو وأنكح الملك الناصر صاحب حلب أخت السلطان ، وتولى العقد كمال الدين بن العديم المؤرخ المشهور وخرج فى الرسالة إلى بلاد الروم وعقد للملك الناصر على ملكة خاتون أخت كيخسرو ، فبعث كيخسرو رسولاً إلى حلب فأقيمت له بها الخطبة[1] .

وظهر بابا إسحاق وشاع أمره بشمال سوريا (٦٣٨ هـ) عام وصول رسول التتار إلى شهاب الدين غازى بن العادل صاحب ميافارقين وحمل أتباعه علي أن يقولوا (لا اله إلا الله البابا رسول الله) فخرج إليه جيش صاحب الروم فقاتلهم وقتل بينه وبينهم أربعة آلاف نفس ثم قتل البابا وانحل أمره . أما رسول التتار فحمل كتاباً إلى صاحب ميافارقين وإلى ملوك الاسلام عنوانه (من نائب رب السماء ماسح وجه الأرض ملك الشرق والغرب قاقان) فقال الرسول لشهاب الدين (قد جعلك قاقان سلاح داره وأمرك أن تخرب أسوار بلدك) فقال له (أنا من جملة الملوك وبلادى حقيرة بالنسبة إلى الروم والشام ومصر فتوجه إليهم ومافعلوه فعلته) . وفى يوم الجمعه حادى عشرين تلك السنة أيضا رسم الصالح إسماعيل صاحب دمشق أن يخطب على منبرها لكيخسرو فخطب له ونثر على ذلك الدنانير والدراهم وكان يوماً مشهوداً وحضر رسل الروم وأعيان الدولة وخطب بذلك فى جوامع البلد وأنعم

(١) كتاب السلوك الجزء الأول القسم الثانى ص ٦٣٥ ، ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ .

على الرسول وخلع عليه ، ولم تكن هذه الخطبة أول ما جرت فقد خطب الشيخ المشهور عز الدين عبد العزيز عبد السلام لصاحب الروم فى أوائل ربيع الآخر من (٦٣٧) هـ ، وعلى أية حال فإن الخطبة لم تدم بدمشق للسلاجقة لماقوى أمر الملك الصالح بها فخطب له فى ربيع الأول من (٦٤٠ هـ) ، وانشغل الطرفان والمسلمون جميعا بهذا الخطر الداهم الذى طرق الأبواب وهو الخطر المغولى[١] .

ففى (٦٤١ هـ) قدم التتر بلاد الروم وأوقعوا بالسلطان كيخسرو وهزموه وملكوا بلاد الروم وخلاط وآمد فدخل فى طاعتهم على مال يحمله إليهم ، وملكوا أيضا سيواس وقيسارية بالسيف وقرروا على صاحبهما فى كل سنة أربعمائه ألف دينار ففرغياث الدين منهم إلى القسطنطينية وقام من بعده ركن الدين ابنه وهو صغير إلى أن قتل وقد مات كيخسرو (٦٤٣ هـ) (وقد ملك الططر قيصرية ومسيرة شهر معها فقام بعده ابنه عز الدين كيقباد بن كيخسرو)[٢] .

ولما حزب أمر المغول حكام الأناضول ومصر والشام جرت بينهم الرسل للتعاهد والتحالف لدفع هولاكو ففى شعبان من (٦٦٠) هـ قدم الأمير شرف الدين الجامكى والشريف عماد الدين الهاشمى من عند صاحب الروم وهو السلطان عز الدين كيكاوس بن كيخسرو ومعهما رسل المذكور وهما الأمير الحاجب والصدر الأخلاطى وكتابه المتضمن أنه نزل عن نصف بلاده للسلطان

(١) المصدر السابق ٢٩٩ ، ٣٠٧ ، ٣٠٨ ، ٣١٠ والبداية النهاية ١٣ / ١٥٥ - ١٥٦ .

(٢) يوجد بين عبارة المقريزى عن غياث الدين كيخسرو وعبارة أبى الفداء (المختصر فى أخبار البشر ص ١٢١ - ١٢٢ طبعة باريس ١٨٧٢ م) خلاف فقد نص أبو الفداء (وهرب غياث كيخسرو إلى بعض المعاقل ثم أرسل إلى التتار وطلب الأمان ودخل فى طاعتهم ثم توفى سنة ٦٥٤ . . . وخلف ولدين صغيرين وهما ركن الدين وعز الدين ثم هرب عز الدين إلى القسطنطينية وبقى ركن الدين فى الملك تحت حكم التتر والحاكم البرواناه معين الدين سليمان والبرواناه لقبه وهو اسم الحاجب بالعجمى . ثم أن البرواناه قتل ركن الدين وأقام فى الملك ولدا له صغيرا ....) كتاب السلوك جـ ١ ق ٢ ص ٣١٣ وحاشيتها رقم (٥) وص ٤٠١ .

(بيبرس) ومعه دروج (نوع من الورق) فيها علائم بما يقطع من البلاد لمن يختاره السلطان ويؤمره ، وسأل أن يكتب له السلطان منشورا قرين منشوره فأكرمهم السلطان وشرع في تجهيز جيش نجدة لصاحب الروم وأمر بكتابة المناشير . وعين السلطان الأمير أعلمش لتقدمة العسكر ومعه ثلثمائه فارس وأقطعه إقطاعا ببلاد الروم منه آمد وبلادها . وفي هذا التاريخ ورد كتاب ملك الروم بأن العدو هولاكو لما بلغه اتفاق الروم مع السلطان خاف من هيبته وولى هاربا وأنه سير إلى قوينه يحاصرها ليأخذها من أخيه . وكان عز الدين كيكاوس قبل تقويه بحلف بيبرس قد انصاع هو وأخوه ركن الدين لأمر هولاكو فسارا إليه من قونية فأقاما عنده مدة ثم عادا إلى بلادهما (٦٥٧هـ)(١).

وطغى خلاف الأخوين للمصلحة الفردية على بصيرتهما فكان أحدهما يستعين بعدوه على الآخر كما استعان عز الدين بالأشكرى صاحب القسطنطينية حين غلبه أخوه ركن الدين ففر منه إليه وملك ركن الدين بلاد الروم . ولما مضى عز الدين إلى الأشكرى آواه وأنزله ومن معه من الأمراء وقام بأمرهم مدة ، حتى بلغة أنهم قصدوا قتله وأخذ المملكة منهم فقبض عليهم واعتقل عز الدين وكحل أصحابه كلهم فأعماهم (٦٦٢ هـ)(٢) .

ولما مات ركن الدين قلج أرسلان الثالث السابق الذكر (٦٦٦ هـ) قام من بعده ابنه غياث الدين كيخسرو وعمره أربع سنين فقام بأمر المملكة معين الدين سليمان البرواناة ، وكان موت ركن الدين خنقاً بالوتر وذلك أن معين الدين البرواناه اتفق مع الططر المقيمين معه على قتل ركن الدين فخنقوه (٣) .

نأتى إلى النقطة الأخيرة والهامة وهى علاقة السلاجقة وبيبرس . والحقيقة أن علاقة بيبرس بالأناضول والسلاجقة قد بدأت قبل توليه السلطنة حين كان مقدم أتباع أقطاى من المماليك البحرية ، فقد لجأ هؤلاء الناجون من نقمة المعز أيبك إلى السلطان الرومى غياث الدين كيخسرو بعد أن قتل المعز

---

(١) المصدر السابق ٤٦٩ - ٤٧٠ ، ٤٢١ .

(٢) المصدر السابق ص ٥٢٢ .

(٣) المصدر السابق ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

ومماليكه بقيادة قطز سيدهم أقطاى ، فكتب المعز إليه يوغر صدره عليهم ليهلكهم فأحسنوا إقناع السلطان السلجوقى لما استفسر عن صحة كتاب المعز فاستخدمهم . وظل بيبرس ومن معه بخدمه السلطان حتى موت المعز فعادوا إلى القاهرة وكان مكثهم بالأناضول نحو أربع سنين (٦٥٢ - ٦٥٥ هـ) . ولما اختلفت أمراء الروم على البرواناه (٦٧٤ هـ) فارقه جماعة من قيسارية وقدم منهم إلى بيبرس من الأمراء ابن الخطير وابن طرنطاى ونظام الدين أخو مجد الدين الأتابك بعيالاتهم يريدون الانتماء إليه فجهزهم إلى القاهرة . ثم إن ابن الخطير سعى بهم فاعتقلوا بقلعة الجبل مدة ثم أطلقوا . وتتابع قدوم أمراء الروم إلى بيبرس المغاضبين للبرواناه فقدم نحو خمسة عشرا أميراً كل بأسرته (٦٧٥ هـ) فأحسن إليهم السلطان وأسكنهم القاهرة وأجرى عليهم الأرزاق . ولحق بهم صاحب الأبلستين وغيره من أمراء الروم فأكرمهم السلطان ، وشرع فى السفر لأخذ بلاد الروم فخرج من قلعة الجبل الخميس العشرين من رمضان فكان يجمع من كل مدينة يمر بها بالشام عسكرها وأسلحتها ، ودارت مناوشات بينه وبين بعض فرق المغول وهزمها . وورد الخبر عليه بأن عساكر التتار ومقدمهم تتاون وعسكر الروم ومقدمهم البرواناه قد اتفقوا جميعا على لقائه . وكان جند المغول يزيد على أحد عشر ألفا وانعزل عنهم عسكر الروم وذلك فى صحراء الأبلستين . وقاتل السلطان وجيشه قتالاً شديدا فترجل التتار عن خيولهم وعظم القتل فيهم ، ونجا البرواناه وهرب إلى قيسارية وأشار على سلطانها غياث الدين كيكاوس ابن كيخسرو وأمرائه بالخروج منها حتى لا يقتلهم المغول المنهزمون فرحل الجميع إلى توقات وعفى السلطان عن الأسرى الأمراء المغول والروم وقتل مقدم التتر فى المعركة وتقدم السلطان حتى قيسارية فتلقاه أهلها وأنفق المال وعين لكل جهة شخصا وكتب إلى أولاد قرمان أمراء التركمان وأكد عليهم فى الحضور واستمال النازحين . وجلس السلطان على تخت آل سلجوق وعلى رأسه رايتهم وقد احتفى به المسلمون على جميع طبقاتهم وبعث البرواناه يهنئ بيبرس بجلوسه على تخت الملك فكتب إليه أن يفد عليه ليقره مكانه فبعث

يسأل النظرة إلى خمسة عشر يوماً ورجا البرواناه بذلك ان يصل الملك أبغا ابن هولاكو وكان قد أرسل يستحثه على القدوم بنفسه ليدرك بيبرس وهو ببلاد الروم ، ومر بيبرس على المعترك فأمر بدفن أغلب من قتل من عسكره وقصد بذلك نكاية التتار فى إظهار كثرة من قتل منهم وقدم أبغا للقتال فوافاه البرواناه فى الطريق وسار أبغا إلى الأبلستين حتى يعاين القتلى بالمعركة وليس فيهم من الروم ولامن عساكر السلطان إلا القليل مع كثرة رمم التتار فشق عليها ذلك . وكان قد وشى إليه بالبرواناه أنه هو الذى كاتب بيبرس حتى أقدمه إلى بلاد الروم . وعاد أبغا إلى قيسارية فنهبها وقتل من ببلاد الروم من المسلمين وأغار التتار مسيرة سبعة أيام فقيل إنه قتل ما يزيد على مائتى ألف نفس ولم يقتل أحداً من النصارى وشمل القتل من أرزن الروم إلى قيسارية فيقال إن عدة القتلى كانت خمسمائة ألف ثم سار أبغا ومعه السلطان غياث الدين صاحب الروم ووكل بالبرواناه من يحفظه . ثم سار أبغا إلى بلاده وبيبرس إلى دمشق (المحرم من ٦٧٦ هـ) ومات السلطان بعد هذا النصر فى منتصف هذا الشهر[١] .

وفى عام (٦٧٦ هـ) قتل الملك أبغا البرواناه فى صفر وكان شجاعا حازما كريما عارفا فيه دهاء ومكر ، ولحق به فى العالم التالى عز الدين ككياوس ملك الروم[٢] .

وأحسب أن هذا القدر من النصوص التاريخية المتعلقة بسلاجقة الروم والواردة بأشهر المصادر العربية كاف لكي يقارن القارئ بينها وبين نص ابن البيبى المظهر لوجهة النظر السلجوقية ، ومن جماع هذا وذاك تتبدى رؤية أشمل وأدق لتاريخ سلاجقة الروم ، وإليك نص سلجوقنامه لابن البيبى مترجما :

---

(١) للتفاصيل كتاب السلوك ٣٩٠ - ٣٩٣ ، ٤٠٦ ، ٦٢١ ، ٦٢٥ ، ٦٢٧ ، ٦٣٥ والبداية والنهاية جـ ١٣ ص ٢٧١ - ٢٧٢ .

(٢) المصدر السابق الأول ص ٦٤٧ ، ٦٥٠ .

ثانيًا : ترجمة الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

(رب تمم وأعن)[1]

بعد حمد الخلاق والصلاة بغير عد على السيد المختار عليه السلام وعلى آله الأخيار . لا يخفى على مطالعي هذه الأوراق أن كتاب (سلجوق نامه) من منشئات الصدر العلامة نادرة الأدوار مالك ديوان الطغراء ناصر الملة والدين يحيى بن محمد المعروف بابن البيبي دامت فضائله هو كتاب عديم النظير وفقيد المثيل[2] . وفي ذاك الأسلوب الذي انتهجه وعلى ذلك الوجه الذى أوفى فيه الحديث حقه ليس بمقدور صاحب صناعة قط مجاراته ومباراته ، إلا حين أن تشكى جماعة من الإخوان من كبر حجمه فحرموا مطالعته والإفادة منه ، فتعهدت أنا الضعيف وتداركت مع قلة البضاعة فى هذى الصناعة إيراد مقاصد الكتاب ومغازيه فى أجزاء عدة بلا إطناب فى الأوصاف وإغراق فى التشبيهات ، لكي يكون بمكنة كل امرئ تحصيل[3] نسخة منه وتيسير مطلوبه ويعم نفعه عموم الخلق (والله ولى ذلك) .

مقدمة :

أول عذر بـه اعتذر مؤلف الأصل فى ديباجته هو قوله إن كيفية تسلط السلطان سليمان بن قتلمش بن إسرائيل وأحوال أمرائه الكبار كالأمير منكوجك والأمير أرتق والأمير الدانشمند لم تكن محققةً ، وتعذرت تماماً الكتب المؤرخة لذلك العهد ، ولم يوثق بأقوال النقلة وأقاصيص السمّار البعيدي العهد بحسب اختلاف الروايات ، لذا بدئ بعهد دولة السلطان غياث الدين كيخسرو والد السلطان المعظم علاء الدين كيقباد .

---

(١) راعينا أن نضع بين قوسين فى الترجمة الألفاظ العربية الموجودة بالنص الفارسى حتى لا تختلط بالترجمة .

(٢) فى الأصل (مثل)

(٣) فى الأصل (بى تحصيل نسخه) والمفروض (باتحصيل نسخه) كما يقتضى المعنى .

ذكر تولية السلطان قلج أرسلان عهده لغياث الدين كيخسرو

لما تبدل الرداء القشيب للمشيب للسلطان السعيد قلج أرسلان بحلة الشباب الأرجوانية[١] ، وأصيب جواد الحياة السريع بالوهن[٢] ، وحلّ أوان الوداع وتفرقة الاجتماع ، استدعى إليه غياث الدين كيخسرو وكان أكبر أولاده واختص من بين أخوته الأحد عشر بشرف ملازمة أبيه ، وقال له : أى بنى ، اعلم أني ظاعن من فناء الفناء هذا ، ومتأهب لزاد طريق المعاد ، وأنت بحمد الله المستوى على سوقه بالروضة الملكية ، والزهرة المتفتحة بحديقة الألطاف الإلهية، وليس للعرش مثلك جليس ، ولا للتاج منك مناص ، وقد آثرتك على إخوتك لأني رأيتك بالملك حرياً ، فأوكلك على الخلائق وهم ودائع الحق ، وأودع لك الملك والحياة والرضوان : (يا بنى لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) (يا بنى أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانه عن المنكر واصبر على ما أصابك إن ذلك لمن عزم الأمور ولا تصعر خدك للناس ولا تمش فى الأرض مرحاً إن الله لا يحب كل مختال فخور)[٣] . يا بنى إن الملوك يسألون عن العدل : (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون)[٤] . لم يكن للدنيا الفرارة قرار لأحد ، ضحكها كبكاء السحاب غير دائم ، وبكاؤها كضحك البرق غير مستقر وقائم (إن أضحك ساعة أبكى سنة وإذا أتى بسيئة جعلها سنُّة) . ولما أبلغه تلك الوصايا البليغة أمر فاجتمع أركان البلاط وأعيان السلطنة ، فلما رأى صفُّة

---

(١) المفروض أن تلحق باء البدل (بحلة الشباب الأرجوانية) كما فعلنا لا (بالرداء القشيب للمشيب) كما ذكر المؤلف خطأً ولا يزال شائعاً .

(٢) في الأصل خطأ قوله (ومركب خوشرو حيوه كامل) والمعنى يقتضى بدلاً من الكلمة الأخيرة (كاهل) بمعنى الواهن الضعيف .

(٣) سورة لقمان الآيات - (١٣ ، ١٧ ، ١٨) .

(٤) سورة النحل الآية (٩٠) .

البلاط قد غصت بالخاص والعام[١] ، قال : بلغت شمس إقبالى درجة الزوال ويقين أن الملك لا يظل بلا مالك والمدينة بدون حاكم :

يمضى واحد ويخلفه ثان   فلا تبقى الدنيا بدون حاكم [٢]

وابنى كيخسرو وله وجه (منوجهر)[٣] متحلٍ بآداب الملوك ، وسابق ومتجلٍ فى حلبة هذا المضمار على الإخوان وملوك سائر الديار[٤] ، فأعطيته ولاية العهد وفتحت عليه باب هذه الدولة وأجريت حكمه فى عهد حياتي فى الولاية والرعية ، وجعلته وارث التاج وخاتم الملك ، ونأيت بنفسى عنهما ، فعليكم بمبايعته وتثبيت أقدامكم كالصخرة الصماء على هواه وولائه ، وبعد بكاء وعويل وسكوت طويل رأوا الانقياد إلى أوامر السلطان من اللوازم ، وقالوا إن السلطان غياث الدين بطلنا ، وظاهرنا وباطننا واحد فى شهادته وغيبته ، وإنا لسالكو طريق الحدة والخشونة مع مخالفى دولته كالسيف والسنان ، وضموا إلى هاتيك المواثيق أيماناً لا يمكن لأهل الإيمان تأويل فى نقضها ، وبعد المحالفة على رفع المخالفة ونصب راية الموافقة وإحكام أحكام النصرة والمعاضدة رفعوه إلى السلطنة :

جلس الملك المبارك القدم بيمن القدوم

فوق التخت الملكي فى بسيط خطة الروم [٥]

ووقف رؤساء الأطراف على يمين العرش ويساره ونثروا الدراهم والدنانير بغير عد وحصر ، وأصابت الخلع والتشريفات النفيسة من خزانة السلطنة طبقات الأمراء والكبراء ، فزاد بهذا النيل ميل الجميع ، وأوفوا السرور

---

(١) في الأصل خطأ (عاص) والمفروض أن تكون (غاص) .

(٢) البيت الفارسي : يكى بگذرد ديگر آيدبجاى : جهان رانما نندبي كدخداي .

(٣) (منوچهر) مخففه (مينوچهر) أي جناني الوجه واسم ولد الملك إيرج الذي تقاتل ليأخذ بثأر أبيه فقتل سلماً وتوراً وخلف الملك فريدون كما قالت الشاهنامة .

(٤) في العبارة الفارسية (وتجلى) والمفروض (متجلى) لتحقق السجعة مع (متحلى).

(٥) البيت الفارسي : نشست شاه مباركقدم بيمن قدوم : فراز تخت شهي در بسيط خطهء روم .

والطرب حقهما فى عشرة أيام، ولم يبقوا للساقى غير جرعة فى طريق اللذة والشرب ، وحينذاك يمموا شطر البلاد والأمصار العامرة ، وتفرقت الأخبار إلى أطراف المملكة ، وكانت هذه الحكاية فى سنة ثمان وثمانين وخمسمائة .

ذكر اجتماع الإخوان بمعية الملك ركن الدين وتحريضه على المنازعة

لما بلغ الخبر مسامع الإخوان ، ظهرت بواعث الحسد فى باطن جسد كل منهم ، وجلس كل أخ على نار ، مع أن لكل واحد منهم قطراً وكان كل منهم والياً على مملكة ، فكانت توقات[1] وتوابعها تحت تصرف ركن الدين سليمان ونكيسار[2] ومضافاتها لناصر الدين بركيارق شاه والأبلستان[3] لمغيث الدين طغرل شاه وقيصرية[4] لنور الدين سلطان شاه وسيواس وآقصرا[5] لقطب

---

(١) توقات قلعة حصينة تقع بين قونية وسيواس (معجم البلدان لياقوت الحموى ١ / ٨٩٥) .

(٢) وترسم أيضا نيكسار وقيصرية الجديدة وصفت بأنها مدينة وسط حولها بساتين تكثر فيها الفواكه (لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ترجمة بشير فرنسيس وكوركيس عواد (بغداد ١٩٥٤ م) ص ١٧٩) .

(٣) ويرسمها العرب الأبلستين وقد عدت من مدن الثغور في أيام الروم تقع شرق قيصرية وبالقرب من أفسوس كما تربطها الطرق مع مرعش (ياقوت ١ / ٩٤ ، لسترنج ١٧٨ - ١٧٩) .

(٤) وترسم قيسارية وقيصارية أهم مدينة في إقليم قبادوقيا اعتبرها البيزنطيون عاصمة هذا الإقليم وتقع على رافد نهر الفرات الغربي المعروف باسم قرة صو (ياقوت ٤ / ٢١٤ - لسترنج ص ١٧٨) .

(٥) وترسم أقسرا بمعنى القصر الأبيض وتقع في جنوب شرق آسيا الصغرى وتربطها الطرق المباشرة بكل من قونية وقيصرية (لسترنج ١٨٢) . أما سيواس فتقع على مسافة ستين ميلاً من قيسارية وعلى مسيرة يومين من توقات ويمر بواديها نهر قزل ارمك (ياقوت ١ / ٨٩٥ ، ٢ / ٨٦٥ ، ٥ / ٢٢) .

الدين ملكشاه وملطية(١) لمعز الدين قيصر شاه وأراكلية(٢) لسنجر شاه ونكيده لأرسلان شاه وأماسية(٣) لنظام الدين أرغون شاه وأنقرة(٤) لمحيى الدين مسعود شاه وبرغلو لغياث الدين كيخسرو ، ولم يكن يعود شئ قط بقليل أو كثير من أعمال هذه البلاد على ديوان سلطنة أبيهم ، وكانوا يأتون مرة كل عام إلى بلاط أبيهم ويعودون بحصول مقصودهم . وفى الجملة لما تحركت فى الملوك سوداء الملك وغوغاء الحكم ، اجتمع سائرهم فى معية ركن الدين سليمان شاه الأخ الأكبر لهم وجعلوا يزيفون رأى أبيهم ويستهجنون فكره إذ أنه مع وجود الماء الزلال تيمم ببقايا الزبال ، واستنجد مع وجود استعداد صولة النمر بحيلة الثعلب الأعرج . بيت :

لسنا بهذا الحكـــم مـــن الأب راضيـــن (٥)

فأنى لنا إزالة هذا العار وكيف نذهب بهذا الشنار

وأخذوا يذكرون مثل هذا الحديث المغشوش (كالعهن المنفوش) ، فأجابهم الملك ركن الدين بناء على ما كان يتمتع به من قسط وافر من الدهاء والعقل أن ملك العالم خلد اللهُ أيامه حاكم موفق وكل ما يأمر به ويقوله ينقاد له الفلك رعبا ورهباً . ولما كانت ذاته الشريفة سبب تكوين طينتنا فإن عدم الارتسام لأحكامه والامتثال لمثاله موجب للعقوق ورفض للحقوق :

---

(١) ملطين عند البيزنطيين كانت من أجل الثغور الإسلامية بإزاء الروم وصارت إحدى المدن التجارية الهامة في مشرق الأناضول في عهد السلاجقة (الإدريسى نزهة المشتاق في اختراق الآفاق روما ١٩٧٤ ٦ / ٦٥٠ - ٦٥١ - لسترنج ١٥٢ ، ١٥٣).

(٢) وترسم أيضا هرقلة وأرقلية وأركليس في شرق نهر هرقلة الذي ينزل من جبل العلايا إلى آخر مدينة سينوب (الإدريسى ٧ / ٨٠١ - لسترنج ١٦٦ ، ١٨٢) .

(٣) وترسم أيضا أماصية تقع جنوب بحر بنطس (البحر الأسود) .

(٤) وأنكرى وأنكورية هى مدينة أنقيرا اليونانية عاصمة إقليم جلاتيا ويربطها طريق بمدينة قونية (الإدريسى ٧ / ٨١١ - - لسترنج ١٨٢) .

(٥) المصرع الفارسي : نمى شويم بدين حكم ازپدر راضى .

لا أبيـــع رضــــاءه بمــــلك وجــــه الأرض

لأن سائر الأرض الفانية ليس لها ذلك المقدار [١]

لا سيما وأن سيماه الكريمة قد تغيرت ومشرعة النعمة فيه والنعيم قد تكدرت ، والقيام بنقض أحكامه والغدو بهذا مضغة الأفواه وضحكة الأشباه بعيد عن الرأى السديد . ومع أن غياث الدين كان أصغرهم سناً لكنه أحسن فى مكتب (وعلمناه من لدنا علماً)[٢] تحصيل الآداب الملكية ، وأورده من القوة إلى الفعل (والله يؤيد بنصره من يشاء)[٣] . فلما سمع الإخوة هذه النصائح انحسمت مادة السوداء التى نفذت إلى عقولهم وآب كل منهم إلى ملكه خائباً خاسراً ، وأثناء هذا الحال وصلت الأنباء بلحوق السلطان قلج أرسلان بدار الجنان ، واعتلى غياث الدين المسند الملكى والعرش الشاهى باستقلال .

ذكر استماع السلطان ركن الدين بوفاة أبيه وصرف اهتمامه على انتزاع الملك من تملك أخيه

لما علم الملك ركن الدين بوفاة والده فى شهور سنة ثمان وثمانين وخمسمائه أشعل فؤاده بنار اختراق الافتراق ، وبعد شرائط العزاء ولوازم البكاء سير القصاد المسرعين لجمع أجناد الأغوار والأنجاد للإعانة والإعضاد ، وعزم بنفسه من توقات بغير حشد ، فلما بلغ آقصرا ، لحق به جند لجب ، فوصل الجمع إلى قونية[٤] فى خدمة ركاب مظلته الميمونة ، فأعاذ

(١) البيت الفارسي : رضاء او نفروشم بملك روى زمين : كه خاك تودهٔ فاني ندارد أن مقدار .

(٢) الكهف الآية ٦٥ . (٣) آل عمران الآية ١٣ .

(٤) من أعظم مدن الاسلام في أسيا الصغرى وقد أقيمت على هضبة وحولها أسوار ثم توسعت بمرور الوقت إبان السلاجقة وامتدت خارج الأسوار وأصبح من الصعب الدفاع عنها . وتتمتع بموقع هام حيث يفترق بها الطرق إلى مدن آسيا الصغرى المحيطة بها ولا تبعد قلعة قرة حصار التابعة لها عن شرقها كثيرا (الإدريسى ٧ / ٨١٢ - لستريخ ١٨١ - ١٨٢) .

أهلها أنفسهم بمجن المانعة ، ومكث ستون ألفاً من السهامة مدة أربعة شهور يوماً بعد يوم في مضاربة ومقاتلة مع عساكر الملك ركن الدين ، وعاقبة الأمر سيروا رسولاً إلى خيمة الملك وقرروا الصلح على أساس أن يسير السلطان غياث الدين مع أبنائه وأتباعه وأشياعه إلى حيث يطير طائر فكره ويصل آمناً إلى مقصده ، وحينذاك يلج الملك المدينة فيبايع أهلها على ولائه . وأصدر العهود على وفق هذا الملتمس وأرسل بها ، فعرضت للاتفاق في معية السلطان ، فوقعت موقع الإحماد والاستحسان . وأمر بأن يسير رجلان من أهل المدينة لموقع الملك للتأكيد وكلاهما في مداخل الأموروالأج وخراج فيأخذان كتاباً مخطوطاً شريفا مؤكداً بأقسام الأقسام والأيمان الغلاط ، ففعلوا هذا في الحال ، فلما اطلع السلطان على العهود ، سكن روع روعه وجيشان جأشه وآثر الجلاء بوجه الاضطرار .

ذكر جلاء غياث الدين كيخسرو والواقعات التي رآها في الغربة

غادر السلطان المدينة مع كوكبة من الخواص في سنة ست وتسعين وخمسمائة في صلاة العشاء الأخير حين ظهرت دراري الكواكب في الروض اللازوردي للقبة النيلوفرية على مثال الأزهار الطرية ، وسلك طريق (آق شهر)[1] بعزم (ستنبول) وبسبب غاية الاستعجال واضطراب الحال تغيب الملكان عز الدين كيكاوس وعلاء الدين كيقباذ في تلك الحال عن معية أبيهما ، ولم يرتب لهما السلطان أمراً وجلا عن المدينة ، فلما أن وصل قرية (لاذيق)[2] من أعمال قونية ، استخف رعاياها بغلمانه وخواصه

(١) وترسم آقشار أي المدينة البيضاء وهي عند اليونان فيلومليوم تقع في أقليم باروريوس فريجيا على الطريق المباشر إلى قونية على مسيرة ثلاثة أيام شمالاً بغرب (لسترنج من ١٨٠) .

(٢) وترسم أيضا لاوديكيا واللاذقية في أقليم فريجيا الصغرى بغرب الأناضول وفي مصب نهر المايندر وجنوب شرق فيلادلفيا وسماها الترك (دنيزلي) أي ذات الأنهار لكثرتها فيها (الإدريسي ٧ / ٨١٢ - لسترنج ١٨٦ - ١٨٧) .

فجرحوا منهم وأوردوا أمتعتهم مورد التلف فتغير السلطان لهذا الحال وأخذ طريق (لارنده) وكتب كتابا إلى أخيه يتضمن عتابه على تعجيله له بالسفر وشكا اليه الإهانة والإذلال لعرق النجابة الملكي . وفي اليوم الثاني حين دخل ركن الدين المدينة وارتقى العرش ، أوصل القصاد إليه الرسالة . ومع أنه جاش من فرط الغضب إلا أنه كظمه لمصلحة الوقت ، ونادى بوجوب فعل كذا وكذا مع مخالفي الدولة ومخلفي تلك الشيعة ، وأومى في الخفية إلى بعض من خواصه لكي يستميلوهم فنادوا أن يأتي كل من أغار على أخي السلطان وآذى شيعته ويعد ذلك سبب القربى والزلفى ، فاغتر أولئك المجاهيل بهذه التساويل وأخذ كل منهم يسابق الآخر في المبادرة حتى اجتمع جمعهم في عاقبة الأمر في البلاط ، وجلب كل منهم ما كان أخذه لترويج سوقه ، فوكل السلطان كل فوج منهم إلى قوم وأحضر الملكين ، وأجلس كليهما فوق العرش على فخذيه وأكرمهما وخيرهما بين الإقامة والارتحال فآثرا السفر واللحوق بالأب وأدر كل منهما بدون اختيار قطرات العبرات على خدين كزهر الرمان ، فغلبت الرقة على السلطان لما رأى ، فسيرهما برغبة صادقة وخلع نفيسة من النطاقات المرصعة ومايوافقها وما يجانسها مع رجاله إلى معية أبيهما وأمر بالجناة الطغاة فصلبوا بشرفات السور وسلبوا كسوة الحياة من أبدان حركاتهم ، وأضرمت النار في القرية إلى حد أنها مايزال يقال لها لاذيق المحترقة ، وقال إن من يستخف بالسلاجقة يشاهد جزاء وعقاباً وفاقاً .
وتوقف السلطان حتى وصول الولدين فلما بلغا عرضا الهبات ، وقدم قصاد السلطان ركن الدين الأعذار المموهة ، فاستمع إليهم بحسن إصغاء وأعادهم بالخلع ، ودخل هو نفسه في ممالك الأرمن التي كانت في ذاك الزمان ملك ليفون تكفور[1] .

---

(١) عرف المؤرخون المسلمون ملك الأرمن باسم ليفون ولافون وابن لاون ويرسم اسمه بالحروف اللاتينية (Leon) . أما التكفور والتكور فهو لفظ أرمني معناه الملك المتوج وأطلقة الأرمن على ملوكهم كما أنه يطلق أحيانا على ملوك الدولة البيزنطية (انظر كتاب السلوك جـ ١ ق ١ من ٥٥١ حاشية ٢) .

ذكر وصول السلطان غياث الدين لأرمينية

حين أعلم ليفون بقدوم السلطان ، استقبله بإجلال استقبال العطشان الماء الزلال ، ولما وقع نظرة على مظلتة المباركة ترجل ، وصار كله لساناً يلهج بإعزاز السلطان ، فتوقف السلطان شهراً فى هذا البلد ، ثم يمم وجهه منه شطر أبلستان ، فراعى الملك مغيث الدين طغرلشاه ولد قليج أرسلان فى التوقير والخدمة شرائط الأخوة ، وأحضر القاضى وأئمة المدينة فى الخلاء وأقر بقوله إن ملك أبلستان وتوابعها كما منحنيها والدى أقرأنا طغرلشاه أنه ملك مليكي وأخى السلطان غياث الدين كيخسرو ، ووضع الصك فى حفل عام فى معية السلطان ، فقال السلطان قبلنا ووهبناه له ثانية بشهادة الحاضرين .

وبعد بضعة أيام عزم (ملطية) ، ولما أعلم الملك معز الدين قيصر شاه ، شغل بأمور الضيافة والاستقبال ، فاستقبله ومعه جملة أقاربه وأتباعه . ولما رأى السلطان من على بعد ترجل وأسرع ليلثم يده واعتذر لعذر أخيه وإجلائه له عن ممالكه وخلو سرير السلطنة من عظمة السلطان وأبهته ، وأبدى التفجع والتهلف ، وأدخله المدينة بتعظيم تام وترك قصر السلطنة بجملة أسباب البيوتات تحت تصرف نواب السلطان وحجابه ، وأخذ يبدى كل يوم نوعاً من أنواع الإبداع الحسن للطاعة . وذات ليلة أثناء المنادمة قدم إلى السلطان وركع له وعرض : يخطر لي أن أقدم إلى الملك العادل أنا المطيع للسلطان بأن يقنع السلطان بقرصة ملطية هذه إلى انقراض أيام البؤس والنحوس ، وإذ ذاك أعود إلى هذه الديار ، ويعتلى السلطان بمراده سرير السلطنة . فتبسم السلطان لهذا الكلام وقال إن الملك العادل ملك عاقل ، والأولى من أجل إحسانك أن أذهب أنا إليه واستشيره فيما يشير إليه ، ويحتفظ الملك بملكه وينتظر أى نقش يخرج لاعب الأفلاك من ستارة الغيب ، وعزم بعد هذا حلب .

فأخرج معز الدين من حرمه تاجاً قيمته ألف دينار وسلمه خازني السلطان ، ورتب غير هذا وهيأ له متاعاً لاحد له .

ذكر لحوق السلطان بمُلك الشام

ولما أخبر ملوك الشام أن صبح الفلك الملكي أسفر على ممالكهم ، أرسلوا الأنزال والأحمال لاستقباله ، وتوجه سائر الجيش والحشد للقائه وترجلوا لنيل شرف لثم يده منشدين :

(وقدمت قدوم البدر بيت سعوده :. وجدك عالٍ صاعد كصعوده) وقالوا يأتى سلطان العالم إلى منزله وبلاطه ، وطالما أن فى الأجل تأخيراً وفى كنانة الإمكان سهماً فإننا نضع كل ما نملك لجهة دفع الوحشة عن خاطره الأشرف ، فلله أن يحمى حماء النفس من مداخلة الأفكار المزعجة(١) وأن يجعل سبب تسكين القلب المحزون قول أمير المؤمنين كرم الله وجهه (إن للمحن غايات وسبيل العاقل أن ينام عنها حتى يتجاوزها) ونظم قابوس(٢) الذى أنشده فى زمان التواء راية دولته :

قل للذي بصروف الدهر عيرنا	هل عاند الدهر إلا من له الخطر
أما ترى البحر يعلو فوقه جيف	ويستقر بأقصى قعره الدرر

(١) في الأصل (منزعج) .

(٢) يقصد به شمس المعالى قابوس بن وشمكير الأمير الزياري الذي حكم جرجان وجيلان وطبرستان من (٣٦٦ - ٤٠٣ هـ) . بدأت متاعبه حين لجأ إليه فخر الدولة البويهي خوفا من أخويه عضد الدولة ومؤيد الدولة فاحتفى به ورفض تسليمه لهما فاجتمعا عليه وطرداه من ملكه (٣٧١ هـ) فاستنجد بالسامانيين لكن سوء أوضاع بلاطهم جعلته طريد بلاده وملكه حتى عام (٣٨٨ هـ) أى نحو ثمانية عشر عاماً . وزاد حاله سوءاً تنكر فخر الدولة له الذي كان سبب ضياع ملكه حين مات أخواه وتملك مكانهما فلم يكتف بإهماله بل حرمه من جرجان وإن تمكن قابوس بعون الديالمة والطبريين من استعاده ملكه وتوسيعه إلا إنه ابتلى بثورة جيشه عليه التى أفضت إلى عزله وقتله عام (٤٠٣ هـ) . وقابوس أشهر ملوك اسرته لفضله وكرمه وجمعه الفضلاء وشعره ونثره العربي والفارسي وحسن خطه . وممن مدحه بالفارسية أبو بكر الخسروي وأبو القاسم القمري وألف له العالم المعروف أبو الريحان البيروني كتابه الآثار الباقية عام (٣٩٠ هـ) (انظر للمؤلف : تاريخ إيران بعد الإسلام (مصر ١٩٨٩) ٤٧ - ٥٢) .

وفى السماء نجوم غير ذي عـدد   وليس يكسف إلا الشمس والقمر

وفى كل يوم فى تلك المدة كان ملك منهم يضيف السلطان ويعرض له تقدمة لائقة لوليمته ، إلى أن خطر للسلطان بغتة أن يأتى (آمد) ، فقام الملوك بخدماتهم بقدر الإمكان ، ولازموا أياماً عدة ركاب السلطان برسم الوداع ، ورجعوا بعد ذاك بتشرفات نفيسة . ولما بلغ حدود (آمد) ، أرسل الملك الصالح الذي كان صهراً للسلطان بكريمة من أولاد قلج أرسلان أبنائه مع جملة الحشم لاستقباله ، وزين قصر السلطنة بما رتب من خزائن البيوتات وآلاتها والغلمان والجواري ، وبعد يومين خرج لاستقباله مع كوكبة الخواص ، فلما أن وقع نظره على المظلة المباركة ترجل وسارع الحجاب فأركبوه جواده ، ولما زاد قرباً عزم ثانية أن يترجل فمنعه السلطان بالقسم وقبل يده من فوق الجواد ، ولما اقتربا إلى المدينة ، ترجل الملك الصالح وأخذ بعنان السلطان وكان يسير فى ركابه الميمون ، فلما وصلا باب القصر نثر أولاد الملك الصالح أطباقا ملؤها الدنانير . وحين جلس على العرش ، وضع الملك الصالح تحت يدى السلطان مفاتيح القلاع والبقاع بممالكه ، فتعجب السلطان من علوهمته وأثنى عنه ثناء عظيماً وقال : (قبلناها وبأفضل المن قابلناها ثم رددناها إليك متعك الله بها وبأمثالها) . وحينذاك وضع الخوان ورفع ، وتحول السلطان إلى الحرم المبارك لرؤية أخته ، فلما وقع نظر الملكة على جمال السلطان وضعت وجهها على قدم أخيها وقالت نثرت كل مالدى من عناية على ركاب الملك ليقيم بهذه المدينة وينتظر لطف الخالق ومواتاة الأقدار ، ولعل المصلحة كانت فى جلائه (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم)[1] . ومكث الأخ والأخت زماناً فى هذه المناصحة والمحادثة إلى أن أفضى إلى دار الخلوة فاجتلت الطواويس الخضار فى مختلى باز فضاء الملك فلوحظن بنظر القبول فرقد ساعة مع تلك المخدرات على مخدة الدُّعْب ، وبعد ذلك عزم المحفل وأخذ يجلى بمحاورة خفيض أوتار النغم وجهيرها غبار الغم عن حواشى الزمان وأودع زمام الطبع إلى الاستعساد وبعد مدة خلّط فى السرور والنشاط واتجه

---

(١) البقرة آية ٢١٦ .

إلى ذاك البساط فلما أخبر ملك (بلبان) بيمن قدوم السلطان أرسل أولاده وأشياعه مسيرة خمسة أيام قدماً ، وسار بنفسه على إثرهم ، وأتى مترجلاً فى ركاب السلطان حتى عتبة القصر وجعل من أنواع النفائس حتى نفسه العزيزة كل ما ملك موطأ قدم مالكه ووضع بين يديه مفاتيح القلاع وتفاصيل خزائن البقاع وأغلظ الأيمان ألا يأبى فى هذا الباب ، فقال السلطان إن عرصة فتوة الملك أفسح آلاف المرات مما يقول ، والأمل معقود على فضل الباري أن تجرى أنهار السعادة فى إرم مرامنا وأن يتحقق المقصود من الأيام بدون نهاية وأن يعتذر لألطاف الملك . وبعد مدة من إقامته بهذه الديار توجه إلى جانب (جانيت) ، وظل بها مدة ، وركب سفينة منها عازما (ستنبول) وعصفت بغتة ريح من مهب (تجرى الرياح بما لا تشتهى السفن) وعادت حالة (وجاءهم الموج من كل مكان)[1] فجنحت السفينة إلى ساحل بحر ديار المغرب فالقيت المراسى طوعاً أو كرهاً وجذبوا أرحالهم من الماء بعيون ندية وشفاه يابسة إلى اليابسة . وظل فترة يقوم بالطواف فى تلك الأطراف ويظهر فى مقابلة شراسة أخلاق المغاربة هشاشة ألطاف المشارقة وكان آمنا فى كنف رعاية أمير المؤمنين عبد المؤمن رضى الله عنه من كيد نكد الأيام ومخصوصاً بكرات ومرات بتفقد ذلك العزيز وتعهده ، وفى العاقبة جعل عنانه صوب (ستنبول) بإجازة صاحب الخلافة .

ذكر بلوغ السلطان من طرف المغرب إلى جانب ستنبول

عد فاسيليوس[2] ذلك العهد مقدم السلطان مغنماً عظيماً ، ورأى المشاركة بل الاستقلال فى ملكه واجباً ، وكان يجلسان معاً على العرش وقت اجتماعهما ويتباسطان ويتلاطفان ، وكان للاتفاق رجل إفرنجي مذكوراً بالرجولة

---

(١) يونس آية ٢٢ .

(٢) هو اسم الامبراطور البيزنطى عند المؤرخين المسلمين وهو تعريب (باسيليوس) نظراً لحكم باسيل وعائلته بيزنطة ردحاً من الزمان .

والصرامة مشهوراً بالشجاعة والشهامة كان يحمل وحده على ألف مقاتل فيقاتلهم وكان راتبه كل عام عشرة آلاف دينار ، إلا أنه في يوم تجادل مع أصحاب الديوان بسبب الكساء ، فأتى محضر الفاسليوس وبدأ التشكي المطول والعربدة بلا طائل وكان الفاسليوس يقول للإفرنجي إن السلطان حاضر اليوم فأوقف الجدال ، وسوف نقوم بتدارك الأمر غداً وفق رضاك . فلم يراع الفرنجي أو يقل من صلابة أساريره وجرأته فتدخل السلطان وسأل تكفور ماذا يقول هذا الأمير ؟ فأجاب : لعل أهل الديوان أهملوا في إيصاله راتبه فقال السلطان لماذا يتوجب أن يتجرأ الرعية حتى هذا الحد ، فأظهر الفرنجي سفهه مع السلطان فغضب السلطان ولف على يده عمامته وألقى بضربة على أذن الفرنجي به عن الكرسي فخر بلا وعي ، فثار الفرنجه والروم وحملوا على السلطان وقصدوا إهلاكه فدق الفاسليوس منقارهم ونزل بنفسه عن العرش وأخمد هذه الفتنة وأخرج كل الأمم من القصر وبدأ يلاطف السلطان في الخلاء ويسكن من غضبه . وكانت النار تسرى في رأس السلطان من فرط الحمية ففاضت عيناه بالدمع وأخذ يتنفس أنفاساً باردة على آلام عمره وأغبراره . قال للفاسليوس إنك تعلم أني ولد قلج أرسلان من أرومة ألب أرسلان وملكشاه ، فتح أجدادى وأعمامي الدنيا من المشرق إلى المغرب وكان أجدادك دوماً يرسلون الخراج والجزية إلى خزائنهم وكنت تسير أنت فى نفس الطريق ، والآن إذا أجزت أن يحدث لي مثل هذا الاستخفاف لما رماني القضاء السماوي على أرضك ، فإن أخوتي وكل منهم صاحب بلد حين يسمعون فسوف يقولون (آكل لحم أخي ولا أدعه لغيري) فيها جمونك بهذه الحجة ويجعلون ديارك مرابض السباع والضباع . فلم يعجل الفاسليوس الجواب حتى هدأت سورة غضب السلطان . وحينذاك دخل من باب الاعتذار والاستغفار وقال كل حكم يقول السلطان يجرى على جيشي وبلدي ، فقال السلطان إن تصديق هذا التصور ألا يعدل عما أقول . فجدد الفاسليوس القسم ألا يتجاوز أحكام السلطان ، فقال السلطان : يحضر لي عدة سلاح حسب اختياري وجواد لائق بالرجال جدير بالميدان وتشير بأن يأتي الفرنجي

معى إلى الميدان فإذا غلب الفرنجي فى المنازلة أخلص من بلاء الغربة وعنائها ، وإذا كان الظفر لي استراح الفاسليوس من جرأة الفرنجي وإسائته . قال الفاسليوس : حاشا أن أسمح بمثل هذه الحالة لأن الملك إذا أصابته والعياذ بالله نكبة فى النزال من صدمة الفرنجي اقترن اسمى بالحماقة لأني أتيت بسلطان فى مقابلة أحد آحاد الأجناد ولا يمكنني المقام فى هذا المقام خوف انتقام أخوتك . فأقسم السلطان الأيمان الغلاظ أن الفاسليوس لو توقف فى هذه القضية لأهلكن نفسي بدون توقف . ولما بلغ إلحاح السلطان الغاية ، أحضر من دار السلاح أسباب الملوك وعدتهم ، فاختار السلطان بعضها ، وأخبر الفرنجي أن غداً يوم اختبار القوة ، فقضى الفرنجي الليل سائره فى تهيئ أسباب النزال وأحكم نفسه بسرج الجواد وظهره ، ودخل عرصة الميدان بعزم القتال . وتحزب خلائق تلك الديار من الصغار والكبار والقارئ والأمي والمسلم والذمي حزبين مال حزب إلى السلطان وصار حزب بجانب الفرنجي الخائف من الحرب . وكان الروح الأمين يبلغ مسامع السلطان كل لحظة نداء (وينصرك الله نصراً عزيزاً)[1] . وكان واقفاً كالطود الحديدى مع الفاسليوس فى القلب يتلو (ومن يتوكل على الله فهو حسبه)[2] وكان يسير كالشمس فى برج الشرف بكل طرف ويطلع كالبدر الزاهر حول العساكر . وبدأ الفرنجي بالحملة بالحربة فاتقاه السلطان بالمجن ، فأعاد نفس العمل فرد السلطان ، وهاجم السلطان فى المرة الثالثة ، وبضربة متلفة للروح جندل الفرنجي وبدبوس كرأس الثور ألقى برأس عابد حافر حمار عيسى فى الأرض بنحو أن أنينه بلغ المقيمين بخطة أسفل السافلين .

بضربة لم تكن منى مخالسة　　　ولا تعجلتها جبنا ولا فرقا

ولم يكن لجواد الفرنجي مهرب من الهرب من نكاية الدبوس وبقي الفرنجي معلقا بلا وعي وحياة بسبب أنه أحكم ربط نفسه بالجواد ، وأبلغ المسلمون والفاسليوس والتجار والأمراء الكبار الحاضرون صوت الاستحسان

---

(١) سورة الفتح الآية (٣) .

(٢) سورة الطلاق الآية (٣) .

حتى الفلك الأعلى ، ورام الفرنجة الأغبرون الخبثاء الوجوه الثورة فأمر الفاسليون بدفعهم وأدب بعضهم فسكن بحر الفتنة المتموج . وحمل السلطان من الميدان إلى داره ، وقدم له تقدمات عظيمة ، وانشغلوا تلك الليلة حتى انفلاق عمود الصباح بالعود والراح وأوصلوا خيط الغبوق بالصبوح . وفى اليوم التالي أحضر إلى قصر السلطان جملة آلات الفرح التي كانت مدخر آباء فاسليوس وأجداده ، وأوجبوا فى ذلك اليوم إحياء موات اللذة فى إراقة دم الدين والذي هو محلل فى شرع ندامي الخمر ، وفى نهاية السُكْر أجرى الفاسليوس على لسانه قوله إن محبة خسرو الإسلام قد تعلقت بقلبي ونفسي حد أنها لا تنفصم عنهما فى أي حال قط ، واني أعد لحظة بلا وجود جمال الملك المبارك وبالا لكني أرجح مصلحة ملك الدنيا على حبي ، فإن يتعب السلطان نفسه بقضاء عدة أيام لدى الملك (مفرزوم) وهو من أكابر قياصرة الروم حتى تخمد نائرة حقد الفرنجة وحسدهم ، وأنا لن أقصر فى إرسال كل ما يأتي فى دائرة إمكاني إلى جانب جانبه العالي وأتمم كل ما هو شرط تعظيمه (لعل الله يحدث بعد ذلك أمرا[1]) . فوقعت هذه الكلمات فى مسامع الملك المشرفة موقع الإمكان وتم الأمر ، وتوجه لأيام عدة مع خدمه وحشمه إلى هذه الجزيرة ولم يك يذكر من جور دورة الفلك شيئاً بدورة جام الصهباء ، وكان الملكان عز الدين وعلاء الدين يصرفان إذا فرغا من الانشغال وقتهما فى الصيد بالبر والبحر . والآن حان الوقت لبدء ذكر تملك السلطان ركن الدين .

ذكر أيام تملك ركن الدين سليمان شاه وتقرير بعض من مناقبه الكريمة

كان السلطان القاهر ركن الدين سليمان شاه ملكاً لم يرتفع مثله فى روضة الدولة من أولاد قلج أرسلان بل أحفاد سلجوق دوحة . كان دبوساً ثقيلاً ذا شفقة على الرعية بلا حدٍّ وعفة تامة وورع وتقوى بلا نهاية . كان فى حلمه كالطود ذي الوقار وفى حكمه كالقضاء المبرم المقيم للفلك .

(١) سورة الطلاق الآية (٣) .

حلو الفكاهة مر الجد قد مزجت   بقسوة البأس منه رقة الغزل

كان فى أنواع العلوم ريانا وباستزادة تلك البضاعة صاديا وعطشانا . ومن جملة نتائج طبعه هذا ، الرباعي الذي أنشده فى حق أخيه قطب الدين ملكشاه ملك سيواس وأقصرا بسبب المعاداة التي نشبت بينهما :

أيها القطب الفلكي لا أخرج رأسي عنك
ما لم أتجمع منفصلا كالنقطة عن الدائرة
وليخرج جلد الكيمخت عن جسدي من كتفي
إذا لم أفصل ضفيرتيك عن جمجتك[1]

لما خرج السلطان غياث الدين من بوابة قونية استقبل الأعيان والمعتبرون السلطان ركن الدين ، والتمسوا الأعذار مما قدموه من تبسط ، فتلا من مصحف الإغضاء وسورة الإغماض (لا تثريب عليكم اليوم[2]) ، وعفا عما مضى وعفا ، ودخل المدينة بالطالع المسعود فى الظل الظليل للمظلة الميمونة ، ووهب السرير الكسروي بشوكة قدومه الجمال والبهاء الخسروي ، وبلغ سخاؤه حد أنه فرق بنهاية الصولجان على الخاص والعام بحضور الرسل خراج الجيش لخمس سنوات وقد أتى له جملة واحدة . كان يرشد الفضلاء والشعراء وأرباب الفضل بلطف تربيته من موماة الفقر والفاقة إلى رياض الدعة والنعمة أرسل إمام الكلام ظهير الدين الفاريابي[3] إليه قصيدة مشهورة ومطلعها :

حبن ينثر زلفه السكران فى المجلس

---

(١) الرباعي بالفارسية :

أي قطب فلك وار ازتوسرنكشم   تاچون نقطت بدايره درنكشم
أز دوش كشيده بادكيمرخت تنم   گر پرچمت ازكاسهء سربنكشم

(٢) سورة يوسف الآية (٩٢) .

(٣) ظهير الدين أبو الفضل طاهر بن محمد الفاريابي من شعراء القصيدة المعروفين في القرن السادس الهجري ، تعلم العربية والحكمة والنجوم مدح حسام الدولة أبا الحسن أردشير من الملوك الباونديين بما زنذران وطغان شاه حاكم نيشابور ومحمد بن إيلدگر وقزل أرسلان بن إيلدگز ونصرة الدين أبا بكر من آتابكة آذربايجان وطغرل بن أرسلان آخر ملوك سلاجقة العراق فضلاً عن السلطان ركن الدين =

يعجز المحب إذا لم ينثر له روحـــــه

فسلم قصاده جائزة لها ألفي دينار وعشرة خيول وخمسة بغال وخمسة غلمان وخمس جواز وخمسين ثوباً من كل نوع . وكان عدله ونصفته من المبلغ أن كان له غلام اسمه (آياز) محمود السيرة[1] كان ركن قلبه بل سائر قلبه مائلاً إلى عشق ذلك القمري الوجه المحطم للشمس . بيد أنه كان راجعاً من الصيد وعلى يده بازيه ، فقابل عجوزاً بيديها قصعة من الزبادي ، فخطف من فرط تأثير حرارة الشمس واستيلاء العطش وإعواز الماء القصعة وشربها . فأسرعت العجوز على الأثر إلى المدينة وأتت باب قصر السلطان وصرخت أن غلاماً استلب قصعة الزبادي التي جعلتها غموساً لخبز أيتامي ولم يعطني ثمنها ، فأمر السلطان باستجلاء حال تلك المظلومة . وفي تلك الاثناء حضر الغلام فجاءة ، فقالت العجوز : هذا خصمي . فأنكر الغلام مخافة الملك ، فقال السلطان إن شق بطن الغلام ولم يكن أكل الزبادي فلن يكون جزاؤك غير القتل ، فرضت العجوز . وفي الحال أمر الجراح بشق بطنه ، وتقليب أحشائه وأمعائه ، وكان قتل الغلام لازماً قبل أن يفرغ من اللبن ، فأمر بقتله وزاد السلطان لفراق محبوبه حزنا على حزن ، وأصدر مثاله الذي يصدق عليه مثال منا وعلينا بأن ينعم على العجوز بألف دينار ، وقضى مدة من الملك على هذه الجملة حتى انبعث سوداء الغزو في سويداء قلبه وصمم على عزم غزو الكرج ، وكان سبب ذلك أن « تامار » ملكة الكرج التي كان لها على مملكة الأبخاز ودار الملك تفليس مثل بلقيس الملك الباهي ونفاذ الأوامر والنواهي كانت سمعت أن

= سليمان . وكان الفاريابى محتذيا في قصائده بالشاعر المعروف الأنوري وأستاذاً في شعر الغزل . والبيت الفارسي :

زلف سرمتش چودر مجلس پريشاني كند

جان اگرجان درنيندازد گران جاني كند

(١) وصف المؤلف العبد (آياز) بأنه (محمود) السيرة ليوري بأياز غلام محمود الغزنوي الأثير لديه الذي ضرب الفرس في أدبهم وخاصة في الشاهنامة بحب محمود له الأمثال .

للسلطان قلج أرسلان اثنى عشر ولداً كل منهم على سماء الملاحة قمر الفلك وفى دنيا الصباحه ملك ، وكانت كلما صادفت أثراً لأمير صبيح الوجه جميل اللفظ بحكم (أما النساء فميلهن إلى الهوى) قرأت عليه بلسان التعشق (الأذن تعشق قبل العين أحياناً) ، وتجلب بالمال أو الكلام الصيد المقصود بشباك الحصول ، وكانت أرسلت إلى ديار الروم مصوراً نقش صورة كل من الأمراء ، وتحركت جواذب عشقها من بينهم على الملك ركن الدين سليمان شاه ، فعشقت تصويره[1] . وبناء على ذلك أرسلت تطلب الوصال ، فحكى قلج أرسلان القضية فى خلوة لسليمان شاه واسترضاه واستنطقه ، فنسج من غاية الأنفة فى هذا الباب المتشابك الأذناب حبل العتاب أن كيف يجوز ملك العالم لملكة[2] الأبخاز فى تمكينها من تيسير المقصد الدني الدنيوي وحصولها عليه أن يرسل بي إلى مصطبة الكفر والضلال ، وإني آمل أن يكون لوعد (وعدكم الله مغانم كثيرة[3]) الإنجاز بشأن فتح الأبخاز ، فأجرد جيوشي وأنسف أرضها نسفاً وآتى بهذه الفاجرة فى قيد الإسار والخسار (مأخوذة بالنواصي والأقدام[4]) إلى بلاط الشاه . فنال السلطان من علو طبع ابنه بمذاق نفسه وفؤاده اللذات والراحات ، فأثنى عليه كثيرا واعتذر إليه بليغاً .

ذكر عزم السلطان ركن الدين سليمان شاه لغزو

---

(١) وصف ابن الأثير هذه المرأة بهذه الصفة المرذولة وأكثر ، راجعه جـ ١٢ ص ١٩١ تحت عنوان (حادثة غريبة لم يوجد مثلها) .

(٢) في الأصل خطأ (مملكت) .

(٣) سورة الفتح الآية (٢٠) .

(٤) تأثراً بقوله تعالى فى سورة الرحمن (يعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والأقدام) الآية ٤١ .

الكرج وأويته منها خلاف الإرادة وذكر ملك فخر الدين بهرام شاه

كان هذه الضغينة القديمة تمكنت من صدر السلطان ، فلما بلغته نوبة السلطنة توجه إلى هذه الحدود بجيش لجب ، وسابق بإرسال الرسل إلى ملوك الأطراف والأخوة ليستعدوا للقتال والجدال ، فلحق به قبل الجميع مغيث الدين طغرل شاه ملك آبلستان وأرسل كذلك إلى الملك فخر الدين بهرام شاه الذي كان صهر السلطان ومن أحفاد « منگوجك » الغازي ، وكان فريد عصره ووحيد عالمه بلطف النفس وحسن السيرة وعلوه الهمة ونقاء الجيب وطهارة الذيل وفرط المرحمة والشفقة وفى أيام ملكة فى أرزنجان[١] لم يكن يقع فرح أو مأتم قط لم يكن فيه من مطبخه المؤونة والأسباب أو يشرفه بحضوره ، وكان فى موسم الشتاء القارس تلبس الجبال والبراري الغلائل والحواصل من إنعامه العام ، وكان يأمر فتحمل الحبوب بالعجلات إلى الجبال والفلوات فتنثر ليتهيأ منها للطيور والوحوش طعام . ألف (نظامي گنجه) كتاب مخزن الأسرار[٢] له وأرسله إليه تحفة ، فأجازه بخمسة آلاف دينار وخمسة بغال سريعة ، ونعود

---

(١) من بلاد أرمينية بين خلاط وأرزن الروم وأهلها يقولون أرزنكان بالكاف (ياقوت ٢٠٥/١).

(٢) هو الحكيم جمال أبو محمد الياس بن يوسف بن زكي من شعراء القصة الكبار بإيران ولد في حدود (٥٣٥) في گنجه ، حيث قضى أغلب عمره فيها مائلاً إلى العزلة ، من آثاره ديوان يحوي عشرين ألف ما يزال بعضه ثم (الخمسة) وهي مثنويات خمسة بلغت ٢٨ ألف بيت وهي مخزن الأسرار وليلى والمجنون وخسرو وشيرين وهفت پيكر أو بهرام نامه واسكندر نامه . وتتميز أشعاره باحتوائها المضامين الأخلاقية والحكمه والوعظ وحديثه عن العشق يتجافى عن غير طهارة الخلق والعفة والحياء كما يرى فيها أثر مما تعلمه من علوم العصر كالفلسفة والعلوم الطبيعية . وقد قلده كثرة من الشعراء منهم أمير خسرو الدهلوي وعبد الرحمن الجامي فعد أستاذاً للشعر التمثيلي . أما مثنويه مخزن الأسرار فيحوي (٢٢٦٠) =

إلى أصل الحديث : فدعا هو بدوره بموجب الرأي الجيش من كل طرف ، وتوجه فى خدمة السلطان إلى أرزنجان . وكان « علاء الدين السلتقي » ملك أرزن الروم[١] يتعلل العلل فى احتشاد الأجناد وارتسام الأوامر المطاع لها والمنقاد . فأمر السلطان بعزله وأوكل تلك المملكة إلى مغيث الدين طغرل شاه ، وتوغل من هناك بجيش بعدد النجوم على جياد صفر كقطع الجبال فى ممالك الأبخاز ، فنفر أولئك الكفرة الفجرة بجم غفير نفيراً عاماً واستعر القتل بين الجيشين حتى غشيت صحراء المعركة سائرها بالصرعى ورام فتح عظيم أن يسفر من ستر الغيب وأوشك الكفار تلاوة (ولوا على أدبارهم[٢]) لكن حكم (وكان أمر الله قدراً مقدورا[٣]) اختطف زمام المرام من يدي أهل الإسلام ، وعثرت قدم جواد حامل المظلة بحجر يربوع فهوت المظلة إلى الأرض ، فلما تحولت عيون الحشم ومبارزي المعركة إلى تلك الحالة ذهبت بهم الظنون إلى أن ربما مكر العدو أثر فى القلب ونال السلطان نكبة فألقوا باليزنيّات والمشرفيات وتبدلت حالة الكر بالفر وصار الضارب مضروباً والقاتل مقتولا (فصار الأسير أميراً والأمير أسيراً وكان ذلك على الله يسيراً) وأُسقط الملك فخر الدين ومعه فوج من حشمه فأُسروا ، وسقط السلطان ومعه الملك مغيث الدين وكوكبة من جيشه إلى أرزن الروم ، وبعد حصول الاستراحة وأسو الجراحة ولي وجهه إلى الروم وقدم إلى قونية ، وأخذ يدعو هناك إلى عزم العودة والإعادة ، وفى تلك الأثناء لحق بجوار الباري بسبب مرض عرض لجوهر وجوده فى شهور سنة إحدى وستمائه .

فقدناه لما تم واعتم بالعلى

= بيتاً وموضوعها الحكمة والوعظ في عشرين مقالة اختلط فيها القصص والتمثيل وقد قلد سنائي الغزنوي فيه .

(١) أرضروم وأرزوم أو أرض الروم أو قاليقلا وعند الأرمن كارين من بلاد أرمنية تقع بالقرب من أرزن (لسترنج ١٤٩ - ١٥٠) .

(٢) الإسراء الآية ٤٦ .

(٣) سورة الأحزاب الآية (٣٨) .

كـــذلك كسوف البدر عند تـمـامــه

مضـى طـاهـر الأثـواب لـم يبـق بعده

كـريم يـروي الأرض بـعـد غـمـامــه

عـاقبـة الدنـيا ليـست خـلا التراب

والحـظ منـها السم لا الـتريــاق

كـان دأبـهـا مـا بقـي الفـلك الـدائـر

أن تفيض منك بغضا حينا وحباً حينا آخر

وترتفع بأحدهم إلـى عناق الفلك السامـق

مـن عنايتهـا وتـأسو جـراحه بـلا إيلام

يـمـد الـزمـان يـده بشـراب الســم

لمـداواة مـرض قلب الأسـد وجلـد النمر

أي تلاعب هذا برأسك باحتراف من الزمـان

إذا يسـتلب التاج من رأسك لما أعطاكه[١]

ذكر أيام سلطنة عز الدين قلج أرسلان ولد ركن الدين سليمان شاه

حين لحق السلطان ركن الدين بدار السلام رفع أمراء الدولة مثل « نوح ألب » و« أمير منده » و« توزبيك » - الذين كانوا قدموا من المحروسة « توقات » في خدمة راية السلطنة وتقلدوا المناصب العليا وغدوا مستودع أسرار

---

(١) الأبيات الفارسية :

سرانجام گيتي بجزخاك ينـست	وزوبهره زهرست وترياك نيسـت
چنين بود تابود گردان سپـهر	كمي پر زكينت وگه پر زمهـر
يكي را برآرد بچرخ بلنـد	زتيمـارو دردش كند بي گزنـد
زمانه بزهراب دادسـت چـنگ	بدرد دل شير وچرم پلنـگ
بپيشه زمانه چه بازي سـرت	ربـايدچو داد ازسرت افرسـت

الملك - عز الدين قلج أرسلان ولد السلطان إلى العرش ولم يبلغ إذ ذاك حد البلوغ وأوفوا حق نعمة الأب بتمشية مصالح الابن . وتيسر فتح ولاية (اسبرطة) وهي من معظمات قلاع سواحل بحر المغرب فى أيام ذلك الطفل المعصوم ، وبايع على ولائه ملوك الإسلام وقياصرة الروم وتكافرة الكرج ، وتواصلت من الأطراف إلى الخزانة الأتاوات والأحمال على القرار السابق ، وسوف يذكر فيما بعد ختمة تلك الدولة فى موضعها .

أما مظفر الدين محمود وظهير الدين الإيلي وبدر الدين يوسف أولاد (ياغي بسان) بحكم أنهم كانوا مائلين لغياث الدين كيخسرو فقد سلكوا جادة النفاق وكانوا يتنكبون طريق الوفاق ، وهؤلاء الأخوة الثلاثة كانوا قواداً ورؤساء لعساكر الثغور فجنحوا بأمراء الأطراف إلى موالاة السلطان فتقاسموا وأخذوا الخطوط والحجج وعينوا « زكريا الحاجب » الذي كان مشهوراً بوفور الكفاية ومذكوراً بكثرة الدهاء ومعرفة اللغات والألسنة لطلب السلطان ووضعت تلك العهود والمكتوبات فى تجويف عصا وسلمت له وألبس مسوح الرهبان وسيروه مستظهراً بالوعود الجميلة . فلما بلغ مُلْك الملك مفرزوم واستدل على بيت السلطان ، وأخذ يطوف حول أطرافه ويتحين الفرصة . وفى وقت قيظ رأى الأمراء سائرين مع فوج من الغلمان وشرعوا يبنون بعادة الأطفال طاحونه ماء على شفا مرج كان كأنه الحسان تنفست حول عذارها الخطوط الخضراء ، فظهر زكريا لدى الملك عز الدين الذي كان فى الجيش بغير قرين ، لم ينقش نقاش (صوركم فأحسن صوركم[1]) نقشاً مثله فى معمل الوجود :

كـان الـزمان مـتـأهـباً مـوافـقـاً لأجـلـه

استخدم له كل جمال وزينة فى باب الحسن[2]

---

(١) سورة الروم الآية (٦٤) .

(٢) البيت الفارسي :

يكايك ازپي او روزگار ساخته بـود — زباب حسن هر آنچش بكارمي آمد

واختلس منه قبلة هي زاد حياة الأبد ، فعجل الأمير إلى معية السلطان من فرط الاضطراب والاستغراب وعرض الأمر ، فطلبه السلطان فلما دخل عليه أمر مفرزوم أن يجري عليه حكم الموت ، ففتح الحاجب حاجب المعرفة خوف إراقة ماء وجهه ، ورفع طرف القلنسوة عن جبهته فعرفه السلطان وأهمل فى تفحص الحال ، واعتذر لمفرزوم العذر المناسب للوقت ، وأمر باللغة الفارسية أحد خواصه فمنعه جانباً . ولما خلا الدار من الأغيار طلب السلطان زكريا ، فدخل عليه مسرعاً متبختراً كالسعادة والإقبال وقال : نتيجة هذه الجرأة هذه القربة فقال السلطان : كيف أخي ؟ فأجاب : أخذ مملكة الأبخاز فى أوج العظمة وتسلم ولاية الكرج ، وأخذ يتبسم وقت التكلم ، فقال السلطان : علام الضحك ؟ فزاد إليه قربا وقرر له الأحوال برمتها ، وقدم إلى السلطان الخطوط والعهود ، فلما اطلع على المكاتبات والعهود ، سح الدمع من ناظريه وأسف على وفاة أخيه مع أن قلبه امتلأ ناراً من جوره وعاين منه ظلماً بلا حد. ثم طلب الملك مفرزوم وأعاد عليه الواقعة وأدى شروط العزاء ثلاثة أيام ، وفى اليوم الرابع قال أنه مصمم على عزم الممالك الموروثة ، فقال مفرزوم أفديك بكل ما لدى فمر بترتيب أسباب الرحلة وأنا العبد أيضاً أترجل ملازما الركاب الميمون وكان قبل ذلك أورد ابنته فى حبالة تزوج السلطان وجعل ابنه ملازماً لحضرة السلطنة ، فوعد السلطان الجميع بالمواعيد الجميلة ، ومضى عازماً ، ولما بلغ « أزنيق[1] » مانع الفاسليوس : أني تعاهدت مع ولد السلطان ركن الدين بيمين مغلظ ولا يمكن أن أدع السلطان يسير بقصد ملكه ، وظلوا أياماً عديدة فى هذا القيل والقال ، وآخر الأمر استقر الأمر أن كل ما فتحه السلاجقة من ولاية الروم حتى حدود قونية مثل خوناس ولاديق وبقاع أخرى

---

(١) أو يزنيق أو نيقية مدينة كبيرة من مدن أسيا الصغرى من أعمال القسطنطينية على البر الشرقي وكانت عاصمة إقليم بيثينيا في العصر البيزنطي وبينها وبين القسطنطينية ثلاثون ميلا حيث تقع في مواجهة العاصمة البيزنطية على البر الأسيوي لمضيق البوسفور الذي يبعد عن نيقية ثلاثة أميال ولهذه المدينة تاريخ شهير في المسيحية حيث عقد بها بعض المجامع الدينية الهامة (الإدريسي ٨٠٢/٧ ، ٨٠٥ - لسترنج ١٨٩ - ١٩٠) .

تسلم إلى نواب الفاسليوس ويترك السلطان أولاده ومعهم زكريا رهائن ويمر هو نفسه ، فاذا رقي العرش وسلم المواضيع المذكورة إلى معتمدي الفاسليوس سير الأولاد من مكانهم ذاك ، ومضي على هذا التقرير السلطان ومفرزوم وكافة الخواص وبلغ أطراف الثغور . ولما انصرمت أيام عدة ، قدم زكريا إلى الفاسليوس وقال ان الأمراء رقيقو الطبع ويملون من المكوث بالقصر ، فسمح الفاسليوس أن يمتطوا صهوات جيادهم للسير مرتين كل يوم ويتريضون في مروج أزنيق الأنيقة ، وغمر بضعة نفر من خواص الفاسليوس بالإنعام والإحسان وجذبهم بالإبهام والكناية إلى حَيِّز الدعوة وأقسم بالانجيل والصليب . وفى يوم صلاة أخرى ركب الأمراء واتجهوا إلى مصطاد ، وفجأة ظهر لهم خنزير وحشى ، توجه خوف النصل والسيف والسهم ناحية ممالك الإسلام ، فتفاءلوا بهذا وقالوا :

اليوم صارت الدنيا وفق مرادنا	وغدا الفلك الدوار غلامنا
وأصبح منشور الممالك من الله	بلا منة من أحد باسمنا[1]

ثم سلكوا الطريق قدماً وظلوا يبارون ويجارون الصرصر والنكباء فى السبسب والبيداء ، ولما تبدلت كسوة النور بظلمة الديجور كانوا قد بلغوا حدود ممالك الإسلام ، وكان السلطان لا يزال فى تلافى مهمات الثغور وتأليف أهواء أمراء تلك الأطراف ، فسار زكريا إلى معية سلطان (أولاق) لكي لا يترك القلاع والبلاد لأن الأمر قد انتهى ووصل الأمراء فى ضمان السلامة كالنجوم إلى تخوم الممالك ولحقوا بحدود ملك الجدود ، فأطاح السلطان لهذا الخير تاج السعادة فى فلك التوفيق ، وفرغ من مهمات الثغور فعجل إلى قونية فى رجب سنة اثنتين وستمايه .

---

(١) البيتان بالفارسية :

امروزجهان بكام ماشد	گردنده فلك غلام ماشد
منشور ممالك ازخداوند	بي منت كس بنام ماشد

ذكر محاصرة غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان لقونية

لما أخبر أهالي قونية بقدوم السلطان عزفوا على صنج الحرب لحن وفاء السلطان ولدركن الدين سليمان شاه ، وتنكبوا عن قانون الصلح ، فبعث شيطان النخوة السلطان على أنه أمر فقطعت كل الجنان بطبر الضرر وفأس البأس وخربت القصور والدور القريبة من المدينة والنائية وأضرمت فيها النار .

وقال لهم السلطان قلج أرسلان (ابن ركن الدين سليمان شاه) : إني أعلم أن عمى قد وقف على أقدام الانتقام ، فلن يكون إبقاء ومحاباة ، فإن أمننى على حياتي فهذا نعمة جزيلة ، فلا تضيعوا مصلحتكم بلا فائدة ، فأرسلوا إلى معية السلطان وقرعوا باب الصلح على شريطة أن يفعل السلطان بابن أخيه ما كان فعل السلطان ركن الدين بالأميرين وتفوض له المملكة وأن يؤتى به إلى معيته كما تأمر به صلة الرحم وهو مراع لهذا الأمر فيلقى التبجيل بشرف التقبيل ، ويدخل الملك المدينة بفأل سعيد . فصادف هذا الرأى الموافقة من السلطان ، وقرر له ولايه توقات كما كانت فى عهد السلطان ركن الدين إذ كانت ملكه ، وغدا المنشور مسطوراً . ولما رأى أعيان قونية العهود والمناشير حملوا الأمير بلا خلاف وهم إلى معية عمه ، وأسبق السلطان إرسال عز الدين وعلاء الدين . ولما رأى ولد السلطان ركن الدين وجه عمه قبل الأرض بين يديه ورام الوقوف مصفد اليدين فلم يدعه السلطان وأجلسه بجانبه وقبله بين عينيه وأقعده على فخذه وأرضاه كل الإرضاء وشرفه شرف الملوك وأمر أن يقيم بعض أيام بقلعه (كاوله) ثم يتوجه تلقاء المحروسة توقات موفقاً .

ذكر دخول السلطان غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان فى قونية وجلوسه على سرير السلطنة

وفى اليوم التالي حين طلع ملك النجوم دخل الملك كالشمس مستظلا بالمظلة السوداء ظهير أهل الدنيا ومعاذهم مدينة قونية التي ساعة واحدة فيها خير من ألف شهر فى البلاد الأخرى بجيوش كالبحر الأخضر الجيشان وحشم كأعداد الأمطار بلا إحصار ، وخطا بقدمه من ركاب أرض الاطمئنان على تخت الآباء الفتيان ، فنالت أنواع الأفراح الخاص والعام ولقيت أهواء الجند والرعية على محبته وولائه الالتيام :

حين لبس تاج العظمة سعد به التاج وسعد هو بالتاج
عمر كل مكان حل به الخراب وأسعد قلوب المحزونين[1]

بلغ بمفرزوم المنزلة العليا والمرتبة القصوى ، وفوض المحروسة (ملطية) للملك عز الدين كيكاوس وأملاك الدانشمند بأسرها للملك علاء الدين كيقباذ ، وأرسل الى الملوك والسلاطين بالأطراف الكتب والرسل ، وأعلم عن مواتاة السعادة ومساعدة الدولة ، ودعا الشيخ مجد الدين إسحاق الذي كان انتقل إلى ديار الشام وقت جلاءالسلطان عن بلاد الروم بهذه الأبيات الرائقة :

صحة الذات الطاهرة السموية
تاج أصحاب مجلس الأخوية
عز الأقران الوحيدين بالآفاق
صدر الإسلام مجد الدين إسحاق
ذلك العزيز والرفيق اللائق
كأنه الملاك وأنه الفائق

---

(١) البيتان بالفارسيان :

چوتاج بزرگي بسر برنهاد ازوشاد شد تاج واونيز شاد
بهرجا كه ويران بد آباد كرد دل عمگنان رازغم شاد كرد

ألا فليظل حتى يوم الحشر باقـــيا
وفـي الاحـترام والرتبـة راقــيــاً
ولتبق يـد الآفة عــن عرضه مصروفة
وعـيــن الفـتنة عــن ذاتـه مكـفوفة
يا من له سيرة الولي ، وسنة الـنبــي
حــين أقــول : في ذاك الوقـت الأصعب
ما قاسيت من جور الفلك الحرون المعناد
صار دما جاريا على سن القلم المــداد
أرأيـت يـا مجمع الـصدور الكـرام
كـيف فـعـل الزمان لـنا الحــرام ؟
ذهـــب بـالملـك عنـا بـظـلم منه لنا
وأعـطـاه قـاسيـاً لاحفـاظ لـه علينا
فـصرت كجـمشيد تـملأ قـلـبي الآلام
وفـرقتني فـي بـلاد الـدنيا الأيـــام
حيـنا أكـون بالشام وأخـر بالأرمــن
ومرة أحل بالأطلال وأخـــرى بالـدمن
وقتا أكون كالتمساح فى بحـور المـــاء
وثـــانيا أصـير كالنمـر فى الـبيـداء
وعـهداً أقيم بستنبول ومثله بالعســـكر
وزمـنا أبقى بالمغرب ومثله بالـبــربر
ظل أمري مدة من الدهر بأكثر من ضرب
أكون مرة بسيف على ظهر الجواد الأصفر بحرب أهل الغرب
عاينـت معـارك وخضت واقعـــات
ســددت طـعـنات وأصـــبت بضربات
أحيانا كنت فـريسـة الندم والغـم
بسبـب أصدقاء لهـم طبـع اللـــؤم

أما أصدقائي كالبازات ذوي الصدور الرحاب
فهـــم مثلي تفرقت بهم في الدنيا الأسباب
فلمـا أن أظهـر لطـف الحق جماله اللألاء
وكـذا أبـدت دورة الزمـان لـي الوفـــاء
كنت أرى رؤي الصواب مــــن الأحـــلام
وأشـاهـــد أثـرها فـــي المنـــام
إلــى جـانـب الأمـان عـزمت الــرواح
حـيـن أتـانـي مبـشر وقـت الصــباح
بخـبر مـوت الخـصـم وفـترة الملـــك
قـال ألا فليسـعـد بـوجهك ملك الـــترك
وكـتُـبُ أكـــــابـــر الأطــراف
مــع رسائـــــل خلاصة الأشراف
قـالــت ان جـمـلـتـنا إلـيـك داعـــون
فـراعنا أيهـا المهـدي فإنا إليك ساعون
وكـان الهاتف في كل لحظة بطريقة الإلهام
يـقـول عـجـل وحـــرك الأقـــــــدام
فعـــدت إلـى سـاحـل بـحـر المــــاء
حيـث يـزيـد الخـوف مـن البحر والشتاء
قصـة الـبحر القـصـــيرة قـطـعـت
لا رأت عـيـنــــاك مـا رأيــــت
فـقـدمـت إلـى (بـرغلـو) بالمـــراد
فـوجـدت مـلـكـاً كـانـه الـنـرد الـزيـــاد
وعـزم المفـسـدون كـثـيـراً لـى الـضـغناء
وأسـرجـوا خيل الــظـــلـم والـجـفـاء
ولما أن اللـــه كان لي المعين والحافظ والظهير
ضعف أمرهم وأصيبوا حينا بالجرح الخطير

وفي العاقبة صار حظنا مظفرا

وغدا الملك سائره ميسرا

إن الملك لنا مطيع ولك مكين

والذكر لنا في الدنيا ولك التمكين

الأبرار من فضلنا العادل معتفون

وأحباؤنا علينا مجتمعون

فهيا إن الوقت لكي تطلبنا قدآن

فإن كان برأسك طين فاغسله فى هذا المكان[(١)]

---

(١) الأبيات بالفارسية :

صحت ذات طاهر سموي   تاج اصحاب مجلس اخوي
عزا قران يگانهء آفاق   صدر اسلام مجددين اسحاق
آن عزيز ورفيق وشايسته   وان چوجان فرشته بايسته
بادتار وز حشرپاينده   حرمت ورتبتش فزاينده
دست آفت زعرض أو مصروف   چشم فتنه زذات أو مكفوف
اي ولي سيرت اي نبي سنت   گربگويم كه اندرين مدت
چه كشيدم زجور چرخ حرون   مده برنوك كلك گرددخون
ديدي آن مجمع صدور كرام   كه زمانه چگونه كردحرام
پادشاهي زما بظلم ببرد   بيكي تند بي حفاظ سپرد
من چوجم دل بغصه آگنده   شده اندرجهان پراگنده
گاه درشام وگاه درارمن   گاه اطلال جاي وگاه دمن
گاه همچون نهنگ دردريا   گاه همچون پلنگ برصحرا
گه ستنبول جاي وگه لشكر   گاه مغرب مقام وگه بربر
مدتى كارمن زدهر دورنگ   تيغ وپشت سمند وحرب فرنگ
رزمها ديده حربها كرده   طعنها داده ضربها خورده
گاه گاهم غذا ندامت وغم   ازپي دوستان طبع دژم
دوستانم چوپازبركنده   همچومن درجهان پراگنده
بازچون لطف حق جمال نمود   گردش چرخ هم وفا فرمود
خوابهاء صواب ميديدم   اثرآن بخواب ميديدم =

ولما وصلت هذا اللطائف إلى معية قدوة الطوائف سارع فى القدوم ووصل السير بالسري وزاد فى أوراد الدعاء والثنا ، واهتزت فى السلطان فى استقبال قدومه الميمون أعطاف الألطاف ، وبالغ فى إعزاز جانبه ، وأوفد الملك عز الدين بمرافقة الشيخ إلى المحروسة (ملطية) وسير علاء الدين كيقباذ مع جماعة من الكفاة إلى توقات . وفى وقت دخول المدينة صدر من السلطان بادرة لم ترض واحداً قط ، وكانت قتله للقاضي الترمذي الذي كان يوضع بدل الإمام أبي الليث السمر قندي وكان سببه أنه أحيل تمنع أهل المدينة فى وقت محاصرتها إلى فتوى منه ، وقيل إنه يقول إن السلطة لا تصل إلى غياث الدين لأنه قبل ذاك أظهر توليه لولاء الكفار وارتكب فى ديارهم مناهي الشرع . ولم يطعم من شؤم إراقه ذلك الدم بغير حق ساكنو ضواحي قونية ونواحيها مدة ثلاث سنين من المزروعات والبساتين البرية ، وفى العاقبة ندم على فعله وأكرم أخلاف القاضي وأعقابه واعتذر لهم بالأعذار .

= عزم كردم بجانب الأمان   كاندر آمد مبشري بامان
خبر مرگ خصم وفترت ملك   گفت هين شادشوبرويت ملك
نامهاء اكابر اطراف   باپيام خلاصهء اشراف
گفت ما جمله داعيان توئيم   مهديا هين كه ساعيان توئيم
هردمم هاتف ازره الهام   گفت عجل وحرك الاقدام
بازگشتم بساحل دريا   وآنگهي جه مخوف بحر وشتا
قصهء كوتاه بحر ببريدم   تومبيناش آنچه من ديدم
آمدم سوى برغلو بمراد   ملكي يافتم چو نرد زياد
مفسدي چند عزم كين كرده   اسپ ظلم وجفا بزين كرده
چون خدا بود يار وحافظ وپشت   خرد كشتند گاه زخم درشت
عاقبت بخت ما مظفر شد   مملكت سربسرميسر شد
مملكت رام ما ورام شماست   درجهان نام ما وكام شماست
نيك خواهان زفضل داورما   مجمع دوستان مابرما
هين كه وقت است جايي اينجا جوي   گرسرت دركلست اينجا شوي

ذكر عزيمة السلطان غياث الدين كيخسرو على فتح أنطالية

كان السلطان جالساً يوما على العرش على عدته المعهودة يقضي حين دخلت فجأة جماعة تجار شقت الجيوب ووضعت التراب على رؤوسها قائلة :
أيها الملك العالي النجم نحن طائفة من التجار وضعنا فى طلب منال العيال من وجه الحلال رؤوسنا فى معرض الخطر ، وسلكنا أسفاراً شاقه ، وبقيت أطفالنا بسبب ذلك الكسب على الدوام أصابعهم بشفاههم وآذانهم بالأبواب وعيونهم على الطريق أن متى يرى الأب وجه ابنه أو متى تصل رسالة من أخ لأخيه . عبرنا من ديار مصر صوب ميناء الإسكندرية ومنها بالفلك إلى ثغر أنطالية ، فآذانا حكام الإفرنج وأخذوا من غير جريرة ناطقنا وصامتنا من قليل وكثير بالظلم والعدوان وقالوا هازئين هذا السلطان العادل الغازي جلس فى قونية وبسط بساط المعدلة فاحملوا تظلمكم حتى يغزونا ويشفى الصدور منا . فرق السلطان لذلتهم وقلتهم واشتعلت نار العصبية فأقسم بالملك المتملك أنني لم أقعد حتى استرد أموالكم ، فقد ذقت مرارة الغربة ورأيت نكاية الظلمة .

إنـــي لأعـــلم حـــالكم أيـــهـــا المســـاكين
لأنه كان لي قلنسوة أيضاً من هذا اللباد[١]

ثم أصدر إلى أطراف الممالك بدعوة العساكر أوامره ، واجتمع جيش عظيم فى قليل الوقت ، وتوجه باستظهار فضل القهار بجيش جرار إلى ديار الكفار ، وبلغ بعد بضع من المراحل معدود إلى تلك الحدود ، فأقبل الجيش القدير الشجاع الذي يلج فى فيٍّ الأسد أثناء اقتحام المهالك حول دائرة أنطالية كدائرة السوء من كل صوب ، ونصبوا المنجنيقات ، وظلوا من الصباح

---

(١) أصل البيت الفارسي :

من مي دانم حال شما مسكينان   زيراهم ازين نمد كلاهم بودست

إلى الرواح شهرين متواترين مقارعين ومحاصرين ، فلما لم يتطرق نوع فتور إلى رجال السور أمر السلطان بأن يحاربوا بالسهام والأقواس عوضاً عن الدبوس والسنان ولا يبقوا أماناً لإفرنجي قط فى أن ينظر من شرفات السور إلى شجعان النزال وأن يقاتل الأبطال المتمرسون وأن ينصبوا السلالم على السور ويظهروا عيار الرجولة على محك الامتحان . فلما بلغ هذا الأمر مسامع مجامع العساكر ، هاجوا كالجراد والنمل مرة واحدة ، وفى أقل من ساعة وضعوا السلالم التي كانت محرم أسرار أوج الفلك لفرط ارتفاعها على كل قسم من السور . وكان أول من خطا بقدم الصدق ومدّ يد المبادرة حسام الدين يولق أرسلان من جنود قونية القدماء الذي أسرع بسيفه وخوذته وقفطانه على سور الحجر كالنمر وألقى بنفسه على الفرنجة وجعل بضعه نفر تسلك السفر إلى السقر ، وترك الباقون القرار وأخذوا طريق الفرار ، واعتلى شجعان الجيش من كل طرف بسيوف فولاذية السور كالريح حين تتخطى الجبل ، ونصبوا سنجق السلطان على شرفات السور وانثالوا على المدينة ، وبزحف تام وبضرب الدبوس والعمود حطموا الأقفال وفتحوا البوابة ، ودخل باقي العسكر كالعقبان الكواسر فى المدينة ، وبناء على أن الفرنجة كانوا أطالوا ألسنتهم فى مدة المحاصرة بالسب أمر السلطان بالقتل فيهم ثلاثة أيام ، فمد من دم كفار الملل بساط أحمر على وجه البحر الأخضر وأعد للطير والسمك من أشلاء هؤلاء الجفاة وجيفهم ضيافة عظيمة . وبعد ذلك وصلهم الأمر أن توضع السيوف من الرقاب فى القراب ويخاطب بها المهاجَمون وهم بقايا السيوف بالسبي والنهاب ، وانقضت أيام خمسة أخرى كانت فيها أمواج السلب وبحار النهب فى تلاطم وتصادم . واليوم السادس منح إمارة أنطالية مبارز الدين ارتقش وكان من الغلمان الخواص للسلطان وملازماً لركابه الميمون فى الغربة ، ووقعت هذه الحكاية والفتح فى شعبان سنة ثلاث

وستمائه[١] .

ثم أمر أن يلج المدينة بحشمه ويهب الأمان . ومكث السلطان مدة كذلك فيها حتى رممت الصدوع التي حدثت للسور وقت المحاصرة ، ونصب قاضٍ وخطيب وإمام ومؤذن ومنبر ومحراب . وبعد تمام الاحتياط ، لفت العنان صوب دار الملك قونية . ولما قطع منزلاً من السواحل أمر نواب ديوان السلطنة أن يقيموا بمنزل (دودان) ويحصلوا الأخماس الخاصة ، وطلب التجار الذين سبق أن تظلموا إليه وكانوا ملازمين له فى القتال وكان مركوبهم وماكولهم من الاصطبل والمطبخ الخاصين به ، وأراد نسخ الأموال حتى يأخذوا كل الموجود منها فى الغنائم والعساكر ، وكتب إلى الأمير مبارز الدين أمراً بأن يبتغي الباقي عنده ويبلغهم من الأموال الخاصة كل ما هو مفقود لأن سبب مثل هذا الفتح كان رفع ظلامتهم وصار ذلك الكسر على العدو سبب جبر حالهم ، ولحق السلطان بالمراد بقونية . هكذا يفعل الكبراء ، وينبغي أن يكون الصنيع مثلما صنع .

---

(١) تقع مدينة أتاليا أو أداليا أو أنطاليا في القسم الجنوبي من آسيا الصغرى على ساحلها الجنوبي على بحر الروم (البحر الأبيض) ، وهي في غربي قونية على مسيرة عشرة أيام . وقد ورد اسمها في المصادر القديمة بصيغة Adalia أو Atta-leia نسبة إلى مؤسسها أتالوس الثاني حاكم بيرجامورم (١٥٩ – ١٣٨ ق.م) وكانت حصنا منيعا للبيزنطيين ومنها يسافر إلى مضيق البوسفور ولها بابان باب إلى البحر وآخر إلى البر وكان الصليبيون يعبرون منها إلى بلاد الشام . وكان سكانها تشكلاً من المسلمين والنصارى والروم واليهود كل في موضع مسور (الإدريسي ٨١٢/٧ – لسترنج ١٨٣ – ١٨٤) .

ذكر عزيمة السلطان إلى غزو بلاد الروم والترقى منها إلى درجة الشهادة

لما رجع السلطان من غزو ثغر أنطالية ، وضمت تلك المملكة الجديدة إلى تصرف عبيده القدماء أحنى جبابرة الدهر وقواد العصر رؤوسهم إلى خط فرمانه وخطا أولئك على جادة عهده وميثاقه ولم يك يخطر فى خاطر أحد قط أن تنحل عقدة تلك الدولة أو تزول شمس تلك السعادة . أظهر لاعب التقدير من وراء ستر اللعب الغريبة ، وأبدى النقوش العجيبة حتى حرك فى السلطان نواهض الهمة وباعث العزيمة إلى غزو بلاد الروم التى تنسب إلى (لشكرى[١]) . وكان سبب ذلك كما ذكر قبل هذا أنه كان يمانع السلطان فى الخروج والدخول من بلاده إلى ممالك الاسلام ، وأخذ حين أن تمكن من تخت السؤدد يتلكأ ويتوقف فى إرسال الإتاوات وارتسام الأوامر والخدمات . وفى يوم اختلى السلطان بأركان الدولة وتحدث فى باب تدارك أمر (لشكرى) وقال : إذا لم يتلاف فضوله وغروره تماما فيمكن أن يفضى إلى موقع عظيم . فقال أكابر الدولة : نقض العهود مذموم وعاقبته شوم (واليمين الغموس يدع البلاد بلا قع) ولا يمكن أن يكون حاصل هذا التفكير غير خراب المملكة واضطراب حال الدولة وطريق الوعد والوعيد فى هذا الباب غير موصد ، فيجب إرسال الرسل والعتاب البليغ والغلظة فى الطلب ، فإن أتى من طريق الاستغفار بالاعتذار ، فلابد أن يتلى آية (لا تثريب عليكم

---

(١) يطلق المتأخرون من مؤرخى المسلمين هذا الاسم على الأباطرة البيزنطيين منذ أوائل القرن السابع الهجرى ذلك أنه لما استولت جيوش الفرنج اللاتين الذين عرفت حملتهم بالحرب الصليبية الرابعة على القسطنطينية (٦٠٠ هـ) خلعوا امبراطورها وأقاموا بدلاً منه كالدوين ثم ما لبثوا أن وجدوا فى زوج ابنة الامبراطور المخلوع واسمه تيودور لاسكاريس زعيماً لهم فى حركة إخراج اللاتين فتوجوه امبراطوراً بمدينة نيقية سنة ١٢٠٦ م وحكم (الأشكرى) هذا نيقية حتى وفاته ١١٢٢ .
(كتاب السلوك ج١ ص ١٢٣ ح ٦)

اليوم[١]) ، وإن أصر على النفاق والشقاق ، فيجب العمل بـ (آخر الدواء الكى) حجة وبرهانا . فأنشد السلطان :

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلى

مضر كوضع السيف فى موضع الندى

وحيث يتوجب الطعن بسنان المثقفات الهندية لا يجدى السكنجبين السكرى العناب (سواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون[٢]) . فبعث الأوامر لأطراف الممالك ، وحرض الأكابر والأصاغر من أمراء العساكر بترتيب الغزاء والجهاد . وحضر إلى المعسكر بموجب الأمر الأعلى باستعداد أتم كافة القواد والرؤساء وأمراء الجيوش بالعتاد والأنصار ، وساروا فى طاعة ركاب السلطنة الميمون على هيئة تخضد من هيبتها مخالب أسد الأرض وتسقط منها أجنحة عقاب السماء ، فوصلوا إلى حدود (آلاشهر) وهى من معظمات بلاد الروم ، وكانت الجواسيس أبلغت خبر حركة الرايات السلطانية إلى (لشكرى) فأرسل كتب الاستنجاد إلى القبائل والعشائر وحكام البلاد والجزائر وعبأ جيشا (بعدد الرمل والنمل والمطر والحصى مما لا يعدو لا يُحْصى) ، وتوجه بتعبئ تام إلى قتال جيش الإسلام ، وغدا عساكر السلطان لهذا السبب كالبحر المائج الهائج ، وكان السلطان كالشمس الوضاءة مرتدياً قفطاناً كلعل بدخشان ، ووضع بساعده قوساً صلداً كقلوب الحسناوات ، وعقد بخاصرته سيفا محلى جاريا كدموع العشاق ، وامتطى صهوة جواد بقوة الفيل مفض للنيل[٣] كان يصدع بركلة واحدة السبُع الشداد ، ويجعل وقت جريه من غبار حوافره أرضاً ثانية فى السماء وكان واقفاً بالقلب . فلما شاهد تطاول الرمح وتعدّى السهم ووقاحة المجن وسلاطة السيف وخشونة السنان

---

(١) سورة يوسف الآية (٩٢) .

(٢) سورة البقرة الآية (٦) .

(٣) كناية عن الموت لأن النيل أو النيلة عصارة زرقاء تؤخذ من هذا النبات المسمى بنفس الاسم وكان توضع فى عين الميت .

وتقريع الدبوس الثقيل ، استل حسام الإباء لقطع الدعاوى وفصل الخصومات وشق صف الهيجاء بحملة صادقة فقطع ما بين المعركة إلى قلب الخصم ، فرأى (لشكرى) واقفاً ، السيف فى يده أسيف ، وبيده الأخرى حربة خطية ، ولاحت على وجهه فى الصدمة الأولى الطامة الكبرى ، فألقاه من فوق فرسه إلى الأرض ، وقال له مؤنباً (يا كندوس) أى يا أقرع . ورام الحرس الخاص فصل رأسه عن جسده فمنعوا ، وأمرهم بركوب جيادهم وإهماله . ولما علم العسكر بنكبة ملكهم (لشكرى) انهزموا ، وبحكم التقدير ، فصل سائر الحراس والحفاظ عن السلطان وانشغلوا بالسلب والأسلاب . وبغتة صادف السلطان فرنجى مغمور ، فلم يلتف إليه السلطان بظن أنه من الحشم المنصور ، فلما خلا السلطان عطف وأوصل بضربة الحربة روحه المكرمة إلى الفردوس وسلب أسبابه وسلاحه وملبوسه ، وأتى كوكبه من جيش لشكرى) . فلما رأى (لشكرى) ذلك اللباس ، أدرك فى الحال ، وسأل من أين هذا اللباس ، فأجابه : سلمت مالكه إلى « رضوان » ، فقال (لشكرى) هل يمكنك حالاً الوصول إلى ذاك القتيل والإتيان بجثته ، قال : يمكننى فأرسل معه بضعه نفر من أبطال الجند ، فحملوا جسد السلطان الطاهر وأتوابه إلى لشكرى ، فلما شاهده بدأ البكاء والعويل ، وأمر بسبب هذه الحالة فسلخ الفرنجى عن جلده حيا . ولما علم أمراء الجيش وقواده أن السلطان لقى درجة الشهادة حاروا وسقط فى أيديهم واغتنموا الهزيمة ، وظهر لعسكر لشكرى الانتعاش والارتياش ، وسقطوا فى إثر المنهزمين من أهل الإسلام و تلف خلق كثيرون بعض بالقتل وآخر بالغرق وجماعة بالخسف فى الأوحال والمخاضات . وحمل (أيبه[١]) مختبر طعام السلطان أسيراً إلى لشكرى ، فلما وقع نظر (آيبه) على جثة السلطان المباركة صرخ وأخذ يتمسح بتراب قدم السلطان

---

(١) رسم هذا العلم مرة (آيبه) ومرة أخرى (آينه) والأولى هى الأصح وهى مخفف (آيبك) تركية بمعنى القمر وبك تعنى الكبير . أما (آينه) فهى مخفف (آيينه) الفارسية بمعنى (المرآة) . ولقب (آيبه) أو القمر الكبير أو الأمير القمر تلقب به كثرة من مشاهير القواد الترك الذين حكموا فى الشرق بمصر فى العصر الوسطى .

فأمر لشكرى فخلصوه من قيوده وواساه ، ومع أن السلطان كان لقى درجة الشهادة لكنه طيب بالمسك وماء الورد ، ودفن فى مقابر المسلمين برسم العارية ، وبعد انقشاع غمام الواقعة حمل إلى قونية ، وسلم فى أضرحه الآباء والأجداد إلى رضوان[١] .

ذكر ملك السلطان عز الدين كيكاوس بن كيخسرو والفتوح التى سنحت فى أيام دولته

فى سنة (٦٠٨ هـ) لما اختتم كتاب أجل السلطان على الشهادة وتوجه من سبيل الجهاد إلى عرصات المعاد ، وانخرط فى زمرة (أولئك هم الصديقون والشهداء عند ربهم[٢]) ، أجال واستنار أركان إيوان التدبير وحافظو ناموس التاج والسرير قداح الاستخارة وزناد الاستشارة على من تقع قرعة الاختيار على الملك عز الدين كيكاوس أم علاء الدين كيقباذ أم جلال الدين كيفريدون وإلى من يسلم العرش والإكليل من هؤلاء الأمراء الثلاثة . أشار الأمير نصرة الدين ملك مرعش[٣] الذى كان طوى طومار ذكر حاتم طيئ فى عهد سخائه ، وازدان بعظمة الخلف وجلال الملك إلى عز الدين كيكاوس لأنه كان أكبر الأولاد وأكرم الملوك ذوى الأوتاد ، فاتفق الجمع على ذاك الاستحسان ، وساروا به أسرع ما يكونون من ملطية إلى قيصرية ، واستقبله رؤساء البلدان وهم فى لباس الحداد حتى النجاد ، وأدخلوه بعظمة على أعظم ما تكون فى المدينة وأجلسوه على العرش ، وبعد أيام ثلاثة خلع على الجميع وشرفهم بتقبيل يده ، وجددت المناشير وقررت المناصب ، وكانوا

(١) يصادف فى الهامش هذان البيتان :

وشمس غياث الدين عند ضيائها	إشراقها فى كل شرق ومغرب
أنار لديها كوكب الرمح فاختفت	ولم أر شمسا قط يخفى بكوكب

(٢) سورة الحديد الآية (١٩) .

(٣) من حصون الشام الشمالية على نهر جيحان فى سهل قليقية وسماها الروم مراسيون وبينها وبين أنطاكية ٧٨ ميلا (لسترنج ١٦١) .

على عزم دار الملك قونية حين باغتهم خبر أن الملك علاء الدين توجه من توقات بجمع زخار إلى تلك الديار فاضطرب القوم وسقط فى أيديهم .

ذكر محاصرة علاء الدين كيقباذ لعز الدين كيكاوس فى قيصرية

حين بلغ الملك علاء الدين كيقباذ خبر وفاة أبيه ، دعا مغيث الدين طغرل شاه ملك أرزن الروم الذى كان عمه وبينهما صلة نسب ، وأرسل الرسل إلى ليفون التكفور وعين له قيصرية ، ونظم ظهير الدين الإيلى البروانة بالمواعيد الجميلة فى سلك أشياعه ، وتجمع عليه من كل حدب وصوب جيش عظيم ، وتوجه إلى قيصرية ، ووقف يحاصر أخاه ، وانصرمت مدة مديدة فى ذلك الحصار ، وهلك الأمراء الأعيان من الجانبين ، وتطرق العجز والاضطرار إلى أهل الحصار وغلب الملل على مزاج السلطان اللطيف ، وبحكم أن مواعيد جرت بين السلطان وظهير الدين ، وأمر بعناية بلا نهاية فى حقة ، وكان يشاهد الحال على خلاف الآمال ويرى الجفاء مكان الوفاء ، ألف هذا الرباعى عن إملاء طبعه الموزون على ورق الشكايه ، وأرسل به إلى البروانة :

شمع أنا فقد تعقب جسمى الآن أمر قلبى
فلم يعد ثغرى الضاحك ليلة بلا بكاء
والبروانة الذى قال أنا رفيق غارك
رضى أيضاً بأن يضرب عنقى[1]

وطلب مبارز الدين صاولى مختبر طعام الملك وزين الدين بشارة أمير الاصطبل الملكى الدين بهرام شاه أمير المجلس وكانوا ملازمين خدمته فى ملطية ، وقال يخطر لى رأى هو أن يفتح باب المدينة فى منتصف الليل ،

---

(١) الرباعى الفارسى :

شمعم كى كنون درسردل رفت تنم — بى گريه شبى نگشت خندان دهنم
پروانه كه گفت يار غار تومنم — او نيز رضا داد بگردن زدنم

ونصيد باستظهار الأمراء وعساكر الثغور صيد المرام . ولما علم جلال الدين قيصر بهذا الأمر وكان حاكم قيصرية وشحنتها وصار فى خدمة السلطان الشهيد لفرط دهائه وذكائه مترشح الإحماد ومزية الاعتماد تعلل وأتى خدمة السلطان لما دخل الليل وطلب الاختلاء به وقال سمعت أنه خطر للملك الدنيا مثل هذا الخاطر الخاطئ ويتوجب ألا تأمر بذكر مثل هذا الفكر ثانية لأنه موجب عدم الصلاح والفلاح ، وقد خطر لي خاطر إذا عمل به فإن عقدة المطلوب لابد أن تحل . فسأله السلطان ما فكرتك قال اذا تعب الملك وذهب إلى الحرم الميمون ، ويأتي من حلي المخدرات بكريم الجوهر ويعطي لي أنا العبد الأحقر حتي أضعه الليلة فى وجه تيسير المطلوب . وذهب السلطان إلى الحرم وأخذ من شقيقته عمامة قومت باثني عشر ألف دينار ذهبا وأعطاها جلال الدين قيصر فخرج من المدينة ومعه غلام فى أستار الظلام ، وقال لحارس قلعة السور ، ترصد رجوعي فإذا سمعت صوتي افتح البوابة وسارهو نحو رباط خيل ليفون بحكم صداقة ربطت بينهما . ولما وصل الطلائع قال أعلموا التكور أن جلال الدين قيصر شحنه قيصرية يريد التوجه إلى معيته ، فأخبروه فى الحال واستقبله التكور وعظمه كثيرا قال جلال الدين لي معكم أمر دقيق عظيم فإذا خلا المكان أعرضه . فأمر التكور بخروج جميع الخدم من الخيم . قال جلال الدين يعلم التكور أن ليس له فى ملك السلاجقة بأي وجه من الوجوه شركة فلماذا يلزم أن يتعب نفسه ويصير صيداً للآخرين ؟ فان الملك مغيث الدين يطلب ملك أخيه والملك علاء الدين يروم مكان أبيه ولا أعلم مقصود التكور ، وأري من فرط المحبة أن المصلحة أن تخرج نفسك من هذه الورطة التى لا فائدة منها وتعمل على المحافظة على ملكك وحكمك . ووضع هذه الجواهر وقال إن قيمة هذه اثنا عشر ألف دينار مصري ، اقبله ثمناً لنعلك وحين يرحل جيش الملك أصير ملتزماً حين يتقرر الملك للسلطان عز الدين أن يرسل اثني عشر ألف مد غلة بمدد الذخائر لقلاع الأرمن ، ويتعهد السلطان ألايصيب ملك التكور فى مدة سلطنته ضرر بأي وجه مادام التكور يفي بالعهود ، وتستحكم المودة على تجدد الأيام . فلما سمع التكور هذا الكلام

ورأى تلك الجواهر قبل النصائح المعقولة وقال أكون مطمئن البال حين يلقي أمينى السلطان ويأتى بقسم منه على هذا . فقال جلال الدين يتعهد التكور أولا ويقسم الأيمان ويكتب كتاب قسمه ويسيره بيد قاصده بصحبتى ففعل التكور ذلك ، وتوجه جلال الدين بصحبة قاصد التكور إلى المدينة . فلما بلغ حضرة السلطنة بشر السلطان بحصول المقصود وتشرف قاصد التكور بتقبيل يده وأعاد قول الأمر . فكتب السلطان بيده الشريفة كتاب اليمين وسير القاصد بالليل . فلما رأى التكور كتاب اليمين وأبلغه القاصد مشافهات السلطان أمر قواد حشمه أن يعزفوا فى الخفاء بلا جلبة لحن الرحيل بحيث أن يتجاوز فى الصباح حدود (الدَوَلو) فعقدوا رحالهم وساروا بأجمعهم ، ووصلوا تخوم الأرمن فى الصباح . وأخبر فى هذا الصباح مغيث الدين طغرل شاه وعلاء الدين كيقباد أن معسكر التكور أخلى خيامه (كدار مابها أدم) فتطرق لكل منهما لهذا العجب الاضطراب فتفرق أحدهما عن الآخر بمكر قيصر الذئب إذ ظـن الملك علاء الدين أن تلك الطائفة تحالفت مع أخيه ويريدان سحبه بالاحتيال إلى قيد العقال . وقال مغيث الدين أن الأخوين يقصداننى بسبب أرزن الروم فسلك هو أيضا فى الليلة التالية على مناكب الظلام طريق الانهزام ، وانبعثت من المدينة أصوات الطبول والنقارات على رحيل خيل المحاصرين وخرج أبطال المدينة مهاجمين ولم يكن الملك علاء الدين له طاقة المقاومة فأخذ طريقة إلى أنقرة ، وأدخلها فى حوزة تصرفه واستظهر بمناعتها وحصانتها . وأعطى السلطان عز الدين ولايته لقيصر ومنح كل مدينة لواحد من خواصه فأعطى نكيدة[1] لزين الدين بشارة وملطية لحسام الدين يوسف وأبلستان إلى مبارز الدين الصاولى ، وفارق ظهير الدين الايلى البروانة معية الملك علاء الدين ولحق بنكيدة ، فلم يستطع المكث بها لمتاعب

---

(١) نكيدة أونكيذا مدينه قديمة بينها وبين قيسارية ثلاثة أيام من جهة الشمال قيل إن بقراط الحكيم كان بها وبها مجمع قيل إنه اجتمع الحكماء فيه الذين يعرفون إلى اليوم وبينها وين هرقلة ثلاثة أيام (ياقوت ٤ / ٨١١)

الرنود[1] بها ، ففصل عنها ملتجئا بقلعة (لولو) ، ولم يتمكن من اللبث فيها أيضا ، فعزم ديار الشام عن طريق (سيس)[2] فلما بلغ « تل باشر »[3] أصابه المرض وبعد يومين وافته المنية فدفن بها . وبعد ذلك عزم زين الدين بشارة أمير الاصطبل (نكيدة) ، وأكرم الأهالى والأعيان بفنون الإحسان وبعث البعوث إلى ليفون ، وأعلم عن استقرار السلطنة على السلطان عز الدين ، فأرسل ليفون الجواب بالهدايا . وتوجه السلطان إلى آقصرا ومنها عزم إلى دار الملك قونية فاستقبله ملأ المدينه من منزل (أبروق) ، وأنزلوا السلطان المدينة بإجلال وإعظام تام وأجلسوه على العرش ، وتقدموا إليه برسم حق القدوم بوهو مائة الف درهم وخمسة آلاف دينار أحمر وأقسم الجميع على ولاء السلطان ، وجددوا مناشير إقطاع الأملاك والإقطاعات لديهم وأطلقوا سراح المحبوسين ، وفرغوا من الهموم وفرعوا على قلال المعالى .

---

(١) الرند فارسية من اسماء العيارين الفتيان والرند هو الشاطر ذو الحيلة الغدار فى المعاجم الفارسية ومن لا يبالى عليه ظاهره الملامة وباطنه السلامة (لغت نامه دهخدا تهران ١٣٤١ ، وانظر رسالة الدكتوراه لراقم هذه السطور عن العيارين ص ٢١ - ٣٣ وعنوانها الفتوة فى الأناضول فى العصرين السلجوقى والعثمانى فى مصادرها الفارسية) بمكتبة جامعة القاهرة .

(٢) تقع على المدخل الشمالى لسهل قيلقية على سفح صخرة مرتفعة إلى جبال طوروس وهى بين أنطاكية وطرسوس وبينها وبين عين زربة أربعة وعشرون ميلا ومثلها بينها وبين المصيصة وهى بلدة كبيرة ذات قلعة بأسوار على جبل مستطيل ولها بساتين ونهر صغير وكانت قاعدة الثغور الشمالية ثم أضحت فيما بعد عاصمة لأسرة روبين التى حكمت أرمينية الصغرى (ياقوت ٣ / ١٧٥ - الباز العرينى الدولة البيزنطية مصر ١٩٦٠ ص ٣٩٣) .

(٣) تل باشر قلعة حصينة وكورة واسعة أيضاً في شمالي حلب بينها وبين حلب يومان (ياقوت ١/٧٦٤) .

ذكر مكارم أخلاق السلطان الغالب

عز الدين كيكاوس

كان السلطان عز الدين ملكا سخاؤه كقطرات السحاب بلا حساب ودهاؤه كوجه المشترى يلقى بقلب الليل ضياءه ، بقد ينفسه عليه سرو الينا بيع وخد تغار منه المحاسن المزينة للربيع ، بقوس كأنه طاق حواجب الحسان المبلى للأنفاث وسهم كأنه دعاء المظلومين الواضع للفلك المولد للأحداث . بعقل كدين الإسلام كلمل وعدل كظل الغمام على الخاص والعام هاطل . كان يعد إكثار جوائز القرائض من الفرائض ويصل فى الصلات الشعراء بأقصى الغايات بعثت إليه ابنة حسام الدين السالار قصيدة من اثنين وسشبعين بيتا من الموصل إلى قصره فأنعم عليها لقاء كل بيت بمائة دينار أحمر ورفع الصدر نظام الدين احمد الأرزنجانى بقصيدة كان قالها فى مدح السلطان فى جواب شمس الطبسي وأنشدها فى المحفل من مرتبة الإنشاء إلى عرض ممالك الروم . لبس لباس الفتوة من قصر خلافة الناصر لدين الله ، وشرب كأس المروة من مشرب (قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله)[1] .

ولما بلغ خبر جلوسه على تخت السلطنة مسمع (لشكرى) فكر مع مستشاريه حول كيفية سلوك افتتاح المراسلة مع السلطان عز الدين ، وكيف يعتذر لذلك الغدر إذا لم يقترن به رضاؤه . قالوا إن مقتضى هذا الحزم أن تطلق (أبيه) مختبر الطعام من وثاق الظلام وتسيره بالتحف العجيبة والهدايا الغريبة فى صحبة رسلك إلى حضرة بلاط السلطنة ليقوم بالوساطة فى رفع غبار الوحشة ودفع خرق العداوة ، لأنه من بطانه الدار وخواص المقار ، فتقبل كلمات عذره التى بلا غرض كالسهم على عرض ، وبعد ذلك يجب الاشتغال بجمع الرجال وتهيأة أسباب القتال ، فاذا انفتح بهذه الوسائل طريق المصلحة فهو المراد واذا دخلوا من طريق المشاحنة والمخاشنة ووضعوا

---

(١) سورة آل عمران الآيه (٣١) .

أساس المحاربة فإنا نكون فرغنا من الأمر وبتنا مستعدين . فاستصوب الفاسليوس هذا الرأى ، وسير تحفا بلا حصر من كل نوع بصحبة سفير موسوم ببلاد الروم بفصل الخطاب[1] والكلمات العذاب ، وعد استمالة جانب سيف الدين آيبه بكل مايسع الإمكان من اللوازم حتى غدت مرآة ضميره من صدأ الغضب مجلية كلية وأبدى الالتزام باتمام مهام المصالحة وتوجه مع الرسل إلى مقر السلطان فلما لحقوا بحدود الممالك ، بادر الأمير سيف الدين سابقاً بقصده وتشرف بتقبيل يده وأعلمه بورود الرسل وخلاصة الرسائل ومحا الغبار الذى كان عالقاً بأطراف خواطر السلطان بكم الاستعطاف وتحرى فى العفو عن جرائم الماضى بمراضى الملك . فقام السلطان عن مجلس الحقد والوجد وأحال مصيبة الوالد والغير إلى القضاء والقدر ، وأمر للرسل بالاستقبال فأبلغوا الرسالات والمشافهات وعرضوا التحف والطرف وأمر فاقترنت الرسائل بالمحمدة والارتضاء وأقيمت الأفراح ومجالس السرور وفى اليوم التالى اختلوا بالسلطان وجعلوه يقسم على رضاء ملك الروم ، ورتب من الخزانه أضعاف ماكان أرسل ، وعين الأمير سيف الدين أيضا بهذه الرسالة لكى يرجع بها ويؤدى المهمات ويأتى بطلل السلطان الشهيد إلى دار الملك . فسار سيف الدين بالرسل والتحف ، ولما اقتربوا استقبلهم ملك الروم ، وبلغ فى توقير مُحِلَّة النهاية ، وأقسم على موجب المسودة التى بيضت من طرف حضرة السلطنة ورتب أضعاف ما كان أرسله فى المرة الأولى فى الكرة الأخرى ، وأمر بأن يفرق برسم الصدقة حتى وقت دفن السلطان عشرون ألف دينار على مرقده . وأرسل هيكل السلطان بجيش كبير حتى حدود ملكه وعاد الامير سيف الدين آيبة والرسل ولحقوا بخدمة البلاد وتكررت الحكايات المكررة وغدا كلا الجانبين هو المعمور بوفور السرور والحبور ، ولما أتى بجثة السلطان إلى قونية ودفن فى جنب الجد والأب والأخ ، ذهب السلطان لزيارة السلاطين وضم ثلاثين ألفا إلى ما كان أرسله ملك الروم وفرق بعضه على المساكين فى ذاك المكان وأرسل آخر إلى الزوايا والصوامع وسير الباقى فى أطراف الممالك .

---

(١) فى الأصل خطأ (فضل الخطاب) .

ذكر عزيمة السلطان إلى جانب أنقرة ومحاصرة

أخيه الملك علاء الدين

لما انبسط مدة على هذا النمط سرادق الكرامة فى إيوان سلطنه عز الدين كيكاوس وانضبط أمر المهمات والمصالح ، خطر لخاطر السلطان أن مادام أخي يقيم بأنقرة ويتحصن بهذا المقام ذى الأحكام التام فلن يحصل لنا أمن كلى وفراغ أصلي فلا بد من أن نعد حسم مادة هذه الفتنة من لوازم الأمور . ثم سير الأوامر إلى الأمراء وقواد الأطراف ليعزموا مقر الطاعة بجماعات كثيفة وفى أيام قلائل حضر كافة العساكر الى ضواحى المحروسة قونية . ولما فرغ السلطان من ترتيب أسباب المحاصرة وآلات القتال من قبل ، توجهوا بالطالع المسعود إلى حدود أنقرة ، وحين أعلم الملك علاء الدين انشغل بإحكام القلاع واهتمامه بالجيش وتجديد العهد والولاء والوفاء مع أهالى المدينة . ولما لحق السلطان بأنقره نظم أول يوم جيش الصف فى الصف بهيبة حارت فيها أبصار أولى الأبصار ، وأحاطوا المدينة بالحصار . ودخل الأمير مبارز الدين عيسى الأمير القائد وأخوته من المدينة الميدان ، وبسبب أن مبارز الدين كانت حدثت له مع نجم الدين بهرام شاه القائد خصومه فى المكتب فى سيواس وكانا كلاهما يسلك على الدوام طريق المضادة والعداوة ، ورفع عقيرته بالنداء ودعا نجم الدين إلى المبارزة ، فاستجاز نجم الدين بهرام شاه خدمة السلطان عز الدين ودخل الميدان وولج كلاهما برمحين بلا نظر كالهزبر والنمر فى ميدان الكسر . وزادت كسور الرماح من تفاريق العصا وعديد الحصى ، ولم يجر خطأ من طعن الخطّى على قرْنَى النقار . وعلى حين بغته أمسكا بالسرج من القربوس وجردا الدبوس ، وعجزا أيضا عن ذلك ولم يلح قاهر من مقهور وغالب من مغلوب . فأرادا أن يجردا السيف من غمده فيبلغا بحد الحسام وهو البرهان القاطع بالدعوى إلى الفيصل فأمر الملك علاء الدين

من داخل المدينة فنودى مبارز الدين . فلما بلغ مسمعه نداء الجاويشين[١] كرّ راجعاً ، ولقى نجم الدين بهرام شاه بدوره خدمة السلطان فزاد السلطان على ثبات قدمه الثناء وخلع عليه . وكان يتصرم كل يوم من أوائل الربيع حتى أوائل الربيع اللاحق على هذا المسلك من الطرفين . وأسس السلطان بمقابلة المدينة مدرسة حتى إذا تيسر الفتح يقف عليها الأوقاف ويرفه الفقهاء واذا توقف صارت لإقامة سراء عمار . ولما استخلص انقرة أوفى بالعهد والنذر وأوقف الأوقاف ، ولما بلغ الدور سلطنة علاء الدين أعطى مثاله بهدم القبة وإبطال الاوقاف لكن أطلال تلك المدرسة لاتزال باقية ، ونعود إلى أصل الموضوع :

ابتنى كل أمير بيتا معمورا وقضوا الشتاء ولما بلغت راية كسرى السيارات نقطة الاعتدال الربيعي وأسفرت رياح الصباعن خبائها وعروس الروض عن سترها اعتدى ضيق أهل الحصار وقلة الذخيرة والحرث الحدود . وكان ساكنو هذا المصر ومحصورو ذاك القهر يتجرعون من ساقي الدهر كاس سم الحصر فأخذوا برضاء الملك علاء الدين طرق باب الصلح وأرسلوا قاصدا إلى الأمير سيف الدين آيبه وطلبوا الأمان فأبلغ الأمير سيف الدين القاصد تقبيل يد السلطنة . ولما عرض القاصد المشافهات والمراسلات واستغاثة أهل المدينة وتشفعهم للملك علاء الدين كان لأسارير السرور في جبينه المبارك الظهور وأحضر الأمراء الكبار من قبيل ملك الأمراء حسام الدين أمير صوبان وملك الأمراء سيف الدين أمير قزل وكان من أعاظم أعوان المملكة ، وأقسم في حضورها الأيمان الغلاظ أنه لن يصل مضرته وأتباعه بأى تأويل للملك علاء الدين وسوف يسيره فارغ البال إلى بعض القلاع التى للسلطان عليها اعتماد ولايحبس عنه الأسباب الضرورية من الملبوس والمفروش والمطعوم والمنكوحة ولايؤاخذ أهل المدينة فيما قاموا به من ممانعة . وكتبت العهود بعد ذكر اليمين بيمين السلطان المباركة وسلمت للقاصد . ولما بلغ

---

(١) معرب كلمة (چاووش) التركية بمعنى النقيب والمقدم والقائد وتنطق (شاويش) عند العامة .

القاصد المدينة جعل للأمر الإعلام وطلب أهل المدينة الأعلام السلطان وطلبوا الأمير سيف الدين أبيه . فتستر الأمير سيف الدين بحكم حضرة السلطنة بجيش ودخل بالسنجق ورايات ملك الدهر المصر ونصبها بعظمه على أتم ما تكون على قلة القلعة ، واستمال أهل المدينة ضعيفهم وشريفهم ونقل الملك علاء الدين من سراي السلطنة الي بيت بعض المولدين وولى الولاة ، وبعد ذلك حمل الأمير سيف الدين الاعيان والمعتبرين إلى خدمة البلاط فأدركوا شرف تقبيل اليد وأظهروا الاعتذار بلسان الاستغفار . ودخلوا آنذاك مع الأمير سيف الدين المدينة ورتبوا وجه نثار موكب الملك . ودخل السلطان بالفأل السعيد المدينة واعتلي العرش وعمر طبقات الخلق بأنواع الاصطناع وسلم جينذاك الملك علاء الدين إلى سيف الدين لينقله إلى المحروسة ملطية وحبسه بقلعة منشار ورتب الرواتب والوظائف ببيت الثياب والمطبخ والمشرب وأخذ من الأمراء والقواد الحجج بتسليم الملك إليهم سليما وقفل راجعا وعاود السلطان دار الملك .

ذكر عصيان سكان أنطالية

وفتح ذلك الثغرثانية على يد أتباع السلطنة

بعد مدة بعث خبال الخيال وبطر الراحة وأشر النعمة كافرى أنطالية على أن يحطموا جام العهد والأيمان على حجر التمرد والعصيان ، وأخرجوا رؤوسهم مثل يهود خيبر من الطاعة وأقدامهم عن دائرة الاستقامة ونفروا من رعاية حقوق دولة السلطنة ولبسوا السلاح ، فقام كل فوج في جوف الليل بسبب اللبس على حاكم بالكبس ، وصيروا الشريف والرضيع والكبير والرضيع جرحى وقتلى لحسام الانتقام ، وظلوا مشغولين حتى استيلاء الفلق على الغسق بإجراء الدماء من نهر بدن الحكام صوب البحر ، بنحو أن ارواح الشهداء في وقت الصباح لقت الأنس برياض القدس . وبعد ثلاثة أيام بلغ الخبر مسامع السلطان فظهر تغير عظيم في باطنه المبارك ، وفي الحال

أصدر الأوامر باستدعاء العساكر واستحضار الأمراء وأرسلت بأيدى القصاد باستعجال تام إلى جملة الممالك فنزلت أعداد الرجال كالرمال بلا مدافعة بصحارى قونية ، ونصب الدهليز المبارك على نية فتح أنطالية بفأل اليمن وطالع مسعود بصحراء (روزبة) . وفى اليوم التالى تحركت جموعهم . ونفد نقد وقت روميى أنطالية (وأسروا الندامة لما رأوا العذاب)[1] . فتوسلوا بسبب الاضطرار والكرب بأمراء الغرب ، فشحنوا على وجه الاستعجال بضع سفن برجال القتال وأرسلوا بهم لمدهم . فلما شاهد الفجرة أمدادهم من فوق حصون السور على سطح البحر دقوا البشارة وعزفوا الخفيض والجهير لورود أحطاب السعير هذه عن طريق اليم[2] ، وأدخلوهم القلاع بإعزاز كامل ، وأنشغل أولئك المناحيس الضعاف بتدبير المصاف فركبوا فى داخل المدينة العرادات ، فلما وقعت ظلال مظلة الملك على تلك الاطلال أمر فى الحال فأحدق الجيش الدوار بنقطة تلك الخطة وزحف بمصوبى وصابى السهام زحفا القى رجفاً على عظام (دى) و (بهمن)[3] ، ولم يقدر واحد من الخوف أن يظهر وجهه من السور . وفى اليوم التالى حين وصلت الأسلحة وآلات الحصار والمشاة امر فى ليله فأخذت الشباك وصنعت السلالم وأعدت المنجنيقات ، ولم يكن بوسع أولئك الملاعين غير الرشق بالحجارة ، لانهم لم يستطيعوا الظهور فوق السور بسبب جرح أسنة السهام . وفى العاقبة لما امتدت المدة أمر السلطان بترتيب السلالم من الاتساع بحيث أن عشرة رجال يمكنهم بها ارتقاء السور مرة واحدة ، ويرقى شجعان الجيش السور ، فيفصلوا مادة هذه الخصومة بحكومة الحسام القاطع ، فالتزموا الامتثال للأمر ونصبوا السلالم عل تلك الطريقة ، وفصل وعين فوج ليصبوا وابل السهام . وفى اليوم التالى تسلح الجيش بالسلاح ، وبسطت عقاب مظلة المستولى على الدنيا جناحيها وتحركت الراية المنصورة ، وطلب السلطان أبطال الحشم ووعدهم المواعيد الجميلة فحملوا دفعة واحدة حملة مزهقة

(١) سورة يونس الآية (٥٤) وأيضا سورة سبأ الآية (٣٣) .
(٢) في الأصل خطأ (يم) .
(٣) الشهر العاشر والشهر الحادي عشر في فصل الشتاء من السنة الإيرانية .

للأرواح وأجروا على مجارى الأنهار من نضاخات عيوف عروق الكفار الأنهار (تمور السماء موراً وتسير الجبال سيراً)[١] . ونفذ نقد الوقت ونصبت السلالم ، ورقى الأبطال بالعمد والرماح الثقال والسلاح الخفيف عشرة عشرة كالشموس مستلين السيوف وأوردوا الفرنجة الذين كانوا على السور مورد الهلكة وفتحوا البوابة وولجت العساكر ، واعتدى سفك الدم حده وعد الإبقاء على الصغير والكبير من المحظورات واغتنم ، مال أولئك الكفرة واستبى عيالهم : وفى اليوم التالى دخل السلطان المدينة وجلس على عرش المملكة ، وكرر جذب الصقر الطاوى للجوفى قيد الصيد وأمر بالاحتفاء العام وخص الأمراء والقواد وباشوات البلاد والفدائيين من العساكر المنصورين وحظاهم بالمكارم والعواطف غير المحصورة . وقضى أسبوعاً من القتال بالاحتفال ، وحينذاك نظر فى سائر البيوتات فأوجد المعدوم وأكثر القليل وبلغ به من حد النقصان إلى قنان الكمال ، وقام بمرمة السور وإعلائه وسد الثلمات وقرر رئاسة الجيش ثانية على الأمير مبارز الدين أرتقش فاستمال القلوب وفق ما كان له من اطلاع على أحوال السواحل وأعاد المتمردين والمتشردين إلى الماء والأرضين ، وتصرف بأموال الخائنين وأملاكهم لجهته الخاصة وأثبتها فى دفاتر الديوان الأعلى ، وأضاف بعضها إلى الإقطاعات . ويمم السلطان شطر قونية ، وكتب كتب الفتح إلى أطراف العالم ، وأرسل من تلك الغنائم إلى ملوك الأطراف تحفا بلا نهاية .

ذكر عزيمة السلطان إلى سينوب[٢]
وفتحها فى عهده المبارك

حين أسفر وجه الربيع من وراء نقاب السحاب المطر بالكافور ، وبسط

---

(١) سور الطور الآيتان (٩) و (١٠) .

(٢) وترسم سنوب وصنوب ميناء مشهور على البحر الأسود فى شمال شرق مدينة قسطمونى وغربى سامسون وكان لها سور حصين يضرب البحر فى بعض بروجه وبها مسجد جامع وقبر الصحابى الصالح بلال الحبشى (لسترنج ١٧٥ ، ١٩٢).

فراش الطبيعة البساط المتلون (حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت)[١] على وجه الجبل والسهل خطر للسلطان عزمه لسيواس ، ومال عنان زينة العالم إلى ذلك الصوب . كان يوما قاعدا في الحفل الخسروى إذ قصده من حفاظ ثغور سينوب قصاد وأفضوا إلى حضرة السلطنة بخطاب مختوم فيه أن كيرالكس تكور (جانيت) بلغ بالجناية الغاية ودخل ممالك السلطان وخرب فيها كثيراً ومع أن السلطان أصابه لاستماعه ذلك الخبر انفعال تام ألا أنه لم يظهر شيئا حتى لا يتنغص انبساط الحرفاء . وفي يوم التالى طلب الأمراء وأجلى الأمر فصار جميعهم في وادى الغضب وغيضة الغيظ وقالوا إن يأمر ملك الدنيا نرو الخناجر الحوامى لعبيد الدولة الظوامى إلى دماء الاشرار من مقسم مفرق الرأس النجس لهذه الأرض ويحصد الجنود المنصورة بمنجل القهر مزروع بلادها . وسأل السلطان الجماعة التى سبق رؤيتها لسينوب فاجابت أنه لايمكن الاستيلاء عليها بالقتال إلابحصارها مدة مديده حتى يعجز أهلها لقلة الذخيرة ونفاذ الزاد ولايصلهم من البر والبحر مدد وآنذاك يمكن أن يتيسر فتح تلك المدينة على هذا الوجه والرأى هو أن يهاجم الجيش ذلك البلد هذا العام ويستبى عيالهم ويخربوا ضواحيه ونواحيه تماماً ، وينزل بهم من هذا العمل سنوات وأعواما فقرت آراء الأمراء في جمع السلطنة على هذه الجملة . وفي اليوم التالى عزموا بالحشد والعد على أكثر ما يكونان إلى سينوب . وأخبر الجواسيس ان كيرالكس يطوف في تلك الديار يصطاد ومعه خمسمائه فارس غير كيس . فلما سمع القواد هذا الخبر أسرعوا كالوهم في المهاجمة وباغتوه باللقاء في المصطاد وأخذوا كموت الفجاءة على أهل اللذاذة بخناق روحه ومع أنه حمل مرات لكنه كسر وأسر في النهاية وحمل إلى مضارب خيام العساكر المنصورة وقتل بعض جيشه وأتى الباقون مقرنين في الأصفاد إلى موضع السلاح الخاص ، وأوكلوا عليهم الحراس المتيقظين وسيروا في الحال القصاد وأعلموا بالنصرة الربانية والظفرة الفجائية المسامع السلطانية ، فعبر السلطان من إعلام هذا الإعلام بأعلام الفرح من ذروة العيوق ومنزل الشعرى وأمر بلزوم الاهتمام التام في المحافظة على ذلك

(١) سورة يونس الآية (٢٤) .

المخذول المجدول لأن الموكب الميمون يتجشم على الأثر إلى ذلك الطرف المحزون ، ليقدم ما يقتضى الرأى . وفى اليوم التالى توجه السلطان صوب سينوب فلما لحق بتلك الحدود لبست جملة العساكر السلاح واستقبلت رايات السلطنة وقبلت من بعد أرض الطاعة فلما نزل بالسرادق المبارك أمر باحضار كيرالكس مصفدًا . فلما مثل أمام العرش قبل أرض الذلة والضراعة فاعتنى السلطان لفرط مروته بإكرامه وقال لا ينزعج خاطرك ، فإن تحصل سلامة الذات تشمل المرادات . وجلس لحظة، وإذ ذاك نال السماح للقدوم بالأوثاق إلى الوثاق . وفى اليوم التالى أمر السلطان أن يركب سائر الجيش متسلحاً ويحيط بحصن ذلك الجزء من اليابسة وأرسل إلى كيرالكس أنه طالما قد حصل كوكبنا الميمون هذه الحدود فلا يمكن الرجوع بدون تحصيل المراد فلا بد من أن ترسل واحداً من قومك إلى المدينة ويقدم نصحه للمحصورين . فاختار التكور شخصاً من الأمراء الكبار المقيدين بسلك باقى الأمراء ففك من وثاقه بأمر السلطان وأتى به إلى التكور فأرسل على لسانه رسالة هى تسليم المدينة . فاطال هؤلاء المدابير اللسان بالهذيان وقالوا إذا أسر كيرالكس فله أبناء لائقون نجلس أحدهم بالملك ولا نسلم هذا الملك للمسلمين . فأمر السلطان بإعادة الرسالة لإلزام الحجة فلم يفد الأمر أيضا فأمر فى اليوم التالى أن يحمل التكور بقيود من حديد لحدود المدينة ويعذب فإما أن تسلم المدينة أو يهلك كيرالكس . وكان الجلادون يعذبونه بينما يصرخ ويصيح يامن لا دين لكم لمن تحتفظون بالمدينة حين يقتلوننى ويستأسرونكم بالقهر والقسر ، فماذا تجدى هذه المدافعة (فكان تأثيره فيهم كتأثير الرخاء فى الصخرة الصماء) . وانقضى ذلك اليوم على هذه الجملة . وباليوم التالى أمر السلطان فعلق كيرالكس من قدميه وعصر حتى صار كأصحاب الصرع بلا وعى . فلما رأى أهل المدينة أن أمر ملك المدينة تجاوز الحد صاحوا بأن يعود قاصد التكور إليهم لنقول له كلاما لدينا . فلما دخل االقاصد المدينة قالوا إذا أقسم السلطان ألا يقتل التكور وأن يسمح له بالعودة سالما إلى ولايته ويؤمن حياتنا وامتعتنا وأموالنا وأطفالنا بحيث نذهب إلى حيث نهوى فإننا نسلمه

المدينة . فأقسم السلطان بحضور التكور والقاصد على ذلك فلما حمل القاصد كتب المواثيق إلى المدينة سكن اهلها واطمانوا وطلبوا سنجق السلطان . فحمل البعض من القوم التكور وفوج من الحشم المنصور سنجق السلطنه بعظمة تامة فى يوم السبت السادس من جمادى الأخرى سنة (٦١١هـ) إلى داخل المدينة ونصبوه بأعلى السور . وفى اليوم التالى ركب الجيش بالأمر الأعلى ووقفوا مصطفين بمقابلة المدينة وخرج أعيان المدينة والملأ منها مع الأمراء الذين كانوا عادوا ليلاً وقبلوا الأرض ورأوا التكور فى خدمة ركاب السلطنه مترجلاً قائماً فسلموا مفاتيح المدينة بحضور التكور عبيد السلطان وخلعوا على بعضهم وعادوا وأعدوا النثار . ودخل السلطان المدينة وفق الاختيار[1] ورقى العرش وأقام المحافل ، وودع التكور واقفا بجهة التعظيم لذاته ، حتى أمر فجلس أعلى من كل أمراء الدولة ومكنه التمكين التام . وأوصل ذلك اليوم إلى ليله بالسرور والسعادة . وفى اليوم تاليه قبل السير أحضر التكور وعاهده واستوثقه فأقسم التكور بموجب المسودة التى كان كتاب ديوان السلطنة كتبوها أن السلطان لما أمن حياتى أنا كيرالكس وقرر ملك (جانيت) خارج سينوب ومضافاتها لى ولأولادى فأنى أؤدى له كل عام عشرة آلاف دينار وخمسمائة جواد وألفى ثور وعشرة آلاف كبش وخمسين حملاً من أنواع التحف ولاأحبس عنه الجيش وقت الاستمداد بقدرما يتسع الإمكان . وشهد على هذا أماثل الطرفين من القائم والقاعد . ولما أودعت كتب المواثيق الخزانة أمر السلطان للتكور بتشريف نفيس وأمر أيضا أن يركب بحضرته وكان التكور رجلاً أريباً فحالما وضع السلطان قدمه فى الركاب أخذ غاشيه من الركاب[2] ووضعها على كتفه وسار . ولما انقضى

---

(١) الاختيار مصطلح نجمي يعني عند المنجمين إظهار الوقت المسعود أو بتعريف فخر الدين الرازي اختيارأفضل الاوقات موافقة لتحقيق المقصود في المدة المطلوبة فيها الاختيار .

(٢) أصل الغاشية السرج أو الغطاء المزركش الذي يوضع علي ظهر الفرس فوق البرذعة وكانت تحمل بين يدي السلاطين عند الركوب في المواكب الحفلة (انظر صبح الأعشى للقلقشندي ٧/٤) .

وقت أمر السلطان فأعطى الغاشية والعبد الآخذ بالركاب . وركب وظلا يسيران بالطريق يتحاكيان متلازمين وسار السلطان ساعة بأطراف السواحل ثم عطف العنان إلى المدينة وطلب السماط ونظم المجلس وزاد فى إعزاز التكور وقت تأثره بالشراب وأجاز أن يحمل معه كل من يريد من قومه ومتعلقيه ويسلك طريق ولايته ويعد له ولمتعلقيه السفن . وبعد الوداع وتقبيل اليد ركب فى السفينة وتوجه إلى (جانيت) وحينذاك أمر السلطان باختيار سيد كاف قادر من كل مدينة ويرسل إلى سينوب فيبيعون أملاكهم وعقارهم برضاء منهم للكه الخاص ويوفون الثمن بتمامه . فأرسل بموجب الحكم من اطراف الممالك الأسياد المعتبرون إلى سينوب فدعا النواب جميع المنزعجين وأعادوهم إلى أملاكهم القديمه وجعلوا الكنائس مساجد ونصبوا القضاة والخطباء والمنابر والمؤذنين وعينوا حراس القلاع والمستحفظين وقاموا بترميم الشقوق بالسور وأنيط بأحد الأمراء قيادة الجيش وأمر بجيش قوى للمحافظة على هذا البلد يلازمه ويصاحبه ، وتوجه من هناك إلى سيواس ويسر للأمراء العودة إلى الأوطان .

ذكر إرسال السلطان الشيخ مجد الدين إسحاق لحضرة دار السلام للإعلام بفتح سينوب

كان بلغ فى تلك الأيام المسامع الشريفة أن الملك الاشرف اسقط باسم حضرة الخلافة كركيا ببنادق القوس من أوج الهواء إلى حضيض الفضاء وأرسله إلى خدمه الخلافة مع تحف وافرة بصحبة رسول ومن هنا جعل أمداد العناية له متواترة . ولما تيسر فتح سينوب للسلطان أرسل شيخ العالم إمام الآفاق مجد الدين إسحاق بالأحمال والتحف من الجواهر والتخوت المذهبة والاطلس المعدنى والصلبان الذهبية المرصعة وأوانى الفضة بإبلاغ الخبر المبارك لذاك الفتح الجسيم الذى كان موجب ضياء عين الملك وتقرر أمور الإسلام واستدعى سروال الفتوة . فلما بلغ الشيخ مجد الدين مقر الخلافة ودار ملك الإمامة بالغ فى إكرام مقدمه وأرسل وقت إجازته بالانصراف

سروال العصمة والطهارة ومئزر المروة عن البدن المطهر المكرم لأمير المؤمنين وكتاب الفتوة بالعمامة الميلاء كالعمامة السوداء[1] ودراعة مشفوعة بمقرعة ومنشور السلطنة بتوصية بإقامة حدود الشريعة فى المملكة وخمسة بغال سريعة منعّلة بالنضار بطوق ورسن وخمسة خيول عربية مبرقعة بغطاء أطلس أسود مذهب وعشرة جمال حجازية وأخرى من أصناف الألطاف وأنواع الإنعام . فزاد السلطان بهذه التشريفات وحسن الالتفات مسرات وتباهى بها على فلك التفاخر مباهاة .

---

(١) ليس النص كما تراءى لهوتسما محرفاً ، فقد ذكر بعضاً من ملامح الفتوة عند الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) إذ تحولت الفتوة عن العيارية والسوقية إلى فروسية أرستقراطية رسمية علي يديه . وكان أن حسن ندماؤه إليه في البداية أن يكون فتي فتفتى على من عرف بعبد الجبار بن يوسف (توفي ٥٨٣ هـ) الذي ألبسه سراويل الفتوة وأخبره أنه لبسها عن شيوخ لبسوها إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فتى الفتيان الذي لبسها آخذا الفتوة عن الرسول صلوات الله عليه فيما يدعون . كما شرب الخليفة من يديه ماء الفتوة وهو الماء المملوح ، واستدعى الناصر رؤساء أحزاب الفتيان المتناحرة فأهدر فتوتهم وأمر أن يجددوها عنه هو وحده وصار كل فتى يأتي الخليفة فيتفتي عليه أو على من تفتي عنه وأوجب على الجميع الطاعة والعمل بمقتضى الفتوه الحقيقية ، وأبطل الناصر أيضا مع الفتوه القديمة رمي الطيور بالبندق وكانت إحدى سمات الفتوة إلامن ينتمي إليه وقرر أنواعا من الطير لضرب الفتيان سمي الطير الجليل وهو أربعة عشر صنفا من الطير قصر الفتيان صيدهم عليها منها الكركي المذكور بالنص ، وقد تفتّى ملوك الأطراف على عهد الخليفة بإرساله لهم سروال الفتوة ومئزرها وكتب عهد الفتوة وأمرهم أن يسقى كل ملك رعيته شراب الفتوة ويلبسهم لتنتمي كل رعية إلى ملكها وينتمي كل ملك إلى الناصر .

للتفصيل راجع رسالة الدارس : (جماعات الفتوة في الأناضول في العصرين السلجوقي والعثماني ص ٤٠ - ٤٨) .

ذكر عزيمة السلطان لطرف طرسوس

لما عاد السلطان بسعادة من فتح سينوب حل جيش (دى) و (بهمن) ، وبَلا غمد الخنجر مثل زاد أرباب الفضيلة فى تراب المذلة ، وتَجَنَّ السمك ذو الفلوس السوداء خوف سنان الزمهرير بمجن الغدير وجلس السلطان جلوس خسرو الإقليم الرابع على مسند السعادة المربع ، ووضع مثلث البخور على مدخنة السرور وأنهى على هذا النمط أيام الشتاء برطل يزن عشرة منّات مع الحسناوات الختنيات . ولما عقد نجم الشمس الشرقى من قصر المشترى رحل العمل إلى منظرة برح الحمل عزم السلطان المحروسة قيصرية ، وكان يرحب ايام الحياة مع خواص الأمراء ومقربى البلاط الأعلى بتمهيد قواعد العدل ، فصدر فرمان القضاء المضاء بأن يذهب أمراء الأطراف مع جملة العساكر لعلف (بازار بنلو) ويلحق الأمراء الكبار ببلاط السلطان ، فاجتمع بموجب الفرمان كافة قواد الميدان وعامة الشجعان بالعدة الكاملة ببازار بنلو ، وعجل أمراء الخلوة بأصناف التقدمات إلى حضرة السلطنة وأب فى أثناء هذه الحالات محصلوا خراج سيس بشكايه تامه من ليفوق التكور . فصارت عند استماع هذه النبوة أعراق الحمية والنخوة للسلطان فى نبضان ، وأحضر الامراء الغائبين ، وأجلى القضية فقال الجميع بلسان واحد إن تعريك أذن غير المؤدب هذا من أوجب المهام ، لكن يتعذر فى هذا الموسم فى ولايته من فرط الحرارة دخولها فإن يترحم السلطان يتغن الجيش المنصور حتى أوان الخريف بريف الرياض الغناء ببنلو وتسمن البهائم . وحين تهمد الهاجرة بكل مكان نرحل بيمن التأييد الربانى وشوكة المجد السلطانى بحشد أتم ما يكون ويقدم تاديبه وهو من اللوازم فقرن السلطان ذاك الرأى بالمراضى وأول الخريف لما :

فاضت حواف الروضة كلها بخزائن داريوش

وغص فضاء المرج كله بدقائق قـــــــارون

ونثرت الرياح المسك والقرنفل بدل التـــــراب
وأثمرت الغصون اللعل والزبرجد مكان الثمر[١]

تحركت العساكر المنصورة وأسرعوا كالوثنى إلى البهار[٢] ، وأقبلت المظلة المباركة عن طريق وادى كوسى إلى كوكري وعسكر الجيش بها . فلما بلغ التكور النبأ أن السلطان عازم بجيش كالكثبان إلى سينوب اضطرب كالزئبق وارتعدت فرائصه على تقصيره فى الطاعة ورأى نفسه لتلك الحادثة متورطاً فى مهلكة الضلال ومتخبطاً بمسبعة الآجال ، فلم يجد فى مضيق تلك الداهية مجال المشورة فجمع للضرورة من كل طرف جيشاً « وكالباحث عن حتفه بظلفه » ولى وجهه إلى المحاربة .

ذكر محاصرة قلعة جنجن وفتحها على أيدي عبيد السلطان

لما وصل الموكب الميمون بجيش كان يضيق به الجبل والسهل إلى قلعة جنجين ولم يكن لليفون معقل أحصن منها ، سنح للسلطان رأى وهو أن يفتتح بفتح هاتين القلعتين فأمر فنصبت المنجنيقات فألقيت الزلزلة من الغرغرة بحال المقيمين بالقلاع ، وتواترت ثلاثة أيام فلما هطل صقيع الموت المريع على أرواحهم من غير متاع متيع لهم رفعوا لغاية العجز تئنان الأمان ، واستمهلوا ثلاثة أيام أن يسلموا القلعة إذا لم يصلهم مدد من التكور حتى انقضاء الأيام المعدودة . فلما وصل القاصد إلى التكور أجاب أنى سقط فى أمرى وليس لدى قوة لتدارككم . فلما سمع أهل القلعة ذلك الجواب استأمنوا لحياتهم وأمتعتهم وأموالهم وعيالهم فخط بالقلم أمر السلم وفق ملتمسهم

---

(١) البيتان بالفارسية :

كنار باغ پرخزايـــــــــن دارا   فضاء راغ هم پودقايق قـــــارون
فشاند مشك وقرنفل بجاي گرد رياح   نمود لعل وزبرجد بجاي ميوه غصون

(٢) يقصد البهار معبد النوبهار ببلخ وكان يتعبد به البوذيون وكان جد البرامكة سادناً له.

وحينذاك حمل السنجق إلى القلعة فرفعة نواب الديوان وقاموا باحتياط البيوتات ونصب رئيس القلعة وحرستها . وبعد ذلك توجه السلطان تلقاء قلعة كانجين ، فانبعث ساكنوها للمدافعة والممانعة فأمر السلطان بإعمال المنجنيقات وإلقاء الخلل فى صرح الحصار والزلل فى دار الكفار ، فأعدوا السلالم ولحقوا بالركب السلطانى ، وزحفوا بموجب حكم بلاط السلطنة زحفا عظيما وانثالوا من كل حدب على القلعة ، ولم يترك ملقوا السهام من الخارج لأهل القلعة مجالاً للنظر إلى العسكر ، وألقى الشجعان بأنفسهم فى حملة واحدة على القلعة ، وجرى كثير السحق والمحق حدٌ أنْ جرى فى شط دماء الأوداج جماجم الصرعى كالأقلام السرعى ، وقلعوا باب القلعة فولج باقى العسكر وأصاب متحصنى الحصن عظيم النكال بالإغارة والنهب والسلب والسبى والقتل . فلما فرغوا من هذا الأمر الهام رقى نواب الديوان الحصن وضبطوا الذخائر والأسلحة ونصبوا لها الرئيس والرجال للاستحفاظ والاحتلال وحينذاك ولوا وجوههم لمنازلة ليفون الملعون ، وكان بدوره أتى مترددا وخائفا للمقابلة والمقاتلة فتقدم أمير المجلس وكان فى تلك الحال أمير الطلائع وتحت إمرته ثلاثة آلاف فارس متلاف معروف ، قبل طلوع الصبح الصادق مع نفرين من خواصه متنكرين إلى عساكر الكافر ليطلع على كيفية حال الطلائع . وفجأة أحدق بهم الكفار وأزالوا بطعن السهام خيولهم عن الأقدام ، فعاذوا مترجلين بتل وأخذوا يدفعون عنهم أذية الكفار بالسهام والسيوف والدبابيس . فلما أشرقت الشمس توجه أمراء الطلائع إلى أمير المجلس فوجدوه قد غاب عن مقامه المعلوم . وبعد كشف القضية توجهوا صوب معسكر التكور . وكان من جملة العسكر الخاصة بأمير المجلس مائة فارس بطل مغوار ينازلون ألف رجل يوم اللقاء ، وكان يؤثرهم بالإقطاعات والإطلاقات ، فأسرعوا يرقون جبلاً مشرفا على العسكر الكافر . وعلى حين بغتة رأوا شخصاً صعد تلا وتجمع حوله الكفار فطاروا إليه دفعة واحدة وبددوا الكفار المحيطين به وشردوهم واستاقوا فرسه وأركبوا أمير المجلس . فلما لحق بجيشه ورأى الصفوف مصفوفة وبحكم أنه كان مطلعاً على مزاج

حال الكفار أعلم حضرة السلطان أنى وقفت تماماً على قوة الجيش الأرمنى وشوكته فإن يأمر سلطان العالم يتوجه العسكر الذى ركب خيوله على هذه الهيئة الى النزال . فصدر الأمر من حضرة السلطان فأتى جمعهم فى الحال كالرعد فى زئير والبحر فى هدير . وتوجه كل فوج كطود حديدى وبحر نارى فصفوا الصفوف ورفعوا الكفوف كأنهم البخت الشوم صوب الخصوم . وقدم ليفون أيضا بحشود وحشر كان هيأها من فرسان ومشاة بمحاذاة كماة جنود السلطان ، وكان يقدم « البارون فاسيل » و« البارون أوشين » والـ (كندصطبل) وكانوا بظاهر جيشه وبواجهته . فصرع أمير المجلس فى الحملة الأولى الكند صطبل الذى كان مشهورا بالصرامة إلى الأرض بطعان السنان وأمر فغلل عنقه برسن سلمه يد جندى ليذهب به إلى السلطان وليقول انه صرعه وسوف يقدم على نفس الفعل واللعب السابقين مع البارونين أوشين ونوشين . فسلم هذين الرجلين أيضا لجنديين من العسكر فحملاها إلى مكان القلب حيث خدمة السلطان ، فأمر للجنود الثلاثة بخلع نفيسة . وفى العاقبة لَفَّتْ نحوسة إخفار العهد بذيل ثوب آمالهم واتخذوا طريقهم إلى الانهزام (فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين) [1] وكفى الأمر بفرسان أمير المجلس الثلاثة آلاف ولم تقع حاجة أخرى للعسكر وتلا أمير المجلس (وكفى الله المؤمنين القتال) [2] وآب إلى خدمة السلطان فأعلى السلطان منزلته على كافة الأمراء وألبسه ما كان يلبسه . واستراح تلك الليلة الجيش من تعب الحرب ونصب الطعن والضرب ، وفى الصباح توجه سائر الجيش كريب المنون فى الجبل والسهل غير الحزون لطلب ليفون وكان يحمل يمنة ويسرة يجعل كل من يلقاه بين قتيل وأسير قيد وتنكيل . وجرى الغزو أسبوعا على هذه الطريق بولاية الأرمن وفى اليوم الثامن عاودت العساكر من أطراف ولاية الأرمن من الغنائم بالكثير من خيل وبغل وأسير . وعلم أن ليفون لحق ببعض من الحصون . ولما غدا الجيش منصورا والمعادى مقهورا

(١) سورة الأنعام الآية (٤٥) وقد ذكرت الآية خطأ بقوله (وقطع دابر القوم الذين ظلموا ..)

(٢) سورة الأحزاب الآية (٥) وقد ذكرها بدون (الواو) في أولها .

والمخالف محصوراً عزم السلطان بالجيش إلى الممالك المحروسة بغنائم لم يتحملها ظهر الأرض بنحو أن بيع فى قيصرية الثور والبهيمة بدرهمين والخمسة والسته من الأغنام بدرهم واحد والغلام والجارية الأرمنية المليحة بخمسين درهما . وأعلم السلطان بأمر الأمراء والأجناد بحصول المراد وأقام بنفسه بقيصرية .

ذكر ودود رسل ليفون بالتضرع والاستعطاف وتضعيف الخراج والتنصل من الإهمال الذى أجيز فى الخدمة

ولما عاود السلطان الممالك المحروسة ظهر ليفون من مهربه وشاور بقايا خواصه فى تلافى تلك الرزية ، فلم ير جميعهم غير سلوك طريق التذلل مناصاً . فرتب تقدمات من كل نوع وسيرها فى صحبه الكفاة وكان مضمون الرسالة أن إذا كان أصحاب الأغراض الى مسامع ملك الدنيا نقلوا نقلاً فإنى رأيت الجزاء الوفاق ، قتل الأمراء وتخلف الملك وورد الجيش كله مورد الهلك ، وإنى أتوقع منك رحمة لاتذر غما تذهب عنى جرما وتسبغ على حلما . حقيق أنه حين تجلى ولاية سيس عن العبد وتعطى لآخر فإنها للعبد أو لا بنى وبعد هذا أجعل قرط العبودية بأذنى وأضاعف الخراج ويلازم فوق المعهود كل عام خمسمائة فارس بمؤنتهم كل موضع تأمرون به . وشفع بضعة نفر من الأمراء الكبار فى قضاء هذا المهم فتشفع جميعهم باتفاق فى طاعته للتخت الأعلى وأزالوا غبار الوحشة عن الخاطر الأشرف للسلطان العادل وتقرر أن يرسل كل عام عشرين ألف دينار برسم الخراج بالتحف والأحمال اللائقة إلى الخزانه العامرة ويؤدى ما تقرر عليهم من خراج العام الماضى ولايغفل بعد اليوم من دقائق الخضوع دقيقة . وقرر السلطان على هذه الشرائط ملك سيس وأقسم عليها وعين الصاحب ضياء الدين قرا أرسلان وكان آنذاك أمير الدواة لجواب ليفون وتحصيل بقايا الخراج بمنشور مجدد لملكية تلك المملكة

ولما علم ليفون بقدومه استقبله بنفسه وأنزله بقصره وبالغ فى إكرام جانبه المبالغة القصوى . وفى اليوم التالى قرئ فرمان السلطان مع منشور تقرير المملكة على رؤوس الأشهاد فسجد ليفون وأطلق الدعوات ونثر النثارات . وفى اليوم التالى كتب ضياء الدين مسودة أقسم التكور على مضمونها وخط بها عهوده وسير إلى الخزانه عشرة آلاف دينار متأخرة وعشرة آلاف لستة شهور مقدمة من مال خراج المستقبل مع تحف أخرى . ولما بلغ ضياء الدين قيصرية وعرض الخراج والهدايا والتحف وكتاب الأيمان لتكور أمر السلطان للرسل بإحسان ممدود غير معدود وأطلق الأمراء المحبوسين وطارت الفرمانات إلى أطراف الممالك أن عوارض المنازعة زالت من بعد اليوم فافتحوا الطرق امام المترددين وتجار الديار ولاتضايقوا مخلوقا قط وسرح الرسل بإرضاء تام .

ذكر تزوج السلطان بكريمة من ذرية الملك فخر الدين بهرام شاه بن داود ملك أرزنجان

لما كان السلطان يرتسم الأوامر الإلهية ويمتثل الأحكام النبوية فى جملة الآراء والعزائم بحكم نص (تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس) فكان يروم أن تكون حريمة الكريمة مأنوسة بجوهر يبرق فيضيئ الليل منشأ فى صدف (حسب الأبوين وكرامة الطرفين) فأجال بريد الفكر حول الأطراف والأكناف فلم يجد أعظم من أسرة الملك فخر الدين بهرام شاه لأن صدفة درة الغواص ويتيمة الدهرهذى استخرجت من عمان الفضل والإحسان والأصلاب الطاهرة والأنساب الزاهرة للسلطان قلج أرسلان وانبعثت من جرثومة سلجوق . ولم يجد بعد طول الاستخارة ويمن الاستشارة على هذا الاختيار مزيداً فأمر بترتيب أفانين الهدايا الثمنية والتحف النفسية والضنينه من الخزانة العامرة وأناط خطبة التعيين فى هذه الخطبة لأحد أولى الألباب النجاب وأرسل بصحبته هذه الأحمال والهدايا . ولما بلغ الخبر الملك استقبله وأنزله قصر السلطنه بالإغزاز والإكرام ولزم فى احترام جانبه المبالغة . وفى اليوم التالى أمر بالاستقبال العام وأحضر الرسول . فقبل الرسول كتاب السلطان وأعطاه

الملك وأعاد له مشافهاته وأوضح ملتمساته وسلم الخازنين الهدايا الكثيرة فصاح الملك على ملأ من الناس كيف يمكن شكر مثل هذه الموهبة بأى لسان فلو وصل الأمر أن تكون ابنتى فى زمرة السرارى والجوارى لكان هذا موجب افتخار الأعقاب فكيف بذله بمثل هذا التكريم للعبد ، قبلت بالرأس والعين ، ولكن اذا وهبنى مهلة ثلاثة شهور ، لكى أقوم باتمام بقايا الواجبات والتجهيزات بما يليق بالبنات فإن هذا يقترن بالصواب . وأمد الرسول بأنواع الجوائز ، وخط بالقلم جوابا يشتمل على الانقياد والامتثال وتقلد المنة وأرسله بصحبة الرسول . وحينذاك انشغل بالتجهيز وترتيب الواجبات وأحضر الصانعين الحاذقين والصائغين الفائقين وقضى مدة ثلاثة شهور بليلها ويومها فى العمل . فهذب ورتب الأكاليل المجوهرة والخلاخيل المعنبرة ومن الخواتم والمعاصم النوع الثمين ومن الملبوسات الفاخر المرصع بفنون الجواهر والبغال الذهبية النعال والخيل السائرة كالصبا والبخاتى كأنها الجبال فى قطار[1] فوق الأحمال والأموال والرياش بلا حصر وقياس . وسير الصدر القاضى شرف الدين وكان من أكابر العلماء لإعلام تهيأة أسباب وإبرام عقد النكاح بالتحف والطرف . فلما وصل سيواس تقدم مبارز الدين بهرام شاه أمير المجلس بأنواع المكارم فى إكرام قدوم كريمته وتوجه فى صحبتها لخدمة السلطنة وتجاوز (كدوك) وعرض الحال فأستقبل السلطان أركان الدولة ودخلوا المدينة بعظمة تامة . وفى اليوم التالى حين دخل خدمة السلطنة رأى الاحتفاء بغير إحصاء واستفسر السلطان عن حال الملك منه بمبالغة تامة فأبلغ القاضى شرف الدين بعبارة كانت عين البراعة طاعة الملك ودعاءه بعد الثناء على السلطان ومدحه وأسمع الأسماع بإشباع تفصيلات الحكايات وعرض الودائع والتحف فاقترنت بالقبول والإحماد وأتى من هناك إلى الوثاق برونق تام وتعاقب عليه الأنزال والكرامات . وقدم باليوم التالى إلى سراى السلطنة قضاة الأمصار والأئمة الكبار وكانوا تجمعوا بسبب هذا الأمر

---

(١) البخاتي والبخت جمع بختى وهي الواحدة من الإبل الخراسانية وهي جمال ضخمة ذات سنامين ووبر أسود تستعمل في أسفار الشتاء (محيط المحيط) .

الهام . وأمر السلطان قبل فعبأت مسكوكات الذهب التامة العيار من ألف مثقال حتى خمسمائة ومائتين ومائة وخمسين فى أباليج السكر ووضعت فى أطباق ذهبية وفضية وامتلأت البركة المعنبرة ذات العرق المرجاني وكانت كالسماء إذا دخلت بجوف الأرض بماء الورد ووضع امام كل من الحاضرين طبق مناسب لمنزلته وملائم لمرتبته . وحضر الوكلاء والشهداء للطرفين وتوجه القاضى صدر الدين اللهاورى المعين لعقد النكاح إلى خدم الحرم وبدأ خطبة أمير المؤمنين المأمون التى خطبها فى إملاك بعض أقاربه لوجازتها والتيمن بها وهى : (المحمود هو الله والمصطفى رسول الله وخير ما عمل به كتاب الله قال الله تعالى وأنكحوا الأيامى الآية [١] ولو لم تكن من الصلة آية منزلة ولاسنه متبعة إلا ما جعله الله فى ذلك من إلف البعيد وبر القريب لسارع إليه الموفق المصيب وبادر نحوه العاقل اللبيب والسلطان الغالب عز الدين أبو الفتح كيكاوس بن كيخسرو بن قلج أرسلان من قد عرفتموه فى نسب لم تجهلوه خطب إليكم فتاتكم سلجوقى خاتون بنت الملك فخر الدين بهرام شاه بن داود وبذل لها من الصداق مائة ألف دينار حمراً خمسين معجلاً وخمسين مؤجلاً فشفعوا شافعنا[٢] وأنكحوا خاطبنا وقولوا خيرا تحمدوا وتؤجروا وبحمد الله رب العالمين وصلواته على محمد وآله أجمعين) ، فقالوا : (قبلنا الخاطب وبذلنا المخطوبة لازالت سحائب الأفضال عليها مصبوبه)[٣] . فلما أبرمت عقدة العقد واستحكمت حبال المواصلة تجاوز صوت (بالرفاء والبنين) العليين وأخذ يمطر الذهب والجوهر بغير حصر فى الصفة والعرصة كالزهر المتناثر الربيعى لتحرك النسيم السحرى على أوراق الزهر الطرى . ومد السماط الخاص وفتح باب الاستقبال العام . وحين انتشرت عقود الشهود وتليت آية (فإذا طعمتم فانتشروا)[٤] وذهب القاضى شرف الدين إلى مقامه أرسل فى

---

(١) سورة النور والآية هي (وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم) رقم (٣٢).

(٢) في الأصل خطأ (شافعيا) .

(٣) في الأصل خطأ (مصوبة) .

(٤) سورة الأحزاب الآية (٥٣) .

عقبه ذهبا وتشريفا وبغالا مسرجة . وفى اليوم التالى أمر أمناء الخزانة بترتيب الأسباب التى سوف تحمل بصحبة مستدعيى المهد وندب الأمير مبارز الدين بهرام شاه لاستدعاء المهد وأمر الخواتين الأميرات أن يذهبن حتى المحروسة أرزنجان بخدمة الملكة فلما أتمت المهمات عزم أمير المجلس والقاضى شرف الدين وسائر الخواتين وحين وصلوا حدود أرزنجان سبق القاضى وأخبر بقدوم الجيش اللجب بصحبة أمير المجلس والخواتين العين فأمر الملك بإنزال كل شخص على قدره وأرسل من يصحب الدايات وخصيان السراى وأعيان الأمراء وخواصه . ولما اقترب أمير المجلس إلى المدينة استقبل بالأعلام والسنجق والطبول وحين اتصل الجمعان ووقع نظر أمير المجلس على بيرق الملك ترجل ، ونزل الملك وقت أن شاهد طلعة أمير المجلس واحتضن كل منهما الآخر . وبعد الملاثمة والمعانقة ركبا ، فأبلغ أمير المجلس سلام سلطان الاسلام فسجد الملك وقال أنا عبد ملك العالم ولحقا وهما على حالهما من المفاوضة . وأنزل الملك أمير المجلس وأمراء السلطان بقصره ومد الموائد الخسروية وأقيمت المحافل وجرعت الأرطال الثقال . وفى اليوم التالى أرسل أمير المجلس إلى خدمة الملك الأسباب والأموال والخزائن التى كان السلطان أرسلها بتفصيل ونسخة بها ، فانطلق الثناء البليغ من الملك على علوهمة السلطان وغمر حاملى البقجات بالإنعام واستغرقوا مدة عشرة أيام حتى أن رتبت الأسباب من الطرفين بالسرور والحبور . فلما فرغا من إعداد الأمر أرسل الملك ثلاثمائة خلعة من العليا والوسطى والدنيا وثلاثمائة ألف درهم مع الخيول المسرجة إلى أمير المجلس لكى يفرقها على الأمراء والخدم والحشم ، ونقل أثناء الليل أموال الجهاز وخزائنه مع المهد المعظم من المدينة ، وعند السحر قرعت طبول الرحيل وسار الجمع فلما وصلوا إلى منزل (ارمك سو) تقدم أمير المجلس إلى خدمة السلطان وعرض القضايا فأمر السلطان فزينت المدينة وازدانت بيوتات سراى السلطنة وهيأت أسباب الفرح والسرور وخرجت المخدرات الأميرات اللاتى كن حاضرات لاستقبال المهد ولما انقضت نوبة من الليل دخلت جملة المخدرات من الطرفين فى خدمه المهد العالى إلى

المدينة وأتين البيت وأجلسن الملكة على منصة الكرامة والسعادة وعزم الملك (كاوس)[١] بيت العروس فدخلت الخواتين الزُهَريُّة لعذار حجاب الحجرات فخطا شمس السلاطين بصحبة قمر الخواتين إلى المرقد فركعت مربيات السيدة وخلعن الحذائين عن القدمين الملكيتين فصاد فن على حين بغتة وبلا تقديم الكنز اللائق الكريم . ووضع السلطان قلنسوة السلطنة عن رأسه وفك الحزام الملكى وبحكم رخصة الشريعة أزال الخاتم اللطيفة عن هذه الصحيفة الشريفة . وفى اليوم التالى بعد الاستحمام توجه متبخترا إلى البلاط وانشغل أسبوعاً على الدوام بشرب المدام وإكرام الأمراء الكرام ، وحينذاك أرسل بصحبة أمير المجلس إلى القاضى شرف الدين خمسمائه خلعة وسبعمائه ألف درهم ومائة فرس ومائة بغل مسرجة ومائتى جواد وبغل مجللة بتخوت الثياب المختلفة ، ففرقها هو أيضا على الأمراء على قدر مراتبهم ، ولبس الجميع خلعهم وقدموا إلى حضرة السلطنة وقبلوا يديه ونالوا إجازة الانصراف .

ذكر عزيمة السلطان لقصد ولاية الشام

لما لحق بجوار الحق الملك الظاهر صاحب حلب وكان الملك العزيز ولده قريب العهد إلى المهد بايعه أمراء تلك الدولة لوجه الضرورة وأجلسوه خلفا لأبيه وغدت والدته أخت الملك الاشرف حاكمة الدولة ، فنبض فى السلطان عرق طلب ملك حلب الذى كان قبل ذا فى تصرف أعمامه وقال لأعاظم دولته نرى هذا الرأى أن فى هذه الحالة وقد غدا الوهن فى الملك الظاهر وتصدى طفل وأمرأة لتملك هذه الديار فإن نقصد ولاية الشام بحشد تام قبل أن يجيشوا الجيوش ويدبروا التدابير فإن بعون الحق السنجق الخافق على شرفات تلك الممالك يكون لنا ، وتسنح فسحة فى عرصة البلاد . فقال الأمراء إن طبيعة الاكاسرة مجبوله على السد على العدو والفتح للبلاد ولكن إذا منح العبيد رتبة

---

(١) كاوس وكيكاوس ثاني ملوك الكيانيين وهو ولد كيقباد ووالد سياوش حسب الشاهنامة وقد تسمي السلاطين السلاجقة بأسماء هؤلاء الملوك الأسطوريين .

الاستشارة فإن مجال الاستماع لايسوؤه المقال . مع أن ذلك الولد تعزز مع صغر السن بمقر ملك والده ألا أن آباءه واجداده تنفسوا دوما الانصياع لهذه الأسرة وأرسلوا بالأجناد بوقت الاستمداد والأحمال والتحف . وفي هذا الوقت الذى صار به يتيما اذا قصده آخر فقد رام الاستعداء من هذه الدولة وطلب العداء[1] من هذا البلد ، فكيف الحال والملوك بالأطراف أرسلوا التعزية والتهنية وأحكموا (صداقة الآباء قرابة الأبناء) وحد مناجل المقاتل عند هذه الحضرة بقصد حصد ممالك ذاك الحلف لايرضى به الملوك والسلاطين الأعيان وعظماء الزمان . فقال السلطان بعد طول تفكر وإمعان ليس من شك فى أن رعاية جانب الملوك من مسلوك اللوازم ولكن اذا تسلح سلطان بسلاح الاقتدار وأسرج فرس فتح الأقطار فانه يروم التجافى عن طريق التصافى .

إذا هَمَّ ألقى بين عينيه عزمه   ونكَّب عن ذكر العواقب جانباً

وليس خافيا عن الرأى الرزين لكل الحاضرين معنى (لا أرحام بين الملوك) فإن كان ملوك الديار أرسلوا بالتغرية والتهنية فانهم تفتوا بهذا بسبب العجز ، فلا يجب أن نصدر هذه المروة المزورة قيد دفتر التقييد غير المفيد . فأصدر أمره إلى الأمير نصرة الدين صاحب مرعش أن المركب الميمون قادم بالجنود والجيوش الى تلك الحدود فواجب أن يعد الجيش وحواشيه ويجهز ما وسع الإمكان جيشاً من المشاة والفرسان ويرتب آلة الحصار . وأصدر أمراً آخر لأمراء ملطية وسيواس بهذا المعنى وأمراً لأمراء الثغور بدعوة الجيوش المعهودة والتوجه للسير بدون عذر وأمرا للأمراء والقواد بمشتى (بنلو) حتى يتوجهوا بهيئة تامة إلى صحراء أبلستان فاجتمع فى مدة عشرين يوماً من أطراف الممالك من العسكر والحشر ما تجاوز حد الحصر . وسار السلطان إلى أبلستان مع كوكبة الخواص فلما بلغها أمر بحفل عام واستمال أمراء العساكر وعين من بلاد الشام كل مدينة لأمير . وفى اليوم التالى بعد السير أحضر الجميع وشاورهم أى طريق يجب سلوكه فقالوا ليس طريق أسهل من

---

(١) في الأصل (عنايت) والمعني يقتضي أن تكون (عدايت) .

طريق مرزبان ورعبان[١] وتل باشر ومن هناك إلى حلب سهول فى الأغلب . فسارت الجيوش بذاك الطريق ، وبلغوا أولا قلعة مرزبان واستخلصها فى ثلاثة أيام ، وفى تلك الأيام لحق الأمير نصرة الدين صاحب مرعش بجيش كثيف بخدمة السلطان ومن ذاك المكان عزم قلعة رعبان فتيسر فتح هذه الأخرى وفوض رئاستها لصهر نصرة الدين . وقصد من ذاك الموضع قلعة تل باشر ومضت عشرة أيام فى الحصار لم تظهر أية آثار . فأمر السلطان باستئصال الأشجار والكروم بضواحى القلعة بفأس البأس فلما شاهد أهل القلعة ذاك المعنى تجمعوا لدى ملك القلعة وقالوا وجه معاشنا من ثمار تلك الأشجار وحين يبتر الكروم جيش الروم بفأس البأس ، فمن أين بعد هذا الوجه يكون منالنا فإن نسلم فى هذه الحالة القلعة لابد أن يعذرنا . فاستمهلهم الملك وأرسل رسولاً إلى معية السلطان أن انتعاش العبد وأشياعى من هذه القلعة وحين يفتح عبيد السلطان هذه عنى فلا يعلم من أنَّى تكون البلغة والقوت فإن يجعل فى الممالك إقطاع باسم العبد ويتصرف بهذه القلعة عوضاً بغير عناء تسلم إلى عبيد دولة السلطنة . فأمر السلطان فكتب باسمه منشور ولاية (هونى)[٢] برسم الإقطاع وخط بالقلم كتاب القسم والسلم وعاود الرسول ورفع السنجق وخطب باسم السلطان ومنح قيادة جيشها لأخى الأمير نصرة الدين . ولما تحصل الفراغ من أمر القلعة أبلغوا مسامعه الشريفة أن ظهير الدين الإيلى البروانة لما أشاح بوجهه عن الطاعة وأسرع إلى هذه الديار وافته المنية فى هذه الخطة وهو مدفون بهذا المكان فأمر السلطان فتفحصوا مرقده وأخرجوا عظام رفاته من الأرض وأحرقوها وللرياح أسلموها وبهذا الفعل تشفى السلطان .

---

(١) رعبان مدينه بالثغور بين حلب وسميساط قرب الفرات معدودة في العواصم (معجم البلدان لياقوت الحموي) .

(٢) وتكتب أيضا (خونا) بلد من أعمال أذربايجان (كتاب السلوك ١ / ٢٠٧ وياقوت ٢ / ٤٩٩ - ٥٠٠) بين مراغة وزنجان في طريق الري .

ذكر علم والدة الملك العزيز بقصد السلطان لتملك ديار الشام

لما بلغت رايات السلطنه آبلستان ، أجلى الجواسيس الذين كانوا في المعسكر الأحوال إلى الملكة وجمال الدين لؤلؤ الحاكم ونائب الملكة فاضطربا لهذا الخبر فسيرا الرسل بالهدايا الوافرة إلى الملك الأشرف وكان أخا الملكة وأوضحا أن سلطان الروم بجيش بعدد النجوم قام بالهجوم على تخوم ولايتنا ولاريب أنه إذا تيسر له هذه البلاد فلن يبقي لك إمكان الأمان فلابد أن تزيل الغبار اذا علق قبل هذا من قبل الملك الظاهر بالخاطر الأشرف بماء الرحمة والشفقة وتقرأ (وعند الشدائد تذهب الأحقاد) . فلما علم الأشرف بهذه القضية صارت هذه الكلمات المعقولة مقبولة طبعه فجمع الجنود والحشود ولحق بحلب بأسرع السبب ولما رأى شقيقته قال إن المال للملوك لمثل هذا اليوم واذا أنفقوا خزينة مائة عام على المحافظة على أقل قرية كانت زهيدة بلا قيمة . فأخرجت الملكة مدخرات الأعوام بلا إبقاء أو إخفاء وجَيَّشت الجيوش ، وفكرت في حيلة تخرج اعتقاد السلطان عن عساكره كليا ونفذتها على هذا الوجه أنها أوجدت شخصاً من سكان بلاد الروم كان يعلم أسماء جملة أمراء الدولة وألقابهم وله مع أغلبهم معرفة وأعطته مالاً جماً وأغلظت الأيمان أن هذا الأمر لو تحقق ورجع جيش الروم ليصيبنه أضعاف هذا المال . فكتبت إجابات لرسائل مزورة إلى جملة أمراء الروم ذكر فيها ثناء عظيم على الحفاظ وحسن العهد الذي أبداه الأمراء والوعد منهم بإلقاء السلطان بالحيلة في حدود الشام ونحن عازمون بعقبكم بلا مدافعة والواجب الجد جداً بليغاً بكل طريق يكون في المحافظة من السلطان حتي لايطلع على هذه القضية وإلا بقيت مساعي الجميع بغير حاصل ، وقد أرسلت برسم النفقات لكل واحد من الأمراء من الذهب المصري والخيول العربية بصحبة فلان وحفظ هذه الأحمال المذكورة عنده . وقالت لهذا الشخص اذهب أنت أولاً إلى معسكر السلطان وألق بنفسك بخيمة بعض المقربين له وأَجْلِ هذا المعنى

على سبيل الإنذار وقل إنني كنت بين جيش الشام حين وصلتهم خطابات جملة الأمراء وأتي من الشام لكل واحد بمال وأسباب وافرة وهيئت بالموضع الفلاني وجلسوا الشوام ينتظرون الفرصة ليوصلوها لكل منهم واذا لم تكونوا مصدقين فاذهبوا إلى هذا الموضع المعين حتى تشاهدوا . فذهب ذاك الشخص بهذه الخدعة بسلة الحيلة وألقى بنفسه لدى أحد غلمان السلطان وأعاد عليه ذكر الحال فوصل في الحال ذلك الغلام إلى حضرة السلطنة فأرسل السلطان الأمناء مع ذلك الشخص الذي كان أظهر العلامات إلى المقام المعلوم ، فحملوا الأحمال والخزانة وأتوابها مجلس السلطان ووجدوا الكتب المختومة . ولما طالع السلطان الكتب مادت الأرض بين يديه وساء ظنه بالأمراء الأبرياء وأمر بهذا الشخص فأوقف فلم يطلع أحد على القضية . وفي اليوم التالي أمر أمير المجلس أن يتقدم بأربعة آلاف رجل كطليعة ويسير فى عقبه أربعة آلاف آخرون بقيادة سيف الدين آيبه وسار السلطان بأربعة عشر ألفاً يتعقبهم . فلما اقترب أمير المجلس إلى جند الشام أمر (محمود ألپ) - وكان من رؤساء عشائر سيواس وبلغ الثمانين عمراً وشاهد ضروب الحروب وذاق وأذاق الطعن والضرب - بأن يرقى مرتفعاً ليتفحص جيش الشام . فلما استكشف محمود ألپ غور العسكر بمسبار الاستقصاء أتى إلى أمير المجلس وقال إن المسير بالأربعة آلاف هذه لمقابلة عساكر الشام يبدو بعيداً عن الكفاية فإذا أعلم مختبر طعام الملك لكي يسرع بالمدد وأخبر قلب العسكر لكي ينهض الركاب الملكي على نحو أسرع ويلحق بنا معجلاً فهذا هو الصلاح . فلم يلتفت لكلامه أمير المجلس لكي ينفذ الحكم الأزلي ويخرج ريح النخوة من الدماغ المغلوب غالبا ومال إلى القتال . وكان محمود يصرخ ويصيح أن العجلة غير مستحبة لصاحب الأمر فلم يستمع له وأجابه إجابات باردة . ومع أن جيش العدو انهزم في الحملة الأولى وأسرع المبشر إلى مختبر الطعام إلا أن جنديا من الروم اتفاقا وقع أسيرا بيد أحد أمراء الملك الأشرف فحملوه إلى خدمة الملك الأشرف فسأل هل السلطان حاضر بهذا الجيش فأجاب أن السلطان ناء وهذه أربعة آلاف فارس طليعة يقودها أمير المجلس والأمير المختبر للطعام الملكي آت بأربعة آلاف أخرى في عقبه ، فصرخ الملك

الأشرف في الحال المستغاث أيها المسلمون لاتفروا فإن مدد هذا الجيش متناء فبكوا بتـأثير الحمية وهاجم الغلمان العادليون والظاهريون وجرى من الطرفين كثير من القتل فعجل أمير المجلس بجندي إلى الأمير المختبر للطعام يبلغه بأن يبلغه بعجل لأن العدو غلب حتى لاتقع الواقعة عليهم . فقال مختبر الطعام كان يباهي ويفاخر حتى هذه الساعة ، ونحن نذهب إليه و نوقع بالجيش فيلمع نجمه فلم يقدم قدما واحدة ولم يعلم السلطان حتى نفذ القضاء السماوي . ووقع أمير المجلس ومعه فوج من الأمراء أسارى . فلما حمل أمير المجلس إلى الملك الأشرف استقبله وأحضر الجراحين فضمدوا جروحه وكساه تشريفا خاصاً وأرسله مع سائر الأسرى إلى حلب وأوكل عليه الحراس وأوصى الملكة أن تعظم أمير المجلس تعظيما تاما وتعزه إعزازا كاملا . ولما وصل حضرة السلطنة الخبر حمي واستعر جحيم غضبه وأمر مختبر الطعام بأن يتسلح سائر الجيش ولايبيات ليلته[1] وأرسل الملك الأشرف في اليوم التالي ألفين من العرب ليسيروا قدماً ويخبروه بأحوال السلطان وعزيمته وهزيمة جنده فلما وصلوا رأوا البلاط مضروبا والجيش متسلحاً فلما ظهروا من الأفق ركنوا إلى الفرار وقال السلطان ياكفار النعمة لو أن أميرا نكب فان بقية الجيش والسلطان والمظلة والقواد ما يزالون باقين . فلما سمعوا هذا اللوم المخلوط بالسم حمل حملة واحدة فجعل بركضة واحدة فضاء الصحراء بدم العرب مزرعة من الشقائق وسير اللعل السائل على الزمرد الثابت . فصف الملك الأشرف صفوفه وأحمى حمية جنده ووقف مكانه وقال نجهد بقدر الإمكان إذا أتوا وإذا رجعوا فهو المراد . فأمر السلطان بأن يقدموا الدهليز فظهرت ثانية طلائع جيوش العرب فذاقوا نفس الطعن والضرب وولوا الأدبار ، وقالوا للملك الأشرف إن دهليز السلطان ألقي به اليوم مرتين وأعيد نصبه فقال لعله بغى الوغى ويمانع الأمراء . فلما حل الليل تقهقر السلطان قليلا وبقى الأمراء والجيش بذلك المكان . وعند الصباح عزم السلطان إلى أبلستان من ذاك المكان ، فلما علم الملك الأشرف برجوع السلطان عزم هو أيضا إلى حلب ، ولما تحقق

---

(١) في الاصل خطأ (بخسپند) والمعنى يقتضى (نخسپند) .

أنه لحق بأبلستان سير الجيش وذهب إلى مرزبان ورعبان ، وأسقط حراس السلطان بعد المحاصرة . وبعد أن فرغ من تلك المهمات سرح أمراء السلطان وحراس القلاع باحترام واحتشام وتوجه الى حلب وأنعم على أمير المجلس وباقي الإمراء بالخلعة والصلة ، وأرسله بإعزاز وتبجيل إلى خدمة السلطان . وتوجه بنفسه إلى دمشق . وتوقف السلطان في أبلستان أياما عديدة ، وبلغ أخو نصرة الدين وصهره من قلعتي رعبان وتل باشر اللتين سلماهما إلى الملك الأشرف خدمة السلطان . وكان السلطان من جواب الرسائل المزورة في غضاب ومن انكسار الطلائع في اضطراب . فأمر فشنق كلا هذين . وفي اليوم التالي أصدر أمره بحضور جملة الأمراء إلى البلاط وأمر خواصه سراً بأن يلبس الأمراء المفاردة[1] السلاح خفية وينتظروا وصول الأمر . وأتى الأمراء أجمعهم وقعدوا فطلب السلطان جواب الرسائل من الدويدار وألقى كل كتاب إلى الأمير المكتوب إليه . وبعد مطالعتها حار هؤلاء المساكين الأبرار وأصابتهم الدهشة وقالوا (سبحانك هذا بهتان عظيم[2]) ، وأنكروا هذا المنكر وقالوا لا يجوز للملك أن يلتفت إلى حيلة أصحاب المكيدة وينسب إلينا العقوق والخذلان بلا برهان وبيان ويأمر بعقوبة عاقبتها ليست غير الندامة . وبرغم إكثارهم العويل والبكاء لم يتأثر السلطان إلا قليلا ، ثم أمر بأن يغلل سائرهم بالعمائم ويصفدوا ويزج بهم في دار وأضرمت حول الدار نار النمرود وأحرقوا هؤلاء البرراء . وكان الدخان يجاوز الفلك الأزرق والزفير والصراخ يصل عنان السماء ، وإذا كان أحدهم يبحث عن مخرج من شق كان الزبانية[3] الغلاظ الشداد يوخزونهم بالرماح ذوات الرأسين فيتجهون مضطرين

---

(١) الأمراء المفاردة هم الخواص من الحرس السلطانية كما يظهر من النص .

(٢) سورة النور (الآية ١٦) .

(٣) كلمة الزبانية ترجمة غير دقيقة للكلمة (فرنكوسان) المكونة برأي هو تسما كما بداله من (فرن) و (كوس) وهي غير موجودة بالمعجمات الفارسية ، والشق الأول منها هو الفرن والتنور فمعناها أو معنى شكلها الأصلي يتصل بالنار وهي مجموعة بالألف والنون علامة ذي الروح ، ومن خلال موقعها من الجملة يتحور معناها إلى خزنة النار أو الزبانية .

إلى النيران . وبالليل وقت بطلان الحواس ألقى عليه من عالم الغيب في المنام ملام عظيم ، فهب من النوم من الخوف والهوس (كمن يتخبطه الشيطان من المس[١]) فاضطرب وندم لما فعل :

لما ضاع الجام من اليد وتحطمت القرابة

فماذا يفيد عض الشفتين وحك اليدين[٢]

فلام الأمراء الباقين لم ضننتم على بالمناصحة في تلك الحالة ، فاعتذروا وأحالوها إلى القضاء السماوي ، فاستولى من هذا الوهم على السلطان الدق (السل) فقيل إن ماء سيواس لا يناسب مزاج السلطان فحملوه إلى خرائب المدينة فكان يؤتى له من ملطية بماء الفرات ، ولم يلق في العاقبة العافية ، ونظم هذا الرباعي من إملاء طبعه الموزون :

خلينا هذه الدنيا وذهبنا	وزرعنا آلام القلب وذهبنا
والنوبة بعد هذا لكم لأنا	قضينا نوبتنا وذهبنا[٣]

وأمر بأن ينقر وينقش على الضريح الذي بني في دار الشفاء بسيواس بأمره النافذ وحينذاك انتقل من دنيا الفرار إلى دار القرار واختار في أيام الشباب مفارقة عالم الذهاب (شاء أم أبى) ، والأمل أن يقبله الله تعالى[٤] ويمحو ذنبه الأخير (والله غفار الذنوب) . وحينذاك بعد جلوس السلطان علاء الدين على عرش الملكة أودع الرضوان بروضة دار الشفاء بسيواس .

---

(١) نقل خاطئ من القرآن الكريم فالآية رقم (٢٧٥) من سورة البقرة هي قوله تعالى (الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخطبه الشيطان من المسّ) .

(٢) البيت الفارسي :

چون جام زدست رفت وقرابه شكست	خاييدن لب چــه ســود وماليدن دست

(٣) الرباعي الفارسي :

مـا جـهان گذاشيتم وشديم	رنـــج دل بكاشتيم وشـــديم
بعد ازين نوبت شماست كه ما	نوبت خـويش داشيتم وشديم

(٤) في الأصل (جناب اوايل) فترجمناها إلى الجلالة .

ذكر مشاورة الأمراء في اختيار أحد الأمراء للسلطنة

لما انتقل السلطان عز الدين في الرابع من شوال سنة (٦١٧ هـ) إلى الخلد الأعلى أخفى موت السلطان أمراء الدولة من قبيل الأمير سيف الدين آيبه وشرف الدين محمد البروانة ومبارز الدين الصاولي ومبارز الدين بهرام شاه وزين الدين البشارة وتشاوروا مع الصاحب مجد الدين أبي بكر الذي لم يكن له ثان في العالم الفاني ومن مشاهير رباعياته :

يا رســم الوفـاء وقـاعده الجفاء
من يصـيبه الحـريـة في عبوديتك
كيف يدوم السرور مع الهموم بسببك
وقـد رفـع بـك الصنم الذي وضعت[١]

وشمس الدين حمزة بن المؤيد الطغرائي الذي كان بكر عطارد ونادرة الأيام بلغ في أسلوب الترسل وقرض النظم الشقة الشاسعة بل تجاوز من الأفلاك التاسعة ومن محكيات محمودات طبعه اللطيف هذا الرباعي :

درج الزهــر الزمردي مفتوح اليوم
وطبق اللعـل الذهبي موضـوع اليوم
واذا لـم ينل من إمارة الرياحين هذه
فكيف يعرض الأوراق الكثيرة اليوم[٢]

---

(١) الرباعي الفارسي :

آئين وفا قاعـــده‌ء بي دادي   دربندگيست كـــارسد آزادي
باغم توچه پاي دارد شـــادي   برداشته شد باتوصنم بنهادي

(٢) الرباعي الفارسي :

گل درج زمردين گشادست امروز   زرين طبـق لعل نهادست امـــروز
ور زانك امارت ريـــاحين نگرفت   صدبرگ چگونه عرض دادست امروز

وملك السادة نظام الدين أحمد الأمير العارض المعروف بابن محمود الوزير الذي كان في إنشاء المثنويات ثاني الفردوسي ومن نتائج طبعه هذا :

قلت لا يمـكن أن أغتم بغم زلفك ثـانية
ولا يمـكن أن أحـزن أكثر من هذا المسك
قـال لا تـغتم بسبب عيني وشفتي أيضاً
لأنه لا يمكن في النهاية أكل اللوز والسكر[1]

والصاحب شمس الدين الأصفهاني الذي كان في هذا الوقت المنشئ الخاص وبوساطة هذا الرباعي الذي أنشده على البديهة باقتراح السلطان :

كنت معك ليلة حتـى الصباح يا حبيبـي
حـد أنـي لا يـمكنني الشـرح لفـرط اللـطـف
فالشفة كانت على الشفة والوجه على الوجه ومن بعد ذلك
المختون (سنت لو) موضوع على مكان الشق (سوراخان[2])

وقت أن وصلوا في طريق آقصرا إلى هذين المنزلين نال القربى ، وأضيف له شرف المطبخ والإنشاء الخاص تشاوروا فيمن يرفعونه إلى العرش . فأشارت طائفة على مغيث الدين طغرلشاه بن قلج أرسلان صاحب أرزن الروم وكان ملكا حافظاً للملك مراعياً للرعية ، وجزمت جماعة بنصب (كي فريدون) وكان أخا السلطان الأصغر وموقوفاً بقلعة (قويلو) . فقال الأمير مبارز الدين بهرام شاه أمير المجلس وسيف الدين آيبه الذي كان ملك الأمراء لا يصح ذكر شخص آخر مع وجود الملك علاء الدين الأجدر بالتاج

---

(١) الرباعي الفارسي :

كفتم غم زلف تو دكر نتوان خـورد — زين بيش كه مشك جگرنتوان خورد
كفتاغم چشم ولب مـن نيز مخور — كاخر همه بادام وشكر نتوان خورد

(٢) الرباعي الفارسي :

بـادام شبي باتـو دلارام چـنان — كزغايت لطف شرح كـردن نتـوان
لب برلب ورخ بررخ وآنگه پس ازآن — سنت لـورانـهاده بـرسوراخـان

وواضح أنه ورى بهذين الموضعين لموضعين آخرين .

وفصّ الملك . فقال الصاحب مجد الدين وشرف الدين محمد البروانة كنابتوقات من ملازمي خدمته وهو حقود ومتكبر وحسود ومتنمر ، ثم طعنوا فيما بعد في كل شخص طعنات لا تندمل بمرهم قط ، فلم يلتفت إليهم الأمراء وقالوا لا يمكن طلب مزيد على الملك علاء الدين كيقباد ، واتفق الأمراء طوعاً وكرها وتعاهد الواحد منهم مع الآخر على سلطنة الملك علاء الدين . فقال إذ ذاك سيف الدين آيبه لما كنت أسير بالملك من أنقرة إلى ملطية علق بخاطره غبار من قبلي فإني ذاهب بنفسي لمقر الملك واتحصل من قبله الأمان على حياتي . فأخذ خاتم السلطان المرحوم وعمامته برسم الإمارة وانتقى خيلاً كثيراً حثيث الخطى طاوي الأرض وسار مع بضعة نفر من خواص الأسرة وبطانة عتبة السلطان إلى ملطية إلى قلعة (كذربيرت) وكانت سجن السلطان الثاني . وخرجوا من المدينة في الصلاة الأخيرة وركبوا طوال الليل ووصلوا مع الصباح إلى القلعة . وكان السلطان قد أقام الصلاة وجلس ورأى بالليل مناماً أن رجلاً نورانيا بمنظر رحماني أتاه وفك القيود عن قدميه وأمر فأسرج بغل عظيم الهيكل فوضع يديه تحت إبطى السلطان وأركبه وقال همه محبة عمر بن محمد السهر وردي مع علاء الدين على الدوام . ومع أن السلطان كان رأى هذا المنام وكان يعبرها في ضميره لكنه لما رأى ذلك الفوج استولى عليه الخوف التام وقال لصاحب القلعة متحسراً امنع هذه الجماعة حالما أجدد غسلي ووضوئي وانشغل بنفسي لحظة وأصلي ركعتين على وداع الدنيا . فلما بلغ حارس القلعة بابها كان مختبر الطعام واقفاً بالباب . فسأل الحارس ما سبب قدوم ملك الأمراء فقال :

ذاك الوعد الذي كان يعده التقدير أُوفي به

وذاك الأمر الذي كانت تريده الأيام تحقق[1]

فأظهر العمامة والخاتم المسوّد ففتح الحارس الباب وترك مختبر الطعام ومعه غلام يجوز ، فأخذ السيف من الغلام وسلمه بغمده إلى الحارس وسار

(١) البيت الفارسي :

آن وعده كه تقدير همي داد وفاشـد ... وآن كاركه ايام همي خواست درآمد

كلاهما إلى المجلس الذي كان به السلطان . ودخل الحارس أولاً فقام بالتعزية والتسلية وطلب الإجازة لسيف الدين . وما إن وقع نظر سيف الدين على المحيّا المبارك للسلطان حتى سجد على الأرض ومسح الدمع من مآقيه وأخرج الكفن من إبطه ولفه على عنقه وأخذ السيف من الحارس ووضعه أمام السلطان وقال أي حكم للسلطان يجريه اليوم على العبد . وكان قلب الملك قد جفل تماماً وبرح موضعه فلما سمع هذه الكلمات اطمأن قليلا وأطلق لسانه بقبوله العذر ووعده بالوعود الحسنة . فقال الأمير سيف الدين اذا كان الملك يقول هذا المعنى بوجه الصدق يجرى القسم على لسانه المبارك ويسطر بخطه الأشرف على ذلك . فأقسم السلطان وأعاد بموجب التماسه وخط السلطان كتاب الأمان بخطه المبارك . فلم يكتف الأمير سيف الدين بذلك فأخرج مصحف الحمائل عن الغمد ووضعه أمام السلطان وقال مع أن خط يدكم الأشرف سبب أمن العالمين وأمانهم لكن التأكيد بهذا الكلام المجيد لا يضر . فأعاد السلطان الأيمان . فلما تم لمختبر الطعام بتلك المواثيق الوثوق أجرى لسانه بقوله بقاء العمر للملك إن روح أخيك توجهت من خطة دنيا السّلاك إلى ذرورة الأفلاك والملكة والسلطنة موصولان لك والتخت والفصّ الثمين لـ (إنك اليوم لدنيا مكين أمين[1]) مقروءان عليك ، والمتوقع بمكارم علو الخديو المعظم أن يضع من غير تبطيء قدمه في ركاب البسيط الوطيء ويزين سرير السلطنة . فلما اتصل تخمين السلطان باليقين صلى ركعتين بشكر الله قارئاً (رب قد آتيتني من الملك[2]) ، وتوجه من مكان السّجْن إلى الإيوان والوكن كالقمر من غمام الرعد والسيف من لجام الغمد . وقدم إذ ذاك (أغلبك) أمير اصطبل أمير المجلس بغلاً جرماً على الهيئة التي رآها في المنام قَبْلُ ، فأمتطاه تالياً (وقال اركبوا[3]) ، وصار مع عنان رياح الصبا وألقى بالمراحل والمنازل وراءه وذاق حتى وقت السحر السهر حتى وصلوا إلى بوابة المدينة . وكان أمير

---

(١) سورة يوسف الآية (٥٤) .
(٢) سورة يوسف الآية (١٠١) .
(٣) سورة هود الآية (٤١) .

المجلس يمتطي طول الليل فرسه ويستميل الناس إلى محبة[1] السلطان ورتب خمسين رجلاً على بوابة المدينة ، فلما أن وصل (أغلبك) أخبروه وصاح (أغلبك) فأسرع أمير المجلس وفتح باب المدينة . فلما رأى السلطان لثم الأرض والركاب ، وذهب أمير المجلس ومختبر الطعام في خدمته إلى تابوت أخيه ففتح ليرى وجه أخيه . وحينذاك أجلس على العرش وأحضر القاضي والأئمة والمعتبرين إلى البلاط ، ولم تكن كيفية الحال معلومة لكل شخص ، فلما استوى السلطان على العرش ومثل القواد ورؤساء الجند كل في مقامه المعلوم ، أتى سيف الدين من مقر السلطان إلى الدهليز وقال مقرراً للأئمة والأكابر إن السلطان عز الدين كيكاوس استغرق في قاموس رحمة الحق ونزل في تابوت (فيه سكينة من ربكم[2]) ، وزين السلطان المعظم علاء الدين كيقباد الدنيا بعظمته المسعدة ومنح كرسي المملكة منزلة العرش المجيد[3] . وحينذاك أزيحت الأستار ودخل جملة الأئمة والمعتبرين وقبلوا أرض العبودية ، وأخذ الأمير مختبر الطعام بيد كل واحد منهم وأتى به إلى قدم التخت ليختص بشرف تقبيل اليدين ، وبعد ذاك دخلوا المسجد وأقسموا باسم السلطان علاء الدين بتلقين القاضي ، واكتسى برسم العزاء السلطان الأطلس الأبيض ورعى لثلاثة أيام رسم التأسف والتلهف وفي اليوم الرابع أَبْدَلَ الكاس باللباس[4] وبذل للأمراء الخلع الوافرة ومنح مناشير الإمارات والمناصب والإقطاعات وعزم دار الملك قونية .

ذكر عزيمة السلطان علاء الدين إلى قونية

لما أحكمت قواعد الأمور عزم السلطان بالطالع السعيد دار الملك قونية مستقر سرير الدولة وأمر أمير المجلس أن يلازم الركاب المبروك حتى (كدوك) وقدم بها ضيافة ملكية وزين السلطان المهرجان وظلوا من الصباح حتى

(١) في الأصل (صحت) وهي غير مناسبة .
(٢) سورة البقرة الآية (٢٤٨) .
(٣) بالصورة مبالغة خارجة جعلته يشبه كيقباد بمن ليس كمثله شئ .
(٤) أسبق المؤلف باء التبديل خطأ بالكاس .

منتصف الليل في طرب من غاية بطر . وفي اليوم التالي كساه تشريفاً نفيساً وأرسله إلى سيواس وأتى هو نفسه إلى قيصرية وكان أعيان المدينة والولاية ومعتبروها قد علموا بالخبر فأعدوا قصوراً متحركة وساكنة وتقدموا حتى (چبق) يستقبلونه ، ولما رأوا السنجق المبارك ترجلوا وقبلوا الأرض وتشرفوا بلثم يديه الشريفتين وأتوا المدينة (كالفراش المبثوث[1]) في الركاب الميمون ودخل الملك كيقباد ما بين كيخسرو وقباد المدينة فلقى في مهاد كرامات الأجداد الاستبداد ، وكان للدرهم والدينار بل اللؤلؤ الكبار على ملك الأمصار كقطرات الأمطار بالربيع الأبكار الانتشار والانتثار ، وجعل ولد لاعب الأحقاق[2] كل كرائم الدرر المحتفظ به في الصندوق وما وصلت اليه يد الإمكان الفداء والنثار لمقدم ملك الأقطار . وأقام السلطان أياماً عدة بذاك المكان وحينذاك سار على صهوات الإقبال ومناكب الجلال إلى آقصرا فلما بلغ رباط « البروانة » توجه مقيموا آقصرا المشتاقون لطلعه السلطان بهاء العالم كالعاشق المهجور نحو الوصال أو العَطِش المضجور في طلب الماء الزلال للاستقبال ، وبعد تقديم الولاء من لثم الأرض وإدراك شرف سعادة تقبيل الباسطة زينة الدنيا ساروا في خدمة الموكب الميمون إلى المدينة . واستراح السلطان أياماً اثنين أو ثلاثة بهذه البلدة وعزم بعد ذاك دار الملك . ولما هب بريد الصبا بنسيم غالية طرة رايات الطلائع الميمونة لملك الدنيا إلى مشام ساكني قونية انبعث في الجميع دواعي العزمات للتعرض لنفحات سعادات ملاقاة سلطان المشارق والمغارب ، ووضعوا مكتسب الأعمار ومدخر الأعصار في وجه نثار قدوم ملك الأمصار ، وابتنوا خمسمائه قصر مائتين من السيارات وثلاثمائة من الثوابت وزينوها جميعها بغرائب السلاح والخرائد الملاح ، وتقدموا حتى منزل (أبروق) في استقباله . ولما أناروا مآقيهم بالتغبر بغبار حوافر السابح السابق لملك العالم ، انطبق عليهم الوصف

---

(١) سورة القارعة الآية (٤) .

(٢) لاعب الأحقاق أو الساحر بالفارسية (حقه باز) هو والدسيف الدين أبي بكر نائب السلطان وتلاعب المؤلف بالمدلولين للتورية والإيهام .

(خروا سجداً[1]) بلا إعمال تكلف ، وألقت جلبة الحمدلة (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن[2]) بالزلزلة في قواعد القصر المشيد وشرف حسام الدين أمير بلدة أريف والمعتبرون الآخرون بشرف الاختصاص وجلسوا في السماط والمحفل الملكي ، وأمضوا ذاك اليوم بصحراء (روزبة) بسعادة وفرح . وفي اليوم التالي طلعت شمس المظلة الميمونة من أفق سرادق سيارة الدنيا ، وظهر من أنغام الناي ودقات الأجراس للمكان والزمان الخفقان والوجيب للأرواح والقلوب ، وقبضت وبسطت عقاب المظلة الميمونة على شمس السلاطين جناحي الإقبال ، ومدت ظلال الدولة ، وأسرع خمسمائة مقدّم من قزويني وديلمي وأفرنجي في ركاب مالك الرقاب بلا كثير حياء من النازلة السمائية وبلا شديد استحياء من الموتة الفجائية ، وجعل مائة وعشرون نفراً حارساً غضنفراً كراً وشوكه وفراً ذئباً حفيظة وسبعاً حفاظة حمائل سيوفهم الذهبية كأنها قلادة الجوزاء تشبثوا عن اليسار والأيمان بحبال سرج السلطان ، فلما اقتربوا إلى المدينة ترجل الأمراء جميعاً ، وعقد الأمير المختبر للطعام ذيل قبائه بحزامه وأخذ بالعنان الفاتح للبلدان للسلطان بينما يسير ، فولج المدينة تالياً (ادخلوها بسلام[3]) . وكانت المخدرات القدسية تطل برؤوسهن من المنظرة الزرقاء تالية (واجعله رب رضيا[4]) وأجرى السلطان على لسانه المبارك (رب أنزلني منزلاً مباركاً[5]) وخطا بقدمه على دست السؤدد وكرر تلاوة (الحمد لله الذي صدقنا وعده[6]) و (رب قد آتيتني من الملك[7]) ولزم دعاء (رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي[8]) وكان كالنور من البصر والقيمة من الجوهر يتمكن قلب السرير وروحه :

---

(١) سورة مريم الآية (٥٨) وسورة السجدة الآية (١٥) .
(٢) سورة فاطر الآية (٣٤) .
(٣) سورة الحجر الآية (٤٦) .
(٤) ذكرها خطأ (رب اجعله رضيا) والآية هي رقم (٦) من سورة مريم .
(٥) سورة المؤمنون الآية (٢٩) .
(٦) سورة الزمر الآية (٧٤) .
(٧) سورة يوسف الآية (١٠١) . (٨) سورة النمل الآية (١٩) .

زادت شفتا السكة من اسمه ضحكات

وفـــاض قلب المنبر مـــن ذكره حياة

وكثرت بـــه قيمة الـــدين رونقا وبهاء

وجـاوزت بـه الأرض الفلك علواً وعلاء[١]

وبسط آنذاك السماط ورفع وهيئ المحفل وبلغ تطريب الناي وجلاجل الدف صف صوفيي الفلك الدائري . وكان السلطان كل لحظة ينفخ في واحد من الحرفاء بمودته روحاً جديداً وينثر درر الألفاظ الكرام على فرق الخاص والعام . فلما أزاحت رياح سورة الراح نقاب الدهشة عن وجوه أهل المحفل نهض أمراء قونية وقوادها وقدم كل منهم تقدمته بقدر مكانته ومكنته ، فأدرك الجميع الوصول إلى نظر القبول وظهر كالقناديل الفضية بأسفل القبة العلية وتحول السلطان إلى منزل الدعة من مقام السرور . وفي اليوم التالي أجاز السلطان للحضور إلى خلوته لرشيد الدين الوزير وملك الأمراء المختبر للطعام وسيف الدين أبي بكر بن (الحقه باز) وجلال الدين القيصر البروانة قائلا لابد من إصدار الأوامر المطاعة إلى الأمراء بأطراف الثغور بإعلام قدوم الأعلام الملكية لنا إلى قونية وتمكننا من سرير الملك واستمالتهم واستحثاثهم إلى المبادرة إلى خدمة بلاط السلطنة ، وأمر المنشئين فرقمت في الحال وطارت على يدي القصاد إلى الأطراف والبلاد .

ذكر بعض من السير الطيبة والخلق الزاهر لهذا الملك القاهر

(ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكراً[٢]) . معلوم للعالمين أنه منذ أن رُقم رَقْم الإيجاد على ناصيات الكائنات ووضع زمام التسخير

---

(١) الرباعي الفارسي :

زنامكش لب سكه پرخنده گشت — دل منبرا زيادا وزنـــده گشت

بدو رونق دين بازي فـــزود — زمين برفلك سرفرازي نمود

(٢) سورة الكهف الآية (٨٣) .

وخطام التذليل للخلائق في كف كفاية الملوك أولى الأمر المخصوصين بخطاب (وأولوا الأمر منكم[١]) لم تظلل أعلام الإسلام من ابتداء الطلوع حتى انتهاء الوقوع على ملك يماثل السلطان علاء الدين كيقباد بن كيخسرو بن قلج أرسلان بن مسعود بن قلج أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن إسرائيل بن سلجوق (إن راية الاسلام لم تظلّ على سلطان أحسن ديناً وأصدق يقيناً وأوسع علماً وأغنى غني وأعظم قدراً وأفخم ذكراً وأمد باعاً وأشد امتناعاً وأجل جلالة وأكمل عدة وآلة وأرفع ملكا وسلطاناً وأروع سيفا وسنانا وأحمى للإسلام وذويه وأنفى للشرك ومنتحليه اكتسابا ووراثة منه) . كان شأنه العظمة وصل إلى حد أن ملوك الأمصار من المؤمنين والكفار من أقصى أرجاء الأبخاز حتى أنأى أنحاء الحجاز وأوائل باشقرد ومنتهى ولا شگرد وصحارى القفجاق حتى برارى العراق لاسيما ملوك الشام يعدون أنفسهم له غلمانا ويجعلون الخطبة والسكة باسمه :

رأوا طوعه حتماً وفرضا لازماً[٢] وإخلاصه في الدين والملك واجباً

كان بنفس ذات نضارة من وابل طهارة وعدل أضاء على آفاق العالم وأفاء كعين المورد ، كان يأمر بالتفحص والتدقق في وجوه الخزانة وكان يحابي عن طرفي الإفراط والتفريط في إنفاق الخزائن لكنه كان في مراعاة الأضياف ورسل الأطراف بحراً مواجاً وسحاباً ثجاجاً . كان يحكم على أقل بادرة من أكبر قواد العسكر تبدر بالعتاب بل العذاب البليغ . وكان يجتث شجر وجودهم من الجذر (كأنهم أعجاز نخل منقعر[٣]) بفأس البأس والتوبيخ ويجرى عليهم حكم (ولنذيقنهم من العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر[٤]) فلا جرم أن انطبعت الأمانة بوجه التطبع في ذات نواب الجهات واحترف أصحاب الدواوين المراعاة وأمانة الدين . روى الأمير الكبير جلال الدين

---

(١) سورة النساء الآية (٥٩) .
(٢) في النص (ولازماً) .
(٣) ذكر الآية خطأ بقوله (كأعجاز نخل منقعر) أنظر الآية (٢٠) من سورة القمر .
(٤) سورة السجدة الآية (٢١) .

قراطاي وكان قطب الأوتاد وقدوة الزهاد (لازمت مدة ثمانية عشر عاما الحضرة العليا في السفر والحضر ليلاً ونهاراً لم أعلم أن السلطان في حالة الصحو ناهيك عن السكر استأنس بأكثر من جزء على فراش المنام ، بل جعل أمر (قم الليل إلا قليلاً[1]) نصب العين وعدة سبب رفع درجاته . ومع أنه يوجب ويلزم سلوك مذهب الإمام أبي حنفية رضي الله عنه في الأصول والفروع لكنه كان يراعي صلاة الصبح على مذهب الإمام الأعظم الشافعي رضي الله عنه . كان يوزع ويقسم أوقات الليل والنهار على مصالح الملك والمملكة . كان في مجلس الأنس للهزل مجال المحال بل كان يستغرق في تواريخ الملوك وذكر محاسن سير السلاطين القدامى . وكان ينشئ أوقاتاً من طبعه اللطيف من الرباعيات الظريف من جملتها هذا الرباعي :

ما دمت مفيقا فان على عقلي غرما

فـاذا سكـرت خـفـي عنـي عقلي

فاشرب الخمر لأن بين السكر والإفاقة

وقـتـاً هـو أصـل الحـيـاة[2]

وإذا صدر عن واحد من الحرفاء والندماء خارج مرتبته ووظيفته حديث – بَلْهَ – الحركات لم يكن يدعه ثانية يجالسه وكان يجرى ذكر السلاطين القدام على لسانه بالإعظام ويعتقد من سلاطين الإسلام بمحمود بن سبكتكين وقابوس بن وشمگير ويتشبه بأخلاقهما ولم يكن يوقع قط بلا وضوء وكان دائم المطالعة لكتابي كيمياء السعادة وسير الملوك لنظام الملك . وكان في الشطرنج بلا نظير ويحسن لعب الصولجان وإصابة الرمح والسنان . وقد أصاب مهارة وحذاقه بلا نهاية من جملة الصناعات في العمارة والصناعة والسكاكة والنحت والنجارة والرسم والسراجة ويحسن تقويم الجواهر .

---

(١) سورة المزمل الآية (٢) .

(٢) الرباعي الفارسي :

تاهشيارم بـرخـردم تاوانسـت — چون مست شدم عقل زمن پنهانست

مي خـوركه مـيان مستي وهشياري — وقتيست كه اصل زندگاني آنـست

اذا اختمت النبوة بخاتم بيت الشريعة

فـان الملك اختتم مـــن الملوك بـــه[١]

ذكر وصول شيخ الشيوخ شهاب الدين السهر وردي

لما عرض خبر طلوع الدولة وظهور بدائع السعادة للسلطان علاء الدين كيقباد على حضرة الخلافة وبلاط الإمامة الناصر لدين الله أرسل بمنشور السلطنة ونيابة حكومة ممالك الروم وتشريف الامتلاك وحسام وفصّ الإملاك للسلطنة الرباني أبا يزيد وقته والجنيد الثاني الجالس بصدر قبة الأولياء والأتقياء الوارث لعلوم الأنبياء خلاصة القدرة خالصة السدرة عارف الحقائق قارع شواهق الدقائق شهاب الملة والدين شيخ الإسلام والمسلمين أبا عبد الله عمر بن محمد السهروردي رضي الله عنه . فلما أبلغ السلطان بقدوم الشيخ الميمون إلى أقصرا أرسل الأمراء مقدماً بالإقامات الكثيرات ، فلما لحق بالمنزل (زنجيرلو) استقبله القضاة والأئمة والمشايخ والمتصوفة والأعيان والأخوان بجمع على أتم ما يكون ، وتوجه هو نفسه بجيش معد لاستقباله . فلما وقع نظره على جمال الشيخ المبارك ، قال هذه الطلعة تشبه نفس تلك الصورة التي كانت في ليلة يوم الخلاص من الحبس ترفع في المنام الأصفاد عن قدمي وكانت تركبنا وتقول إن همة عمر بن محمد السهر وردي سوف تلازمك على الدوام . فلما اقترب عانقة وصافحه . قال الشيخ كان خاطر عمر ابن محمد السهروردي دوماً بجانب سلطان الإسلام من ليلة الحبس قلقا والمنة لله أن دخل قبل حلول مالابد منه حصول مالاعوض عنه دائرة التيسر (الحمد لله الذي أذهب عنا الحزن[٢]) فبادر السلطان من غاية الارتياح والانشراح بعد السلام لاستلام الباسطة المباركة وضاعف مواد الاعتقاد وبلغ في التعظيم أقصى نهايات الغايات ورام أن يسلك مثل إبراهيم بن أدهم طريق

---

(١) البيت الفارسي:

گرختم شد نبوت برخاتم شريعت   بروي ز پادشاهان ختمست پادشاهي

(٢) سورة فاطر الآية (٣٤) .

عيسى بن مريم . وكان الشيخ يشاهد بالنظر النوراني الوهم والخاطر السلطاني ويجيب عن كل خاطر ويسكن باعث الدغدغة الذي وضع فيه يوم (ألست) ويفسر (وما مناله إلا له مقام معلوم[1]) ويجرى على لسانه (ولكل عمل رجال[2]) ويرغبه إلى بسط العدل وزيادة الدين على نحو أنه لما بلغا المدينة كان السلطان انسلخ عن لباس النخوة والغرور والعُجْب والغفلة كلية ، وصار ملاكه خيراً كأنه روح الملاك . وفي اليوم التالي دعا الشيخ إلى سراء السلطنة لكي يلبس السلطان خلعة الخلافة ويضع على رأسه العمامة التي كورت في بغداد ، ويقرع على ملاء من الناس ظهر السلطان بمقرعة الحدود وهي من معهود دار الخلافة أربعين ضربة ويركب جنيبة دار الخلافة بنعل من ذهب . واستلم السلطان بحضور كافة الأنام حافر جنيبة الإمام وركبها مع الشيخ الكبير واطلع كل الخلق على السلطان على تلك الهيأة ولما عاودوا ومد السماط ورفع بدأ القوالون الخواص السماع ، فصار المريدون المعتبرون الذين كانوا قطعوا في خدمة الشيخ الغور والنجد في وجد ، فظهر من ذوق ذاك السماع شوق تام في كل الحاضرين وقرض السلطان والأمراء الآخرين لاسيما جلال الدين القراطاي بمقراض (السماع) . ولما تحول الشيخ إلى المنزل المبارك الذي كان مهبط الواردات الروحانية قدم السلطان تكلفاً زائداً عن الحد والقياس ، وفي مدة إقامة الشيخ بقونية استعسد السلطان بكرات

---

(١) سورة الصافات الآية (١٦٤)

(٢) يوم (ألست) هو يوم فطر الفطر وخلق الخلائق بالمغيب الذي ورد في قوله تعالى (واذ أخذ ربك من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم وقالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة إناكنا عن هذا غافلين) سورة الأعراف الآية (١٧٢) .

ورأى هوتسما أن المؤلف كان عليه أن يضع كلمة (سلطان) بعد كلمة (بنهاده) في قوله في هذا المقام بالفارسية (وتسكين دغدغه طلبي كه بر روز ألست بنهاده آمد ميكرد) ظناً منه أن (بنهاده) تعني الفطرة خالطها بالكلمة (نهاد) الفارسية بمعنى الفطرة والطبع ولكن المعنى المراد هو (بنهاده آمد) أي وضع بضم الأول دونما حاجة إلى خلط أو زيادة .

بزيارته المباركة ، وبوقت انصراف الشيخ ورجوعه أرسل من أموال خراج النصارى والأرامنة مائة ألف درهم وخمسة آلاف دينار سلطاني بالسكة العلائية من (فئة) الخمسمائة والمائة والخمسين مثقالاً مضروبا ومتاعاً آخر بصحبة القراطاي ونجم الدين الطوسي برسم النفقات ، وذهب يودعه حتى (زنجيرلو) على بعد فرسخ واحد من قونية واستمد من الهمة العالية للشيخ . وجرى على لسان الشيخ في حالة المفارقة هذان البيتان :

ولم أركالتوديع أقبح منظراً	وإن كـان يدعو أهـله للتعانق
وللصارم الهندي ألـين جانبا	ملامسة مـن كف إلف مفـارق

وألزم بعضاً من الأمراء الكبراء والمضيفين الخواص للقيام بشرائط خدمته حتى ملطية حدود المملكة .

ذكر شروع السلطان علاء الدين كيقباد في الغزو وكان أوله فتح قلعة العلائية

لما كانت من يمن الملك المتعال وعناية بلاط ذي الجلال أعلام دولة السلطان تتصاعد مع الزمان على شواهد الإقبال وقلال الجلال وتظهر البركات السماوية بواسطة حسن الإشفاق ومكارم الأخلاق فيه في الزروع والضروع حدث بينما كان يرى في خلال الكاسات والجامات ، مع أن المدام لا يستوحش فيه وحشة الدم قط ، صفاء على أكثر ما يكون ، ويقع للمطربين في مجلس ملكه الزائد للأفراح من تواتر عزف الأوتار والمقامات الأوطار والرياش بلا حد ونهاية أنه قال يوماً لندمائه الدين كان لهم مرتبة الوزراء ومحل التشاور إنه يتوجب لنا القيام بمهام القتال عن إكرام الاحتفال وينبغي تقنين قوانين السلطنة كما يقضي حقها ، فركع الأمراء الكبار تحت ساق التخت بقدم الأدب ، وقالوا إن ملك اليونان مسلم لملك البلدان ، ولما أن أنطالية ثغر ميسر لكنه بسبب قلعة (كلونوروس) ، التي السماء أمامها كأنها أرض السهول ، جبل بلا أمان له من البحر خندق ومن الجرانيت صرح إحصان .

أجروا من طرف البر على ملك سيواس دعوى الحكم والأمر ووضعوا من جهة البحر على عنق مصر الخراج الباهظ المر ، ومثل هذه القصبة لا تليق بغير الشاه ملاذ الدنيا ، فإن يصدر للجيش المنصور الفرمان فالأمل واثق في أن كل نملة تصير تنيناً مدلهما وكل صعوة طير الهما[1] وتقع تلك القلعة التي تقارع السماك وتضارع الأفلاك في الأحبولة المفتولة لعبيد الدولة ، وينظم در بحر المملكة ذاك في السلك اللعلي الباقي . فوقع هذا الرأى من السلطان موقع الوفاق وأمر بأن تخط الأقلام الأحكام لأطراف الحدود لاستحضار العساكر ، فنشر في تلك اللحظة منشئو البلاط الأنقاش العبيرية الأنفاس على كافور القرطاس وزينوا وجه البياض بالسطور المسلسلة كزلف القمر يات المُحَيَّا الشمسيات المنظر وطرة الحسناوات المشتريات المظهر وأبلغوها التوقيع الميمون وسيرت على يد غلمان البريد برسم البريد ، وفي أقل من عشرة أيام وصل جيش يغطي غبار حوافر سوابقهم ريحاً وجه الشمس وينقِّب القمر بنقاب التراب بعتاد وعدة فائقين ، فأمر السلطان أن ينقسم الجيش الموقع بالدنيا أقساماً ثلاثة ، فتهاجم جماعة كالنمر بلا إنظار ونَظر على الجرانيت والحجر قتلا وحملاً ، وتسير طائفة كالتمساح عن طريق البحر للحرب والاكتساح ، ويركب في مركب فوج كأنه موج متلاطم نحو القلعة ، وينصب على ذاك التل الذي بقي ، مبهوتا من شدته الفلك ، وكان دوماً بسبب السحاب الأسود في سواد الحلك ، منجنيق كالجبل ، ليس الألبرز حجره يحتمل ، ويصعد الأبطال على ذاك التل والذين يكون الجرانيت وقت القتال عندهم حريراً فرنداً صعداً . فلما وضع المنجنيق وفق حكم السلطنة ، سمع (كيرفارد) مالك القلعة أن السلطان بجيش كالكثبان قد جاز ذاك اليم البالع للدم ، وأنه لم يصبه وجيشه من الارتفاع والانحدار لتلك الطرق ذات المخاوف

---

(١) الهما باعتقاد الفرس طير القوة والإقبال والسعد إذا وقع ظله على واحد بات السعد رفيقه وهو العنقاء عند العرب.

والأخطار أي من الأذى والأضرار ، فقال سيكون لي من هذا الحديث والمقال عن ملكي القديم انفصال ، ولن يكون بمكنتي لهذا القيد بأي تدبير انحلال ، وقبل أن تؤدى الشمس ذات الركضة الواحدة مراسم الوداع والمشايعة فوق هذا المعقد للجبل يكون الشاه كيقباد قد جاز كالرياح الأوتاد ، ويتيسر له كثيرا قتال السماء معه ونزال الفلك لأجله من مدد الرحمن ، وليس لنا فوق التدرع بدرع الاصطبار والمكث على باب الانتظار وتوقع ما يأتي به الفلك من وراء الأستار مناص أو فرار . وفي اليوم التالي حين رفعت على القبة اللازوردية الرايات الصفراء للملك الطاوي للبسيط والفضاء اكتسب العالم لون السواد بسبب غبار الأجناد . ومع أن الزمان بقسوته لم يقدر أن ينظر إلى هذا المكان المخوف ، ولم تستطيع أذن الفلك أن تسمع أنه يمكن فتحه بالمساعي ، وكيف يؤثر سهام القوس في قلعة يتحادث دائما حرستها مع عطارد الفلك :

ولكن حين يغضب البخت الشوم

يجعل حجر الجرانيت شأن الشمع[1]

أمر السلطان أن يصعدوا ذاك الطود فوجاً وعداً بعد عدّ ، فرقوْا كالعقاب الناشر والنمر الكاسر جبل الجرانيت ذاك فوقف الجيش على ذاك الجبل الذي لم يجد الوهم له سبيلا في المعترك والنزال ، وجعل مائة منجيق ثقال حول القلعة كالفرجار ، وانقضت مدة شهرين (حتى عبر شهران كيوم واحد) . وفي ليلة رأى السلطان في منامه أن شخصاً جميل السيما كان يكلمه بهذه العبارة :

ليس لهذه القلعة الحصينة معين آخر

وليس لأحد عليها يد للقتال

(١) البيت الفارسي :

ولكن چوخشم آورد بخت شوم　　　كند سنگ خاره بكردار موم

لكن بديع الدنيا لك معين
جعل استخلاص القلعة لك

إن جيشك حين يقصد الفلك
يفصل دماغ الشمس عن رأسها

وإن رأى الحرب بالبحار
لفرت التماسيح من الماء إلى اليابسة

لكن مثل هذه البلد العجيب
يمكنك فتحها بقوة الله[1]

فنهض السلطان من رقدته من فرحه بهذه البشارة وأثبت هذه الأبيات على شقة . وفي اليوم التالي لما سلك عسكر الظلام طريق الانهزام ، استقبل الأمراء الكبراء الحاضرين بالدهليز ، وقرأ عليهم حكاية المنام والأبيات ، وفرق صدقات عظيمة من الأبقار والأغنام والدراهم على الفقراء ومطوعة الغزاء . وفي نفس تلك الليلة بدا لرأى صاحب القلعة نداء عن الممانعة والإباء ودعا الأعيان والمعتبرين وقال لن يكون لنا مع جيش السلطان ثبات ، ومع أن قلعتنا لها نفس ركب الشهاب وجنب العقاب لكن النفاد من حكم القضاء والقدر محال ، فيجب مع ملك له شوكة ربانية تبديل النكران إلى عرفان . فاختار في الحال قاصداً صادق اللهجة والمقال وأرسله إلى خدمة الأمير مبارز الدين أرتقش الذي كان له معه بحكم الجوار وتداني المزار صداقة مؤكدة لكي يتوسط ويستخرج شوك هذا الحزن الذي أصاب أله القلوب والأنفس بمنقاش الألطاف من قدم زماننا الثائر ، ويطلب العفو من خدمة الشاه للجناح الذي لم نجنح إليه . فأعاد الأمير مبارز الدين القضية للسلطان ، فانبسطت أسارير

---

(١) الأبيات الفارسية :

كـه اين تندرزرا دگريارنيست ... كسي رابروست پيكار نيست
ولكن جهان آفرين يارتست ... چنين دزگرفتن هم ازكار تست
سپاهت گرآهنگ گردون كنند ... دماغ ازسرمهر بيرون كنند
وگرسوي دريا بود راى جنگ ... زدريا بخشكي گريزد نهنگ
وليكن چنين تختگاهي شگفت ... بنيروي يزدان تواني گرفت

السرور في السلطان على جبينه المبارك وقال علينا معاونته فيما يرضيه .
فأعلم الأمير مبارز الدين القاصد بحصول المقصود وأرسل إلى (كيرفارد)
أن الرأى هو أن تخلص النفس من الهم وتمتهن مطاوعة أحكام ملك الأيام
وتقلع قلبك عن محبة القلعة وتطلب فيما بعد الملاذ في الظل المبارك لكيقباد
ولما عاد المبعوث أشرق وجه (كيرفارد) بالضحك كالربيع المبكر ، وأرسل
رسولاً حلو اللسان إلى خدمة السلطان بمكتوب مشتمل على ما استمع إليه
ملك الدنيا وهو أن هذه القلعة الصخرة الجلمود كانت من عهد (دارا) و
(هوشنگ) وعهد الاسكندر والقيصر مقام الآباء والأجداد وحسد الأعداء
والأضداد لهذا العبد المنكس الهامة ، ولم يك قط سلطان ذو قران يطلب معه
الطعان ، ولم يخلق بارئ الكون على الأرض مثل هذه السماوية ، بها الذخيرة
والأسباب الكافية حتى يوم الحساب معدة ، لكني حين ألقيت من بعد الأنظار
على مظلة الانتصار ، بدأ فتور الأعضاء ، وتردد نور البصر وأسس ضعف
القوى الأساس المحكم . وبسبب هيبة السلطان ، احتفر هذا المكان النادر في
عين العقل البئر الغائر ، فقلت في نفسي إن مناطحة الجبال الأعلام وملامسة
الأعلام هو الموت الزؤام ، ولهذا فلابد من طلب المقر والمفر من ظلال شمس
الملوك ، واذا شملتني العاطفة الملكية وكان لي مع تأمين الحياة من ممالك
السلطان مكان سوف يكون هذا غاية للعبيد في الإحسان ونهاية للخدام في
إعلاء الشان . فأعجب السلطان بهذا البيان وقال لو أحكمت أركان الصداقة
بأوتاد القرابة لكي يزيد اعتماده فهذا هو الأفضل . فلما استمع (كيرفارد)
هذا المعنى سلك خريدة من المخدرات في سلك باقي ملازمي الحرم الميمون
للسلطان ، فالتأم شتات الأمور بذلك ، وغدا منشور إمارة (آقشهر) قونية
وملكية بضع قرى محصنة في المسطور وأرسله على يد القصاد إلى
كيرفارد . وفي اليوم التالي هبط من أوج القلعة إلى حضيض بلاط السلطان
الذي كان مماس أوج زحل وأطلق لسان الاعتذار فلاحظه السلطان بعين
الرأفة وبالغ . والتمس كيرفارد حضور السلطان إلى القلعة فسار إليها
السلطان بالمظلة والسنجق . فلما ارتفع إليها رأى مزارع بلا حد ومصانع بلا

عد ، وذخائر بلاسد ، فأدى شكر نعمة الباري على تيسير الفتح تالياً (الحمد لله الذي صدقناه وعده) (ونصر عبده[1]) وأمر أن يبنى على هذه الصخرة من الجرانيت حصن ، وشرف إذ ذاك المقام بشرف انتسابه إلى اسمه وألقابه .

ذكر فتح قلعة آلارة على يد عبيد السلطان

لما فرغ السلطان من عمارة العلائية عطف العنان الغازي إلى صوب أنطالية ، ووقع نظره في الطريق على قلعة (آلارة) الواقعة بوسط واد على صخرة من جرانيت وجرى بجانبها نهر بلون النيل وبمسار نهر النيل ، كان على مرتفعها لقرب السماء ظهر الحارس مقوساً على الدوام ، وبمنحدرها يبدو جبل قاف بسبب الوادي ضئيل القوام . وكان أخو كيرفارد الذي سحب ذيله إلى لذات الدنيا وآثر سلوك جادة الكسالى قد فضل القرار في تلك القلعة على أطلس الرياش . فأمر أميراً من أمراء الدولة أن يتجه فوج من العساكر المنصورة صوب (آلارة) وينهي إلى حاكم تلك البقعة إن أخاك المعروف بالكفاءة والصرامة لم يستطع أن يحفظ منا قلعة (كلونوروس) أكثر من شهر ، وإنك والضعف والعجز بحصنك يتوجه إلى زمنك بأسرع ما يكون امرؤ تتحرف الصغار خلو تماماً من الأفكار في الزمان الغدار ، فانتهاج جادة السلامة أنسب إلى حالك . فإذا سلكت طريقة كفاية أخيك وتركت القلعة إلى عبيدنا رأيت مآربك ومقاصدك ميسرة وإذا خطوت بقدمك خلاف أحكامنا لن تجد غير شوك هذا الخلاف في عين جهالتك . فلما أنهى إليه فرمان السلطان ، استولى عليه في الحال من هيبة السلطنة وغلبة الفزع والجزع ألم القولنج وأبلغ حساب العمر والحياة إلى الفذلك والمالك . ولم تحمل الأرض المعتبرين بهذا المكان من هول تلك الحادثة وتركوا القلعة رغبة فيه ورهبة منه . ودخل مثل هذا المقام بواسطة إعلام بلا إعمال حسام في عداد البلاد الأخرى

---

(١) قوله تعالى (الحمد لله الذي صدقنا وعده) بسورة الزمر الآية (٧٤) وليست الجملة (ونصره عبده) تكملة للآية كما ظن المؤلف وهوتسما .

وقلاع الممالك . ولما وصل خبر الفتح الثاني للمسمع السلطاني ، أمر بالحفل العام وأخرج ريح الحرب عن فكره وشرب بالرباب والصنج الصهباء ، ولما لحق بأنطالية ، خص كافة الأفراد بالخلعة والإكرام ، ووهب إجازة الانصراف إلى المشتى والمصطاف ، واتجه بنفسه مع خواصه للاصطياف إلى أنطالية .

ذكر عمارة سور قونية وسيواس وربعهما على أمراء الدولة في سنة ثمان عشرة[١] وستماية

في يوم أشرق خسرو الإشراق فيه بمحيا المحيا المستسعد على فلك اللاجورد كان السلطان بحكم السيران والسريان يقوم مع أمراء البلاط وقادة الطعان بالارتياض في الصحارى والرياض حين وقعت منه الأنظار دون إنظار علي المدينة ، فرأي مدينة مزينة بالآل والمال ، غرس بطولها وعرضها مسيرة يوم الشجر ذو الجني والثمر :

استبى ماؤها رهائنه من ماء الفرات ومر ريحها على نهر الحيـــــــاة
هاجر الناس من كل بلد سراعـــــاً واستوطنوا في هذه المدينة السعيدة
كانت تسع مدن وعالما تامـــــاً مع إنها بتعمق الفكر واحدة والاسم مدينة
لكنها لم تكن بسور جدير بهـــــا مع أنها طاولت برأسها الفلـــــك[٢]
فكانت تماما جوهرة تنير الليـــل لا حاجة للنهار معهـــــــــا[٣]

(١) في الأصل خطأ (عشر) .
(٢) الأبيات الفارسية:

گروبرده آبش زجـــــوي فرات گذر كرده بادش برآب حيــات
زهر كشوري مردمان تاختـــه درآن شهر خرم وطن ساخته
نه شهري كه آن عالمي بد تمام يكي ژرف دريابد وشهر نـام
ولي باروانذر خور خود نداشت اگر سراندر فلك برفراشـــت
همانا كه بد گوهري شب فروز كه باأو نيازي نبودي بـــروز

(٣) البيت الفارسي:

هزاز نقش برآرد زمانه ونبود يكي چنانك در آينهء تصور ماست

(ولكن كالنصل عري متناه من الخلل) عطلت من حلل السور ، فقال السلطان لأمراء الدولة إن مثل المدينه العلية حين تتعطل من حلل السور كالعرسان الحسان محض الخطأ ، ومع إنه يدور حول الدنيا سور من مذهبنا الذي ساد وسناننا المحرق للأكباد لكن الحزم هو أن الناس أصحاب التدابير والعلاج دائمو الاشفاق من الحرص والاحتياج لأن الزمان الدوار ليس له قرار على عدد واحد أو مقدار فالزمان يولد الحادثات ومرآه السماء مظهرة للواقعات .

يظهر الزمان ألف نقش ولم يكن أحد منها كما هوبمرآه تصورنا[1] .

ورأينا منصرف إلى أن يمد حول هذه المدينة وحول سيواس سور لايكون لإزميل دواهي الدهر ذي اللونين والتحويل فيه أثر وتنحسر عنه أعقاب الأحقاد والأحقاب آيبة خايبة . ثم أمر فأحضر المعمارون والرسامون الحاذقون وركب السلطان مع الأمراء ودار حول المدينة فأمر برسم مواضع البروج والأبدان والأبواب ، ثم أصدر مثالا لنوابه الخواص أن يعمروا من خاصة أموالهم أربع بوابات مع بضعة أبراج وأبدان وقسم الباقي علي أمراء الممالك كل على حدة وأمر بالعجل في هذا العمل واغتنام الفرصة . وأرسل أمراً بهذا المعنى إلى أمير المجلس بسيواس ليضع أساساً لسور كالجبل بأساً لسيواس أيضا باستصواب الملوك والأمراء لتلك الاطراف . وبدئ في قونية وسيواس تأسيس الأسوار ، فقاموا بإتمامها بالليل والنهار علي قدر القوة والمكنة ولم يتركوا بقية من إحكام القواعد وإعلاء الأبدان وتشييد البروج يتعصب أحدهما ويحسد الآخر . وبعد الإتمام توجهوا لخدمة السلطان للإعلام فركب السلطان وقام بالطواف علي أطراف الخندق وطالع بنظر الاعتبار فلحقه العجب وأمر بأن ينقش كل منهم اسمه علي الحجر بالتبر لكي يبقى عن مساعيهم أعماراً كثاراً على الزمان اسم ونشان ، وحينذاك أقام الأفراح وقام للهو والمزاج .

ذكر ورود محيي الدين بن الجوزي من حضرة الخلافة برسالة والاستنجاد بالعساكر وندب بهاء الدين قتلوجة لذلك

لما تم تعمير قونية عطف السلطان عنان العزيمة لمراعاة مصالح الممالك فلما وصلها أخبر أمراء ملطية أن محيي الدين بن الجوزي قادم من خدمة الخلافة برسالة ، فأمر السلطان بأن يستقبله المضيفون الخواص عند المحروسة سيواس ويقدموا في توقير جانبه بذل المجهود . فلما بلغ منزل القوافل (لالا) استقبله السلطان برسم كان يحسده أرواح الملوك الرائحون بالمظلة والطبلة . وأبلغ ابن الجوزي بعد المعانقة سلام أمير المؤمنين وأكثر السلطان معه الملاطفات والمحادثات . فلما وصلا البوابة ودع أمر الآفاق ولحق بالوثاق . وفي اليوم التالي حين سُحِبَ أسد المرج الميناثي من إنصاف التقدير تحت سرج التمكين لكسري السيارات ، وركب السلطان اللازوردي السرير علي هذا المخضر الفرس الأبيض الريحي المسير ، كان بلاط مالك الرقاب كأنه روضة الفردوسيين زينة ، واصطف الأمراء الكبار علي اليمين واليسار ، تجشم الإمام محيي الدين إلى بلاط السلطنة بالخلع والجنابة والأدوات المهذبة والآلات المذهبة ، وأخذ جلال القيصر البروانة وظهير الدين منصور الترجمان يمين الرسول ويساره بطريق الإعزاز وأجلساه بساق التخت على كرسي كانا معداً ، فوضع أصحاب العيبات من دار الخلافة بالعيبات علي حافة الصفة وسحبت الجنيبة بغطائها المرصع لأعلى الصفة وأرخى الفراشون الأستار الملمعة التي ضربت بحكم السلطان وهبط السلطان من العرش واستلم في ذلك الحجاب ركاب جنيبة جناب الخلافة للتعظيم واكتسى بخلعة الخلافة وأخذ محيي الدين بيد السلطان وأجلسه ثانية على العرش ، ورفع الفراشون مرة أخرى الأستار ونثر الأمراء والقواد تحف التبر ثم بسط

بساط السماط وبعد التناول وتبديل الوضع إلى رفع طلب محيي الدين الخلوة وأطلق لسانه بعد حمد الباري والصلوات علي روضة المصطفي والدعاء لحضرة الإمامة والمحمدة لبلاط السلطنة بقوله إن أمير المؤمنين يبلغ السلام لكسرى الإسلام ويقول إنه لما فرغ جيش التتار من محاربة محمد خوارزم شاه لقي القوة والشوكة التامتين وماصنعوه أنهم يقصدون تلك الحدود فإذا سار ألفا فارس برسم النجدة للاحتياط والسمعة من ممالك الروم إلى هذه التخوم فإن هذا يتضمن مصالح الملك والملة . فقال السلطان يجري الترتيب سمعاً وطاعة ويرسلون علي أسرع حال ، فأتى الرسول الدار منبسط السرار ، وتبختر السلطان إلى قصره الخلوة وطلب الأمراء الكبراء وقال كان لنا اعتقاد أكبر من هذا في بعد غور أمير المؤمنين فلايجب السلوك بغير المداراة مع جيش أت كبحر من نار في اضطراب والتهاب كسيل العرم ذي الدولة الفتية والحظ الشاب . والصواب اللائح هو أن يشير أمير المؤمنين بأن يقترن من كل بلد بالتحف والهدايا بموضع معين الرسل اقتران نجمي القران في برج السعادة ويسيروا بصحبته رسول أمير المؤمنين لخدمة الخان ويعتذروا له بأنه لو توجه إليه ملوك الممالك بأنفسهم لظهر الاضطراب في ممالكهم ويظهروا الطاعة ويجهزوا بعضهم مع الآخر المصلحة والتدابير فيؤسسوا بناء المصالحة المحكم وقاعدته الثابته . واذا أنهينا قبل إرسال النجدة بهذه المقدمات إلى المسامع الشريفة لأمير المؤمنين حمل هذا على العجز والضعف وظن أننا ضننا بإنجاد الأجناد وإذ يطلبون ألفي فارس أرسلنا خمسة آلاف بوجه يستصحبون فيه مؤونة عام . وفي الحال نفذت الفرامين بهذا الأمر الهام وتحريض العساكر علي العزيمة إلى ملطية وتوجههم تحت اهتمام ملك الأمراء بهاء الدين قتلغجه صوب دار السلام . وفي اليوم التالي طلب السلطان الرسول في السيران وأعاد الحكاية كما كانت قررت ومنحه الإجازة بالمعاودة . فلما لحق محيي الدين بمنزله أرسل الخازنون بعقبه خمسين ألفاً نقدا سلطانيا ومائه كساء ثمين وخمسة بغال عجال وعشرة خيول وخمسة غلمان

روم وعشرين ألفا نقداً لرسم المتميزين الملازمين للرسول . ولما سار ، توجه بعد شهر أو يقل جملة الجيش تلقاء المحروسة ملطية ولبثوا ينتظرون قدوم السنجق الميمون . وسرح السلطان السنجق بصحبة ظهير الدين الترجمان ابن كافي ملطية بالمقدمين والجنائب والحراس والمسلحين والزاد العظيم وكان الأمير بهاء الدين قدأعد وسدّ أسباب السفر . ولما بلغ ظهير الدين بالسنجق وأبلغ الأمر عين وبين الميمنة والميسرة والمقدمة والساقة والرؤساء والقواد فساروا علي ترتيب لم يره أحد . ولما شاهد ملوك الديار من خرتبرت وآمد وماردين والموصل تلك العظمة لقت عظمة السلطان في قلوبهم التعظيم العظيم فكانوا يتقدمون بأنواع التقدمات والضيافات وكان الأمير بهاء الدين بدوره يبالغ في الاحترام والإكرام للملوك ويبلغ من التشريف والإنعام والإعلام لحضرة السلطنة النصيب الأكمل . ولما وصل للموصل أوقفه بدر الدين لؤلؤ ثلاثة أيام وأقام له الخدمات التي لا يدخل وصفها في حيز الإمكان وباليوم الرابع حملة الأمير بهاء الدين إلى بلاطه وأعد مجالس الفرح بنجو أن بهت بدر الدين لؤلؤ مع علو همته وأثني على السلطان ثناء عظيما وخط كتابا إلى الملك مظفر الدين أن جيشا لجبا آت من خدمة السلطان نجدة لعتبة الإمامة فاذا توقفوا بذاك المكان تسبب بهذا لديوان العزيز إنفاق كبير والأولى أن يعادوا علي التعجيل إلى مقامهم وهيأ الملك مظفر الدين النزل والتقدمات ، وعزم بنفسه للاستقبال . فلما رأي الجيش والناموس بهذا النحو استصوب رأي بدر الدين وطير كتابا علي جناح الحمام إلى خدمة ديوان العزيز فوصل الجواب من الديوان أن يوقف حتى وصول مُضيفي الملك مظفر الدين عساكر الروم بذاك المكان بنوع من الإنعام والإكرام ، وكان للملك مظفر الدين سماحة الطبيعة وسخاوة الغريزة فلم يدع باقيا من كبير أو صغير . وبعد أيام عدة وصل أمير كبير من ديوان العزيز بالأعذار للأمير بهاء الدين وقدم الى الأمير مظفر الدين وأتي بصحبته إلى الأمير بهاء الدين وأنهي كتاب ديوان العزيز مع سلام العتبه المقدسة ، فسجد في الحال الأمير بهاء الدين ووضع الكتاب على

قُمُته ، وكتبوا فيه أنه شاع قبل هذا أن جيش المغول لما كفي من أمر خوارزم شاه عزم هذا الجانب ، فاستنجدنا للاحتياط السلطان والآن نسمع أن رأيهم تحول عن مبتغاهم وسمح لملوك الأطراف الذين كانوا قدموا من الجوانب النائية بالانصراف وعليه فإن الأمير بهاء الدين يعود بالسلامة مع جيشه ، وحينذاك أتي بخمسين ألف دينار عباسي ومائه جمل ومائة جواد وخمسين بغلا وعشرة آلاف رأس غنم وثلاثمائه خلعة ومائتي حمل بغل من أنواع المأكولات والحلاوى برسم النزل . وأنطلق الأمير بهاء الدين بالدعاء والثناء علي أنعام الخليفة وصدقاته وسجد بجبينه وأعطى المضيفين خلع السلطان وأثبت كل شئ ووزعه علي الجيش . ثم أمر بأن يركب جميع الجيش بالغد بالمتاع والعتاد الكاملين ويظهروا أنواع الفتوة ولعب الرماح ورمي السهام واختطاف الحلقات . وفي اليوم التالي رتبت الجيوش وركبت خيولها واكتسى الامراء بالخلعات . ولما بدت مواكب بغداد وإربل لبس الأمراء الخلع ووجهوا وجوههم صوب دار السلام وترجلوا عن خيولهم وسجدوا ورفع الجواويش عقيرتهم بالدعاء لأمير المؤمنين والثناء علي ملك الدنيا . فلما شاهد قصاد أمير المؤمنين والملك مظفر الدين ذاك التواضع ورأوا كثافة الجيش وجمال الركوب والاستغراق في السابغات[1] وتمام السلاح قالوا إن سلطانا عدته هذا الوقار والعظمة إذا قصد بنفسه ملكاً فلن يخلص من صدمته كائن قط وأثنوا على الأمير بهاء الدين وتعبئته ثناء غدقا وودع بعضهم بعضا ورجعوا إلى جانب الروم . ولما بلغوا ملطية ضيف الأمير بهاء الدين الأمراء لما آب إلى بيته ضيافة كبيرة وسمح لهم بالانتشار وأرسل أميراً كبيرا في صحبة سنجق السلطنة ونائبه إلى الخدمة السلطانية وطلب العذر لنفسه وبعد شهر أسرع إلى البلاط وشرف بتقبيل اليدين .

---

(١) في النص (زر) أى الذهب الذي لا يقتضيه المعني وانما يقتضي (زره) أي الدرع أو السابغة

ذكر أخذ السلطان للأمراء الكبار في قيصرية وعقابهم

لما انصرمت مدة على دولة السلطان علاء الدين كيقباد وسلطنته وثبت على تخت الإنعام ودست الإعزاز والأكرام ، سلك الامراء الكبار مثل الأمير سيف الدين أيبه مختبر الطعام وزين الدين البشارة أمير الاصطبل ومبارز الدين بهرام شاه أمير المجلس وبهاء الدين قتلوجه بحكم قدمة الخدمة وكمال الثروة وكثرة الأتباع والأشياع طريق البطر والأشر وكانوا يتحكمون على السلطان إلى حد أنه كان مرتباً في مطبخ السلطان كل يوم للرواتب الخاصة والعامة ثلاثون رأساً من الغنم ، وكان راتب مطبخ الأمير سيف الدين أيبه كل يوم ثمانين رأساً وقد أمسك بزمام النقض والإبرام كليا بكف حكمه وكان حين يذهب من خدمة السلطان إلى وثاقه الخاص لم يكن يطوف دَيَّار حول ديار السراي الملكي ولم يكن ممكنا المحاورة في حجابة السلطان بإشارة منه ، وأخذت لهذا القبل في قلب السلطان المبارك تتراكم الأحقاد والضغائن . ولما كان لا يتيسر انتهاز الفرصة كان يداريهم . لكنه يتسم بكلمات كالسم بأوقات يكون بها في الخلوات . وكان المقربون الكافرون للنعمة يتصلون بالأمراء ويسلكون طريق التواضع ويتشاورون في الخفية بقصد حصد أغصان السلطان وكانوا يتخوفون ويحترزون . بيد أنهم ذات ليله قرر بعضهم مع بعض في نهاية السكر أن يستضيفوا بالغد السلطان بمنزل الأمير سيف الدين أيبه فيصفدونه بالأصفاد الشداد ويأتون بكي فريدون الموجود بحصن (قيلو) ويجلسونه علي العرش ، وكان غلام محرم أسرارهم أن خرج من ذاك المجلس وهو في شدة من السكر وذهب هذا السكير سكراً لايعقل إلى منزل سيف الدين بن الحقة باز وأعاد مؤامرة الأمراء فقدم الأمير سيف الدين أيضا بالليل إلى حضرة السلطنة وأعلم الحال . وفي اليوم التالي دعا مختبر الطعام السلطان لضيافته فتعلل وكان فيما بعد يزجي معهم الأيام باحتراس تام . ولما بلغ سيل تهورهم وتجبرهم زبى الانتهاء ، حين كان السلطان

بمصطاف أنطالية ، أعاد لابن الحقة باز والأمير كمنينوس اللذين كانا لهما في محرمية الأسرار محل (ثاني اثنين إذ هما في الغار)[1] هذه الحكاية بطريق الشكاية فأجابا أن تدبير امرهم سهل لكنه صعب في ملطية بحكم أن الأمير مبارز الدين حاكمها ومصرف أمورها منذ عشرين عاماً فإن يأمر السلطان أن ينفذ هذا الفكر بقيصيرية فهو الأوفق ، فاستحسن السلطان هذا الرأي . ولما حل موسم الرحلة عن أنطالية عزم قيصرية حيث أمر أولا بمقدمة هدم بنيان وجود الأمراء علي هذا النحو وهو أن شمس الدين القزويني أمير الحجاب ضرب علي باب البلاط خمسين بعصا الصولجان بحجة أنه لماذا يسمح لأتباع الأمراء من ذوي السلاح والازدحام بجواز البلاط وصدر الأمر أن بعد اليوم لن يدخل مع كل أمير غير المعتني بحذائية واستمرت هذه القاعدة وظهر للسلطان فسحة المجال للمكر والمكيدة . ودبر السلطان كمنينوس وسيف الدين بن الحقة باز ومبارز الدين عيسي أمير الحراس أن في اليوم الفلاني حين يلج الأمراء علي عادتهم البلاط يطوف كمنينوس متسلحاً مع أتباعه خفية فوق سور روضة السلطان ويسير الغلمان الخواص في السلاح بملازمته برسم الحراسة ويحكم الحجاب بعد دخول الأمراء للسراي قفله ولايدعون لمخلوق قط مجال التردد ويستعد الأمير مبارز الدين أمير الحراس وأخوته علي باب مكان الحفل بالعدة وأسباب القوة فيوقفون كلا من الأمراء في دار حين يعزم الوثاق وهو في نهاية السكر إلى أن يصل في أمره أمر . ولما حلّ اليوم الموعود فعلوا هذا . وعزم الأمير سيف الدين المختبر للطعام قبل الجميع العودة فتقدم مبارز الدين عيسى وأخوته وقالوا أن الحكم هو أن يدخل الأمير في هذه الدار فأجاب هذا غلط فقالوا صواب فألقي في الحال بالقلنسوة من على رأسه وقال علمت من ذاك اليوم الذي قال فيه السلطان في روضته إنه يجب قلع الأشجار المسنة وزرع مكانها الأشجار الشابة أنه سوف يغدر مثل هذا الغدر ولو كنت آتدارك أمري بذاك اليوم ما عجزت هذا اليوم رضيت بالقضاء رضاء :

---

(١) سورة التوبة الآية (٤٠) وقد سقط منها في الأصل (إذ هما) .

قلعت القلب عن جسمي ونفسي ومتاعي وسببي
أشر من الموت شيء؟ قد رضيت بـــــــــه[١]

وبعد ذاك خرج زين الدين البشارة أمير الاصطبل فاعتقلوه أيضا بدار أخرى وخاطبوا بهاء الدين قتلوجه بنفس الخطاب ، ونهض بعد الجميع أمير المجلس وألزم بسلوك ذاك الطريق المسلوك . ولما أسر الجميع ، أتى ابن الحقة باز إلى الخدمة وقال : يمن الله السلطنة ألقى غلمان السلطان وأمير القضاء بالغلمان الأمراء الذين كانوا جالسين بالصفة في الحبس . وفتحت بوابة سراي السلطنة وذهب النواب إلى منازل الأمراء فصادروا أسبابهم وتجملاتهم وشمعوا كل البيوتات بالأختام وعين الحراس ، ونهبت بيوت أقاربهم والمتعلقين بهم جميعا . ولم يكن للسلطان من غاية الحقد الذي كان به من قبل مختبر الطعام قرار ، فأرسل مجد الدين إسماعيل وإلى قيصرية إليه بقوله ما موجب الجرأة والتحكم الزائدين اللذين أبديتهما فأجاب إنني الذي ربيتك وربيت أخاك في وقت الغربة على كتفي وصدري وكنفي ، وحلقت شعري الطويل وبعته لنساء الروم من أجلك لرغيف خبز واحد بسبب الانقطاع والانفصام وقاتلت في حروبك وأخيك ، وحملت الجسد المطهر للوالد من بلاد الأروام إلى دار الاسلام ، وأخرجتك خلافا لرأي الأمراء والوزير من الحبس وأجلستك على العرش ولم يكن من عبيد أبيك في قدم الخدمة من هو برتبتي ، فإن أبديت تبسطا فقد كان بناء على ما تقدم واعتمادا كليا كان لي على العهد والميثاق الذي تعهدت به يوم الحبس ولن يظهر مثلي للسلطان عبد شفيق وإذا خُرِم فلن يفيد الندم :

لتقر عن على ألسن من الندم   إذا تذكرت يوماً بعض أخلاقي

فلما أنهيت هذه الكلمات الرقيقة إلى مسامع السلطان زاد قسوة وغلظة وأمر فحمل في برج وفصل رأسه عن بدنه ، وحبس زين الدين البشارة في دار وأقفلوها عليه حتى كان يتغذى لفرط الجوع من أعضائه ، وأرسل أمير

(١) البيت الفارسي :

دل ازتن وجان وخان ومان بركندم   ازمرگ بتر چيست بدان خر سندم

المجلس مع روزبة الخادم إلى قلعة (زمندو) ، وأركب بهاء الدين قتلوجه على بغل ببرذغة وسير باكيا نائحاً إلى توقات . ولما تمت الأمور طلب السلطان الأمراء الذين كان لهم الإقدام على إتمام هذا الهام فدخل كمنينوس وأمير الحراس وأخوته وأدوا فروض الطاعة فأجلس جمعهم بمجلس الأنس وأمر تلك الليلة بتحويل إمرة الأمراء من سيف الدين أيبه إلى كمنينوس . وفي اليوم التالي بخلاف المعهود عزم الميدان بالطبل والعلم والبوق والمظلة وسار ساعة بهيبة تامة في صحراء مشهد وأتى بعد ذاك الميدان وظل راكضاً بفرسه حتى صلاة الظهر لاعباً بالصولجان . وفي أثناء تلك الحالة رأى الأمير كمال الدين الكاميار وظهير الدين منصور بن الكافي الترجمان وشمس الدين ولد ماه خراسان وكانوا من أوساط الأمراء وكانوا يتحاكوْن خفية فقال إلى الآن لم تفرغ هذه الجماعة الغبراء من ريح الفضول رؤوسها ، وأمر أمير القضاء فطردوا الثلاثة من الميدان بالصولجان ونهبت أسباب بيوتاتهم وتجملاتهم ونفوا من الروم ووقعوا بخرتبرت فأكرمهم ملك خرتبرت وأخذ في عتاب السلطان ومنها أتوا أخلاط [1] وعني الملك الأشرف بأمرهم عامين وفي النهاية عادوا للروم بشفاعته لكنهم كانوا منكوبين ومخذولين وتلف كل ما كان لكمال الدين الكاميار في فقره وإعدامه وكان له فرس واحد . وفي يوم عزم السلطان في العلائية من القلعه المصطاف وركب كمال الدين في خدمته وفي وقت الرجوع سقط فرسه من مكان بأعلى القلعة فاضطر كمال الدين الكاميار إلى حمل السرج على ظهره وذهب إلى وثاقه . ولما وصل السلطان استفسر عن صاحب هذا الفرس فبتسم نور الدين بن الطلاقي الأخلاطى وكان من الندماء الخواص فقال السلطان ما سبب ضحكك فأجاب إني حرت في سر (تعز من تشاء وتذل من تشاء)[2] (لامعطى لما منعت ولامانع لما أعطيت) . كان لكمال الدين الكاميار من سائر الدنيا هذا الفرس وسقط ذاك العجوز بهذه الحال .

---

(١) خرتبرت اسم أرمني يطلق على حصن زياد من بلاد الروم في أقصى ديار بكر (ياقوت ١٢ / ٤١٩) وأخلاط أو خلاط قصبه أرمنية الوسطى (ياقوت ٢ / ٤٥٩).

(٢) آل عمران الآية (٢٦) .

فلم يجب السلطان تلك اللحظة جواباً . ولما هبط طلب كمال الدين الكاميار ومنحه تشريفا خاصاً وألف دينار أحمر وخمسة بغال مسرجه وعشرة خيول بأسرجتها وأعنتها وخمسة غلمان وأمر بأن يتكلف به الأمراء وترحم عليه بولاية (زره) التي كان حاصلها مائه ألف نقداً وحاشيته فيها ستين شخصاً بحكم الأقطاع (نرجع إلى ما كنا بصدده) . لما أتى السلطان من الميدان إلى الإيوان أمر بقتل جميع الحاشية والغلمان والمتعلقين بالأمراء المقتولين وأن يأخذ ابن الحقة باز خاتم السلطان لضمان الحكم لكي يمضيه حين يحل الليل . . وفي الحال ركب كمنينوس ومعه غلام وعبد للركاب وأتى خدمة البلاط وطلب المقابلة ودخل وسجد وقال حين ذهب العبد من سراي السلطنة إلى وثاقه لم يبق من المتعلقين والحواشي وهم العسكر اللجب الذين كانوا يجتمعون حولي غير غلام واحد في هذه الساعة وعبد واحد للركاب . فقال السلطان وماسبب هذا فأجاب ألم يُجَزْ لسيف الدين النائب أن يهلك متعلقي الأمراء وغلمانهم ولما سمع أتباع العبد فزعوا جمعيا وقالوا حين يصدر منك في المستقبل جناح يستوجب القتل سوف يكون نفس هذا الخطاب معنا والأفضل أن نقوم قبل حلول الواقعة بتدارك حالنا . فقال السلطان أصابوا القول وأعطى عمامة الأمان لكي يبطل ذلك الحكم . ولما قنع من قبل قتل الأمراء وامتلأ وعاء الخزائن بالنقود والجواهر شرع في فتح البلاد والقلاع التي تاخمت حدود ممالكه .

ذكر فتح قلعة كاخته في أيام السلطان

علاء الدين كيقباذ

أنهي منهوا الأخبار في حضرة ملك الأمصار إلى محل العرض أن الملك مسعود صاحب آمد قد حرف من فرط الجهالة رأسه عن دائرة طاعة السلطان وتوسل بالملك الكامل وجعل السكة والخطبة باسمه . فغضب السلطان لهذا المعنى وأمر بأن يتوجه قواد عساكر تمام حدود الروم بجملة أسباب القتال

على نحو أسرع ما يكون إلى المحروسة ملطية ويرتقبوا أى خدمة سوف يؤمرون بها . وفي قليل الزمان لحق تمام العساكر بدار الرفعة ملطية . ووصل الأمر على نحو أن يسير الأمير مبارز الدين الصاولي بفوج من الأجناد إلى كاختة من جملة ممالك آمد وينهي أحوال فتحها ويعزم الأمير أسد الدين الكند صطبل بجيش عظيم (چمشكزاك) و (كرفراك) اللتين هما أيضا في حكمه . واتجه الأمير مبارز الدين بالعساكر وآلات المحاصرة إلى كاختة ونصب منجنيفاً مغربيا في محاذاة البوابة وأعد منجنيقي اليسار واليمين على يمين القلعة ويسارها . ولما علم الآمدي بذلك سير كتاب استغاثة إلى الملك الأشرف فوجه الملك الأشرف عز الدين ابن البدر بعشرة آلاف فارس من قبائل الأكراد والعرب صوب كاختة[1] .

وحين أخبر الأمير مبارز الدين أن الشوام شمروا عن ساعد المحاربة نصب جماعة على أعمال المجانيق واستعد هو نفسه مع الأمراء والأجناد للقتال ، وأتى الصحراء لمقابلة الأعداء . وفي اليوم التالي قدم كلا الجيشين يواجه أحدهما الآخر ، وفي تلك الحال أتى ستة آلاف فارس من طرف آمد للمدد وامتزج بعضهم ببعض وأرسل الأمير مبارز الدين بعضا من الجيش إلى القلعة . وتقدم بنفسه مع خمسة أخوة آخرين كانوا معروفين بأولاد (فردخلا) ومن باكورة ثمر ولاية الحرب إلى مقابلة الشوام وحمل الشوام كرات عدة فثبتوا كالجبال الرواسي وفي النهاية حملوا دفعة واحدة وصرعوا من جيش الأعادى ما لاعدله وأسر عز الدين ابن البدر وكان زعيم العسكر ، وولى الباقي حيارى مضطربين كل فئة بوجهها إلى طرف وولوا الأدبار . وحين أتى بابن البدر إلى خيمة الأمير مبارز الدين لاقاه بالاحترام التام ، واندفع كذلك يهاجم القلعة في تلك الحرارة . ولما شاهد أهل القلعة تلك الحالة أبلغوا أصوات الأحزان « الأمان الأمان » إلى عنان السماء وهبط نفر كثير وطلبوا خط الأمان لكي يسلموا القلعة فاستمالهم الأمير مبارز الدين وأجلى بمصقل اللطف صدأ

(١) يرسم هذا الحصن كختا بتسكين الثاني وهو حصن قديم على نهر كختاصو ويقع على مسافة أربعين ميلا تقريبا من الجنوب الشرقي من ملطية (كتاب السلوك ص ٥٧٩ ح ٥) .

المحنة عن خواطرهم وأقسم بالحكم العدل أني الصاولي لن أصيب أهالي القلعة بقليل ضرر أو كثير ماداموا سلكوا طريق الانقياد والإذعان ويودعون القلعة إلى عبيد ملك البسيط المديد وأحقق كل ما يأملون من حضرة السلطنة وألا أمانع اذا أرادوا التحول بالمال والأسباب وغرض سلطان العالم هو القلعة وحسب . ولما سمع الأعيان بهذه المعاني أظهروا الطاعة جميعهم للأمير مبارز الدين وصعدوا وأنزلوا متاعهم ونساءهم وأولادهم من القلعة وأعدوا كاختة وهيأوها وسلموها باليوم التالي عبيد السلطان فرفعوا عليها سنجق ملك الدنيا ورقي الأمير مبارز الدين ، وأقام مجالس الفرح ليلة ذلك اليوم في جوف القلعة ووصل بالسرور والحبور الليل بالنهار . وفي اليوم التالي سير عز الدين ابن البدر مع الأسري الآخرين بصحبة مائة فارس إلى خدمة السلطان وأعلم خدمة البلاط بصورة حادثة الشاميين ومحاربتهم وهزيمتهم والأمير عز الدين وتمني أهالي القلعة ، فقرن السلطان تلك المساعي بالمراضي وأرسل إليه بخلعة ملكية بألطاف وإنعامات ، وأعطى رئاسة القلعة لواحد من خواص غلمانه وسير الرد على البطل بصحبته .

ذكر فتح قلعة چمشكزاك على يد عبيد السلطنة

سار الأمير أسد الدين الكند صطبل رأس عسكر ملطية بموجب الأمر المطاع ومعه خمسة آلاف فارس وآلات المحاصرة إلى قلعة (چمشكزاك) فرأى جبلا جاوز السماء بهامته وخلق الله غاراً في حومته ، وفي تحدره نهر لايدخل النيل معه في حساب ويؤخذ الفيل إزاءه بعوضة في الحساب يجري ، وعلى شاطئ هذا النهر القريب مدينة أكثر من القلعة حصانة وأساسها أشد إحكاما ومتانة . قال : لايمكن أن يبتغي الوغى بمثل هذا المقام الذي يبدو صبر العقاب على الطيران فوقه ونقب النقاب نقباً فيه محالا ، فإن يدخل بالوعد والوعيد في أحبولة المراد فهو المراد وإلا سعينا ما يكون بالإمكان فلعل يتيسير الأمر بالتأييد الرباني والإقبال السلطاني . فأرسل إليه قاصداً وتحدث عن أحوال كاختة واستنزالهم بالقسر ، وإهلاك نجدة عسكر الشام بالقهر ، وقرأ القضايا . فلما اقترب إلى القلعة غدت الحجار الكبار والسهام

الأطيار كالمطر المنهمر ولم يلتفتوا إليه رغم كثرة قوله إنني قاصد ولأجل مصلحتكم إليكم قاصد . فرجع بالضرورة فقال الأمير لما أنهم أوصدوا وصيد الحديث فعلينا فتح طريق القتال . فأمر فنصبت العرادات وتسلح الجيش وزحفوا نحو الباب زحفا بلا حساب ، وشغلوا من الفلق حتى الغسق بطعن المنجنيق والأسهم والتسليم والتسلم . وفي العاقبة رجعوا بالعجز والاضطرار إلى الخيام . وظل لأحدهما في حرب الآخر لسبعة أيام ولليل بالنهار التئام وامتزاج والتحام . وفي اليوم الثامن رأوا عشرة صناديق بحيث أن عشرة من الكماة لايخشون من ضيق جوف الواحد منها ، وجعل في كل منها ثقوب لتنفذ منها السهام ، وأهبطت من فوق الغار وكانوا يسلطون من سحاب الأقواس وابل السهام في الغار . وكان الكندصطبل ينكمش في نفسه من غاية العجز والضعف ولم يكن يري لهذا الألم أى علاج وعلى حين بغتة قدم شاب حسن الطلعة وقال كنت أصعد البارحة بأطراف هذا الجبل فوجدت في جانب غار الحصن ثقباً إن عمل فيه النقابون تيسر أمر القلعة في مدة وجيزة . فأمر الأمير بأن يحاصر الجيش على عادته وعدا بنفسه بالكميت على جبل الجرانيت حتى يعالج هذا الأمر بالنحو المناسب . ولما رأى هذا الثقب أمر أن ينهال عليه بالمعاول خمسون نقابا لهم بالحمية تعامل ويظهروا ثمة بطعن المتن في هذا الحصن . وبعذوبة الحديث عند الأمير المحب للخسرو صار كل أستاذ فرهاذاً[١] وبأقل عهد أصابوا بطعن المتين الحصن الحصين والصرح المتين بالخلل وشقوا فيه صدعا عريضا ثم أمر بأن يصب الجيش على القلعة وابل

---

(١) هنا تضمين للرواية الفارسية المشهورة (خسرو وشيرين وفرهاد) وكان أبطالها الملك الساساني خسرو أوكسرى أبرويز المشهور بالحرب والحب والبذخ والظلم وحبه لزوجه شيرين السريانية التي كلف بها فرهاد أحد الرعية فاستغل الملك قوة جسده وقلبه وكلفه بمشقة الأعمال وشق الجبال وحمل الصخور فتقبل هذا عن طيب خاطر كما تروي الرواية . وشهر كسري بالبذخ فهو مدار القصص والأساطير عند الفرس في ذلك والظلم حين سام شعبه أشد الضرائب فداحة وحين رد كتاب النبي صلوات الله عليه حين عرض عليه الإسلام .

سهامه ويغوص فوج من الشجعان الأشداء البدن كانهم (بيجن[1]) في ذاك الحفر المصدوع ويستخلصوا النصر من بين فكي هصر التمساح . وأجرى الشجعان ذوو أرواح النثار في الغار نهر دم من ساكني الحصار وأحال الجيش في الخارج على أهل والج القلعة بطعن السهم اليوم الأسعد إلى ليل الهم الأسود . وبعد مساع كثار تحولوا بسبب العجز إلى الاضطرار وطلب الأمان والإصار وأرسلوا رسولهم وطلبوا الأمان فجعل الكند صطبل المأمول لهم بالحصول موصولا وتبدل القتال إلى الاحتفال والجدال إلى فراغ البال . وفي اليوم التالي هبط متمكنو القلعة بمتاعهم ونزل رئيس الحراس جريح البال والبأس منتوف الريش كسير الجناح والرأس خائراً واعتذر عن مساوئ أدبه وحمل السنجق إلى شرفات القلعة . وبعد حمد الباري وأهداء الصلوات لروضة السيد المختار ، دعوا لملك الأمصار مع الغلمان من الدعاء ما هو على بنيان السماء رزين وفي الأرضين مكين . ورقم الأمير الكند صطبل بالقلم رسالة مشتملة على تفصيلات الحكايات التي وقعت والتهنئة على الفتح الثاني السانح من الفضل الرباني وأرسلها إلى حضرة السلطنة وأدى الشكر الإلهي وعين رئيس حرس الحصن وضاعف أسباب ذاك الصرح .

ذكر تذلل الملك مسعود لخدمة حضرة السلطنة

لما علم الملك مسعود أن القلاع التي كان ظهر الإقبال وريشه وجناحاه طائر الحال لها قد أخذت زخرفها وازينت بسنجق النصرة وأعلام السلطنة للسلطان ، غدا على تخته باكيا ومن التقصير الذي كان أجازه نادماً شاكيا .

(١) في العبارة الفارسية تضمين لقصص الأبطال الأسطورين للفرس القدماء فما ترجم (بالأشداء البدن) هو (تهمتن) وهو أيضا أحد ألقاب الخاصة للبطل الأسطوري رستم في الشاهنامة قال الفردوسي :

تهمتن بخنديد كورا بديـــد   يكــي تيغ تيزاز ميان بركشيد

(أي) ضحك التهمتن حين رآه   واستل من خاصرته سيفا بتاراً

أما (بيجن) فهو بطل أسطورة قصة (بيژن ومنيژه) وقد كلف بيجن هذا بحبيبته (منيجة) كلفا ذاع ذيوع كلف المجنون بليلى عند العرب .

رأى المصلحة قبل أن يفقد كلية نصف الملك الذي بقى له ويكبو مركب السعادة له تماماً في أن يتشبث بأذيال حماية السلطان وكرمه ويسلك طريق الخدمة ، فانتقى من عظام أسرته القدام رسولاً فصيح اللسان وأرسل رسالة تفيض وداداً وعهوداً مع هدية تليق بالسلطان من اللآلي والجوهر المتلالي والخيول والغلمان والثياب الملونة وأسفاط العنبر والكافور لخدمة السلطان ، واستغفر لذنوبه والتزم بأن يرسل إلى الخزانة كل حول المال والأحمال المحلاة ويعقد رباط الانقياد على خاصرة النفس لكل خدمة يؤمر بها . ووصل الرسول إلى البلاط ولقي الإكرام . قال السلطان إن الكدورة التي ظهرت في مشارع عواطفنا لكم كانت بناء على طيش الملك مسعود وغباوته ، ولما أنه دخل من باب الاعتذار فقد سلكنا نحن أيضا طريق العفو وتجاوزنا عن سيئاته . وإذا عاد لفكر العصيان وبذر في أرض الإيمان بذور الكفران فإن جزاءه وعقابه كما رأى بل يشاهد أسوأ (وللآخرة أشد عذابا وأسوأ تنكيلا[١]) وأجاز للرسول العودة وتوجه السلطان للاصطياف إلى مروج السواحل التي تشبه الفردوس .

ذكر مصاهرة السلطان أولاد الملك العادل

ولما دخل موسم الربيع وتوجه السلطان من مصطاف أنطالية إلى قيصرية أطلق من الأصفاد عز الدين ابن البدر الذي كان أسقط في حرب حصن كاختة وأسر وحبس في قلعة قيصرية وأطلق معه متعلقيه وملازميه وخلع عليه خلعة ملكية ولقي الإجازة بالتوجه بالإكرام والاحترام إلى بلاد الشام . وفي يوم أثناء التدابير قال السلطان لسيف الدين النائب ابن الحقه باز نرى رأياً هو أن تصير قرابة إلى أولاد العادل لاستحكام دعائم السؤدد ، فيزيد بهذا السبب رونق السلطنة . فتكفل سيف الدين بعد استصواب رأى السلطان بإتمام هذا الشان ، وتوجه بمال تام إلى ديار الشام . فلما بلغ ملطية وافته المنية بمرض عرض لجوهر بدنه . فعين السلطان شمس الدين التنونبة مختبر

(١) ليس هذا من القرآن الكريم .

الطعام عوضاً عنه . وحين لحق شمس الدين التونبة بملطية نقل المتاع والمال إلى داره وتوجه قدماً بعد إتمام الأمر والاحتياط .

ولما كان عز الدين ابن البدر أخبر ملوك الشام بورود الرسول وتقدم إليه بشكر الاعتراف بالجميل وأزال كل ألم كان بباطن أولاد العادل التزموا استقبال مقدمه بالتعظيم على أتم ما يكون التعظيم وبلغوا في إجلال حاله بإرسال الأنزال المرتبة القصوى والدرجة العليا . وفي اليوم التالي أحضر أولاد العادل - وكانوا ملوك الشام وأطراف الأرمن وديار بكر مثل الملك المعظم والملك الأشرف والملك الغازي والملك فخر الدين - القاضي في دار السعادة دمشق وأحضروا الأمير شمس الدين . ورتب الأمير شمس الدين التحف والأسباب التي كان أوردها ووضع الجواهر والمرصعات على الأطباق الفضية والذهبية وعرض الأحمال والغلمان والجواري وأتم عقد النكاح . ومنعوا شمس الدين التونبة هناك حتى الفراغ من ترتيب أسباب سفر المهد . فرقم بالقلم رسالة في ذاك الباب إلى خدمة السلطان تنبئ عن إتمام الأمر الهام ومدار الأفلاك وفق مراد ملك الأمصار . وعرض أنه إذا نهض الركاب الميمون إلى ملطية يكون نوعاً من إعزاز الملوك . وظهر في السلطان من مطالعة الكتاب آثار السرور على أساريره الملأى بالنور . وخُطَّ فرمان لجملة الأمراء أن عزيمة الموكب المبارك لطرف ملطية فاتجهوا إليها بلا توقف ونهض هو نفسه بطالع السعد . وفي الطريق خرج الخراج والدماميل في عنق السلطان وكان يعاني العناء والعذاب العظيم فلما اتصل بملطية كان المهد قد سبق إليها بيومين أو ثلاثة وأمراء الشام الكبراء وصلوا بلاطها واستقبلهم الأمير الكند صطبل وشمس الدين التونبة وأوردا الحالات والحكايات فأثنى السلطان على كمال فعلهما . وفي تلك الأثناء أثر الألم عظيم الأثر وقال الأطباء الحاذقون الحاضرون إذا وصله رأس الإبرة فإن الخطر العظيم متوقع والأمل أن يخرج بالضماد والدهان فجازف السلطان بسبب غاية العجز وأمر باستدعاء (فاسيل) الجراح فلما حضر رأى أن مدة نضج الخراج قد تمت فوضع

الرأس في معرض الخطر وأنزل الإبرة . وسال في الحال القيح والصديد ، وأحضر القراطاي طستاً وبقد ما كان الصديد ينزف كانت الراحة تنفذ إلى نفس السلطان . فلما تطهر كلية تغلب عليه النوم وظل في راحة يوماً بأكمله . وتوهم خلائق العالم من تلك الحالة وظنوا أن رب محذور وقع . فلما أفاق ملك الآفاق طلب الجراح فملأ الجرح قطناً ، فزادت الراحة بسبب هذا أيضاً فقال كل من يرتاح لسلامتي يتكلف مع فاسيل . وأضحى فاسيل صباح ذاك اليوم في غصة من مال خرج يوم واحد ، وكان حتى الليل يباري قارون ويحاكي البحر والمنجم من كثرة[1] ما قدم أمراء الشام والروم ومخدرات الخواتين من تكلفات . وبعد ذلك بأسبوع واحد يقل أو يزيد اندمل الجرح وعزم السلطان السيران وأمر بالانشغال في ترتيب أسباب الاحتفال ، فزينت المدينة وكان الأمراء وقواد الشام صاغوا من قبل المهد سبعة قصور من الذهب والنقرة وحلوها بأنواع الجواهر وأركبوها ظهور الأنعام ، وأظهر اللعابون اللطاف الحركات والمشعوذون السريعو الطفرات فنونهم ، والتمس ملك خرتبرت أخو عروس السلطان ضيافته ورعى فيها أصناف الكرم من بذل الدينار والدرهم . وأقاموا أسبوعاً لأمور السرور والفرح . وفي اليوم الثامن أقام السلطان الفرح وأحضر أمراء الشام واعتذرلهم بسبب تعب السلطان ، فسجد الجميع وحمد جمعهم على سلامة المهجة وحصول البهجة الباري تعالى . ولما دخلت أم الدنيا في الخباء النيلي وأسفرت البنات الياسمينات السيما ، الفضيات القوام من سقف القصر بلون المينا ، وسحب فراشو (ولقد زينا[2]) المخيم اللازوردي على عرسان السيارات ، تظاهر الحرفاء بالتساكر[3] وتبختر السلطان في حجال الجلال ووصل حرم الوصال وأوجب في الحال فَضّ

---

(١) في الأصل خطأ (ازيس) والمفروض (ازبس) أي من كثرة .

(٢) سورة الملك الآية (٥) : (ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين) .

(٣) في الأصل (تشاكر) والأصح (تساكر) أي السكر والثمالة .

الختام وقص الرخام . وبذل عن ذاك السرور من الكنوز الجدير للوصيفات[1] اللائي كن قدمن من الشام أملاً في شم مشام إنعام السلطان السعيد وجعل الملكة مالكة الكنوز القارونية وحاكمة الأملاك الفريدونية . وفي اليوم التالي خص أمراء الشام بتشريفات نفيسة وأحلهم الحفل ، وظل كذلك الأسبوع التالي مع الجميع في سرور . وفي اليوم الثامن أضاف لأمراء الشام إجازة العودة والانصراف مع سائر الألطاف وعزم السلطان قيصرية . وكانت كل مدينة يصل إليها حتى أنطالية تزدان وتتحلى وتوصل ألحان السرور والحبور . وانقضى الشتاء وأيام الثلوج في تلك الرياض والمروج . ولما أخذت ريح الربيع في الهبوب والثلوج كأجساد العاشقين في الذوبان وعروق التراب كقلوب المشتاقين في الخفقان والضربات ، أنفذت الفرامين لأطراف الممالك للأمراء والعساكر أن يحضروا للمحروسة قيصرية .

ذكر سبب قصد السلطان لفتح صحراء القفجاق وأسر صغداق على يد حسام الدين الأمير الصوباني

لما قدمت مظلة غازي السلطنة من دار الملك إلى قيصرية إذ بتاجر داخل من باب دار القضاء كان وراء الربح والخسران في دوران كأنه كرة دائرة حول كل مكان ، دائم العبور لسائر البحور يلقي بمجنه على الماء في الرغبة إلى المال كحال النيلوفر .فتح لسانه بالثناء كالسوسن ورفع يديه بالدعاء كالصنار. وقال أنا رجل فقير تخير التعب في طلب الرزق الوعير وصار في زمانه من أجل القوت الذي لا مندوحة عنه كالريح في عجلة ورحلة على الغض والجاف من كل حلة ، وأذل من أجل التسيار بطن العمر العزيز وراء الكثير والقليل الضئيل وفي دار العارية بمائة لون من الغصص والعادية بضعة دراهم قد داراهم . وكنت أسمع في ديار القفجاق والروس صيت العدل والناموس

(١) في الأصل خطأ (دانگانى) والصحيح (دايگانى) .

لهذا البلاط ، فيممت سعيداً بهذا إلى هذه العتبة وأردت أن أعبر البحر ، فلما بلغت معبر الخزر ، سلب مني كل مال اقتصدته في تحصيل ذاك العمر . ولم يتم هذا الكلام وقتها حين بدأ آخر حكاية شكاية بقوله إنني كنت عاقداً رحل الرحلة من حلب إلى هنا فلما بلغت ولاية ليفون نهب مني مالي ولما أن ليس للنصارى خوف من هذا البلاط ، فمن عدل أي سلطان ينبغي طلب دواء هذا الظلم والجفاء . فلما أتم كلامه صرخ ثالث إنني من مقيمي أنطالية أودعت كل ما جمعت في أيام الحياة في سفينة وسلكت ركوب البحر فهاجمنا الفرنج وأخذوا كل ما كان لدينا وأسروا منا . وحين وصلت هذه التظلمات إلى مسامع السلطان صار كغضنفر العرين في حمية واضطراب وأمر فعوض في الحال أحوال التجار وتوجه إلى الأمراء وأعيان البلاط وقال (الروم إن لم تُغْزَ غزت) مثل مشهور . تركنا هذه الطوائف من غاية المرحمة آمنة وساكنة ، فإذا لا يقدرون ذلك من كمال غباوتهم ويعضون تجار الديار الذين وضعوا أرواحهم الغواني في ثمن الأماني ويشيعون ويذيعون في الأقاليم شائعة الفزع والجزع وإذا أرسلنا بالرجال لإذلال ذاك الضلال فإننا معذورون بل ممدوحون ومشكورون . وحينذاك أمر ملك الأمراء حسام الدين أمير الصوبان وكان من قدماء الأمراء ورؤساء أهل الطعان ليسلك بجيش تام طريق الصغداق وسير الأمير مبارز الدين الصاولي مختبر الطعام مع الأمير كمنينوس بجيوش قوية إلى أرمينية وأمرهما بتقويض كل حصن موجود على الدربند تقويض حظ الأشقياء والنكاية بخصوم دين الحي القيوم نكاية يظل أثرها في القلوب والأرواح لدى أهل الكفر البواح . وأرسل مبارز الدين أرتقش بجيش جرار إلى الساحل ، وسوف نقرر على الترتيب آثار الشهامة والضرامة لكل منهم .

ذكر عبور جيش السلطان بحر الخزر بهمه حسام الدين أمير الصوبان

أقام السلطان مدة في كيقبادية قيصرية وكان يتطلع إلى سنوح الفتوح ، ولما عبر بقصد الخزر جيش السلطان البحر رأى أهل الصغد الذين كان جغد

الخذلان ويوم الإدبار واقفاً على شرفات قصر عمرهم أن مرجاً من السفن والصواري قد جرى على وجه البحر ، أرسلوا رسولا لاستقبال ملك الأمراء يقول إنا لملك العالم غلمان مطيعون للفرمان ولا نعلم ما هو باعث إرسال هذا الجيش الذي بلاحواف إلى حواف البحر ، فإذا ظهر في إداء الخراج والعبور فتور قمنا بأداء غرمهما وإذا كنتم تعزمون الروس أصحبنا في خدمتكم وندبنا شباباً كالسرو المشوق ليجالدوا بسيوفهم العدو ولايسوفون روحاً . وسيروا على عجل عن طريق السهل برسول سباق إلى ملك القفجاق أن أعلام عساكر السلطان في جَوَار (منشئات في البحر كالأعلام[1]) توجهت لهذا الطرف وأن البحر لا يرى من جوش الجيش . وفي الحال أرسل ملك القفجاق إلى ملك الروس فتجمع من قبائل الروس والقفجاق وعساكرهم عشرة آلاف فارس ولبثوا ينتظرون أي جواب يأتي به رسول الصغديين من خدمة الأمير حسام الدين . ولما وصل الرسول لخدمة ملك الأمراء بدأ حديثاً واهياً كنسج العنكبوت وقال إن التوقع من ألطاف ملك الأمراء أن يرجع حتى ندفع بقدر الإمكان غرامة التقصير الذي أظهرناه ونؤدي حالياً ثمن نعال هذا الجيش خمسين ألف دينار . فحمى ملك الأمراء وسط العباب من الخطاب المرسل من الغضاب وقال لم أجرد الجيش حتى أدير بازار القتال والشجار بالذهب الكاسد ، وأقدم بالقول الفاسد لكل قاصد في حبط العمل خبط أصحاب الفشل ، ولما لقيت فرمان سلطان البلدان شققت بالفلك قلب اليم وكل من لوّى رأسه عن فرمان السلطان لن أجعل غير رباق الخذلان أطواق أعناقهم وكل من أدخل رأسه دائرة الطاعة لن يصيب مذاق أيامه مني غير لذة السلوى والمنّ . فرجع الرسول قانطا وعبرت العساكر بأجمعها باليمن والسلامة البحر وألقت برحالها من الغض إلى اليابسة وأقام الأمير حسام الدين الاحتفال وكان يعطي حتى نصف الليل مع أمراء العساكر حق الطرب . وفي السحر طلع فارس من الطلائع وقال إن جيش الأتراك الغدار قد بدا . فلما سمع القائد أمر بأن

(١) تأثر بقوله تعالى في سورة الرحمن الآية (٢٤) (وله الجوار المنشئات في البحر كالأعلام) .

يجوش الجيش ويبلغ نداء الطبول آذان الملائكة والجان . وقال إذ ذاك للقادة قبل أن يصل من الروس والسقسين جيش لمددهم في المعترك يجب أن نلبس الدروع مكان الأكفان ونجاهدهم ما وسع الإمكان لكن بشرط أن ندع الجيش حين يخور وتثور الأرواح في بكاء في مفارقة الأشباح حتى يحمل الترك مرة أو أثنتين وتسكن ريح صولتهم وحين نطلع على أسلوب قتالهم نهاجم دفعة واحدة لعلنا نكسب حسن الصيت . وكان جيش الترك يقول في الجانب الآخرإن جيشاً مثل النار بمدد الرياح عبر فوق الماء إلى هذه الأرض وقصد هذه الولاية فوجب علينا أن تجوش أبداننا وتنعقد قلوبنا على القتال . ولما خرج الطاووس المشرقي من الخباء الفسدقى استقبل الطرفان الحرب وكانت الأرواح من الصباح إلى الرواح تنفصل عن الأشباح والرؤوس تملأ بالسيوف والرماح الطوال من دماء الأوداج ، وتلقي كالأزهار الصفار في هذا الصحن اللازوردي . وأب العساكر من الطرفين إلى مضارب الخيام ، وأقام الأمير حسام الدين المحفل ونادى الأمراء والقواد والرؤساء ، وقال لهم في أثناء المعاقرة أنتم أعز منى عند خدمة التخت السلطاني ، لكن بما أن الأمر قد وقع فان المرافقة والمشاركة[1] لازمة ، واليوم بدأ ظهور الفتور في أمر الخصم من شدة الحرب ، فإذا فدينا بأرواحنا على هذا النحو بالغد فلن يبقى منهم في البلدان اسم أو نشان . فأثنى عليه الكبار وقالوا مع أننا غلمان ملك البلدان لكنك حين تأمر نثب برخش[2] الامتثال لك من ذروة القصر ذي الاثنى عشر باباً النيلوفري قبابا كبرق البرق وتلزمنا الطاعة لكل ما تأمر . وفي الناحية الأخرى كان الأتراك قد شاهدوا من جيش الروم طعان العجم واستغرقوا جميعا بالجسم والروح المجروح في نهر من الدم ، قالوا يخطئ أهل الصغد والخرز وعلينا أن نقوم نحن بالمنافحة[3] والمكافحة ، لكن بما أن الأمر وقع فلا يجب أن نسلم من الضعف رؤوسنا للرياح . وفي السحر حين ألقت الشمس بمجنها الذهبي في هذا البحر اللاجوردي على اليم رفع حامل اللواء بالجيش

---

(١) في النص خطأ (همباري) وهي (همبازي) .

(٢) (رخش) اسم جواد رستم بطل الفرس الأسطوري .

(٣) في الأصل (فراست ولايمت) .

المنصور اللواء وتحركت الجيوش وأخذ السحاب الذي كان وابله المناصل والمعابل في الانهمار فحمل الأمير حسام الدين حمله غضنفرية وهمز كل الجيش إثره جيادهم مرة واحدة ومزجوا بطعن الحسام دماء عروق أولئك الكفار العقوقين بالأرض سلك الترك طريق الانهزام وعدوا الفرار العاجل النصر العظيم . وبحملة واحدة لملك الأمراء حسام الدين أمير الصوبان أخلوا منزل القلب من تردد الأحزان ، وأعلوا راية السعادة على الفلك الأعلى واتجهوا بنيل المقاصد والأماني إلى المخيم الذي كان مجثم عقاب الانتصار بكل سعادة وفخار .

ذكر عجز ملك الروس وطلبه مصالحة خدمة ملك الأمراء حسام الدين أمير الصوبان رحمه الله

لما علم ملك الروس بفساد حال رجال القفجاق قال إن التعرض للبلاء واتخاذ طريق الطعن والضرب مع هذه الجماعة الحادة المخلب بعيد عن العقل والكفاية ، وحين ينتظم الأمر بشعر التوسل ونشر الرسل فإن التقدم فيه بالحسام والسنان الشارب للدم رأي خام غير تام . فاختار رسولاً بفهم شديد ورأى سديد وبرساله مفادها أن يعلم ملك الأمراء السلطان علاء الدين كيقباد جعل الله عمره ألف عام وزاد أنني حين علمت أن رايات غازي العالم وجنود ملك الوجود عزمت هذه الأطراف اضطربت روحي في جسدي ولا أعلم ما الأمر ومن الخصم والمنازع ، فإذا وقع عسكر القفجاق في الضلالة من الغباوة والجهالة وسفكوا الكثير من الدماء العذاب على التراب بلا فائدة . فإني للسلطان عبد بكل إخلاص . ويقين أنكم إذا أخذتم هذه الديار بالسيف البتار فلا يمكن ضبطها وإصلاحها بغير رئيس فاعتبرني هذا العبد الجالس من طرفكم ، والتوقع من خدمة ملك الأمراء هو أن يساعدني في هذا الباب ويرسل إلى خدمة السلطان ويجلي خشوعي وخضوعي أنا العبد العاجز . وأرسل مع هذه الرسالة تحفاً كثيرة من الثيران والكتان الروسي وعشرين ألف

دينار لخدمة ملك الأمراء . فلما اقترب السفير إلى جيش الأمير ونظر في الجيش والترتيب والمخيمات والحشمة والبلاط صمت كمن لا وعي له وأخذ يناجي سراً بيارب الأرباب . وحين أعلم ملك الأمراء بورود رسول ملك الروس أمر فتقدم المضيفون وأنزلوهم في خيام الإكرام بالاحترام التام . وفي اليوم التالي أرسل يطلب الرسول وكان أمر قبل ذلك بأن يزين الباب والبلاط بعظمة أتم ما تكون بالشباب المختارين اللابسين للسلاح المصطفين صفوفا ويمسكون بأعنة جياد الحراسة مطوقة وملجمة أمام البلاط ويقف باقي الجيوش فوجاً فوجاً في غرق من فرق الرأس حتى حافر الخيل في حديد مطلي بالذهب ويحملون الرماح على الأكتاف بكل طرف . وارتاح مبعوث الروس ساعة على باب البلاط ثم دخل خدمة ملك الأمراء وسجد بتذلل تام وسلم الرسالة والتحف فقبل ملك الأمراء كل شئ وفرقه على الجيش في الحال ومنعه ثلاثة أيام ، واستدعى الأمراء في اليوم الرابع وقال بما أن ملك الروس سلك سلوك النفاق الملموس ويلتزم بالخرج والخراج فالأفضل أن نحفظ أيضا ناموس السلطنة ونعرض حالته على خدمة السلطان فأي صواب ترون في هذا الباب ؟ فقالوا جميعا ليس من فكر ورأى يفضل هذا . حينذاك أحضر الرسول وقال إن السلطان لا يلقى بأحد قط في هاوية الهوان بلا جناح لكنه لا يجيز في تعريك المتمردين الإهمال والإمهال .

حين تخضع نفسك إليه تصير ملكاً

وحين تطلب له السعادة تبقى سعيداً[1]

والأمل هو أن يتيسر كل مراد لملك الروس ويفيده أساس المحبة الذي يضعه . وإذذاك سيروه بخلع وهدايا وخلعة خاصة وقلانس مغرقة سلطانية بكتاب مشحون بفنون الوداد وبعد ذلك أرسلت الغنيمة الكريمة إلى سينوب وقسطمونية .

---

(١) البيت الفارسي :

كرش بنده گردي شوي شهريار ورش كام جويي شوي كا مكار

ذكر فتح الصغداق على يد حسام الدين أمير الصوبان في أيام السلطان علاء الدين كيقباد رحمه الله

حين سمع الصغديون بخبر كسر عسكر القفجاق أصابهم الحسرة وركبهم القنوط فمكثوا في إعداد العدة وإرهاف الأسياف وتثقيف الأسنة وتأهبوا للحرب . وبعد أسبوع نزل على باب المدينة القائد المغوار بجيش جرار وفي اليوم التالي حين أخذ من تحت مظلة الليل السوداء عذار خسرو السيارة في الإنارة تحرك الجيش كالطود من حديد أفواجاً ، وتوجه شباب الحرب والحراب بالسلاح والعدة من داخل المصر إلى المعسكر وظلوا حتى انتساخ آيات النور إلى الظلام وطلوع كواكب الفلك الميناثي القوام في حراب وطعان وضراب . ومع أن عدداً عظيماً من العساكر المنصورة غدا جريحا ودمهم في سهل المعركة بات مسفوحاً إلا أن نقش وجود الصغديين قد مُحي بماء الحسام الهضام للأرواح من لوح الخلق . وفي اليوم التالي حين أضاء علم الشمس الذهبي على مهد الفلك الفيروزي وزال ظلام الديجور من إضاءة النور ، عاد الجيش إلى الحركة ، وانهمر من المدينة مشاة متاريس تستروا بالتروس وفرسان مغاوير أثاروا النقع وأتوا بالنفط والعجلات والسهام والأحجار للحرب والشجار . واتجه جيش الإسلام بحكم المواضعة التي تواضعوا عليها إلى الانهزام وولوا الأدبار دفعة واحدة ، فصار الصغديون من الفرح كالشجاع من السباع وتعقبوا الفارين فلما فصلوا عن المدينة عطفت العساكر المنصورة وأعملوا السيوف التي لا تسوف وسال سيل منساب من دماء الشيوخ والشباب في الوادي والشعاب . وبأثناء الليل حين ذهب السلطان الذهبي السلب في الفراش الحريري القارى توجه ملك الأمراء بالتأييد الرباني وعظمة المجد السلطاني وقوة الجيش الأفعواني . وبعد تناول الطعام رأى المدام وقال كما أن الأرض طفحت تملى بدم الأشرار فإن دم الدن بسبب مصالح البدن مع أنه حرام يجب عده حلالاً لأنه لم يبق من دم العدو الخالص

أو الشائب[١] . عندئذ رأى شيوخ المدينة أن لم يبق من الشباب غير الذكرى وأن لمعات السيوف أجرت من سحابات وجودهم سيولا ولما ولى عدة آلاف من الشباب اللامين بفنون الضرب الملمين بدقائق الحرب من ريح هيبة هذا الجيش وجوههم كالهشيم إلى بلد العدم ، ولم يثبتوا أمام ضربة واحدة منهم فلا مناص من التضرع بعد هذا والتذلل ، ولن تجدى هذه الواقعة والقلق (بعد ما جرى الكتاب وسبق) لنا نفعاً بالرأى الواهي والفكر الخاطى . فأسلوا بضعة نفر وسموا بالمهارة إلى ملك الأمراء . وحين دخلوا قبلوا الأرض وقالوا مع أن الجرائم الواقعة منا والزلات قد بلغت أقصى الغايات ، لكننا حين نشفع لطف ملك الأمراء فإن الخطب يهون علينا والواجب الاقتداء في هذا الاقتدار بمالك ذي الفقار (حيث يقول اذا قدرت على عدوك فاجعل العفو عنه شكراً للقدرة عليه[٢]) . كل ما يأمر به من خرج وخراج نؤديه وننفذ ما يتوجه به ونجمع أموال التجار التي تلفت في هذه الأمصار ، وكل من يوكل لإمارتنا نقدم الطاعة والخضوع له بصدق الطوية . فلما رأى ملك الأمراء ذلك التضرع قال إن موجب حدوث هذه الواقعة فساد رأيكم وسفاهة شبابكم الذين سقطوا في صحراء الملتحم (كلحم على وضم) والآن حتى أرسل أحد الأعيان إلى بلاط السلطان وأشفع لكم عنده ليعفو عنكم لتأمنوا جور دور الزمان السئ الحدثان ولايعود لكم مرتهن بمثل هذه المحن بل لا تروا ضرراً قط من بعد . فلما رأوا ألطاف ملك الأمراء ضمن هذه الألفاظ دخلوا المدينة فرحين وأعادوا قول ما سمعوا ورأوا وجمعوا كل شئ كان معهم طوال الليل ورتبوا خزينا تاماً من كل نوع من الناطق والصامت والصاهل والناطق . وفي الصباح حين أطفئ قنديل القمر وأشعل شمع الروضة النيلوفري أمر أن يتسلح كل الجيش وجلس ملك الأمراء مع القادة بمقدمة البلاط وانثال الصغير والكبير من المدينة على باب ملك الأمراء واختلط الجمعان كالذئاب مع الأغنام من عدل ملك الأمراء ، وعرضوا التقدمات وصاح الجواويش أن بعد اليوم يرفع كافة الجيش أيدى

---

(١) محاولة من المؤلف مردودة لتحليل ما حرم الله من شرب الخمر أو دم الدن كما عبر .

(٢) ذو الفقار هو سيف على بن أبي طالب لأنه يكسر فقار الظهور .

الإضرار عنهم . وأمر ملك الأمراء فرتب فلك سريع السلك غلب القمر في السير ، وأرسل الأخماس الخاصة مع هدايا أخرى بصحبة قاصد متحلٍ بآداب خدمة الملوك ومعه كتاب مشتمل على ذكر جملة الأحوال . ولما انتهى القاصد إلى البلاط وأنهى بشارة فتح الصغداق وكسر عسكر القفجاق ومهادنة ملك الروس ، أمر السلطان من غاية الارتياح فأطلق سراح المساجين وأرسل ذلك التاجر الرسول مع قصاد وأمر فكتب إلى ملك الأمراء كتاب مشتمل على حمد المساعي الجميلة التي بدت منه ومن العساكر في ذلك القتال ومعه الخلع السلطانية التي أعدت لملك الأمراء وسائر الرؤساء من دار ثياب السلطنة ، وقال إننا تجاوزنا بموجب شفاعة ملك الأمراء عن سفاهة الصغديين وعفونا عن ذنوبهم بسببه لكن بشرط أن يكون بدلاً من الصنم والناقوس شعار المحراب والناموس له ومنبر الرسول ﷺ وشريعته ، وأن يعيدوا ما أخذوه من تجار الديار ، وحين تُكفى هذه المهمات يعود ملك الأمراء مع الجنود في حفظ المعبود . وحال أن وصل القاصد قرئ الأمر على رؤوس الأشهاد وحصل كل تاجر عوضاً عن كل درهم ديناراً ، وسارت جملة الجيش في زخرف وزينة ، وحمل ملك الأمراء منبراً كأنه الربيع مزين بالثياب الفاخرة ومصحفاً مجيداً موضوعاً على طبق من ذهب وأخذ سنجق السلطان بيده وساروا بعظمة تامة في المدينة ورفع على موضع مرتفع المؤذن الأذان وتحطم ناقوس ناموس المسيحيين كلية وفي أقل من أسبوعين بني مسجد جامع كان في الجهات الست للأقاليم السبعة يحاكي ثلاث وأربع وخمس مرات الجنات الثماني والأفلاك التسعة ، ونصب مؤذن وخطيب وقاض وأخذ من أبناء الأعيان المعتبرين بضعة نفر رهائن وترك واحد من القادة بفوج من الجيش هناك والياً . ولما أعدت وهيأت السفن عادوا في ضمان السلامة إلى ممالك ولاية السلطنة وحدودها .

ذكر ورود مبارز الدين الصاولي ومعه كمنينوس ولاية الأرمن وفتح القلاع

لما عزم الأمير مبارز الدين الصاولي مختبر الطعام وكمنينوس بموجب الأمر الأعلى إلى أرمنية شاهدا طريقاً ضيقا بين صخور من جرانيت وظهرت أحراش بعد الصخور وقلاعاً وبقاعاً وأماكن ومساكن بكل مكان ، فرأوا أن يتجاوزوا كل قلعة بعد الفراغ منها . ووصلوا أولاً إلى جنجين وهو صرح حصين ومعقل مكين ومتين . فأمر مختبر الطعام أن يصعد الجيش فوق الطود فوجاً بعد فوج ويرسخوا الأعلام وأوتاد الخيام كالجبال الرواسي على قلاله وأن يدوروا كالدائرة بدور القلعة ذي السمعة السائرة . وفي اليوم التالي سدوا على أهل القلعة الأنفاس بطعن السهام فكتبوا لعجزهم وذلتهم كتاباً إلى ليفون وأظهروا أحوال مسكنتهم ، فاستعان ليفون بالفرنجة وكتب كتب الاستصراخ فتجمعت جملتهم من الحمية والعصبية ولحقوا بليفون . وهبط جيش السلطان من الجبل ونزل أجناد المخالفين في السهل . ولما حل الليل وأقيم الحفل قال الأمير مبارز الدين أثناء المعاقرة إن هذا الجيش الذي جمعه ليفون من كل مكان لا يملأ العين بأي وجه ، وبالغد حين ينجلي النهار وتدخل الشمس ميدان السماء نحيط مع جمله شجعان الحرب بالكفار ونبذل كل ما يتسع له الإمكان . والأمل أن يحل وعد الحق في نصر أعوان الدين . وفي الصباح حين أشرق الصبح بضحك القبج الدُّرّي على طلوع طاووس الروضة الزرقاء ، تقدم الجيش كالأسد الهصور في جيشان وصيحان ، وظهرت على الهواء من ألوان الأعلام روضة أخرى ، فتحركت الردينيات ونزلت كالأردان عن الأبدان وسلكت السمهريات بالقُبُل سلوك السهر في العيون[1] ، وصارت السهام كالأمطار واستقر التذمر في صميم القلوب وغدا السيف البتار مكان

---

(١) وضع هوتسما علامة استفهام لكلمة (سهر راه) وهي صحيحة في موقعها من الجملة ويعني المؤلف بها (سهر راه ديدها دريپش كرفت) أي سلك السهر طريقه للعيون .

الرأس المحمول على العنق وسلب جيش الإله بشوكه الشاه بحمله واحدة ثوب الوجود عن قلب العدو اللدود فتعالت الصيحات من ذوات الكفار وقامت القيامة ثم حملوا دفعة واحدة على عساكر السلطان فأمر القائد فأثقلت الركّب . وبموجب صواب رؤية بطل الشجعان نالت الصفوف رصانة كجبل (ثهلان) حتى تكسرت رياح فشل جيش ليفون . وحينذاك أتبع الجميع كالشهاب بعقب العفاريت أولئك العبدة للطواغيت فضاق عليهم من صولة الرماح وطعن السهام البيداء الرحباء ، وكانوا يغيرون ويَفْرون كل ما يثقفون ، ورفع ليفون وبضعة نفر من أولئك الظلمة رأسه على عنقه كالمتظلمة وخرج إلى الجبل ، وعاد عسكر ملك الأمصار بغنائم كثار وأسرى بلاعد ومقدار من الفرنجة والكفار لتلك الديار من القتال والاشتجار بفضل القهار ، وأتى بمحاذاة القلعة . فلما رأى أهلها من علاء هذا البلاء غدوا حيارى كالسكارى . وأمر الأمير مبارز الدين فعقد الاحتفال وأنشد المطربون على نهاية نوبة دولة الكفار تقدماً ومقدمة عذبين وكانوا يبلغون شجاعة أبطال الحرب بصوت على أحسن ما يكون بقول (الرست) القويم . وفي الصباح هبط من القلعة قس انحسر ذيل ثوبه وبصره عن موج الدم وقبل الأرض بذلة أمام قائد السلطان . وقال عجزنا جميعاً عن الأمور وبعثرنا نقد عمرنا بسبب ضرر الحصر على هواء الفشل ، ووضعت رأسي على كفي وأتيت لديكم أنتظر أمركم . فقال الأمير مبارز الدين ليس لكم ذنب فيما وقع واذا أردتم صلاحكم فيجب أن تتركوا السلاح وذخائر القلعة وتجمعوا خاصتكم وينتقلوا إلى حيث يريدون وتأمنوا من قبل الجيش . فطلب القس حجة بهذا الباب ، وفي الحال رقم القلم خط الأمان وأخلى الحصن على عجل ونصبت راية السلطنة بالظفر والنصر على الشرفة بأعلى القلعة ، وكتب في الحال كتاب الفتح المشتمل على كسر الأعداء وخفض عيش سائر العساكر ورفع لواء السرور وضم تلك القلعة إلى سائر الممالك . وعرض أن في هذه الحوالي معاقل وحصوناً كثيرة والأمل أن يتيسر فتح جملتها لكن يلزم إرسال آلات التسلح فلما سار القاصد وصل بغتة رسل ليفون وفتحوا ألسنة العجز بألف ضراعة أنه إذا عاقب على قدر الذنب فإن

هذا التعريك والتوبيخ الذي أصاب في هذا التاريخ العبد المذنب كاف ، وأرسل كل سنة (قصيرة عن طويلة) بألف فارس وخمسمائة جندي عجلات إلى ميدان القتال وأجعل السكة بألقاب الكسرى السعيد المشرف وأضاعف الخراج . فسير ملك الأمراء القاصد والكتاب لحضرة السلطنة وافتتح حتى عودة القصاد ثلاثين قلعة من تلك الولاية وعين حراسها وأرسل كتاباً آخر للسلطان فيها أن الولايات اتصلت بعضها ببعض ولم تنبُ أمامى قلعة أجنبية . فعفا السلطان عن جرائم ليفون وأرسل كتاب عهد وأنفذ فرماناً مشتملاً على إحماد محامد ملك الأمراء وكمنينوس ومساعيهما . وأمر بأن تكمل أموال التجار من الأموال التي تيسرت من فتح القلاع وتسلم القلاع والولاية للأمير قمر الدين وترجع الجيوش إلى أوطانها ويلحق ملك الأمراء وكمنينوس مجردين بحضرة السلطنة حتى يبلغا ما جرى بالمشافهة ويحتظيا بالحظ الأكمل من لقاء السلطنة الميمون .

ذكر فتح قلاع السواحل على يد مبارز الدين أرتقش

في ذلك اليوم الذي عزم فيه ملك الأمراء حسام الدين أمير الصوبان ومبارز الدين الصاولي إلى الصغداق وأرمينية سار مبارز الدين الأتابك وكان تابعاً قديماً للسلطنة تجاه الساحل وأدخل أربعين قلعة شهيرة مثل (مافغا) و (ايدوس) و (شنج) و (أنامور) في قبضة الاقتدار . ومع أن الفرنجة في البداية سنوا كالتماسيح أسنان الحرب والسنان والحراب وأرادوا القتال إلا أنه لما تواتر ضرب أهل الحرب على يوافيخهم أرخوا بغير اختيار زمام الانهزام وأخلوا الحصون والقلاع وركبوا في سيرة الظلام السفاين وسلكوا طريق الأمصار . ولما رأى متوطنو القلاع بقاعهم خالية من الحامي والحارس والرامح والتارس اضطروا إلى التماس الأمان وسلموا للأتباع . وعرض الأمير مبارز الدين أخبار الفتوح وقال إن أمور السواحل ضبطت على موجب الرأي

وهوى الأتباع فان أجيزلهم عزم جزائر الإفرنج . فأمر السلطان بأداء أموال التجار بالتمام والكمال ويجاز للجيش بالعودة إلى مواضعه ، ويؤدي مبارز الدين المهمات من جليلها وحقيرها ويلحق على عجل بخدمة البلاط . وبموجب الأمر الأعلى بعد الوصول قبل اليدين ونال في المحروسة قيصرية تلك السعادة . فلما فرغ كافة الأمراء من مهمات الفتوحات وأسرعوا إلى قيصرية إلى البلاد وكان موسم الخريف قد حل واحترفت الأشجار بدل إسقاط الفضة عادة نثر الذهب عزم السلطان أنطالية وانشغل كل الشتاء بالسعادة والسرور .

ذكر وفود الملك علاء الدين داود شاه صاحب أرزنجان لخدمة السلطان ووصف أرزنجان ونواحيها

حين جلس الملك علاء الدين داود شاه بعد أبيه الملك فخر الدين بهرام شاه على دست الملك والقيادة ، وكانت سلطنة مدينة أرزنجان وولايتها مع أنها أجمل البقاع وأنزه الأماكن والرقاع[1] ويجرى نهر الفرات بدبرها ويتحول[2] مرور نسيمات الصبا وكلها تمتلئ بالبنفسج وأزهار الجبال إليها ومع أنها ذات حظ كامل من كل نوع من العلوم كانت في شغل بارتكاب المناهي واتباع الملاهي والعجب والتباهي واستماع هذيانات قرناء السوء ، ولم تكن تصغى إلى نصائح أصحاب السن والتفكير والمشفقين أولى الرأى والتدبير بمسامع القبول . وعزمت بالقصد والقتل أمراء المملكة فجعلت البعض مقتلاً والآخر مكبلا ، وقالت طائفة خوف الموت بترك الأملاك والمتاع وآثرت الجلاء وتوجهت إلى حضرة السلطنة وأنهت عنه سوء الأفعال ومقابح الأعمال في الباب العالي إلى محل العرض . فأكرمهم السلطان وخط كتاباً إلى الملك علاء الدين فيه أن الواجب أن يطلق الأمراء المحبوسين ويرد لهم ما أخذه منهم ويرسلها بإكرام وتحري المراضى إلى هذه الأراضي . فاعتذر الملك بأن هذه الطائفة سلكت

(١) في الأصل (بقاع) .

(٢) في الأصل خطأ (نحول) لا (تحول) .

طريق الجفامعي وعدم الحفاظ ووافقت مخالفّي ، ولما تحقق لديّ ذلك جازيتهم وعاقبتهم . فبدأ قاصد السلطان العتاب وأجبره بالوعد والوعيد على أن يطلقهم من وثاقهم ويرفع يده عن أموالهم وأسبابهم ، وأرسل الرسول (مقضي الوطر) . فلما بلغ الأمراء المأسورون بلاط السلطنة لقوا الإكرام التام وعين لكل منهم بنيابة كمال الدين كاميار الإقطاعات المشبعة المغناة .
وحين سمع الملك علاء الدين أن كبار مملكته قد انتظموا في سلك عبيد دولة السلطنة وسلك باقي أولئك الأمراء لهذا القبل التكبر والنخوة وكانوا يتحكمون على نواب أرزنجان غضب من الحسد والغيرة لتلك الحالة وأعد متوهماً الرجاء والخوف أسباب السفر كما يليق بأبواب السلاطين والتحف والهدايا كما يجدر باستمالة خواطر الأكابر وتوجه إلى بلاط السلطان . ولما لحق بحدود قيصرية سبق المضيفون الخواص للاستقبال وحملوا النزل بلا حد . وفي اليوم التالي استقبله السلطان فلما وقع نظر الملك على مظلة السلطان ترجل وركب الأمراء ثانية بأمر السلطان . فلما اقترب أراد أن يترجل ثانية فمنع السلطان وتشرف بتقبيل اليدين من فوق الجواد واحتضنه السلطان واستفسر منه عن مشاق السفر فاعتذر بعبارة عذبة وبأعذار جميلة ، وتجشم السلطان مصاحبته وهو يحاكيه وعن طوارئ الحالات يسائله . ولما اقترب إلى المدينة عطف السلطان العنان إلى كيقبادية وذهب هو والأمراء والمضيفون إلى المنزل الذي حدد قبل ومعهم سرادق الملك الذي كان جاء من أرزنجان وهو من الأطلس بطناب حريري . وتواترت الموائد ثلاثة أيام بأنواع الأطعمة . وفي اليوم الرابع حمل الأمير نجم الدين بن الطوسي بحكم السلطان عشرة آلاف دينار وحزاماً مرصعا وتاجاً مغرقاً بالجوهر وجبة مذهبة ملكية ومن الجنائب فرساً عربياً إلى الملك وقال له بخير المقدم . وبعد هذا كتب المضيفون لرواتب المطبخ حوالة على هذا النحو : من البر ألفا خربار[1] والشعير خمسة آلاف خربار والشراب مائتا حمل وثمن الحوائج عشرون ألفا . وأثنى الملك كثيرا على النعم التي كان ملك السيف والتخت المكين بها غير ضنين ، وسعد ذلك اليوم مع

---

(١) الخربار وزن يعادل مائة من أو حوالي ثلاثمائه كيلو جرام .

حاشيته . وفي اليوم التالي لبس الخلعة السلطانية وركب ولما وصل السلطان أعاد تقبيل اليدين . فقال السلطان عَلّ الملك قد ارتاح من مشقة[1] الطريق وراح على فراش الراحة في سبات . فأثنى الملك علاء الدين على سلطان الزمان والمكان وسارا زماناً في مشهد ، ولما عطف السلطان العنان إلى الإيوان استأذن الملك وذهب إلى سرادقه . ولما مضى من النهار نصفه أتى نجم الدين ولد الطوسي من خدمة السلطان بخلعة أشد نفاسة من الأولى وأحضر أمير الأصطبلات جنائب عربية بطوق ولجام ذهبين وأبلغا سلام السلطان وأن لو تجشم الملك زماناً :

أيها الملك لنحتس اليوم الخمر معاً ونترك الدنيا بسعادة قلوبنا[2]

فلبس الملك الخلعة وركب مركباً خاصاً ولما وصل البلاط ووقع نظره على السلطان سجد فنهض السلطان على قدميه وبالغ في إعزازه وإكرامه تمام المبالغة . فلما مضت سويعات عدة كان الملك من غرور الشباب ونشاط الخمر الأرجواني يشط ويودع عنان الحديث يد اللسان الذي ينشأ عنه أغلب آفات الحياة ويصدر عنه ويظهر منه كلمات لا يجب قولها وحركات لا يصح فعلها ، وكان السلطان بدافع المكرمة يجر ذيل عفوه على هفواته . وكان ملك الدنيا يحضر كل يوم لمدة عشرة أيام الحفل المنير للدنيا . وفي اليوم الحادي عشر أتى الأمير نجم الدين من حضرة السلطنة بمال كان خرج ألف مؤد للخراج واعتذر بالأعذار . وبعد ذاك في اليوم التالي خط على يد سعد الدين كوبك الترجمان كتاب عهد بخط الملك الكهرمان فيه أن مادام داود شاه يحفظ عهدنا بروحه ولا يواد من عادانا ولا يرسل إلى الديار المكاتبات المخبرة عن المكاشحات فسوف يرى منا الإكرام والسعادة والجاه ، واذا سلك خلاف ما رقم بالقلم والمتوقع منه سوف يجد جزاءه وكفاءه كما يجب ، وأرسله إلى الملك وأمر بأن يعود بمراد قلبه إلى وكنته ووطنه . وفي اليوم التالي أدى فروض

---

(١) في الأصل (زخمت) والصحيح (زحمت) .

(٢) البيت الفارسي :

كتاباده امروز باهم خوريم بكام دل خود جهان بسپريم

الوداع للسلطان ويمم شطر مقامه ومكث السلطان مدة في قيصرية ثم توجه إلى الساحل .

ذكر قباذ آباذ وأمر السلطان بعمارتها

لما طوى السلطان على ظهر الصافنات الجياد السليمانية تلك المراحل وتجاوز دار الملك بلغ متنزهات (أكريناس) ورأى موضعا لو وصله رضوان لآثر مفارقة الجنان وعض إصبع الحيرة :

أرضها من الخضرة فيروزية اللون
وامتلأت بنقاط الدم من الشقائق
وبكل ركن منها عين كأنها ماء الورد
ماؤها دمع صاف لا ماء
هواؤها مسكى وأرضها تفيض نقشاً
وبها الخنزير الوحشي المصاد من كل نوع
ويجرى فيها بحر أخضر عذب كاللبن
يفيض بالأمواج كأنها الحرير الصيني
فيه جزيرة ليست قريبة جداً
يقال إن موضعها هي الأرض السعيدة
وعلى طرف البحر عين جارية
يغدو الشيخ حين يراها شاباً[1]

---

(١) الأبيات الفارسية والتي تؤيد رأى ذبيح الله صفا الذي سبق في المقدمة :

زمين وي ازسبزه پيروزه گون — زلاله بروپرنقطهاء خون
بهرگوشهء چشمهء چون گلاب — توگوي سرشكيست روشن نه آب
هوامشكبوي وزمين پرنگار — گرازان زهر گونه دروي شكار
يكي سيز درياء شيرين چوشير — پرازموح مانند چيني حرير
جزيرة دروتا بنزديك نيست — كه گويد كه آن جاي خرم زميست
يكي چشمه برطرف دريا روان — كه ازديد نش پيرميشدجوان

فأمر سعد الدين كوبك الذي كان إذ ذاك أمير الصيد والمعمار أن يبدأ في ذاك المكان عمارة يبدو بيدر الفردوس أمام جمالها كأنه الدوس وينهار في نزهتها والرونق السدير والخورنق ويعلى بناءها . ونسخ السلطان وفق ضميره صورة تلك العمارة بحسب الاختيار وعين بكل موضع قصراً . فأتم سعد الدين كوبك المناظر الجميلة الخلابة والجواسق ذات الأرواح المكثرة للأفراح وكان مقوس طاقها يحاكي مقرنس الفلك الأعلى ووجه السماء الفيروزي يصير غيرة من فرشها الفيروزي واللازوردي نيليا ومزعفراً ، أشدّ بهاءً من أرواح أرباب العفة وأوسع فسحة من صحراء القناعة وأكثر جاذبية في أقل زمان وأقصر مدة بموجب الأمر النافذ ، ولوى السلطان بعد تزويقها وتنميقها العنان إلى أنطالية والعلائية .

ذكر أسباب أطماع السلطان في انتزاع أرزنجان من قبضة تملك علاء الدين داود شاه

لما لحق ملك أرزنجان من خدمة السلطان إلى ممالكه ، بعثه بطر الشباب على أن يرسل كتابا إلى الملك ركن الدين جها نشاه بن مغيث الدين طغرل شاه بن قلج أرسلان صاحب أرزن الرووم فيه مع أنني لقيت في هذه المرة من بلاط السلطنة حلاوة اللسان والنعم الحسان لكنني لست في أمان من أمرائي الملازمين لذاك المكان ويقيني أنهم يحرضونه على إزعاجي في هذا الملك وإذا تيسر له ذلك فلن يبقى عليه ولن يحابيه مع انه ابن عم الملك وسوف أفرق في الخفية حقائب الخيل في جمع العسكر وسوف أصرف هذا الشتاء كله الهمة على ذلك ، واذا كان لديك هوس بقاء رأسك وملكك فعاوني في هذه القضية وحقق مجهودك عملاً . وكان له مطربة صنْجية كانت في الملاحة وخفة الضرب والمطايبة والتنغيم وحسن الألحان وجمال الصوت وذكر النكات فريدة دهرها ووحيدة عصرها أرسلها بهدايا كثيرة إلى الملك الأشرف وكانت زبدة الرسالة أنني أجعل قلعة (كماخ) فداء العبيد فان جعل عوضاً عنها في ممالكه موضع حصين نصيباً للعبد حتى ينفق بفراغ البال حصته من عمره الذي لا

يعلمه آدمي قط قليلاً كان أو كثيراً . وسير في هذا المعنى رسالة بهدايا كثيرة إلى السلطان الغازي جلال الدين خوارزم شاه وبعث مكتوباً إلى علاء الدين نومسلمان أن اذا قصدا السلطان وأرسلا روحه الفتين إلى علين يترك لهما قلعة كماخ بجملة الذخائر ويجعل في أرزنجان موضع دولة الآباء القدماء موقع دعوتهما . ولما بلغت هذه المعاني سمع السلطان ضحك وقال إن دماغ هذا المسكين أصيب بالفساد وانقلب تخته :

إذا لم تسر الأمور معه بالذهب أظهر له سيفي اللماع[1]

وحين وضعت مشاطات الغيب لعروس الربيع المسك في كمها والزهر في جيبها عزم السلطان من الساحل إلى خطة قباذ آباد ولبث بها شهراً ، وقصد من هناك بلا تأخير قيصرية ، وزال الملك الأشرف بفتنة مرآة الصنع عن موضعه وأرسل الحاجب بمدده فأتى وأقام مدة في أرزنجان وعاد خائباً ومانع أمراؤه الكبار مثل صلاح الدين وشرف الدين وعز الدين من إظهاره الآراء الفاسدة وإعلانه الأمتعة الكاسدة وقالوا إن الصواب هو أن نحمل أبناء الملك كرهائن إلى بلاط السلطان ونعتذر عما بدر من أعمال ونرد بعضاً إلى الإنكار والجحود . فرضي الملك بذلك وأرسل أولاده بصحبتهم إلى خدمة السلطان . وأمر السلطان وكان سمع قبل هذا بتلك الأحوال بأن يسير أمراء دولة السلطنة وحداناً وجيوشهم بصحبة كل منهم إلى حدود أرزنجان وكماخ بحيث أن جمعاً تاماً يتحصل في تلك الحوالي في الخفاء والمباغتة من العساكر المنصورة ويحفظوا طرق القلاع حتى لا يتحصن مباغتة علاء الدين بالقلعة ويطول الأمر . فاجتمع على موجب الأمر الأعلى على باب كل قلعة جيش كثيف ، وحين خاب الملك من جملة الجهات كان يحتال في أن يذهب إلى خدمة السلطان حين أخبر على حين غرة أن موكب السلطان تجاوز بعساكر بلا نقصان تخوم سيواس ولحق بحدود أرزنجان ، فخرج لاستقباله على وجه الاضطرار بلا ترتيب هدية وتقدمة مع بضعة نفر من خواصه وصادف في

---

(١) البيت الفارسي :

بزر چونك با اونشد كارپيش نمايم بدو تيغ رخشان خويش

الطريق الأمراء الكبار ، فسبق الأمراء وعانقوه وأبدوا له الاحترام التام وأرسلوه بصحبة ضياء الدين إلى خدمة السلطان . ولم يذكر السلطان شيئا مما روى عنه بل استمالة ومنحه آقشهر قونية مع (آبگرم) بحكم الإقطاع وأرسله في صحبة غلمانه وقدامى جيشه إلى آقشهر . وكان الملك علاء الدين داود شاه متحلياً بأنواع العلوم لاسيما النجوم ، وكان يعلم كثيراً جداً بأجزاء المنطق والطبيعيات والإلهيات ، وكان على حظ عظيم من الرياضة وينشد الشعر كالماء الزلال بل السحر الحلال ، أرسل في تلك الأيام رباعياً إلى خدمة السلطان :

أيها الملك إن قلوب الخصوم في ألم معك
ووجوه الأعداء من خوفك مصفرة
والإنصاف مع وجود مئات الآلام أن لي
في ملكك مدينة (آبگرم) أو الماء الدافئ خبزاً بارداً [١]

وبشؤم الصحاب السوء والندماء المفسدين والجلساء الجاهلين أضاع مثل هذا الملك القديم . نعود إلى أصل الكلام في اليوم التالي دخل الشاه ومعه الجيش بعون الإله إلى المدينة ، ولما استصفيت ممالك أرزنجان أعطاها للملك غياث الدين كيخسرو جد سلاطين الوقت وسير مبارز الدين أرتقش للأتابكية في خدمته وأمر بخزانة عظيمة وجنود بلا عدد وقيمة لملازمتهما ، ولهذا السبب وهو أن من قبل الكامل وأولاد العادل غباراً كان علق بصحيفة الخاطر الأشرف للسلطان فوض ولاية العهد للملك عز الدين حفيد الملك العادل وحلّف الأمراء على هذا وعين ولاية الشام للملك ركن الدين وكان أيضاً من الملكة العادلة ، فارتجل نظام الدين أحمد الأرزنجاني في تلك الحال هذا الرباعي :

أنرت صبحا من أجل الشام   لما عينت الرسم السكندري

---

(١) الرباعي الفارسي :

شاهادل دشمنان تويا دردست	رخساره دشمن ازنهيبت زردست
انصاف كه باوجود صد غصه مرا	درملك تو آب گرم ناني سردست

ووهبت الشمس السنجق الملكي وفتنت رسوم امتلاك الملوك[1]

ولما فرغ السلطان من مهمات أرزنجان واحتياط القلاع أمر الجيش بمهاجمة أرزروم وكوغونية لكى يشاهد أي طريق يسلك الملك ركن الدين جهان شاه والملك مظفر الدين محمد معه . وحين علم الملك ركن الدين بورود العساكر تقدم بقدم التواضع والتذلل وسير تحفا كثيرة لقيادة الجيش وأرسل أميراً من أمرائه بكنز محمول إلى خدمة السلطان وقال في رسالة إنني عبد عاجز بالأمر الناجز وإذا كان الأرزنجاني هو الجاني للتمرد فقد لقى جزاءه وكفاءه وأنا عبد ما بقيت حيا راكض في طريق محبة السلطان بجواد الإخلاص والأمل أن تتلى في شأن العبد آية (ولا تزر وازرة وزر أخرى[2]) ولا يعاتب العبد البرئ بذنب داود شاه . فلما وصل الرسول إلى خدمة السلطنة وعرض المشافهات والتحف شمله السلطان من كمال مكرمته العناية وقرر له بموجب الالتماس أرزن الروم وأمر بألا يغير أو ينهب الجيش في ولايته .

ذكر فتح كوغونية واستنزال الملك مظفر الدين

أمر السلطان بسير الأتابك أرتقش بجيش لجب لمحاصرة كوغونية ويستصفيها بالصفاء أو الجفاء . وفي أول يوم من وصول الأتابك أرتقش دخل حرباً عظيمة وقتل خلق عظيم في الخارج والوالج ، وفكر الملك في وخامة العاقبة خوفاً من انقسام أهل القلعةمع أن له ذخائر بلا حصر ومصانع حاصلها بحور مَوّاجة فأرسل رسولاً إلى الأتابك ليشفع له عند السلطان ويقطعه عوضاً عن القلعة إقطاعاً في الممالك المحروسة . فسير الأتابك قصاداً في هذا الباب لحضرة السلطنة فاستبشر السلطان بهذه البشارة

---

(١) الرباعي الفارسي :

صبحي زبراي شام روشن كردي چون رسم سكندري معين كردي
خورشيد راسنجق شاهي دادي أئين شهنشهي مفتّن كـــردي

(٢) سورة الأنعام الآية (١٦٤) وسورة فاطر الآية (١٨) .

واستدل على بعد غور الملك وكفايته ، ومنحه عوضاً عن كوغرنية ملكاً (رمّان) و (نهر كالي) في حدود الشام و (أربسوي) التي كانت منشأ أصحاب الكهف ومقام (دقيانوس) ، وفوض إليه المحروسة (قيرشهر) بحكم الإقطاع المعاف والمسلّم وخط بالقلم منشوراً وكتاب عهد على تلك الجملة وأرسل بخلع نفيسة إليه وأبنائه الثلاثة فخر الدين سليمان وعز الدين سياوش وناصر الدين بهرام شاه بصحبة قاصد . ولما رأى مظفر الدين المناشير وكتاب العهد استظهر واستبشر وأخلى القلعة وعزم سعيداً إلى المحروسة قيرشهر وقضى عمره حتى آخره في الدعة والراحة إلى حد أن السلطان غياث الدين كيخسرو رغب في خطبة كريمة من أولاده فأبى وقال إن السلطان انشغل بالتهتك والخراف ولا يجدر مصاهرته بأسرتنا ولم يعاتب من قبل حضرة السلطنة بسبب عزة مكانة وحرمته بل التمس له المعاذير ، وانتقلت كريمته المعصومة إلى حرم السلطنة الميمون بحكم الشريعة ، وكان أبناؤه من بعده ملحوظين في نظر سلاطين الروم بنظر التعظيم .

ذكر إرسال السلطان لغياث الدين إلى ملك أرزنجان

لما فرغ السلطان من فتوح القلاع عطف العنان الآخذ للعالم إلى المحروسة سيواس وأمر مبارز الدين أرتقش بأن ينشغل بتسوية أسباب ملك غياث الدين كيخسرو فدخل الخزانة وهيأ بصواب نظر نجم الدين الطوسي ورتب أسباباً لو نشر (بهمن) نشورا و (شابور[1]) لعضايد الحيرة والخجل

---

(١) بهمن أو (وهومن) ولد اسفنديار من الملوك الكيانيين حسب الشاهنامات وشابور هو اسم ثلاثة ملوك ساسانيين أشهرهم شابور ذو الأكتاف الذي حكم ايران من عام (٣١٠) إلى (٣٧٩ م) .

منها . ولما رتبت الأدوات وهذبت توجه بالطالع السعيد بجنود وجيش غير معدود إلى تلك الحدود . وحين وصل إلى ذاك المكان وأتعب الملك قدمه وجلس على دست السعادة بسط بساط العدل والمرحمة وخص الجميع بالإكرام . فلما بلغ خدمة السلطنة خبر رعايته الرعية تضاعفت مواد الاستظهار بوجوده المبارك . وحين لحق غياث الدين بأرزنجان أقام السلطان لإجابة رسل الأطراف والأكناف مدة قليلة ، وعزم بعد ذاك قباد آباد وأنطالية والعلائية وظل هناك من أوائل الخريف حتى شهر نيسان .

ذكر ورود قاضي القضاة مجير الدين طاهر بن عمر الخوارزمي من خدمة السلطان جلال الدين خوارزم شاه برسالة

حين انهزم السلطان الشهيد جلال الدين بن علاء الدين محمد بن تكش في حدود الهند من عسكر المغول وسقط في غمرة نهر السند ونجا من تلك الورطة ، وفر « وفاء الملك » الذي كان أولاً من أوباش فتيان تلك النواحي عنايته للسلطان بالخدمات الجليلة التي قدمها له ولقب بوفاء الملك وفوض له حكم تلك الديار وبلغ السلطان مدينة مراغة بالجيوش المتفرقة التي كانت أضحت في تلك المعركة متمزقة ولحقوا به في النهاية وسير إلى خدمة السلطان قاضي القضاه مجير الدين الذي كان من فحول أئمة خوارزم وفي علم الكلام مشاراً إليه وفي سائر العلوم متفقاً عليه لافتتاح المودة مع السلطان علاء الدين كيقباد وكانت أهم المهمات بهذا المكتوب وهو من منشئات شهاب الدين الكوسوي أمداد السلام وأوراد التحية ووظائف الثناء ورواتب المدحة التي تبلغ نسيم صفاء العقيدة وبقاء الطوية إلى مشام القلب وترسخ قاعدة الوداد

---

(١) جمشيد أوجم أو جمشاسب ولد طهمورث رابع ملك بيشدادي حكم بقول الشاهنامة سبعمائه عام وأقر أسس الاحتفال القديم للنيروز والرسوم والقوانين .

ومبانى الاتحاد تتوجه فى كل لحظة إلى المجلس السامى للسلطان المعظم جمشيد[١] العهد ذى القرنين للوقت علاء الدنيا والدين قطب الإسلام والمسلمين فلك شمس الأعالى ظل الله فى العالمين افتخار آل سلجوق ملك الملوك والسلاطين برهان أمير المؤمنين دام ساميا ولحمى الملوك حامياً ، إن الأمل فى إحراز سعادة الاجتماع ، وإن النزاع إلى إدراك كرامة الالتقاء الذى يبقى على مواتاة الدولة ومساعدة الزمان لا بالحد الذى يمكن للقلم تقريره بواسطة تحريره مهما يكون من السرعة والحدة (الخط ما يغنى بما لا ينفذ) . واذا كان قبل هذا تغير الأعصار وتقلب الأدوار يسد طريق المكاتبة والمراسلة التى يمكن أن تكون سلوة الأحباء بها وقت المهاجرة والمفارقة فإن الواجب بعد اليوم السعى فى رفع حجاب المغايرة والغربة وفتح باب المودة والقربة وقراءة :

(تمسك إن ظفرت بودّ حُرٍ فان الحر فى الدنيا قليل)

من الجانبين لأن بحمد الله ومنّه المشاركة فى مشايعة سنة الجهاد والمحاربة ثابتة والمساهمة فى توافق الدين والملة حاصلة (وأولى الناس بودك وخلتك من وافقك فى دينك وملتك) . ومن ملوك المغرب المجلس السامى دام ساميا الذى هو واسطة سد الثغور وقمع أهل الكفر والفجور . وفى ديار المشرق نحن أيضاً الذين نخمد بواسطة السيف البتار نيران فتن الكفار . إذن فمع كثرة قرائن التجانس إذا لم نفتح طريق المباسطة ونسلك جادة الاتحاد ولم نتشارك ونتشابك فى جذب المنافع ودفع المضار .

(فأى الناس نجعله صديقا وأى الأرض نسلكه ارتياداً)

وهذه المفاوضة محررة من مدينة مراغة عمرها الله التى هى هذه الساعة مراكز الرايات [حفت بالميامن والنصر والظفر) فى أواخر جمادى الأخرى جعلها الله على المجلس السامى غرة السعد وصباح السؤدد . وبحمد الله ومنّه وبيمن الهمة وتأييد دولة المجلس السامى دام سامياً فإن أحوال دولتنا وأعمال

(١) جمشيد أوجم أو جمشاسب ولد طهمورث رابع ملك بيشدادي حكم بقول الشاهنامة سبعمائه عام وأقر أسس الاحتفال القديم للنيروز والرسوم والقوانين .

مملكتنا موجبة آلاف الحمد وتوافرت أسباب السعادة وآلات السيادة عن اجتماع الكلمة واحتشاد الأمة والاتحاد والمطاوعة من أكابر الملوك والمشايعة من الخانات الكبار وضبط الملك الموروث والمكتسب جملة واحدة باسم الله . وفى مدة غيبة راياتنا الميمونة عن هذه الممالك ولجت مملكة طويلة وعريضة من ديار الهند فى ضبط عمالنا وقرت كل همتنا وعزيمتنا على الانتقام من أعداء الدين وتشفى قلوب أهل الإسلام . ومحقق كيف أن المجلس السامى دام ساميا مبتهج وإلى أى غاية مسرور لرونق ملكنا ودولتنا وطراوة حالهما وهما استنامه الرعية واستقامه الرعاة على الدوام . وكل سعادة تبدو لذلك المجلس نعد أنفسنا سهيما وقسيماً فيها ، وفى الحال وجهنا إلى تلك الحضرة (الصدر المعظم العالم المجتهد قوام الملك مجير الملة والحق والدين وشرف الإسلام والمسلمين علامة الزمان باقعة الدوران افتخار خوارزم وخراسان ملك النواب قاضى القضاة فى الممالك أبا الملوك والسلاطين) طاهراً (أدام الله تمهيده وحرّس تأييده) واسطة عقد الأكابر وخلاصة زمرة المفاخر ومن قدامى أعيان الحضرة وبقايا أركان الدولة (قرنت بالخلود) بمزيد التقريب وخصت بمزية الترحيب ، وفى معظمات الأمور مشار إليه ومتفق عليه ، وعلى لسانه رسالات تفتح باب المباسطة وتجلى غبار الغربة والمغايرة عن مرآة القلب وتكشف عيار مصافاتنا التى يقف عليها وقوفا تاماً ، وتوجب رفع حجاب المباينة والاغتراب وفتح باب الموافقة والاقتراب بحيث يتواتر بعد اليوم تردد الرسل واختلاف القصاد والسفراء . والواجب أن يصغى المجلس السامى إلى حديثه الذى مَرّ على مسامع الملوك والسلاطين على الدوام بسمع الرضاء ويعد جملة مقالته ورسالته مرسلاً مناً ويظهر التعرض إلى ملتمساتنا ورفع مقترحات كمية مصافاتنا وكيفيتها بخلوص النية وصفاء الطوية) .

وبالغ السلطان فى إكرامه وكان يلازم عنانه وقت سيرانه ورفع حجاب الغربة وقرر أن يزوج أميرة من مخدرات السلطان جلال الدين وكانت من شقيقة الأتابك أبى بكر بن سعد صاحب شيراز للملك غياث الدين كيخسرو فتكون قرابة ومصاهرة ، وراسل فى الجواب هذا الكتاب من إنشاء مجد الدين الطغرائى الأسد آبادى :

من حيث أن الله تعالى عبأ وقرر انتظام جواهر المفاخر واجتماع غرائب المناقب فى الذات الشريفة وطينة المجلس العالى للسلطان المعظم الملك الأعظم حاكم بنى آدم الأسكندر القائم صاحب قران العالم جلال الدنيا والدين علاء الإسلام والمسلمين محيى العدل فى العالمين مظهر الحق بالبراهين ملك الملوك والسلاطين أدام تضاعف جلاله ولاقاه فى الدارين نهاية آماله وصرف عين الكمال عن كماله بمحمد وآله . وبحمد الله فإنه قد أتى ببراهين لطفه العميم وكرمه الجسيم بأصدق ما يكونان فى جلوة التحقيق .

(ليس من الله بمستنكر   أن يجمع العالم فى واحد)

أراد أن يكون ابتداء الاستمالة وافتتاح استعطاف الأهواء التى هى أساس مال مالك الدنيا والقاعدة المقدمة للسؤدد أيضاً من تلك الحضرة حتى تسلم وتيسر بالكلية أقسام المودة والتودد وأنواع التلطف والتعطف لذاك الجناب الكريم لابل جنات النعيم (أبى الفضل إلا أن يكون لأهله) . وبناء على هذه القاعدة افتتح المكاتبة بهذا المخلص وحاز قصب السبق فى رعاية تأكد قواعد الوداد (غير مدفوع عن السيف العرابُ) . ولما وصل الخطاب الكبّار الذى كان أساس المباهاة والافتخار اضطرام الشوق الذى كان كامناً فى الجوانح وفى الصدر متمكنا ، واتصل لسان نار الالتياع بالثريا :

وأبرح ما يكون ألوف يوماً   إذا دنت الخيام من الخيام

(علم الله) أيها الملك أن سمعة حركة راياتكم المنصورة قد تواترت بالانتقام من كفار الملاعين وتشفى صدور أهل الدين ، لا سيما الآن وقد تظاهرت بشائر علو الهمة وسلامات أمداد السعادة بمضاء عزائم المجلس العالى للسلطان المعظم فتزايد التمنى للمباسطة فى الخدمة لحظة بعد لحظة ، وتكاثرت رغبة حرك جرأة المكاتبة ساعة بعد ساعة ، لكنه لا يغيب عن الخدمة أن لهذا المخلص على الدوام جهاداً فى رحلة الشتاء والصيف تحت ظلائل السيف بالجوانب الأربعة . ونفس هذا المعنى هو كما ذكر المجلس العالى فى خطابه الشريف وقدم فى قرائن التجانس كاف لتمهيد العذر . والأمر الثانى هو أن الله عز وجل قدر كرامة الافتتاح ومزية الابتداء لتلك الحضرة وأراد هذه

اللطائف والعواطف بجانبه ، ولم يكن حريا الإقدام على ذلك بخلاف المقدور . والآن وقد تفضل بإجازة المباسطة فإن ملل حضرتكم سوف يزيد بتواتر المكاتبات . ووصل الجانب المحروس الصدر الكبير العالم مجير الدولة والدين ظهير الإسلام والمسلمين نصير الملوك والسلاطين سناء الدولة القاهرة ضياء الأمة الباهرة مجتبى الخلافة المعظمة ملك ملوك النواب قدوة الأكابر والصدور نعمان الزمان صدر صدور خوارزم وخراسان افتخار الدوران طاهر أدام الله تمكينه وجعل اليقين قرينه وأبلغ المشافهات الشريفة ونفثت من مطالعة ألطافه العميمة تلك تباشير خلوص العقيدة . وحين أقام هنا أياماً عدة خطف القلوب بذكر المعالي الملكية وزاد استظهار النفوس لتلك المكارم الخسروية ، واستسعد بالخدمة بجواب ذلك الأمير القائد صلاح الدين . والتوقع المستحكم هو أنه حين يشرف بخدمة تلك الحضرة الكبرى يكون تعويلكم على جملة ما يقول ويبدي واعتباركم لقول هذا المخلص وتأكيدكم قاعدة المودة التى وضعتموها بتواتر المخاطبات وتعاقب المكاتبات (لو كان فيما يراه من كرم فيه مزيد فزادك الله) حتى يستمر هذا المخلص على جادة الخدمة ويسلك طريق الوصال والسلام) .

ولما بلغ القاضي مجير الدين سيواس عرض عليه مرض مهلك فودع فى هذا العلة العادية دار العارية ، فاستصحب صلاح الدين التحف والهدايا ووصل خطة أخلاط حين كان السلطان مشغولا بمحاصرتها .

ذكر ورود رسل السلطان جلال الدين كرة ثانية

عين السلطان جلال الدين فى جواب صلاح الدين ملك جمال الدين فرخ الطشتدار وكان من مقربي أبيه وجمال الدين الساوجي ونجم الدين أبا بكر الجامي بالهدايا التى كانت تحت يديه فى ذلك الوقت وموجودة فى الخزانة والاصطبل مع أميرين من الأمراء الكبار الخوارزميين وقدم بالوصايا البليغة فى تعظيم المنزلة وتوقير مكاتب السلطان . ولما لحقوا على موجب الحكم بحدود الروم كان السلطان فى العلائية ، فعبربهم الأدلاء تلك الدروب الصعاب

فى الجبل وحزام الجبال التى لايخطر لخاطر العقاب فى المنام المرور على تلك المخاوف ،وأبلغوا خبر قدومهم إلى السلطان فأمر بأن يذهب بالجنائب الخاصة الأمراء الكبار لاستقبالهم وينزلوهم بموضع بهيج فراعوهم خمسة أيام لنفض غبار السفر وإزالة وعثاء الخطر وعناء الترحال بالعود والجام . وفى اليوم السادس حين اختال من الطارم النيلي ملك نجوم السقف الخارجي أمر السلطان بأن يذهب كمال الكاميار وظهير الدين الترجمان للسؤال والاحترام إليهم والاستفسار منهم عن متاعب الطريق حتى قصر المضيفين وليطلبوهم إلى حضرة السلطان . فلما وصلوا البلاط الخسروي غلبت عليهم مع كل النخوة والعجب اللذين كانا لهم الدهشة والحيرة فسجدوا بلا اختيار فقام السلطان بداعي الإكرام نصف القيام وسلموا الرسالة وأدوا المشافهة . وبعد الفراغ توجهوا إلى الوثاق وأبقوا مدة أسبوع فى إكرام واحترام وإعظام . وفى اليوم الثامن أمر السلطان فأقيم الحفل وطلب حضورهم وجلس على التخت الذهبي المرصع بالجوهر الذي صنع لاستقبال الرسل الكبار جلوس جمشيد ولبس التاج الكيقبادي[1] . وبعد حمد رب العالمين والصلوات على روضة سيد المرسلين أمر الرسل أن أبلغوا السلطان الغازي من هذا المحب المخلص الاحترام الأوفى واعرضوا غليان المراجل النزاع إلى تقريب مراحل الاجتماع المتعالية كهممه العالية وقرروا أن نهاية أمانينا وزبدة فكرنا أنه حين ينغمد حسام انتقام السلطان من قهر مخالفى الأبخاز فى غمده ويحصل للآراء العالية فراغ من فتح خطة تفليس يختال أياما عدة برسم التنزه والتفرج فى مروج الروم لإجمام مراكب المواكب ومواشي الحواشي ويتبدل الفراق إلى التلاق . ومع أن وعاء قدرة أمثال هذا المخلص تقصر عن رعاية ذاك الجناب فإنه يقدم ألوان الخضوع . ولما تحقق فى هذا الحال أنه وجه الهمة بتسويل أصحاب الأغراض وهم شياطين الإنس نحو محاصرة قبة الإسلام أخلاط فإن هذا المعنى يبدو بعيداً عن الرأي السديد ، ونحن نحكم

---

(١) نسبة إلى كيقباد أول الأسرة الكيانية اختفى في جبل وقت تسلط أفر اسياب التركي وأجلسه رستم على العرش على قول الشاهنامة

بموجب حكم (وأمر بالمعروف وانه عن المنكر[١]) فالأولى هو أن يسلك مع جيش التتار سلوك المواساه واذا أمكن يتقدم من جهته لقرع باب المصالحة بكل مايسع الإمكان . ويخطر لنا أن نرسل الرسل والسفراء لهم ونعتذر لمصلحة كافة أهل الإسلام للتعجل الذي أظهره السلطان الشهيد علاء الدين أنار الله برهانه ، والأمل هو أن تنطفئ بلين المقال وبذل المال جمرة الفتنة التى شبت بأطراف الخافقين . وبلاشبهة فإننا سوف نأتي بهذه الفكرة من القوة إلى الفعل لكي تعلم الخدمة . وبما أن السلطان الأعظم سوف يكون فى هذا الباب قسيماً وسهيماً فالواجب إيصال هذه الحكاية إلى سمعه الشريف إذا جعل السلطان إتمام أمور عوال أساس عمره أولها أن يخلي فكره من سفك دماء أهالى الأرمن ومحاصرة تلك الديار والدمن ويستنفر عن ذاك المكان العساكر ويسوقها إلى طرف أران ويرسل الرسل إلى عسكر المغل ويطلب المهادنة والصلح ويعهد بألا يتدخل بطريقة قط فى بلاد المسلمين بوجه غدر ودم مذموم وعقباه مشؤوم حتى يستريح من السير بغير طائل وأكل خبز العبث . ولن أضن بكل ما تتسع له دائرة الضمير من الجواهر والذهب والفضة والخدمات الأخرى وإذا أعرض لقول أصحاب الأغراض عن تلك النصائح فإن النصيحة تلزم من جهة الإسلام وطريق تملك الخلق فتقرأ آيه (وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغي حتى تفئ إلى أمر الله فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل[٢]) ونوجب جر المنفعة ودفع الأذية وإذا أصابه فى تلك الأثناء ضرر فإنا نكون قد خرجنا عن عهدة أمانه البارئ تعالى وتقدس وبذل البذل المحمود . واذا أسفر من أستار الغيب وجه الظفر (فهو المراد والبادي أظلم) .. فلما قام الرسل بفروض الوداع أمر السلطان (ألتونبه) مختبر الطعام أن يسلك طريقه لأخذ الجواب وألا يغفل دقيقة من دقائق التواصي . وأمر بأن يصحبه ألف فارس من مشاهير الأبطال بطول القامه وجسامه الجثة

---

(١) سورة لقمان الآية (١٧) .

(٢) سورة الحجرات الآية (٩) .

وحسن الصورة ووفور الشجاعه مشاهير . فلما تمت الأمور ساروا وانطلقوا من حضرة الشاه . ولما لقي سلك تداني الخيام الانتظام وأعلمت خدمة السلطان جلال الدين أن الرسل بجيش مرتب قدموا من طرف الروم أمر بأن يستقبلهم الأمراء الكبراء لخوارزم وقادة الحرب والحزم بالجنائب الخاصة فاستقبلوا على موجب الحكم الأمير شمس الدين ألتونبه ولم يخلوا بجزء قط من شرائط التعظيم والتكريم . ولما مرت لحظة حلت الأحمال والأثقال والجمال والبغال والرحال والتخوت والقطعان والأسراب ومائتا جمل بختية كانت جميعها تحمل الخزانه والمطبخ وآلات الشراب والخيام ومائه بغل تحمل الدنانير الذهبية والخلع الخاصة وآلالات الذهبية ، فتحير الخوارزميون جميعا وأثنوا كثيرا على السلطان علاء الدين . بيت :

أن الملك الحريّ بهذا الملك   الذي يرعى عبيده بمثل هذا[1]

وتمارض الأمير شمس الدين قبل أن يصل حدود أخلاط بمرض النقرس وكان يدهن بالدهان المزور ويحمل فى محفة حتى يعذر حين يصل خدمة السلطان إذا لم يضع جبينه على الأرض . وفى اليوم التالى أحضر السلطان جلال الدين قادة جنود خوارزم وزين الباب والبلاط بالزينات الزاهيات ووقف فخر الدين على شرف الملك الخوارزمي مع أن له حكم الوزارة لكنه كان يوم الاستقبال يضع الدبوس على كاهله ويتصدى لسؤال الرسل وجوابهم فى مقام الحجاب . وأتي بالأمير شمس الدين موضوعاً بالمحفة . فلما دخل البلاط اعتذر عن تقبيل البساط بالأعذار واقترنت بالقبول وقبل اليدين وأبلغ رسالة السلطان . ولما فرغ من أداء الرسالة وتوجه إلى السرادق أحضر أمراء خوارزم ورتب البساط الملكي والحفل الخسروي فصار أمراء خوارزم من كثرة النعمة والحشمة فى حيرة ولم ينشغل شهراً بعد السير بغير سماع الأوتار وشرب الخمر الهنية الاختمار على هذه الوتيرة . وفى يوم قال السلطان جلال الدين لصدوره لم نبد يوما ملاطفة لرسول الروم ولم نطومعه طريق الوداد

(١) البيت الفارسي :

كه شاهي بدان پادشاه درخود   كه او بندگان راچنين پرورد

والرأي هو أن نقيم حفلا ونكرمه ، فقالوا جميعا بلسان واحد إن لديهم آلات الاحتفال كثيره لم يتوفر عشرها لملك قط فى سائر عمره ، وهم يحضرون الأطعمه اللذيذه الطعوم والخمور اللعلية المجلية للهموم ، فعلينا مراعاة الناموس ولاعلينا بذر بذور هذا الهوس . ولماتمادت مدة إقامه مختبر الطعام تأذى السلطان علاء الدين من إقامته ، فسير كمال الدين كاميار له رسولا ليعنى بكشف الاحوال . وحين وصل كمال الدين إلى خدمة السلطان جلال الدين ، وتحدث وسمع فى كل باب لم يصل مشامه من أي كلام ريح الصلح فأراد السفر وطلب الإذن وأجاب السلطان وقدم إجابات مموهة فى باب أخلاط التى كانت أخلاط الأباطيل :

تخرصاً وأحاديثا ملفقة ليست بنبع إذا عدت ولاغرب

واذا علق للسلطان فى دائر شفاعته غبار بذيل ثوب خاطره فإنه يزاح بماء تمهيد الأعذار ، فارجعوا أنتم بالسلامة وأبلغوا سلامنا المخلص وسوف يصل رسلنا فى أعقابكم ويأتون بكتب العهد وجواب الرسالات بالتفصيل . فودع[1] الأمير شمس الدين وكمال الدين السلطان وأسرع كلاهما بالخروج . ولما انطلقوا من معسكر الخوارزميين برجالهم إلى السهول ومشوامسيرة يومين تركوا الأحمال والمتاع ولحقا مجردين ببلاط السلطنة العلائية . وصادفا فى الطريق ركن الدين جهانشاه فى أزرن الروم فأوصياه ألا يواد أعداء صديقه ولا ينحرف عن هواء السلطان وولائه فالتزم بذلك . ولم يصلا إلى أرزنجان حتى لحق بالسلطان جلال الدين وحرضه على قصد ممالك الروم . وحين أعلم السلطان بالحكايات تأهب للمقابلة والمقاتلة وأرسل كمال الدين كاميار لدعوة الملك الكامل وباقي أولاد العادل وأمر بأن يتجه إلى أرزنجان لأغلب الاحتياط عشرة آلاف فارس بقيادة مختبر الطعام والكندصطبل ومبارز الدين عيسى ونور الدين الكماخي ويحفظوا الدروب . وعندما بلغ كمال الدين كاميار الملك الكامل والأشرف تعللا فى البداية ولم يدليا بجواب صريح ، فأطلق كمال الدين لسانه برسم التوبيخ وقال إذا لم يكن لكم إسعاد فى هذا

(١) في الأصل (پدرود) والصحيح (بدرود كردند) .

الإمداد فإن يحدث بالغد نعوذ بالله محذور وتريا حرم السلطان فى يد غير محرم فلن يفيد إذ ذاك الندم وتحرق الأرَم . ففض هذا الكلام حلقيهما واتفقا فى الحال وجمعا الجيوش . وتقدم الملك الكامل حتى حران بجيش كالكثبان ، وحين وصل ذاك المكان أتي فى عقبه من مصر المخبرون وأخبروا بأن الفرنج وصلوا شاطئ البحر بجم غفير يزيد عن مائه ألف فارس وقصدوا المسلمين . فعاود الملك الكامل على الوجه العاجل وأرسل كتاب اعتذار إلى السلطان. وحينما وصل هناك نصره الباري تعالى وألحق الدمار بالكفار ، وأرسل الملك الأشرف والملك الجواد والملك الغازي والملك المغيث والملك العزيز لخدمة السلطان .

ذكر استقبال السلطان والتقائه بالملك الأشرف رحمهما الله تعالى

أمر السلطان فأعد لمنزل الملك الأشرف بلاط كالطود يضجر الفلك لرؤيته علي شاطئ نهر فى موج وهيئ خرينة ودور فرش وطسوت وشراب ومطبخ بآله من ذهب كأنها كنز عظيم بأدوات تليق بالملوك وما يلزمها من لوازم ، ونهض السلطان للاستقبال . وحين بدت مظلة السلطان ترجل الملك الأشرف وتوجه لخدمة الشاه ولما اقتربا ورأى السلطان الملك الأشرف مترجلا ترجل هو الآخر ، وسجد الملك الأشرف بضع مرات ، وإذ ذاك ركبا بعد المعانقة والملائمة وتلطف السلطان بكثير من الألطاف وقال إن الملك أتعب قدميه وتعب كثيرا فالأمل أن تكون ميامن حركات أقدامه وبركات أعلامه موجب ازدياد عظمة البلاط . فترجل الملك ثانية وقبل الأرض مجدداً ، وأشار السلطان فأسرج بغل أبيض سريع بالطوق والرّسَن وركب الملك ودخل فى محاورة مع السلطان وكان الأمير كمال الدين يترجم بينهما . فلما اقتربا إلى المرج أمر السلطان بسير أكابر الدولة مع الملك حتى السرادق ويخضعوا فى خدمته . ودخل الملك الخيمة وأظهر له من كثرة النعم ما أشبع عين الحريص .

ولما قام عن المائدة وأتى منامته رأى أسباب السلاطين من الفراش الخسرواني والطسوت والأباريق الذهبية والمجمرة المرصعة والحمام السفري والغلمان الشموس المسكيي الوجوه فصار مائة لسان تلهج بالشكر لملك البلدان ورأى بسبب مشقة الطريق رأي الحمام وإذ ذاك اختال إلى البلاط العام وطلب الملوك والإخوان فإذ بأصحاب الشراب يحلون ويأتون بآلات الحفل واللذاذة . وحين أظهرت الخمر الصافية فى أدمغه أهل المجلس التأثير ، وثقلت رؤوس الخفاف الأرواح بالنوم ظهر التفرق فى الحرفاء والندماء . وفى اليوم التالى حين أبهى نقاشو القدرة التطريز الذهبي للشمس على صفحة السماء الميناثية ، سلك الملك الأشرف وسائر الملوك سلوك جادة الخدمة وصعدوا إلى البلاط فخرج السلطان منه راكبا جواده فانحنوا على ظهور الخيل ونطق السلطان بالإكرام والاستفهام واعتذر عن التقصير الذي حدث فى تعظيم قدوم هؤلاء . ثم ترجل الأشرف عن جواده وأمر السلطان فأسرج جواد خاص فركب . وفى الجملة كان السلطان يبلغ فى إكرامه الغاية القصوي وبذل الخلع والصلات والإقامات والمكرمات . ثم دعاه وأخوته إذ ذاك إليه وأجلس الملك الأشرف معه فى مكان واحد ودارت دَوْرهم الخمر الهنية المطعم . ولما أثرت سورة المدام فى طينة السلطان رأى الراحة والمنام وأمر الوزير أنه وإذا عزم الملك الأشرف مقامه يرسل بعقبه مقاماً بلاطا بجملة آلات الاحتفال والخلع النفسية الملكية وجواداً كالريح فى الطيران بطوق وعنان ويظهر لجملة الأخوان الأحسان لحد أن يبقى ذكره أبد الزمان . فانفذ الوزير الأوامر المطاعة . وفى اليوم التالى حين تفتحت فى البستان النيلي برعمة الأرجوان عزم السلطان المدينة فلما وصلوا قرب البوابة ترجل الملك وأخذ بغاشية السلطان علي كتفه وترجل جملة ملوك الشام وظلوا سائرين مترجلين فى ركاب السلطان حتي عرصة الميدان . وحين رأى السلطان رأي اللعب بالصولجان كان الملك الأشرف يترجل كل لحظة ويتفق أن يسقط الصولجان من يد السلطان فيجلي الصولجان من غباره بأطراف محاسنه الشريفة ويعطيه السلطان بعد التقبيل ، وفى حال ما كان جنيب السلطان يقدم إليه كان الملك يقبل الأرض ويركب .

ذكر عزيمة السلطان والملك الأشرف بالعساكر المنصوره إلى (ياسي چمن) لمحاربه

السلطان جلال الدين

وفى اليوم التالى حين طلع الصبح الصادق من أفق المشرق واستل خسرو السيارات الحسام المصقول بعزم الاستيلاء على الدنيا من غمده ، تعالت صيحات الطبول من البلاط مكان السلطان ، وتحركت بالفأل السعيد والنهار الظفَّار المظلة المضيئة للأمصار ووصلوا من سيواس آق شهر فى أسبوع لشدة كثافة الركب . ولما أخبر السلطان جلال الدين أن السلطان والملك الأشرف وباقي الملوك وقواد الديار بجيوش زخار نزلوا بصحراء أقشهر طلب أرزن الرومى وحكى له هذه الحكاية فأجاب إن الرأي هو أن نلحق بياس چمن قبل أن تتخذه تلك الجماعة لها الوطن ، وحين يتيسر ذلك المقام يسرع للعتبة العليا النصر والظفر . وأخذ السلطان يقطع الليل كله كالرياح بسبب حيلة الرومي ووصلوا فى الصباح جبل (ياسي چمن) واحتازوا لهم الماء والكلأ . ولما علمت الجيوش التى كانت تقدمت قبل هذا للحفاظ علي ثغور أرزنجان وحراسة الدروب بقدوم رايات السلطنة بملوك الشام توجهت جملتهم لخدمة السلطان ، وسير الأمير مبارز الدين الصاولي باتفاق الأمراء الباقين ألف فارس إلى أوج الجبل برسم الطلائع . ولما حل الليل وابتعدت الطلائع عن الجيش أخذت تصعد طوال الليل حتي النهار وجه الجبل . وفى الصباح وجدوا أنفسهم وسط جيش العدو وأحاط مائة ألف فارس كانوا فى ركاب خوارزم شاه بهم (فكشفت الحرب عن ساقها وأبدت شراسه أخلاقها وهمت بسفك الدماء وإهراقها) . ومع أن الخوارزمي كان له مدد على مدد وجيش السلطان بلا مدد وقليل العدد مع هذا كافحوا ونافحوا وأذاقوا أضعاف عددهم شربة الممات . وفى العاقبة لما فرغت الكنائن من السهام ولم تعد فى الجعاب النصال كالشهاب اضطروا إلى الترجل وأعملوا الصفاح بالكفاح

وصار بعضهم بين قتيل وكسير والآخر بين أخيذ وأسير . ولما أتي بالأمراء الذين دخلوا فى زمرة الأسراء إلى خدمة خوارزم شاه أمر فأوقفوا والأغلال فى أعناقهم حتي تنتهي الحرب إلى حد فى النهاية ويعلم لمن النصرة . ثم استدعى أزرن الرومي وتحدث عن شده مقاومه تلك الشرذمة القليلة ، فأجاب بأن ظهر الجيش الرومى كانوا هؤلاء الفرسان فإن انهزموا بفضل الحق وانكسروا فإن مملكة الروم سوف تكون ملك السلطان بعد اليوم . ولحق بضعة نفر خرجوا من الحرب وكانوا يعلمون الطريق بجنود السلطان ، وأعادوا القصة برمتها فطلب السلطان الملك الأشرف ونقش صورة الحال علي تختة مخيلته ، فلم يبد الملك من ذلك المقال الانفعال وأمر بإعمال الثبات كالجبال وقال ألا إن الجيش الذي يهزم فى الأولى يكون له النصر فى الآخر ، فيجب من هذا القبل أن يفرغ قلب السلطان كلية وبفضل الحق وقوة البخت سوف يجاب أولئك الطغام الأخصام .

ذكر حركة رايات السلطنه المنصورة وانكسار الطلائع الخوارزمية

فى اليوم التالى أرسل الجيش العربي ومعه فوج معتبر من أعيان العسكر طلائع وكان الخوارزمي قد عين جيشا ضخيما ذا شوكة عظيما للاستخبار والاستطلاع ونزلوا بوسط مروج وأرادوا أن ينزلوا على شاطئ النهر ويحتازوه إذ بطلائع السلطان تصل إليهم فأخذ بحر من السهام يمطر عليهم وسحق التطام الفريقين واصطدام الطائفتين الرؤوس فى الخوذات والأبدان فى الجواشن مثل لباب الفسدق فى الهاون وحين صار النهار الأبيض الهندام ليلا أسود القوام لظلمه القتام ، أخذت كواكب الأسنه وشهب النصول فى الإشعاع وفى عاقبه الأمر أسفر النصر وولى الجيش الخوارزمي دبره ، وسقط أبطال الوغى بالصياح والغوغا كالعفاريت وراء أولاد المقاليب أولئك وأصموا بسيل السيوف الصواعق كل ما كانوا يثقفون (وانقلبوا صاغرين[1]) . وحين

(١) سورة الأعراف آية (١١٩) .

ظهرت إذ ذاك صحراء المعركة التى كانت البحر المواج لدماء الأوداج من هشيم وجود الخصوم ودخل الماء والكلأ فى تصرفهم أرسلوا فارساً إلى بلاط السلطان وأعلمه بانكسار الخصم وانهزام الجيوش واحتيازهم النهر والحشيش ، والتمس حركة الركاب الميمون إلى ذاك الموضع وفى الحال ألقوا بالبلاط ورفعوا الأعلام وتحرك الجيش كأطواد الحديد ونصب للملك فراش فى تلك الأحراش وبلغ خوارزم شاه الخبر فجمح القرار من فؤاده وبدأ عتابه لأرزرومي .

ذكر انكسار طلائع الخوارزمي كرة ثانية

خرج فى اليوم التالى من الطرفين جيش كثير برسم الطلائع وأخذ الجيش يجول الليل كل الليل فى الجبل والسهل . ولما تفرق جيش الهند وأتى خسرو الأنجم بأسفل الإقليم الخامس فى الميدان حانت من كلا الجيشين التفاته للآخر فصفا صفوفهما ، وبدأ الخوارزميون بالحملة ، وأحل القصاد رؤوس السهام فى ضمير الصغير والكبير كالتفكير وكان الرسل كلمح البصر يلقون السهام والمعابل بعون جنح العقاب للأطراف حتي أبلغوا جبرشدة الأقواس وقوة سواعد الشجعان بلسان مبين الرنين إلى مسامع المعادين من شطار وفرسان تلك الميادين ، وثبت فرسان السلطان مثل جبلي ثهلان وحرى فى ذاك الذى جرى . ولما تبدل هبوب ريح صولتهم إلى الركود جردوا مرهفات السيوف وحرروا مثقفات الرماح وعدوا عليهم جملة واحدة كنوازل الأقدار فصرعوا كل من بلغوا ورموا فى الميدان الفضاء للمعركة مع جماجم رؤوس تلك الجماعة والقطيع . بقلانس السعادة إلى الفلك ففازوا بالرهان وكرة الصولجان وتبدل إقبال الخوارزميين إلى إدبار وكسرهم إلى انكسار وحملهم إلى فرار وخر الفرسان والمشاه الخائرون ، وحيل بين الفؤاد والمراد ، وتحدر على فراق الروح ماء العين . وكان ملك الأرواح من ازدحام النفوس المستشهدة متصفا بصفه العجز والحيرة وفضاء الهواء على أفواج الأرواح المفارقة الساقطة من المغاربة والمشارقة فى تلك الملحمة كقلوب العشاق مضطرب

الحال ضيقاً كصدر البخال . وأقام فى ذاك المقام عسكر السلطان بغنائم فيضان حامدين الرحمن وأرسلوا رسولاً وأعلموا الحضرة السلطانية بالأحوال وتحرك الركاب الميمون وسار العسكر المنصور حامدين الله وعلى أيمن طائر أتوا بلاط السلطان المستولي على البلدان الذي كان مضروبا فى معترك منايا الخوارزميين وألقي بشاه خوارزم مرة واحدة فى الحيرة والاضطراب والحمى والعذاب وكان يذوب كا لشمع من حرقة الكبد ، ويحيل تلك النكبات إلى نفثات الأرزرومي وسوء تدبيره وشؤمه فقرر فى تلك الحالة الأرزرومي إليه خفية أن أمسك أولاء الذين آثروا الفرار وبلغوك مع القادة الآخرين وأزهق منهم النفوس بالسيف الضروس حتى يثبت من بقي كالصخر يوم النحر فلا يستطيع الأخصام الإقدام وينعتون بنعت (وقذف فى قلوبهم الرعب)[1] فأمسك بسبب الغضب بسبعمائه رجل حر برئ من جيشه وغلهم وأمر بضرب أعناقهم وسوف يظل هذا الخزي والشنار والآثام والعار حتي يوم الإنشار ، التزم بكلام هذا الغدار التافه الإقرار فأتم بهذا الأمر العداوة مع نفسه .

ذكر هرب طلائع خوارزم شاه كرة ثالثة

من طلائع السلطان

فى اليوم التالى حين قبلت الأرض ملكة الأنجم على عادة الغلمان على باب ملك البلدان وأبدت على موافقة عساكر المعركة التنانين العلم الأحمر والأصفر فى ميدان الأفق سارت كل الجيوش وركب الملك المستولى على الرحاب راكضاً الصبائي الذهاب فى هذا السهل الخلاب ، وأثرت حرارة الهاجرة فى أنصار العساكر المهاجرة وكانت أنفاس الشجعان ، تجف فى حلوقهم فقصدوا جميعا المناهل والعيون والأنهار التى كانت جارية فى تلك المروج . ولأن السلطان لم تكن لديه النية للشرب ، فقد ارتوي أبدا ، لم يلتفت إلى المياه والعسكر وصعد جبلا أعلى من همة الأسخياء وقامة الملحاء وجال

---

(١) سورة الأحزاب الآية (٢٦) .

بنظره بالأطراف ، كانت كلها صحراء ووديان ورأى جيش العدو ضربوا خياما فى خيام وتجمعوا كالنمل والجراد . وحمل عليهم فوج من الشجعان وتقدم منهم قرب ألف فارس فجرى قتال وقتل عظيمان ، ولم يكن ستور الظلام وازعا ، فلم يبق من الطرفين واحد حياً ، وفى الجملة عاد كل فوج إلى مقامه ، ومكثوا جميعا الليل بطوله فى تدبير القراع والنزاع وترتيبهما وتثقيف اليراع والإرهاف والإرهاق الشعاع . وقضى السلطان العظيم الشان فى تلك الليله الأوطار وبعد تجديد الاغتسال أخذ فى مصلاه يناجي ذا الجلال ويدعوه بكلام بغير لسان فى خلوة القرب بلا مكان ويطلب منه الأمداد .

ذكر مقابلة كلا الجيشين وانهزام السلطان

جلال الدين وأسر أرزن الرومي وأخيه

فى يوم السبت الثامن من رمضان سنه (٦٢٧ هـ) غدا العسكر يملؤهم البشر كشفاه الصبح وتنير وجوههم كوجه الشمس ، وأمر السلطان أن يلبس كل المعسكر سلاحة ويصفوا الصفوف ويعينوا الميمنة والميسرة والقلب والساقة ويظهر أسد الوغى آثار الفدا وحين لم يتبق حتي العدو مسافة بل كانت صفة (قاب قوسين أو أدنى[١]) لتدانى الخيام وليلتقى الطرفان مرة واحدة فيظهران ما هو منشور ومقدور ، بلغ فى الحال صوت النقارات ذات الصيحات آذان الملائكة والجان ، وحادثت الأهلة الصغيرة بأعلى الرايات الجبهة والعيوق من النجمات[٢] وارتعشت أسود العلم كقلب الشحيح علي نقش الدرهم وركب ملك الأمصار جواده العابر للبحار . وعبئ فى ذاك الطرف عظيم التعبئة أيضا فقدم جيش بلاحد وحواف يزيد على مئة آلاف فى صفوف المصاف وجاء الملك الأشرف إلى خدمة السلطان وقال لو يركب السلطان اليوم بغلاً عوضاً عن الجواد بل ويشكل البغل فلاشك فى أن كل ثعلب من هذا الجيش المتجاسر

---

(١) سورة النجم الآية (٩) .

(٢) الجبهة اسم منزل من منازل القمر والعيوق نجمة بجانب المجرة .

يصير عشرة من الهزابر وبهذا الاستظهار يصيرون للخصوم قيدا ويغدو لهم العدو صيدا . وفى الحال أسرج بغل اعتلاه السلطان . ولما تمت التعبئات واقترب وقت تداني الجمعين ، صعد خوارزم شاه تلاً وأجال نظره فى سواد الجيش المنصور وحينذاك زفر زفرة بارده من الآلام المكمدة وقال لو أن هذا الجيش كان لي وذهبت بهذه الحشود لجيش التتار للقتال والاشتجار لألحقت بهم الدمار وأحقت بنباتات الأرض العناية بماء دماء تلك الكلاب الضواري وأتى بعد ذاك قلب جيشه بدمع قد انهمر وصبر من قلبه فر . وحمل الملك الأشرف وكمال الدين كاميار حملة الأسود وألقيا بالميمنة على الميسرة واضطر الجميع إلى ورود واد من الوديان لم يكن مقام هروب أو محل طعان . ولم يشغل السلطان الخوارزمي بحرب أو طعن أو ضرب وأسرع فى الحال إلى الأعلام وربطها بحبال سرجه وألحق فى هربه أثناء المسير السير بالسري والوخدان بالذميل . وانشغل جيش العرب بالإغارة والسلب وكان جيش الروم يتحركون عقب الخصوم فى تلك التخوم بكل جانب فوجاً بعد فوج كالطود المتباطئ الساكن . وعلى حين بغتة أدركوا صاحب آرزن الروم وأخاه (كراميش) وكان توأمه رأوهما وأمسكوا بهما وأتوا بهما إلى ملك البلدان فسقط كالحجل تحت قدم الخسرو فأمنه السلطان من طعن السيف وأودعه بعض الأمراء ليبالغ فى حفظه لكن لايقلل فى حرمته وتعظيمه بل يزيد ، كان أول النهار ملك الإقبال وصار آخره أسير الاقتتال . ويمم السلطان وجهه بعد ذاك إلى البلاط وأخذ الملك الأشرف غاشيته على كاهله ومشى مترجلا فى ركابه وكان السلطان والبلدان والإنس والجان يعجبون لغاية لطفه وكان السلطان يعتذر اليه كل لحظة ويتلطف به . ولما دخل السلطان البلاط قبل الملك الأشرف الأرض وتوجه إلى خيمته وذهب السلطان من الصفة ثانيه الي خلوة المصلى (يناجي ربه) وسجد سجدة الشكر وحمد الله رب النعم والدين حمد الشاكرين المادحين .

ذكر نهضة رايات السلطنة صوب أرزن الروم وفتحها علي يد السلطان علاء الدين كيقباد

فى اليوم التالى حين عزم ملك ملوك الكواكب وخسرو الثواقب إلى منازل النهار الصادق توجه السلطان مع الملك الأشرف وأخوته صوب أرزن الروم وبلغ مسامعه فى الطريق أن فوجا بالأمس من جيش خوارزم كان عزم الفرار من الروم وظهر أمامه واد جارف فسقطوا فى ذاك الوادي خوف رياح الحملة وإشفاقا علي أرواحهم بخيولهم وسلاحهم فأمر السلطان فوجا من الجيش المنصور لكي يذهب الى ذاك المكان ويقدموا تفحص تلك الحال . فلما لحق الجيش بذاك المكان كان جمعهم قد فارقت أرواحهم أبدانهم ولحقوا بدار العقبى فأتى بما كان موجودا من آلاتهم وعتادهم إلى سلاح السلطنة . وفى اليوم التالى رفع العيد السعيد بشفة ضحكاً تزيد ، نقابه عن وجهه المزين للدنيا وظهر الهلال من ركن السماء مثل كمان طغراء السلطنة . وفى الصباح أوله تقدم كبار الشام إلى بلاط خسرو الأيام فنزل السلطان من التخت وأخذ بيد الملك الأشرف وأجلسه على الطراحة التى كانت معدة تحت التخت بجانبه . ولما شربوا الشراب وزين الموكب لأجل العيد ركبوا جيادهم وأبدي أبطال الميدان أنواع المهارة والفنون والفروسية وتوجهوا بعد ذاك إلى المصلى وأدوا عبادة المعبود المطلق وسالت الصدقات كقطرات الأمطار علي السائلين ثم حضروا الخوان الخاص . ولما آب كل منهم من الخوان الى خيمته أرسل السلطان عشر خلع ملكية وعشرة خيول إلى الملك الأشرف وسائر الملوك ودعاهم إلى احتفال ضياء العالم وبسبب بعد عهد المعاقرة الخفيفة تجرعوا الأرطال الثقال . وفى اليوم التالى لحقوا بخطة أرزن الروم . وأقفل الأمراء الذين كانوا بالمدينه الأبواب وفتحوا طريق الممانعة . فأمر السلطان أن يذهب إلى المدينة أمين يعتمد على قوله ليدعوهم بلسان الملك إلى جادة الانقياد ويهددهم من بلاطنا بوعيد (إن عذابي لشديد [1]) .فأرسل الملك علي موجب

(١) سورة ابراهيم الاية (٧) .

الحكم مقرباً من خواصه فى صحبه أحد أمراء السلطان إلى المدينة حتى يضعهم بالمبالغة التامة على طريق الصلاح ويقرن الأمر المطاع بالإجابة بشرط ألا ينال الملك وأخاه وباقي الأمراء ضرر فى حياتهم ويُعْفي عما سلف ، فاقسم السلطان وفق المطلوب لهم فى مكتوب وأرسل إليهم كتاب عهد وميثاق فلما طالعوه أتى همام الدين الجاندار والأمراء الباقون من المدينه إلى خدمة السلطان وحملوا السنجق إلى المدينة . وفى اليوم التالى امتطى السلطان جواده آخذ العالم المستدير كالبدر المنير ، وسار الملك الأشرف مع بقية الأخوان مترجلين فى الركاب العالي ولما دخل السلطان الإيوان وقف الملك الأشرف وأخوته مصطفين . وبعد أن تأخر السلطان زمنا قليلا بجانب الصفة جلس ثم نهض وأخذ بيد الملك الأشرف ودخل منزل الخلوة وقضيا ذاك اليوم بالسرور والشراب وتشفع الملك الأشرف أثناء الانتشاء للملك ركن الدين فصار مقبول القبول وأمر له بخلعة نفيسة وشرفه بتقبيل اليدين وترحم عليه بأقصرا وتوابعها وبأيوب حصار علي أخيه بحكم الاقطاع ثم سير فوجاً من الجيش إلى أخلاط ، وكان نواب السلطان جلال الدين سمعوا بالواقعة لذا أخلوا المدينة ومضوا إلى أران . وبعد شهر أمر الملك الأشرف بأن الملك له أن يتجشم إلى الأرمن ويدخل (أولتي) مع بضع قلاع أخرى من الكرج تصرف ديوان ملك الأشرف فقبل الملك الأشرف يديه وطلب لها ولملك الأرمن منشورا فتعجب السلطان من كمال تواضعه وسطر منشورا وأرسل الأمير مختبر الطعام بخمسة آلاف فارس فى خدمة الملك إلى أخلاط جهة الاحتياط وتكلف معه تكلفا زائدا عن الحد لا يمنحه وعاء قدرة ملك قط أو يسع عُشْرَه واعتذر بالأعذار وقطع بالمظلة والسنجق مسافة طويلة بعيده بوداعهم . وبعد العودة توقف أسبوعا لصالح القلاع والبقاع وأمر فكتبت كتب الفتح إلى أطراف الممالك[1] وعاد بحصول المرادات إلى قيصرية .

---

(١) نقل هوتسما عن الملخص التركي واحدا من كتب هذا الفتح بإنشاء الكاتب شمس الدين محمد الأصفهانى الذي حاز حظوة في الدولة وقد كتب هذا الخطاب لأمير اربيل مظفر الدين كوكبوري (متوفي عام ٦٣٠هـ) ورغم أن السلطان قد غضب =

ذكر جناية حارس قلعة العلائية وتأديبه

فى ذاك الباب

وفى هذه الأثناء وصل فجأة رسالة من العلائية فيها أن سلطان العالم إذا لم يتعب ركابه فسوف يخرج عنان حكم العلائية عن يد عبيد السلطنة ، فقد سلك من قلعتها تولي ، الذى جسده بالشنق أوْلى ، طريق الكفران ويريد أن يترك القلعة للقبروسيين ، فتحير السلطان لهذا البيان وتفكر وقال أؤثر من لا

= من لهجة الكاتب وشتمه لجلال الدين وغيره مما جعله ينحيه عن الطغراء ويكتب رسالة أخري إلا أن المشيئة الإلهية قدرت بقاء هذه الرسالة لينقلها الملخص التركي وأن اعتذر هوتسما لعدم قدرته علي تصحيح أخطائها العديدة وهذه ترجمة لها :

« ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون الحمد لله الذي صدقنا وعده يبلغ السلام والتحية ويعرض غليان الأشواق ويدعو بخير الاجتماع والتيسير المجلس السامي الملكي المعظم الأجلي الكبير العالمى العادل المؤيدي المنصوري المجاهدي المرابطي مظفر الدولة والدين عماد الإسلام والمسلمين قاتل الكفرة والمشركين قاهر الخوارج والمتمردين ناصر الغزاة والمجاهدين نصير الجيوش الموحدين عدة الخلافة عمدة الإمامة شمس الملوك والسلاطين دام سنين عظيمة في اقتناض معالي الأمور واستماع البشاير والسرور ويعلم أنه بعد قهر الخوارزمي المخذول وأسر أزرن الرومي المجهول وأخيه وتقسيم الخانات والملوك والأبطال والأمراء بين قتيل وأسير وتفريق باقي الجيش (فريق في الجنة وفريق في النار) أرسلنا فوجا من الحشم المنصور نصرهم الله في عقب أولئك الفارين (كأنهم حمر مستنفرة فرأت من قسورة) باستخبار (وأين المفر) فمدوا بديار أخلاط من أجسادهم للوحوش والطيور السماط (وجعلوا الأرض من دمائهم ديباجي البساط فلجأ المخذول إلى حيلة الثعلب المكار وترك قتال الأسد الضاري فأهلك برأيه غير الصائب بضعة ألوف من الناس (ولايزيد الظالمين إلاخسارا) وجعلت راياتنا العالية (نشرها الله في الخافقين) من أرزنه الروم مركز الها في يوم الإثنين وأحاطت بها جيوشنا المنصوره (حاطهم الله) كالدائرة فتمرد أهل المدينة والعسكر واغتروا بكثرة العدد والعدد وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم =

أساس له وأجعله على الصدور والأزكياء وصاحب التاج والعلياء ويفكر بمثل

= من كثرة أبطال قهرنا فحجب في طرفة عين أبطال الرجال بإصابة النبال مركز المدينة حجب العقاب للشمس وعلقواهياكل أولئك المجانين وأبدان هؤلاء العاجزين بهياكل المشانق ، ولما وجهت شمس الفلك عنانها إلى صحراء الغروب ويممت شطر الهزيمة حتى توارت بالحجاب) وبسطت خيل الليل في مأتم الشمس على المجرة بساطها وصافحت بنات النعش حول شرفاتها الثريا وتجمع النائحون بالمدينة يصيحون بالأمان فإذا لم تأخذهم رحمتنا الملكية في كنف الحماية وظل العناية لصاروا أقرناء (جعلنا عاليها سافلها) جلساء (هباءاً منثورا) بموعد (أليس الصبح بقريب) وأعدنا الألطاف الربانية والسعادة السماوية بطريقة المعجزة السليمانية (ردوها علي) وشرفت أعلامنا ذات الأنوار البدرية حين رفعت على رأس قلعة مدينة أرزن الروم وقمتها بحلة(وأشرقت الأرض بنور ربها) ودخلتها صباح الثلاثاء بتعبير (هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا) وبشرى (وفتحت أبوابها) وأظلت ظلال عاطفة الإحسان المدينة بالراية المنصورة نصرها الله وهي سويداء قلب الإسلام وسواد عين الأنام ودخلت أرزن الروم مع خمس وثلاثين قلعة في حوزة الديوان وتوجه إلى المدينة الملك الأشرف مظفر الدولة والدين ملك الأرمن والملك المظفر شهاب الدين الغازي مع أحد عشر فارس مغوار يحفهم الموكب الأعلى حفه الله بالعظمة والجلال وصاح جمعهم بقولهم (ادخلوا مصر إن شاء الله آمنين) ورأى أحباب الدولة إمارة الكرامة بعين البصيرة وسمعوا بسمع العقل وكان أرزن الرومي الشقي الغافل الذي انطلت عليه خدع الخوارزمي وزيف غيره فتعصب علينا وخالفنا كان يتمرغ في تراب الندامة ويلقي حجج ذنبه على غيره من المفسدين فأتى يرسف في قيد الإسارة وغل الإذلال أسيرا والمؤمل فيه أن تحسم بالعون الإلهي مادة المفسدين والمنافقين وتقمع جرثومتهم ويزول أساس هذه الفتنه في هذه النهضة المباركة بيمن همة المجلس السامي الملك المعظم أدام الله سموه فلا يغرون أو يحرضون أحدا على المسلمين ولايسعون لأجل أغراضهم العارضة في خراب أمور الناس ولما كان المجلس السامي دام ساميا مشاركاً لنامساهماً في السراء والضراء فوجب إعلامه بهذه الموهبة الجميلة لكي ينال من تلك البشارة الحظ الأوفى والقسم الأوفر وليدوم انسلاكه في اقتران مهمات النهج القويم ويسارع في تقديمها إن شاء الله تعالى) .

هذا الغدر الذي ليس له عذر قط هذا من جملة العجائب . وفي الحال اعتلى جواده مع بضعة نفر من الخواص ولحق بالعلائية بعد ثلاثة أيام وجعل هذا الكلام كأنه لم يسمع وشغل نفسه في السر بتفحص الحال واستكشاف المآل ولما صار محققا أنه كان الخائن الغادر وشهد بمواجهته الأئمة والحفاظ وعرضوا مجاري أفكاره على أطباق وعلم أن الحق صراح أمر في الحال أن يمزق إربا ويوضع على البرج وعلق بدن مخزاه كما كان جزاه ، وصار شريكا له كل من وافقه في هذه المقالة . ولما سمع ملوك السواحل بهذا الجزاء سيروا من كل طرف الخرج والخراج لخدمة صاحب التخت والتاج بعجل ، ومكث هناك شهرين حينا كان يقيم الحفل الخسرواني وحينا آخر يمنح السعد والسؤدد ، وارتحل منها إلى أنطالية وظل بها أربعين يوما وأمر أن يترفه العسكر المنصور عاماً في أوطانه .

ذكر هجوم حارس المغول حتي المحروسة

سيواس حماها الله

في سنة (٦٢٩ هـ) هاجم فوج من جيش المغول كان بقيادة جرماغون الأمير نواحي سيواس حتى رباط منزل (أحمد بن راحت) فقتلوا وأسروا وحملوا وأغاروا على خلائق ومواش كثيرة ، ولما وصل هذا الخبر الفاجع إلى مسامع السلطان أمر في الحال من غاية القلق كمال الدين كاميار أن يعزم بالجيش الحاضر من مفاردة الحلقة الخاصة وغلمان البلاط وملازمي الحراسة بالعدة والعتاد ويسكن بقدر مقتضى الكفاية والدراية هذه النائرة فسار الأمير كمال الدين بهذا القدر من العسكر ولما بلغ سيواس كان حارس المغول قد آب فسار الجيش يتعقبهم حتى أرزوم . وكان الأمير مبارز الدين مختبر الطعام وإلى هذه الناحية فشاوره فأجاب أن جيش المغول لما أنه قد عاد فلا يجدر تعقبه وأقام هناك يوما وأخبر الجواسيس أنهم توجهوا إلى مقامهم وجازوا دربند يونس ولحقوا بموغان . وتجمع في مدة التوقف جيش كبير

فقالوا لايجب الرجوع ولم نعمل عملا . وكان لإغراء ملكة الكرج دخل فى دخول المغول ممالك السلطان فقصدوها بهذه الذريعة .

ذكر دخول عساكر السلطان ديار الكرج وفتح القلاع على يد ملك الأمراء كمال الدين كاميار

هيأ الأمير كمال الدين ومختبر الطعام آلات الحصار ولم يقتصروا على المشاة الذين كانوا أتوا من سائر المملكة فجمعوا خمسة آلاف آخرين من المشاة وتوجهوا بكثافة تامة إلى ولاية الكرج واستولوا على ثلاثين قلعة شهيرة فى أسبوع واحد كانت شرفاتها تضارع السماك وقواعد مبانيها تصارع السمك بطعن السيوف الممطرة بالدماء وأزهقوا بالرماح الثقال والسيوف التى فى الإهلاك عجال من الكرجيين نفوسهم ، وبلغ الوعد الصادق (وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها[1]) ذاك العام الإنجاز من الأبخاز عساكر السلطان ، وتقدموا من هناك إلى قلعة (خاخ) فتيسرت بإعمال المنجنيق والسيف الصقيل والبريق . وأذاقوا أهل (نخاخ) نفس هذه الشربة وضيقوا الدنيا الواسعة من طعن الأحجار والسهام الحجار عليهم كعين النمل .

ذكر عجز رسودان ملكة الأبخاز وطلب المصاهرة من بلاط السلطنة بتوسط ملك الأمراء

لما سمعت رسودان ملكة الأبخاز بورود عساكر السلطان والنكاية التى ظهرت ونجمت من حوافر طايات البلدان لأولئك الفرسان من أهل الضرب والطعان لبلاد الروم فى القلاع والبقاع فى تخوم ملكها فر الاستقرار والقرار منها . ورأت بعد إجالة قداح الاستشارة أن المصلحة هي أن تدخل لأرباب الدولة من باب الملاطفة والمساله ففتحت طريق المكاتبة مع الأمير كمال الدين واعتذرت للخبث الذي نسب إلى أمرائها وأرسلت الأحمال وقالت أنا ضارعة

(١) سورة الفتح الآيه (٢٠) .

للسلطان خاضعة مطيعة لكل ما يأمر به فلا يقترن مراضي عفوه جرمي بتخريب بلادي ولايجيز من كمال الكرم ووفور محاسن الشيم هذا الظلم من لدنه والتوقع من ألطاف ملك الأمراء هو أن يبقي علي بقايا البلاد ويعلم طلب مصالحتنا حضرة بلاط السلطنة واذا رأى آثار العناية واضحة بوسائل القرابة والمصاهرة ، ويخطر لنا أن تأتي ابنتنا المطهرة وهي من صلب سلجوق ونسل داود فى حجر زواج ملك الاسلام غياث الدين كيخسرو بحكم مجاورة البلاد التى حصلت . فقرن ملك الأمراء كمال الدين لأنه كمال النجابة ملتمس الملكة بالإجابة واستدعى العساكر وأجلى خبر فتح القلاع الثلاثين أو الأربعين المشهورة المعمورة وسبي الذراري ونهب الأموال والمواشي واستغراق العسكر فى المال إلى خدمة السلطان . ولم يكن السلطان من تلك المدة التى أرسل فيها الجيش بعقب المغول اكتفي بحفل أوشرب وكان ينتظر خبرا ساراً[1] فأمر فى الحال بإقامة الاحتفال وطلب حرفاء الطرب وأنفذ جواب الأمير كمال الدين علي إيصاء المساعي المشكورة والخدمات المبرورة موشحاً بالتوقيع الأشرف وأن احكم بإجازة العودة للعساكر إلى أوطانهم وعرف أن مصاهرة الملكة مقرونة بالقبول ولا تسمح بعد هذا بأن يتعرض العسكر لولاية الأبخاز . فأحضر الأمير كمال الدين الأمراء وأبلغ حكم الفرمان وأمر بالارتحال ولما لحق بحوالي أرزنجان سرح العساكر وعاجل هو إلى حضرة السلطنة فوجد من الإكرامات والكرامات ما لم يجد أحد .

ذكر توجه عساكر السلطان إلى الأرمن واستخلاص خطة أخلاط وباقي بلاد الأرمن وإضافتها إلى سائر الممالك المحروسة

لما أبلغ مسمع السلطان أن بلاد الأرمن صارت مهالك وتمكن الملك الأشرف بحكم حبة للذة فى دمشق بعد سنجار وسلك طريق الطرب فى جوسق

---

(١) الأصل خطأ (ساز) .

الهرب[١] وأن رياح ديار الأرمن لا تدور حول خاطره وفي كل لحظة يهاجم جيش المغول فيأسر ويستبي بقايا الرعايا ، وأن بعضا من العسكر الخوارزمي استوحش وضرى في تلك الأطراف وأخذوا يقطعون الطريق ، فأمر لغاية الشفقة والرحمة كمال الدين كاميار ليتوجه بجملة الحشم المنصور إلى تلك الحدود ويضيف ديار الأرمن من خلاط وبدليس حتى نواحي تفليس إلى باقي الملك المحروس . فعزم الأمير كمال الدين على موجب الحكم بكافة العساكر ، ولما وصل أخلاط وجد تلك المواضع (كدار ما بها أدم) فاستقبله بلا قيل وقال وجواب وسؤال عدة المعتبرين الباقين بها ، وفي الحال رفعوا السنجق على المدينة وأقسموا على ولاء السلطان وخطبوا له وارتحل العسكر عن المدينة ونزل على ساحل البحر وسارت أفواج العساكر بصحبة الأمراء إلى كل طرف وأوردوا تمام ممالك الأرمن بشوكة دولة السلطان في حوزة التصرف ، وعرض الأمير كمال الدين خبر فتح ديار الأرمن وخراب تلك الديار والدمن على حضرة السلطنة . وسر السلطان لفتوح ديار الأرمن وأنفذ فرماناً بيمن نقيبة الأمير كمال وباقي الأمراء واستمالتهم الكافلين لزعامة العساكر . وحينذاك أمر[٢] الصاحب ضياء الدين قرا أرسلان وسعد الدين المستوفي الأردبيلي وتاج الدين البروانة ولد القاضي شرف لكي يذهبوا إلى أخلاط والأرمن ويعملوا الاحتياط لتلك الممالك ويعينوا أبواب المال ويصادروا أملاك الغائبين والقتلى وأن يعزم الأمير كمال أرزوم وينتظر الأمر . وحين وصلوا كان الأمير كمال الدين قد رتب الجير لإشادة أبنية القلاع المخربة وكان يجلب أحجار الجير والهشيم من نواحي (عادل جواز) . وأمر الأمراء فبنى كل منهم تنانير عدة كبيرة وانطلقوا يعملون وفي يومين أو ثلاثة أحرقوا ألف تنور وأخذوا يحملون أحجارها الجمال والبغال للمواضع المحتاجة . ولما فرغ من هذا الأمر الهام وأتى أزن الروم ، وصل فرمان باستدعائه وإجازة العساكر للعودة إلى أوطانهم . وفي الحال سمح للجيش وعزم إلى البلاد . ولما لحق

---

(١) ذكر هوتسما أنها غير واضحة والمعنى والسجع يقتضي أن تكون (هرب) .
(٢) في النص خطأ (مال) والصحيح (مثال) .

الصاحب ضياء الدين وتاج الدين البروانة وسعد الدين المستوفى بألف فارس من المفاردة والغلمان الخواص بخطة أخلاط دونوا الدواوين وأثبتوا جملة الأملاك والعقارات ودعوا المزارعين والدهاقين إلى مائهم وأراضيهم وأعطوهم البذور والمواشي وسامحوهم من التكاليف المعهودة واستدعوا رؤساء حراس القلاع وضبطوا دخل الجميع وخرجهم . ولما بلغ الخبر ولاية الكرج وأران توجهت جموع المنزعجين والمتفرقين لأوطانهم ، وفى مدة قليلة عمرت الولاية وفوضت رئاسة جيش تلك الممالك لسنان الدين قيماز وكان أميراً جسوراً وقائداً محنكاً فلما سمع أن قيرخان بطاطوان نزل بجمع من الجيش الخوارزمي ولا تأمن الولاية إضراره وكان السلطان قد أجاز قبل بأن يُدْعوا إلى عبودية البلاط ، غاب سنان الدين قيماز ومعه غلام وخادم الركاب وحسب من خدمة الأمراء يوماً ويمم إلى طاطوان . ولما اقترب أدرك واحداً من جيش الخوارزميين وقال أخبر الخان أن قيماز غلب عليه إعواز إحراز اللقاء وأتى الخدمة بلا سهم أو سيف فلو سمح بأن يشرف بالخدمة . فلما سمع قيرخان بذلك ناله العجب وأرسل مقدماً أحد ملازميه وكان على سابقة معه لكي يتفحص الأمر هل صحيح أو غير ذلك فلما تحقق أنه هو تقدم قيرخان ومعه حاجب واحد أيضا لاستقباله . ولما حدثت الملاقاة وتلاطف الاثنان كثيرا طلب الأمير سنان الدين الإجازة وذهب إلى الخاتون قيرخان وسلم عليها واستفسر عن نكبات الأيام وسلّى خاطرها ثم عاد إلى قيرخان وطلب بسبب الانبساط الطعام فقدموا ما حضر . وبعد التناول أخرج سنان الدين مصحف الحمائل عن محفظته ووضع يده عليه وأغلظ الأيمان أن ليس بخاطر أمراء السلطنة أي ضغينة ناحية قيرخان وأمراء خوارزم الآخرين ولن يكون ، وكل ما عندهم هو اهتمامهم بأن تبلغوا مأمنا ومسكناً من هذا التشرد ولا يعدم أن السلطان أمر الصاحب بأن يدخلكم دائرة طاعته فإن وافقكم هذا المعنى فالواجب أن يقسم قيرخان وجملة أمراء خوارزم على أن يكونوا مخلصين فى السر والعلانية للسلطان . فوافق قيرخان وبركت وبلان بوغو وسار وخان وكَسْلُوسنكم وبقية الأمراء وأقسموا على الإخلاص وقدموا الشراب . ولما تدوول بضعة أقداح

اعتذر سنان الدين وطلب الإجازة بالعودة ليعلم الصاحب وباقي الأمراء وتقرر أن يركبوا جيادهم على الصباح ويلجوا رياض المدينة لكي يستقبلهم الأمراء وأكابر الدولة ، وتحكم مهام ذاك المكان وتقرر . ولما قدم سنان الدين قيماز المدينة كانت صلاة أخرى قد فاتته فنهض أركان الدولة وسأله الصاحب عن سبب غيبته فأعلم بالأحوال فأثنى الجميع على كفاءته وشجاعته كثيرا وأمر الصاحب بترتيب مائدة كبيرة . وفى اليوم التالى حين ظهرت كوكبة الشمس وأشرقت من قلال جبال المشرق كان قير خان وبقية أمراء خوارزم قد وصلوا حوالي المدينة فاستقبلهم تاج الدين البروانة وسنان الدين قيماز وباقي الأمراء وأنزلوهم فى إحدى الرياض ووضعوا الأطعمة التى سبق إعدادها . وبعد الفراغ التام التمس تاج الدين البروانة تجديد القسم للتأكيد ، فأعاد قيرخان والأمراء الباقون القسم على عادة الأمس حتى حصل للبروانة وبقية الأمراء اطمئنان البال ، ودخل الصاحب المدينة فى الليل وأعاد مقال المهمات التى كان أعدت ورتبت ، فأمر الصاحب بترتيب أضعاف مأكولات الأمس ، وفى اليوم التالى خرج من المدينة بموكب عظيم ورونق وتفخيم ، وحين أعلم قيرخان بوصول موكب الصاحب تقدم لاستقباله واحتضن كل منهما الآخر ، وأبدى الصاحب المودة التامة لقيرخان ونزلوا بروضة وأكد الصاحب لقيرخان العهد والموثق بأوثق الأيمان وقسم جملة ولايات أرزن الروم عليه وعلى باقى القواد واعتذر بمعاذير ليقتصروا حالياً على هذا المقدار وحينما نصل خدمة السلطان يتم الوقف . وأتى المدينة إذ ذاك وخط المناشير على التوقيعات السلطانية التى كان استصحبها معه باسم كل واحد من أمراء خوارزم ، وأرسل فى الصباح بالمناشير ومعها ثلاثمائة خلعة عليا ووسطى ودنيا إلى قيرخان وارتحل فى اليوم التالى إلى أرزروم بجملة الأتباع الخوارزميين .

ذكر مهاجمة المغل للخوارزميين وتفرقهم

لما رحل الخوارزميون عن خطة أخلاط وساروا صوب أرزن الروم ولحقوا بطوغطاب ظهر لهم مرج كروضة الفردوس فصاروا لخصب أعشابه ولطف

مراعيه مغبونين ومغرورين ، فنزلوا جميعا مختارين سريعا وأنزلوا السرج من على ظهور الخيول على الفجاج وخلعوا عنهم السلاح ووضعوا رؤوسهم على وسائد الراحة وراحوا فى نوم هنئ وإذ بجيش المغول يهجم عليهم من واد ويجعل خلقاً لا حصر له علف السيف وكل من أمهل عمره أمن بحياته ، وتفرقوا فى الجبال والوديان بالزرافات والوحدان . ولما أزال جيش المغل أمر الخوارزميين وكانت الشمس فى اصفرار طرقوا بسيوف زرقاء ملوثة بالدماء أبواب أخلاط ، وقضى كل الليل الفرسان والكتاب الذين كانوا بالمدينة أمور التحفظ والتيقظ واستعدوا للمحاربة والقتال . وفى الصباح كان جيش المغول قد ارتحل وتركوا نيرانا مشتعلة . فأرسل الصاحب فرساناً عديدين ليتحققوا من الحال وينظروا فى المخاوف والمكامن والمهارب والمسارب فلم يجدوا لهم أثراً قط . وفجأة خرجت عجوز زاحفة من شق بحائط وجرت إلى الفرسان فحملوها إلى خيمة الصاحب وكانت أم قيرخان قالت كنا نائمين بصحراء طوغطاب حين باغتنا بالهجوم سبعمائه رجل متدرع من جيش المغل كانوا قطعوا من مغان إلى ذاك المقام فى ستة أيام ، ونجا بحياته كل من استيقظ وركب جواده وفر إلى فوق جبل أو فى واد ، وأمسكوا بي وأتوا بي إلى حيث رآني الفرسان ، وجعلت من ظلمة الليل وقاية عصمتي وتحصنت بشق حائط ولم أعلم شيئا عن أحوال الخوارزميين . فقال الصاحب إن أربعة آلاف رجل خوارزمي يبقون مغلوبين من سبعمائة تتارى عار عظيم ، فأجابت العجوز لو ألقيت بقلنسوة مغولية بوسط آلاف من الفرسان الخوارزميين لتفرق جمعهم بمثل هذا استقر رعب المغول فى قلوب الخوارزميين . فانفعل الصاحب من كلام ذات الكلام هذى وقال قبل[1] أن يعطفوا ويحاصروا المدينة أولى بنا أن نذهب إلى أرزروم ، وسرعان ما جمعوا أطراف أمور الممالك وحملوا مؤونة أربعة أيام ولحقوا بأرزروم ، وحينذاك قصد القصاد من كل طرف بأن الجيش الخوارزمي قد خرج كل واحد منهم إلى ركن ، فسير الصاحب القصاد لاستحضارهم وأتى جملتهم إلى الخدمة وقصوا الحال كما جرى . فبالغ

---

(١) في الأصل خطأ (بيش) والصحيح بالباء المثلثة .

الصاحب فى استمالتهم وقال الأمل ألا تنزل بكم نازله أخرى بشوكة دولة السلطان وأن تكون هذه آخر النوازل وخاتمة النوائب وأعطى جميعهم الكساء والمال وسيرهم باسترضاء لهم إلى قيصرية . ولما بلغوا قيصرية حيث بلاط السلطنة أثنى السلطان على خدمات الوزير الرضية المزيد وآرائه السديدة ثناءً بليغا وأكرم الخوارزميين ومنح أرزنجان لقيرخان وأماسية لبركت ولا رندة لكسلو سنگم ونكيدة لبيلان بوغو بحكم الإقطاع .

ذكر حشر الملك الكامل لقصد ملك الروم وانهزامه ورجوعه منكوباً مقهوراً للقاهرة

فى سنة (٦٣٠ هـ) لم يقتصر الملك الكامل لعقله الناقص وشقائه الخالص على ملك مصر وحكم بلاد اليمن وانما كان يروم التصرف بطريق الإضافة فى مملكة الروم ويبدل القرابة والتحاب إلى وحشة واغتراب ، فقرأ مثل فرعون آية (فحشر فنادى[١]) وأصدر مثاله بأن يهجم أخوته بعساكر كسيل العرم بغتة على ممالك الروم إلى أن يعلم السلطان يكون قد أتم غزوته وجلس على عرشه . وفى الحال أنهى هذا المعنى إلى بلاط سلطانهم ، فلما أحيط بفكر الكامل المخبط علم السلطان الأشرف قال لما أن غرور ملك (أليس لي ملك مصر[٢]) قد غره وبعثه إلى الإعراض عن قبلة المودة وابتغى الوغى مع هذه الأسرة بتسويل الشيطان فأملي أن يولي دبره بأسرع ما يكون مقهوراً إلى القاهرة ويفر بالمكافأة السيئة التى هو عليها مصر إلى مصر ويهيل فى مأتم الشأم رداءه فى النيل . وفى الحال أمر كمال الدين كاميار بأن يتوجه بلا توقف بذلك القدر من العسكر الحاضر على البلاط إلى دربند (آقچه) ويراعي الاحتياط ولا يبقى شيئاً من الحزم والدراية المتعارف عليهما منه ، لأن المواكب الميمونة سوف تعزم فى عقبه . فأوصل الأمير كمال الدين ومعه الأمراء والقواد السير بالسرى حتى حل برأس الدربند وأحكم المهارب

(١) سورة النازعات الآية (٢٣) .
(٢) سورة الزخرف الآية (٥١) .

بالأشجار والأحجار ورجال القتال . وبعد يومين أو ثلاثة وصل السلطان بعساكر متوافرة وقيرخان وأمراء الروم وخوارزم وعتاد وأعداد بلا تعداد .
وكان بكل يوم جيش الحبش ينهزم من رعب جيش الصين والختن كان الخوارزميون والروميون يخرجون من تلك الدروب فيقومون بالقتال والجدال مع رجال الشام ويقتلون كثيرا من الناس ويجرحونهم ، ولم تكن تعود بالتقدير الإلهي من جيش الشام عليهم نكاية ، وكان يجرى على لسان السلطان (وإن جندنا لهم الغالبون[1]) . وفى يوم أمر بإيجاب الذهاب فى الصباح بجدتام إلى عسكر الشام وتفصل هذه المخاصمة بمحاكمة الحسام . فظلوا الليل كل الليل فى التهيئة والاستعداد ، وفى السحر حين ركب قائد ركب السيارات الجواد الأبيض لقلعة الفلك ، واستل فى معرض ميدان الأفق المشرقي خنجر الأشعة وصار فى جولان ، لبس السلطان بنفسه سلاح القتال وارتدى الأمراء الكبراء جميعاً الحديد وتوجهوا إلى الخصم ولعوا زماناً سيوفهم من أدواج المعادين .
ولم تكن الحرب العوان قد أظهرت بعد النصرة خذلان الأعوان ولم يكن الكاسر خطف بعد كره الظفر من المنكسر حين رأوا فارساً قد أتى وسجد وقال إن الملك الكامل وأخوته سلكوا اليوم طريق الشام فى الصباح فسر السلطان لهذه البشارة وأرادوا اتفاقاً دخول طريق وادي (دوزخ) و (باغبنك) وكان العسكر المنصور يحرس هذين الدربين . فلما وصلوا ذاك المكان وكان النقب فى القلعة المطلوبة متعذراً ، قرأوا باضطرار (الفرار بقراب أكيس) وتوجهوا إلى الحصن المنصور فلما بلغوه أضرموا النار بالحصار وخربوا القلعة وتوجهوا خوفا من صوله الدولة القاهرة إلى مصر والقاهرة (وكفى الله المؤمنين القتال[1]) .

---

(١) سورة الصافات الآية (١٧٣) .

ذكر محاربة ملوك الشام وشمس الدين صواب لعساكر السلطان وانهزامهم وتحصنهم بقلعة خرتبرت

لما عاد الملك الكامل بغير حاصل من ممالك الروم ، توجه إليه من العجز ملك خرتبرت الذي كان تولى ولاءه وانخرط فى زمرة أشياع دولته وقال حين جعلت بسبب مودتكم من السلطان عدواً لي ، فإنه يلزم من جهة المروءة مراعاة ملكي على ذمتكم ، فندب الملك الكامل ملك حماة وملك حمص والأمير شمس الدين صواب الذي كان زعيم الدار وكل الاعتماد على شجاعته بخمسة آلاف فارس للمحافظة على خرتبرت ، ولما رجع الملك الكامل أتى السلطان ملطية وطلب الجيوش التى كانت ذهبت للمحافظة على الدروب وأمر فعقدت الجسور على نهر الفرات وعبرت العساكر كلها ولما لحقوا بصحراء خرتبرت كان ملوك الشام مع ملك خرتبرت نزلوا تحت العقبة واستعدوا . وعبأ مبارز الدين الصاولي وبهرام شاه رئيس الحرس وياقوت أمير القضاء وسائر المعتبرين الميمنة والميسرة وتقدموا للمقابلة واصطفوا حتى انتصاف النهار ، ولم تجر من الطرفين حركة بحكم أنهم كانوا ينتظرون الأمير كمال الدين . وكان قد بلغ مسامع الأمير كمال الدين أن ملوك الشام يقصدون المقاتلة عن طريق (بيرة) فجرد للاحتياط الجيش إلى هذا الطريق ، ولما وصل ولم يجد أحداً توجه إلى خرتبرت . فأرسل إليه مختبرا الطعام كلاهما قاصداً فأهمل فى الاستعجال . ولما رأى القاصد أن التهاون يجرى فى الإمداد بث إشاعة أن عساكر الشام ولوا دبرهم منهزمين وحصل لجيش الروم الذي كان فى مقابلتهم غنائم لا حصر لهم . وبهذا الطمع لحق خمسة آلاف فارس للصاولي مختبر الطعام والتونبة مختبر الطعام الثاني ، ولما رأى العساكر المصطفون أن عسكراً وصل لمددهم حملوا فرد الشوام حملتهم . وهاجمهم تاج الدين البروانة ولد القاضي شرف بجيش نكيدة ، وتحول سعد الدين كوبك من الميسرة إلى الميمنة وهزموا جيش الشام كلية وقتل من الشوام كثير ولم يقتل

من هذا الجانب غير رجل أفرنجي فى الحرب وأسر سبعمائة من جيش الشام وأرسلوا إلى دهليز المستولى على الدنيا . ونزل إذ ذاك الشوام بوسط عقبة خرتبرت وعاد الروم إلى مضارب الخيام . وفى اليوم التالى وصل كمال الدين كاميار بجيش جرار . ولما شاهد الشوام من فوق العقبة عقاب مظلة المستولي على الدنيا انقلبوا إلى القلعة اشفاقاً على أرواحهم بما بقي لهم من أرواح ودخل عسكر الروم متمهلاً المدينة ومدوا أيديهم بالنهب وحرق الديار وخرق الأستار وكان السلطان جالساً فى انتظار بملطية لمبشر الفتح .

ذكر والدة مؤلف أصل ذلك المختصر ووالده الأمير ناصر الدين أمير ديوان الطغراء الذي يلتزم بتبعيته لهذا المقام

والدته هي بيبي المنجمة التى كانت ابنة كمال الدين السمناني رئيس الأصحاب الشافعيين فى نيشابور ، وكان لها مهارة تامة فى علم النجوم من قبل الوالدة حفيدة محمد بن يحيى ، وبحكم أن كان لها سهم الغيب فى الطالع كانت أحكامها تأتي موافقة مع القضاء والقدر . وفى الوقت الذي كان كمال الدين كاميار قادماً بسفارة إلى السلطان جلال الدين على أبواب أخلاط رآها مقربة إلى خدمة السلطان ووجدها مرجوعاً إليها فى الأحكام النجومية ، وعرض فى وقت رجوعه لحضرة السلطنة هذه الحكاية على سبيل النادرة فى أثناء المحاورة . ولما أصيب السلطان جلال الدين بنكبة من عسكر المغل على غرة انقلبت هذه المرأة مع زوجها إلى دمشق . ولما وصل خبرها السلطان علاء الدين أرسل رسولاً إلى الملك الأشرف لاستدعائهما وأدخلهما ممالك الروم بإعزاز وإكرام . ولما قدم الجيش إلى خرتبرت حكمت بيبي المنجمة بأن فى اليوم الفلاني الساعة الفلانية يصل مبشر الظفر . وكان السلطان يترصد ذلك اليوم ويتطلع فى تلك الساعة إلى ورود القاصد . وإذ بالقصاد يصلون بانخذال عساكر الشام وامتناعهم بخرتبرت واذا نهضت الرايات إلى هذا الصوب ليتيسر فتح القلعة بلا أدنى منازعة . فزاد اعتقاد السلطان لموافقة

ذلك الحكم فى مهارتها فى ذلك العلم . وفى الحال سار الغلمان الخواص لإحضارها ولما دخلت قال إن حكم بيبي خاتون وافق التقدير الرباني وألبسوها الخلعة السلطانية وأمر بأن تعرض كل أمنية فى خاطرها فالتمست إنشاء حضرة السلنة لزوجها مجد الدين محمد الترجمان ، وكان من سادات كورسرخ ومعتبري جرجان ، فتيسر لهما ذلك بلا توقف وظل ملازماً للسلطان فى الحضر والسفر مخصوصاً بالإكرام الخسرواني . وبلغ أمره فى هذه الدولة حد أنهم لم يكونوا يرون أوفق منه للرسالات الكبار لمثل بغداد والشام والخوارزميين وعلاء الدين نومسلمان والسفارة إلى خدمة المعسكرات ، وانتقل فى شعبان سنة (٦٧٠ هـ) إلى جوار ربه تعالى . نعود إلى أصل الكلام أمر السلطان فقرعت البشارات ، ونهض فى اليوم التالى الموكب الميمون إلى خرتبرت ، وحالما وصلوا نصبوا ثمانية عشر منجنيقاً ، وضيقوا بتواتر الأحجار عرصة الأمل وفسحة الأجل على محصوري القلعة . ومن غرائب الاتفاقات أن حملاً كان علق فى التنور فى مطبخ ملك خرتبرت ليقدم إلى الملك وملوك الشام . فدخل رئيس الخوان وعرض أن حجر المنجنيق سقط على التنور ورمى بالحمل على الأرض . وكان ملك حماة رجلاً عاقلاً قال يا أصحاب الدولة إن الدخول من باب الممانعة بعيد عن الحصافة والرأى هو أن يذهب واحد منا إلى خدمة السلطان ويتشبث بذيل كرمه عله يهب أرواحنا الأمان . فقدم خدمة السلطان باتفاق الجميع ملك حماة الذي ارتأى هذا الرأى وخص بالعاطفة الخسروية وقرنت شفاعاته بالإجابة بشرط ألا يخرج ملوك الشام وأمراؤهم من القلعة بقليل أو كثير ويقنعوا بسلامة رؤوسهم وسطر كتاب الأمان على هذا الوجه لكن حجر المنجنيق يظل على حاله من العمل . وفى اليوم التالى خفقت عذبات أعلام سلطان ممالك الشرق على الشرفات الميناثية لهذه القلعة الزرقاء ورفعت من القلعة صرخات الأمان وطلبوا رفع السنجق فرفعه خاص طغرل ونصبه على برج البوابة وكانت أصوات البشارات تبلغ أسماع السيارات من الداخل والخارج . وخرج أمراء الشام وملوكهم من القلعة ونزلوا الموضع الذي عينه المضيفون . وأرسل السلطان الخلع لكل منهم

على قدر مرتبته وأمر بحضورهم حفل منير[1] الدنيا بالصلاة التالية فاكتسى جملة ملوك الشام وأمراؤهم الخلع ودخلوا وحصلوا من الأكل والشرب أهنأ الشرب غير شمس الدين صواب الذى لم ينظر إلى الخلعة ولم يأكل الخبز من المائدة ذات الأعمدة ، فغضب السلطان من تَنَمُّره وتجبره وقال للأمير كمال الدين إنه لم يلبس كساءنا الأسود ولم يأكل خبزنا فأجاب كمال الدين إنه أكل بكلتا يديه وحصل له الشبع التام فابتسم السلطان لسماع هذه اللطيفة . وفى اليوم التالى نودى فى الجيش أن من يبيع دابة للشوام لن يجد غير القتل والصلب . وكان هذا الاستخفاف بسبب رأى خطأ « صواب » . وفى اليوم التالى سمح لهم بالانصراف فتوجهوا إلى بلادهم وبحكم أن البرد كان متغلباً على صحة صواب ولم يكن يطيق السير كان غلمانه يحملونه بالمناوبة على الترس الكرجى حتى أوصلوه حدود الشام . ولما حصلوا على الإجازة صعد نواب السلطان وأمناؤه القلعة وعملوا احتياط الأمور وإذ ذاك عزم قيصرية وأمر كمال الدين كاميار وإيازا رئيس الشراب بأن يطهرا الملوك الذين كانوا له من الملكة العادلية ويقوموا بسنة الختان برسوم السلاطين وعزم بنفسه مشتى أنطالية والعلائية .

ذكر فتح حرّان والرها والرقة وتوابعها ولواحقها

لما عزم موكب ملك الأنجم من برج القمر بأمر رب البشر إلى مروج الحمل وأخذت من عمل صناعته أطراف القلل زخرفها من الحلى والحلل ، نهض السلطان من أنطالية والعلائية إلى قيصرية التى كانت مجمع العساكر وأمر الأمير كمال الدين وباقى أركان الدولة بأن يصمموا على عزيمة فتح حران والرها والرقة ومضافاتها ويجعلوا ديار العادل والكامل وقصورهما مجاثم الآرام ومرابض الظباء والنعام فسار ملك الأمراء كمال الدين بخمسين ألف فارس كالبرق اللامع . وعندما وصل ذلك الصوب قاموا بنصب المنجنيقات . ومع أن شرفة قلعة حران كانت تساوى أبراج نجوم الحسبان وكانت تستنكف

---

(١) في الأصل خطأ (جهان افرور) والصحيح (جهان افروز) .

من ذكر جبل قاف ، وكانت أمواج خندقه تصيب روح البحر الأخضر بالارتعاش ، لكن بسبب تواتر الحملات ووقوع أحجار المجانيق في البيوت والحجرات ظهر الرجفان في السكان بها . لكنهم للحق صابروا مدة شهرين . وحين عجزوا عن تجرع مرارات كاسات الصبر وأخذ يحدث فى المدينة من العسكر الكرجي والفرنجي لكرائم حرائم المسلمين تجاوزات ، رفعوا لتسكين هذه الداهية واشفاقاً على أرواحهم صرخات الأمان وأرسلوا المعتبرين لخدمة ملك الأمراء واشترطوا أنهم لا يخرجون بشئ من القلعة خلاف الأطفال والعيال وهبطوا من القلعة عرايا خروج اليد من ماء الغدير[1] والشعرة من الخمير ورفع السنجق وصعد الأمراء إلى الخلوة وأثبتوا فى الدفاتر الأموال والخزائن التى لا حد لها وختموا أبواب الصناديق والبيوتات وأعلموا خدمة السلطان . وأمر السلطان بعد إحماد المساعى بأن يرسلوا الخزائن باحتياط تام إلى الخزانة العامرة ويتركوا بالقلعة كل ما لابد منه ويبعثوا بالباقي المؤثر أكثر من غيره إلى المحروسة ملطية ويقوموا بمرمة شقوق القلعة ، وبعد إتمام المهام يتوجهوا إلى البلاط . وبعد عودة ملك الأمراء والعساكر عن موضع قلعة حران وصلت القصاد على غير ميعاد ملطية بأن الملك الكامل عاود حران وأعاد فى تصرفه القلعة بوجه المحاصرة ووضع حراسها ومتجندتها ونوابها فى أجولة حملها على الجمال وأرسلها إلى مصر وحبسهم فى الحبس الأبدى ومع أن السلطان انفعل من هذا الخبر لكنه قرأ (فيوم لنا ويوم علينا) وقال إن استرجاع حران ليس من المهمات والرأى أن تذهبوا لمحاصرة (آمد) . فأجاب كمال الدين كاميار إن فرمان السلطان صحيح ولو قصد العساكر المنصورة قلاع الأفلاك لألقوا بأبراجها بسهولة ويسر فى وهاد الرماد . لكن بما أن آمد مدينة قلعتها جبل جرانيتى ولم يفتحها ملك قط بالقتال والحصار إلا أن فتحها لا يمكن أن يتيسر . لكن الظن هو أنه يتيسر بثلاث سنوات متواترة على نحو أن المزروعات فيها تحرق فى السنة الأولى وينهب مواشيها

---

(١) في الأصل (برهنه چون شير) أي عرايا كاللبن ، وقد أقحم المؤلف (شير) لتحقق السجعة مع (خمير) فتصرفنا بما يفيد التشبيه والسجع معاً .

ويؤسر رعايا هاود هاقينها وينكبون ، ولا يذرون مدة سنة أخرى أن يصلهم من الذخيرة مدد . وفى السنة الثالثة يمكن أن يتشبثوا بذيل الأمان ويسلموا المدينة ولما أحجم بهذا العبارة عن محاصرة آمد[1] .

ذكر تصدي تاج الدين البروانة لمحاصرة آمد والعودة على وجه الخيبة

قال تاج الدين البروانة ولد القاضى شرف الدين الأرزنجانى ليسبب رواج سوقه وكساد متاع حشمة كمال الدين كاميار الذى كان محسود العالمين فى أحد الأيام حين وجد أثناء التقدح أن ذات السلطان فى تروح لو سمح الملك للعبد بأن يقدم بالعسكر القديم والخوارزميين إلى آمد لتيسرت فى مدة ستة شهور بل أيسر . فأمر السلطان له بهذا الالتزام بالإكرام وفوض له زعامة الجيوش وسير العساكر فى صحبته بالأسلحة والعتاد والعدة المعدة . فلما بلغها صرف مدة فى محاصرتها ولم يظهر أدنى أثر . وبحكم الحقد الذى حفظه قيرخان وأمراء خوارزم الآخرون فى قلوبهم على الملك الغازى وبدر الدين لؤلؤ والملك المنصور صاحب ماردين بواسطة السلطان جلال الدين حين لم يلتفتوا إليه فى وقت التجائه إليهم أخذوا فى مهاجمة تلك الممالك وأوسعوا حتى سنجار قتلا وسبيا وحرقا ونهبا وخراباً وأعلموا الحال لبلاط السلطنة . وكان السلطان مصراً على فتح آمد ، فأرسل الصاحب شمس الدين الأصبهانى بجيش آخر بأموال وسلاح لا نهاية له إلى حد أنه حمل برسم المنجنيق أحجار من الحديد مدورة وزنه واحدتها من[2] وثلاثة منات وخمسة منات على ظهور الجمال . فانغلق ذلك الفتح عليه أيضا وكان خائفاً من قبل غضب حضرة السلطنة فأظهر الحال للبلاط بهذا النحو أن أمر آمد عامد إلى نهايته لكن الشتاء باغت بالهجوم فظهر من ذاك القبل فتور على العساكر فى

---

(١) جواب شرط الجملة هو أول جملة من الفصل التالي .

(٢) المن وزن قد يم يعادل نحو ثلاثة كيلو جرامات .

النهضة والحركة ، فلقوا بتلك الواسطة إجازة التفرق والمعاودة لكن السلطان قال أباشر وأزاول العام القابل بذاتي وأكفي هذا المهم كما هو الواجب . ولما بلغ الأمراء الخدمة لم يعتابهم وأغضى عما مضى .

ذكر ورود رسل المعسكر إلى السلطان علاء الدين كيقباد

حكى الأمير شمس الدين عمر القزوينى أننى بسبب أحداث الأيام تركت وطنى القديم الذى كان مقطع السرة ومجمع الأسرة وسلكت طريق التجارة ولما بلغت مدينة أرزروم ورأيتها بالنعمة والراحة مشحونة أقمت بها مدة وجمعت نعمة متكاثرة ، وأعددت الدروع السابغات وصنعت ألوان المرصعات وقضيت مدة فى تتميم ذلك . وحينذاك قلت لنفسى أن مثل هذا المتاع لا يجدر بغير خزانة الملك ، فأسرجت مطية السفر وفتحت علىَّ طريق ذلك البلاط . ولما وصلت إلى تلك الحضرة حصلت المعاملة المنجحة والتجارة المربحة وكان الملك حاضراً وقت العرض فقال لى من أين أتيت قلت من بلاد الروم قال تلك المملكة فى يد السلطان علاء الدين كيقباد قلت نعم قال كيف طريقته فى الملك قلت هى أنه ملك رضى ليس فى الإسلام مثله : ملك بعدل شامل وعقل كامل وملك معمور ومال موفور وشعب مسرور . قال يحزن مثل هذا الملك أن نحرمه من عنايتنا ، وأنا أعلمه أن يطيعنا فيبقى ملكه ورعيته عامرين فإذا أرسلتك بسفارة إليه فافعل . فعرضت أنى رجل تاجر ليس لى اطلاع على دقائق الرسالة وربما أغفل دقيقة لا أعلمها فأبقى مُعَاتَباً . قال حين وقع نظرنا عليك واخترناك لمثل هذا الأمر فإن الله يجرى على لسانك ما هو مقبول عند العالمين . ثم أرسلنى من مقام معسكر (سبزه أردو) إلى الخدمة بغلامين مغولين وبدون رسول مغولى وبايزة ذهبية وبايزة فضية[1] ويرليغ أو فرمان مضمونه هذا :

---

(١) البايزة اسم عملة كانت تعطى في عهد المغول للأمراء والحكام وكانت بمنزلة أمر الانتصاب من لدنهم ويبدو أنها عربت إلى (بريزة) في العامية .

سواد اليرليغ الذى قدم إلى السلطان علاء الدين كيقباد :

(يعلم الملك العادل السلطان علاء الدين أننا سمعنا بالذكر الطيب لما سلكت فى إدارة الملك ورعاية الرعية ورضاء الآتى والذاهب لك ورضينا بذلك كثيراً وأمرنا لك بهدية ووددنا أن تظل على الدوام فى ملكك سعيداً مطمئناً . ولأن الله تعالى أعظم أمرنا وأعز شأننا ووهب بسيط البسيطة لأسرتنا وأنت تسلك الطريق الرضية فصار علينا واجبا إظهار حالنا لك ودعوتك لسبيل الطاعة والانقياد للأمر . وبعد هذا لما أطلعناك على أحوالنا فان من ينقاد لنا ويعصينا ويدخل عسكرنا ولايته ويقتل رجالها ويأسر نساءها وأطفالها ويغير على مالها وأسبابها ويخرب ويصيبهم بالسوء فهو ليس منا . حرر فى عام بيچين سنة ٦٣٣ هـ) .

وسرت وبعد طى الطومار لمسالك الديار لحقت بممالك الروم . ولما وصل قيصرية كان السلطان بالعلائية فأرسل مبارز الدين الصاولى قاصداً إليه وعرض أحوالنا وأبقانا هناك حتى الربيع وكان يأتى كل يوم بعد السيران وقبل الديوان لرؤيتنا ويبدى لنا مراعاة بلا حد . ولما ضحك وجه الربيع وقدم السلطان من العلائية إلى قيصرية أحضرنا وأظهر لنا الإحترام التام . ولما أبلغت اليرليغ نهض وطالعه بنفسه . ولما هبط التخت وأحضرنى فى قصر الخلوة بدون الغلامين كان أول لفظ سمعته منه هو الحمد لله أن الرسول الذى وصلنا هو من اختاره الله وهو مسلم وعزيز الله أعزنا وذكرنا . ثم قال إذ ذاك ما أسأل عنه هو من وجه مراعاة الدين فالواجب أن تصدقني . فقلت كل ما أعلم أبلغه بلا ريب فى محله . قال اذا أطعناهم هل يطمعون فى ملكنا قلت معاذ الله . إن قدر طاعتهم هو أن يذهب رسول إلى خدمتهم كل عام ويحمل لهم شيئا قليلا من الأكسية التى تبلى[1] والأسباب التى يتقادم بها العهد في الأراضى والاصطبلات والذهب الذى يأتى تحت الأرض فى معرض التلف والإخلاص لهم فى الظاهر والباطن . فقبل السلطان الطاعة وأمر بترتيب التحف والهدايا والطرف من الروم . وفجأة لحق فى الثالث من شوال سنة

(١) فى النص خطأ (بوسد) والصحيح بالباء المثلثة .

(٦٣٤ هـ) بجوار الحق وجلس ابنه غياث الدين كيخسرو على العرش . وأرسل إلى وإلى الغلامين أن أبى خاطبك بأخيه وأنا أدعوك أبى وأسلك أيضا طريق الخضوع والطاعة وسير الهدايا التى كان السلطان علاء الدين رتبها بصحبة فخر الدين بن جبر المصرى إلى ملطية ولما وصل إلى ولاية خراسان حل الملحدون بجيش كثيف على رؤوسنا واستاقونا إلى جبل الكرد وظللنا محبوسين مدة ثلاثة شهور ويومين . ولما بلغ خبرنا الخدمة[1] أرسلوا جرماغون نويان . فخلصنا من أيديهم . ولما وصلنا إلى الخدمة وقلنا أحوال الإعزاز وقبول الطاعة وترتيب التحف ووفاة السلطان علاء الدين قال ثلاثاً (قير[2]) وارتضى طاعة غياث الدين . ثم أمر أن أذهب إلى الروم وأكون حاكماً[3] من لـدنه ولما وصلت العراق كان بايجونويان قابل غياث الدين بجبل (كوسه طاغ) وجرى الحال على ذاك النمط الذى به جرى .

ذكر وفاة السلطان علاء الدين كيقباد

لما بلغ شمس معالى السلطان علاء الدين كيقباد وجلاله في الملك والسؤدد درجة الكمال لا بل بحائط الزوال ، وطأطأ قواد الآفاق رؤوسهم أمام خط حكمه ، وبدأ مع أمير المؤمنين المستنصر المشاركة فى المملكة بحكم وراثة الأعمام وخوطب بالسلطان الأعظم والقسيم المعظم ، جمع بحكم غبار الوحشة الذي كان علق من جهة الملك الكامل بخاطره الأشرف العساكر لقصد ولاية الشام بقيصرية ، وفوض للاحتياط والمراعاة سيواس من تخويل[4] فخر الدين إياز رئيس الشراب وكان أخص الخواص ولحق بجوار الحق إلى قيرخان وقرر حكم أرزنجان ثانية إلى الملك غياث الدين وعين ألتونبة مختبر الطعام للأتابكية ورئاسة الأمراء بالدولة وقرر ولاية عهد سلطنة الروم للملك عز الدين

---

(١) الخدمة اصطلاح المؤلف لبلاط المغول .

(٢) صوت مغولي للندبة كما يظهر من النص .

(٣) باصطلاح المغول (باسقاق) .

(٤) في النص (تحويل) والأصح (تخويل) .

قلج أرسلان وألزم جملة الأمراء بمتابعة هذا المعنى حتى حلف الجميع رغبة ورهبة أيمان المبايعة وأقسموا على ولائه وهوائه الأيمان الوثاق . ولما ظهر هلال شوال سنة (٦٣٤ هـ) كان حشد فى صحراء مشهدية عسكراً من الكثرة بحيث لم يمكن حصره ، فحضروا العيد وأبدى كل واحد فنه ، وإذ ذاك أخلى الميدان وجعل السلطان جلال الدين القراطاى يتعقبه بحربة ولم يكن يمنح هذا التمكين (لبلاتكين) ، وقاموا بلعب هذا اللعب مرات عدة . وعزم بعد ذاك السرادق ذا الرؤوس الثلاثة وأدوا الصلاة ووضعت المائدة فطعموا . وفى اليوم الثالث من شوال أمر فحضر جميع الرسل الذين كانوا موجودين في قيصرية الحفل الملكى ، وتجمع أمراء حضرة السلطنة وأكابرها وأماجدها وأتى بآلات الاحتفال وارتفعت أصوات المطربين بحسن تلحين . وبدأ السقاة ذوو النطاق الذهبى والساق الفضى الدوران على رأس الحرفاء كالسرو ذى السيران . ونادى المغنون بصوت بطى الريح[1] :

خذوا بنصيب من نعيم ولذة	فكلٌ وإن طال المدى يتصرم

وكان غراب البين يبلغ أسماع الجلاس ورضاع الكاس بصوت يفيض بالفزع والياس ونعيب النحيب بإنشاد نشيد :

كم جموع قد رأت أبصارنا	يمزجون الخمر بالماء الزلال
ثم صاروا في غدا أيدي سبا	وكذلك الدهر حال بعد حال

وإذ بناصر الدين على مختبر الطعام يدخل بطائر مشوى ساخن الحفل الآمن ، وقطعه بخدمة السلطان ، وتناول السلطان لقمات عدة ، فظهر بعد زمن تغير تام على مزاجه الكريم . وغدا أهل المجلس مشوشين متفرقين . وتجشم السلطان من فرط الاضطراب والالتهاب راكباً إلى سراى كيقبادية وتقيأ كثيراً وقال لقراطاى إن أمرى قد انتهى ويجب طلب كمال الدين كاميار لكى أقدم له وصاياى . أسرع الغلمان الخواص فى طلبه ، وحين وصل الحضرة كان الوقت صلاه العشاء . وكان الكلال ظهر على قوة نطق السلطان حتى أنه كان

(١) المعنى الحرفي (ونادت الساق الطاوية للريح) .

يومئ ويشير ولم يكن يصل فهم الأمير كمال الدين إلى ذلك . وسرعانْ ما عاد إلى منزله . وفى وقت من ليلة الأثنين الرابع من شوال سنة (٦٣٤ هـ) انتقل السلطان من سراى كيقبادية إلى منزل الرضوان . وبعد يومين حمل جسده الطاهر إلى قونية ودفن بجنب آبائه وأجداده . وصار لهذه المفارقة قلب البرق شواء وعين السحاب فائضاً بالماء ، وسقطت أمور الملك والملة من ذاك اليوم فى تراجع وفساد ووهى نظام عقد الملك . ومن عجائب الاتفاقات أن الملك الكامل والملك الأشرف اللذين كانت سوداء حصول ملك الروم كانت على الدوام كامنة فى سرّ الفكر عندهم وافتهما المنية أيضاً فى هذه الأيام ووقعت أحوال ممالك الروم فى الهرج والمرج ، ولم تغض فى متنزه هذه الممالك التى كانت موئل الغرباء وملجأ الضعفاء شربة هنية فى أى حلق لأن مائة ألف نهردم فاضت من الجيوب والقلوب[1] .

ذكر تمكن السلطان غياث الدين كيخسرو بن كيقباد على سرير الملك

لما دق السلطان علاء الدين كيقباد سرادق الروح فى ظل الرحمة الإلهية وتوجه إلى رياض جنات النعيم ، أعلم الملك غياث الدين بفساد حال السلطان ، فعجل فى الحال بالدعاة لكل أمير من أكابر الدولة ، ودعا إلى هواه وولاه ، فوجد كلاً من شمس الدين ألتونبة مختبر الطعام وتاج الدين البروانة ولد القاضي شرف وجمال الدين فرخ استاذ الدار وسعد الدين كوبك وظهير الدولة ابن الكرجي فى ذاك الباب سمح العنان وسريع الإجابة . وفى اليوم التالى كان الأمير كمال الدين وحسام الدين القيمرى وقيرخان وباقى الأمراء الجاهلين بمآل حال السلطان يسيرون فى الميدان فرأوا غياث الدين ومعه الأمراء الذين أجابوا دعوته قد أرخى العنان آتياً من طرف كيقبادية إلى المدينة ، فقدموا فى الحال إلى سراى السلطنة ، ولما رأوا أن أشياعه كثيرين

---

(١) فى الأصل خطأ (برنيامد) لم تخرج ولم تفض والصحيح أن تكون مثبته لا منفية .

أقسموا على الهوى والولا لغياث الدين ، ورفع ألتونبة مختبر الطعام وجمال الدين فرخ اللالا السلطان وأجلساه على العرش وقبلوا يديه ونثروا عليه . وأمر في الحال فأطلق سراح جميع المحبوسين وأحكموا غلق أبواب المدينة . ولما سمع حسام الدين القيمرى هذا المعنى وهو أن الأمراء أجلسوا غياث الدين على العرش خلافا للقرار والعهد اللذين قطعوهما مع السلطان تملكه الغضب وقال للأمير كمال الدين وقيرخان إن الملك عز الدين بكيقبادية ونحن حافظون لعهد السلطان الماضي فنجلسه على العرش وكل من يظهر الخلاف نلحق به الدمار بطعن الفولاذى البتار ، فالجيش معنا وولى العهد بأيدينا ، ولن نجيز هذا العار علينا أبداً وإن خالفنا موافقو غياث الدين حطمنا بوجه المحاصرة مرادهم . فتوافق قيرخان مع القيمرى ، وتوقف كمال الدين كاميار وأخذ يتعلل بالعلل . وإذ بالخبر يصله من المدينة أن الأمر جاوز ما كان بالحسبان وكل من سارع بالقدوم سلمت رأسه وكل من تعرض للهوى الذى لا يهب من مهب موافقة السلطان غياث الدين لم يسلم بمرهم الندامة من جروحه . ولم يلتفت الأمير كمال الدين لهذا أيضاً . وظلوا يطوفون بأطراف المشهد حتى الصلاة التالية ولما رأوا أن المماطلة والمضايقة لا يفيدان ، ولا يمكن تصور مزيد على حكم (والله يؤتى ملكه من يشاء[1]) ، دخل الأمراء الثلاثة جميعا المدينة وهنأوا السلطان بالسلطنة . وسبق تاج الدين البروانة في إسراعه لكى يلقن الأمير كمال الدين القسم ، فوضع يد الرد على صدر مرامه وأمسك بكفه المصحف المجيد وقدم نحو التخت وأقسم بعبارة وبلاغة وفصاحة حيرت جملة المتميزين وأصحاب الفضل الحاضرين في ذاك اليوم ، وأقسم قيرخان والقيمرى وبقية الملوك والخوانين جميعا وقرر الملك للسلطان غياث الدين كيخسرو وأرسلت الفرمانات للأطراف متوّجة بالتوقيع (الملك لله) وأطلق سراح المساجين .

---

(١) سورة البقرة الآية (٢٤٧) .

ذكر القبض على قيرخان وهروب العسكر الخوارزمى للشام

بدأ سعد الدين كوبك من خبث طينته وفساد طويته وضع الشرور ولفق لقيرخان وكان من كبار أمراء عساكر خوارزم التهمة بخدمة غياث الدين، وعرض أنه سوف يعرض عن الطاعة . فإن يذهب من هذا البلد لمكان آخر يغر الأعداء لأنه واقف على كمية الملك والعسكر وكيفيتهما والرأى أن تقيده حتى يقوم الآخرون على جادة الإخلاص رعباً ورهباً ولا يقصدون مفارقة هذه الحضرة . فأمر السلطان من فرط الغباوة والغرة وهما من لوازم الصبا والشباب فأحضر واعتقل بمسجد سراى السلطنة ، وقيد بالليل واقتيد إلى قلعة (زمندو) وابتلى بمرض بها ووافته منيته . ولما سمع باقى الأمراء بهذا ولوا هاربين وبدا التزلزل والاضطراب فى الممالك وسقطوا على الولاية بالنهب والإغارة . فندب السلطان كمال الدين كاميار لاسترجاعهم فسار بالعسكر ولحق بملطية وأرسل بعقبهم أرتقش قائد عسكر ملطية حتى خرتبرت . وكان الخوارزميون عبروا الفرات عن طريق (عرب كير) فقطع عليهم أرتقش ومعه سيف الدين بيرم والى خرتبرت ، فأرسلوا قاصداً بقولهم أدركنا الراحة والسعادة من التشرد فى ظل السلطان الماضى فلما لحق بجوار الحق حبس قيرخان قائدنا بلا جرم ، فتركنا إشفاقاً على حياتنا خدمة هذه الأسرة وسحنا فى العالم فى طلب أرزاقنا والمصلحة هى أن ترجعوا ولا تلزمونا بالإعراض عن رعاية حقوق النعمة والممالحة . فلم يلتفتوا لغاية النخوة والعجب لهذه النصائح وجرت المقاتلة فى المقابلة وصار شمس الدين بيرم فى تلك المعركة مضغة ناب الذئاب وأسر سيف الدولة أرتقش وحاز الخوارزميون خيلا بلا حصر وعزموا بلا توقف ديار الشام واستولوا على ملك حران والرها والرقة وسروج وغيرها من المواضع . ولما علم كمال الدين كاميار بهزيمة الجيش ، جعل بوم الحزن المقيم المقعد عشه فى قلبه وعيشه ، فلم يكن له أسباب الإقدام ولا مجال الإحجام ، فاضطر إلى الرجوع وأبلغ الحال إلى محلها ، وتحصل لكوبك اللعين بتلك القضية شقوق كبرى فى هدم مبانى معالى

الأمير كمال الدين وأوصلها خفية حد أنه كما سيذكر أذاق الأمير وعدة أمراء آخرين شربة الهلاك .

ذكر شروع كوبك فى قتل أكابر ممالك الروم

وجد كوبك الفرص فى مدة غيبة الأمراء بسبب أن شمس الدين ألتونبة أجرى على لسانه فى بعض الأوقات أنه يجب إقصاء هذا الكلب عن البلاط وإلا طعن آخر الأمر كل شخص طعنات ......[1] وكان كمال الدين كاميار دافعاً لهذا القصد فملأ وعاء غضب السلطان بمساوئ الأتابك ألتونبة ، وجعل من تاج الدين البروانة حليفه فى هذا الباب . وفى يوم كان ديوان السلطنة مزدانا بأركان الدولة وكان شمس الدين يضع النشانات على الأوامر الديوانية خرج تاج الدين البروانة وكوبك من خدمة السلطان ووثب كوبك واضعاً خاتم السلطان بأصبعه وجذب شيبة شمس الدين ألتونبة البيضاء بيده وسحبه من صف الأكابر وسلمه لرئيس الحرس فطرده وأبلغه درجة الشهادة ، ولم يجرؤ أحد قط على أن يجادل فى شئ . وقال الصاحب شمس الدين الأصفهانى لكمال الدين كاميار إذا لم نتدارك هذا الأمر فسوف يتجرأ كوبك ويسرى شره إلى الآخرين أيضاً ويجب منع هذه السياسة فأبدى كمال الدين التغافل ولم ير المصلحة فى أن يتحدث الصاحب حديثا بشأنه . ومن ذلك اليوم راج سوق وقاحته . وبعد ذاك ألزم قلب المجن[2] مع تاج الدين البروانة وأخذ يجهد فى السر والجهر فى إبطال وجوده . فأبعد الأمير تاج الدين نفسه لهذا السبب عن البلاط وطلب الإجازة إلى أنقرة وكانت إقطاعه وكان يغير الزمان بها مشغولاً باحتساء المدام وفيض الإنعام على الخاص والعام .

---

(١) سقطت بعض كلمات ويمكن كما ذكر هوتسما وكا هو واضح في النص فهم معانيها من خلال السياق .

(٢) في الأصل خطأ (المحن) .

ذكر قتل الملكة العادلية وحبس ولديها عز الدين قلج أرسلان وركن الدين

حين نشر سلطان الربيع أعلام السعادة ودق عساكر الرياحين الخيام هذه التى بالدماء مدهونة فى الصحراء تلك التى بالمسك مشحونة ، وفصل السلطان عن أنطالية واتصل بقيصرية ، أمر كوبك بأن يفرق ما بين الملكين ووالدتهما الملكة العادلية . وعلى موجب الحكم أرسل الملكة إلى دار الحصن أنقرة حيث خنقت بعد مدة بخيوط الأقواس وحملوا الملكين إلى (برغلو) حيث حبسوهما إلى حين أن ولد للسلطان غياث الدين عز الدين كيكاوس من (بردوليه) وهى جارية رومية ركن الدين قلج أرسلان ومن ملكة الكرج علاء الدين كيقباذ ، وفوض السلطان أتابكية عز الدين كيكاوس لمبارز الدين أرمغان شاه وأمره بإهلاك أخويه وكان رجلاً خيراً فتوقف فى قتلهما ويقول البعض إنه لم يقتل الغلامين وأظهر أثراً لمقتلهما للسلطان ، وجماعة تقول إنه أهلكهما ، وفى الجملة الأمر لم يحقق .

ذكر قتل كوبك لتاج الدين البروانة رحمه الله تعالى

أبلغ سمع كوبك أن تاج الدين البروانة لما بلغ آقشهر ، باشر مطربة من مغنيات ملك خرتبرت بلا وجه مبايعة ، وحالما سمع بهذا المعنى استفتى الأئمة والقضاة ماذا تقولون فى الشرع فى حد الزانى المحصن لا سيما فى منزل ولى نعمتكم ، فافتوا بالرجم . وأظهر كوبك تلك الفتاوى أوان الخلوة للسلطان ، وقال لو سامحت سوف يتجرأ الأتباع ويتعدون فى أسر المخدومين ، فتعجل السلطان بسبب سورة الشراب فى عقاب البروانة وأعطى خاتمه ليقوم كوبك بجزائه على وجه الشرع ، ووقع الفرمان بذلك . ولحق كوبك كالبرق المحرق والسيل المغرق فى مدة يومين بأنقرة وسقط من غبار مسراه

فى سراى الشاه وأحضر تاج الدين البروانة والأمراء وأئمة المدينة وأسمعهم الأمر وقيده فى الحال وانشغل أياماً عدة بطلب أسبابه واحتياطها . ولما فرغ حمله إلى ميدان أنقرة ودفن فى التراب حتى السرة مثل هذا الأمير الرقيق الذى كانت الشمس النوراء تؤثر التوارى فى حجاب السحاب حسداً لطلعته الزهراء وكان عطارد يعض يد الحسد غيرة من خطه وبلاغته ولم يكن لذى حياة قط أن يطيعه قلبه فى أن تصيب ورقة زهرة صدره الياسمينى السيما . وأمر العوام بالإلزام أن يبلغوا برجم الحجر روحه الأحلى إلى الفردوس الأعلى وبعد ذاك أدخل الخزانة أمواله من النقود والعقود . ولما سفك هذه الدماء الثلاثة ولم يبد أحد إعراضا وانكاراً بلغ أمره أن قرت قلوب أغلب الأمراء رغبة ورهبة على هواه وولاه ولم تكن تكتحل عيون الكبراء المبصرة للدنيا بالنوم الهنئ خوفاً منه . كانت أمه (شهنار خاتون) من بنات أحد معتبرى مدينة قونية ، وكان غياث الدين كيخسرو والد علاء الدين كيقباد مغبوناً على جديلتيها المفتولتين والهاً بحب جمالها الذى لا شريك له الذى كانت ليلى من حسنه كالمجنون محزونة وكانوا يحملونها فى الخفاء على السلطان ويستعيدونها بالإدلال والإعزاز . ولم تكن غير جدته واقفة على هذه القضية . ولما حملت أمه عروساً إلى منزل أبيه كانت حاملة لشهرين فجعلت من نفسها بكراً بالحيلة وأظهرت جدته من غاية دهائها أنها حملت فى ليلة الزفاف ولما انقضت مدة سبعة شهور (أتيت إلى الوجود) لكى يبقى بهذا التقرير المزور فى الخواطر من المقرر أنه من أرومة سلجوق . وجعل السلطان بالحيلة يبدل لون المظلة الأسود إلى الأزرق لكى يصل الخبر إلى حضرة الخلافة أن لسلطان الروم من شعار آل عباس العار حتى إذا نشب فيما بعد سهم مكيدته بالغرض المطلوب يجعل هذه الذريعة عكاز الاعتذار .

ذكر فتح سميساط على يد كوبك

كان سعد الدين كوبك يروم عن طريق الاقتدار وفتح الديار والأمصار إلقاء الرعب والفزع فى قلوب الشوام ، فجرد جيوش ممالك الروم نحو ديار

الشام . وحاصر سميساط وطلب الملوك الذين كانوا هناك الأمان حين لم يطيقوا المقاومة . وأرسلوا إلى كوبك رسالة هى أننا نعلم أنه ليس لأحد مع دولة السلطان مجال للمجادلة والمنازعة ، وكانت هذه الممانعة التى جرت فى هذه الأيام العدة من سواد صفاء بختنا الشؤم فإذا أمننا ملك الأمراء فى أرواحنا وترك لنا صليب الصلبوت الذى كان من القديم فى حكم أجدادنا فى هذه القلعة وكان المسيحيون يأتون لزيارته ويتحصل لنا المال من تلك الفتوح ولا يتعرض لأطفالنا وعيالنا نسلم القلعة . فالتزم كوبك بإجابة ملتمسهم ومنع الجيش من المحاربة وكتب كتاب حلف وأرسله . وفى الحال أخلى الملوك القلعة وأنزلوا رحالهم منها ورفعوا السنجق يوم الجمعة سلخ ذى القعدة سنة (٦٣٥ هـ) وفى أقل مدة تيسر فتح سميساط مع بضع قلاع أخرى وزادت شوكة كوبك وهيبته بهذه الوساطة . ومع كل هذا الخبث فى ضميره وسوء عشرته اللذين كانا له مع الأكابر فقد كان نسيج وحده فى رعية الرعية وبسط المعدلة وكان فى السخاء أكثر تموجاً من البحر وإدراراً من السحاب . وكان برغم كل تنمر طبعه كالزهر الضحوك فى خلوته مع الحرفاء والندماء . ومن جملة معاقباته الغريبة أن جملاً من حمولات العساكر كان دخل وقتا فى بعض الحروب فى مزرعة دهقان فحضر الدهقان صائحاً على باب خيمته . فأمر فى الحال بالإتيان بصاحب الجمل ، وأوردوه فى جملة المعسكر . ولم يكن بمقدور أحد أن يقر بملكية الجمل . ولما لم يظهر خصم الجمل أمر فعلق الجمل على شجرة من الإسبيدار الأبيض التبريزى كانت قائمة بجانب تلك المزرعة . ولم يكن يجرؤ واحد إذا وقع نظره فى الشارع على شئ ساقط منه على التقاطه . وكان أولئك المعيَّنون لجمع المفقودات يُعْلِمون ويخبرون فكانوا يحملون المفقودات إلى باب دهليز السلطنة . فاذا كانت من الأثواب وأنواعها كانوا يعلقونها بأطناب الخيمة وإذا كانت حيواناً يتعهَّد بالمراعاة ، وأخذ المنادى ينادى فى العسكر من الذى فقد الشئ الفلانى ، وكان الخصم يسمع ويأتى بالبينة ويحمل المتاع معه .

ذكر إمساك كوبك بالقيمرى وكمال الدين كاميار رحمهما الله تعالى

لما رجع من فتح سميساط اتهم القيمرى بجريمة واعتقله مقيدا فى سراى السلطنة بالمحروسة ملطية وتصرف فى أمواله التى بغير حسبان لطرف السلطان ورتب له كل يوم نصف من لحماً ومنّين خبزاً وثلاث عردبات حوائج . ولما لحق بقونية ، ألحق بحكم دهليزى لمثل هذا السفاك المغيال فى حضيض قلعة (كاوله) بأوج الشهادة كمال الدين كاميار الذى كان من أكابر الدهر وفضلاء العصر وفى الفقة من المقتبسين من نظام الدين الحصيرى وفى أجزاء الحكمة من المستفيدين من شهاب الدين المقتول . ومن جملة الأبيات التى جارى بها الحكيم شهاب الدين السهروردى ، للسهروردى :

يا صاح أما رأيت شهباً ظهرت ... قـد أحرقت القلوب ثم استترت
طرناً طرباً لضوئهاحين طرت ... أوردت وتـوارت وتـولت وسـرت

للأمير كمال الدين كاميار :

يا صاح أما ترى بروقا ومضـت ... قد حيرت العقول حين اعترضـت
حلت ولحت ولوحت وانقرضـت ... لاحت وتجلت وتخلت ومـضـت

وهو المتصف بكل مكارم الأخلاق هذه ومحاسن الأوصاف .

ذكر قتل السلطان لكوبك وتشفى صدور العالمين

لما أخذ فوران نائرة كوبك يزيد استيلاؤه كل يوم وتحرق صواعق عذابه الشديد وبطشه المبيد كل ساعة بيدر عمر عالم ، تألم السلطان لفراق أكابره وكان هو متوهماً منه لأنه كان يدخل دوماً للسلطان وقد جعل سيفه بالحمائل فأرسل غلاما من غلمانه الخواص إلى سيواس لدى قراجه رئيس حرسها بأن كوبك بك أهلك أركان السلطنة ويدخل على هذا الزمان بالحمائل والسيف متجرِّئا ويصيبنا من تهوره وتجبره تحير عظيم . ويجب أن يقدم بأسرع ما

يمكنه لتدارك أمره . فأتى قراجه بصحبة غلام إلى قباد آباد حيث خدمة السلطان وأسبق غلامه إلى خدمة السلطان لإعلامه بقدومه ، وتعلل هو بالعلل . وبالليل نزل بوثاق سعد الدين كوبك على غير توقع . ولم يكن كوبك يخشى غيره فلما رآه سأله هل وصلت خدمة سلطان العالم ؟ فأجاب أنى لى من القدرة على أن أذهب إلى خدمة السلطان بلا إجازه من ملك الأمراء وأنا أحصى نفسي من المقربين إليه وماذا أعد بعد معاذ جناب المعظم ملك الأمراء وملاذه معاذاً . ونفث من مثل هذه التمتمة وسحر العيون فى ذلك الملعون . ولما أمن خاطر كوبك من قبله عقد مجلس الشرب فطربوا وأنعم عليه تلك الليلة جزيل الإنعام . وعلى الصباح حمله إلى حضرة السلطنة ودخلها بحسبه وأعلم عن قدومه ، وبعد ذاك أدخله وأبلغه تقبيل اليدين . وبعد ذلك قرر أمير المجلس مع السلطان أن حين يحضر كوبك فى مجلس الشرب يضرب السلطان أمير الحرس بقدحه فيجمع ملابسه ويخرج بحجة الإراقة ويترصد مع أتباعه خروج كوبك ، وحين يخرج يضعون فيه السيف ويخلصون العالم من بلائه . وخرج أمير الحرس مصاباً بالقدح وأخذ يترصد بروزه ، ولما خرج كوبك قام له برسوم الاحترام . لما مضى أراد أن يضرب قفاه بالدبوس فسقط على كتفه فألقى يديه بعنق أمير الحرس ، فاستل (طغان) أمير العلم سيفه وتعقب كوبك ، فألقى بنفسه أشفاقا على حياته بمشرب السلطان فلما رآه القائمون على الشراب مضرجاً بدمه هاجمه كل منهم بالخناجر والسيوف والسكاكين وخلصوا جسده من روحه النجس ونفسه الخبيثة وألقوا به فى دركات الجحيم ، ولما أرسلوا روحه إلى سجّين أمر السلطان بتعليق بدنه الخبيث على مكان عال لكى يصير عبرة لأولى الأبصار ، فجعلت أجزاء أعضائه فى قفص من حديد ، وعلقوه بالمشنقة التى سبق أن علق بها السلطان علاء الدين (كمال لقبي[1]) مشرف قباد آباد بخبث من كوبك وكانت حتى ذاك الوقت جثته معلقة بسبب أن السلطان ندم على ذلك ولم يجز إنزاله من عليها برغم ضراعة أقربائه وأمر بألا ينزل من عليها ما لم يعلق بها الساعى إلى قتله

---

(١) الاسم غير واضح .

وحاسده . وفى هذه اللحظة أنزل قرائب كمال جثته المقددة ودفنوها وهذه إحدى الكرامات التى تذكر للسلطان علاء الدين . ولما علق القفص بهذه المشنقة تجمع الخلق للنظر إلى أجزائه المقطعة وإذ بالقفص يسقط فيهلك شخصاً ، فقال السلطان إن نفسه الشريرة لا تزال تؤثر فى هذا العالم تأثيراتها . ولما فرغ من هذا الأمر الأهم استدعى جلال الدين القراطاى الذى كان كوبك قد أوقفه فى ركن معزول واستماله وسلم إليه الطستدارية والخزانة الخاصة ، وعين الصاحب شمس الدين الذى كان كوبك قد خط خط العزل على صحيفة عمله وأعطى الوزارة للصاحب مهذب الدين ووسمه بنيابة الحضرة .

ذكر وصول مهد ملكة الكرج لقيصرية وانتظام العقد والزفاف

قرر قبل هذا أنه لما جرد كمال الدين كاميار الجيوش إلى ديار الكرج ، أرسلت اليه رسودان ملكة الكرج بالرسل وجرى بينهما حديث المصاهرة وطلبت مصاهرة الملك غياث الدين ، ورضى السلان علاء الدين بهذه الوصلة وقرنها بالقبول . ولما علقت به نوبة السلطنة ، ندب شهاب الدين المستوفى الكرمانى الذى لم يكن له فى التدبير فى دنيا التغيير نظير لاتمام هذا الأمر . ولما بلغ ذاك المكان كانت جملة الأمور قد رتبت ، فتوقف عدة أيام لإتمام بقية الأمور . وبعد ذاك توجه بالفأل السعيد فى خدمة مهد بلقيس العهد إلى خدمة السلطان الشبيه بسليمان ، ولما وصل أرزنجان أسبق البريد السباق على البراق ببشارة وصول مهد سيدة الدنيا . فأمر السلطان باستقبال كافة القواد الذين هم على معبر الملكة بكل الإجلال وألا يدعوا شيئا من شرائط البشارة والبشاشة ، وأتى السلطان بالمظلة الميمونة إلى المحروسة قيصرية وعقد الاحتفال . ولما ظهرت درارى الثواقب وسوارى الكواكب كالمشاعل ، اختال السلطان إلى حجلة الوصلة وحجرة الخلوة ورأى قمراً وسروراً على سريره حاصلاً وحاضراً فطوق ساعده حول فريدة عهدها ونسيج وحدها وبلغ مراد القلب .

ذكر اعتناء السلطان بدعوة عودة الخوارزميين

سبق إيراد أن قيرخان لما قيد بخبث كوبك وأرسل إلى (زمندو) توجه باقى الأمراء الخوارزميين إلى ديار الشام وكان على الدوام ملوك الشام وديار بكر وربيعة ومضر والجزيرة على خوف واحتراز من خشية ركضاتهم وسطواتهم وفجآتهم وبغتاتهم وكانوا يحملون من كل مكان بالأحمال الثقال صوب منزل كل خان منهم ويزيحون تعرضاتهم بالأيمان والاستئمان عن ممالكهم لكنهم كانوا فى بعض الأحيان يتدخلون فى حدودهم ويمنعون القوافل من التردد . ولما عرض هذا المعنى على حضرة السلطنة أرسل إليهم مجد الدين الترجمان الذى حصل فى عهد السلطان جلال الدين الانبساط معهم ودعاهم للعودة إلى ممالك الروم بوجه الاستمالة وإنالة المقصود . فلما وصل إليهم وأعلم لهم باسم الشاه لزموا حسن الاستماع ولبسوا خلع السلطان وسجدوا بالجبين على التراب المهين وقبلوا حوافر الجنائب . واجتمعوا فى اليوم التالى وأحضروا الرسول وقالوا تفرقنا بسبب واقعة قيرخان وتقاتلنا مضطرين فى الطريق مع الأمراء الذين أتوا لاستردادنا وأنزلنا بهم النكبات وما نزال عاجزين فى تيه تلك العثرة فكيف نخطو على بساط البلاط مع كل هذه المباسطات ، لكنا نعد هذه البلاد التى سقطنا عليها بالتغلب من جملة ممالك السلطان فإن منحها لنا بمنشور السلطنة بحكم الإقطاع تصرفنا فيها وفى المقابلة نفتديه أمام أى عدو يأمر به ونجعل الخطبة والسكة باسم السلطان ولا نرخص قط لعساكرنا بالتعرض لممالك السلطان . وجرى القرار على كل هذا وقاموا بتغيير الخطبة والسكة ورضى السلطان بهذا الرأى .

ذكر استنجاد ملوك الشام بحضرة السلطنة وانهزام الجيش الخوارزمى وتوليهم لحضرة دار السلام

واظب الخوارزميون مدة طويلة على مراقبة الحلف ومحافظة عهد السلطان ثم انحرفوا ثانية عن جادة الطواعية بأشطان الشيطان وتلبيس إبليس وسلكوا مع طواغيت شياطين الإنس طريق الكنود والعصيان وختموا نشان العقوق على دفتر الحقوق(١) وأوجبوا النهب والإزعاج(٢) والسلب للبرايا ، فاتفق ملوك الشام على تخريق لمتهم وتفريق كلمتهم واستنجدوا بحضرة السلطنة رغبة ورهبة ، وعين ثلاثة آلاف فارس من قبل أمراء السلطان من خرتبرت وملطية وأبلستان ومرعش المتاخمات لحدود الشام لمؤازرة الشوام ومعاضدتهم بقيادة ظهير الدين منصور الترجمان . ووصلوا إلى حلب فى مدة سبعة أيام ، وتقدموا من هناك مع صاحب حلب الذى كان عقد الجسر ورتب أسباب العبور إلى (بيرة) واتصلوا بالملك المنصور صاحب حمص المتولى قيادة عساكر الشام وساروا بجناح النجاح وخوافى التخويف وقوادم الإقدام صوب قتال الخوارزميين كالتنين المتين والبلاء الفجائى ، وكانوا قد قدموا لتعبئة الصفوف بتقديم أرباب الحتوف وعمال السيوف . ولما جازوا منزلين بعد رأس العين ، ظهرت فجأة فوق تل كوكبة من الخوارزميين فبدأ الرجال الشجعان الخبراء بالطعان إحكام السراج وبقى الخوارزميون فى التهاب واضطراب كالزئبق الذهّاب وأطفأ تلاطم أمواج بحر الحرب شعلة السراج الوهاج وبدّل الغبار الريحى التسيار إلى ليل النهار . وكان الخوف من أن يولى الشوام خائرين أدبارهم من ورطة ضغطة الخوارزميين وعلى حين بغتة عطف ظهير الدين منصور وظفر فجعل لهم من الفرار والجلا ملتجا . وبعد تواتر الهرب وجد بعضهم نفسه فى نواحى بغداد فأعزهم وأكرمهم أمير المؤمنين المستنصر وأصاب جيشا الشام والروم فى تلك المعركة الأسباب

---

(١) الأنسب أن يقال هذا بدل الترجمة الحرفية (وختموا نشان الحقوق على دفتر العقوق) .

(٢) في الأصل (انزعاج) .

والأسلاب بدون حساب . وكان شهاب الدين الزندرى المنشى للحضرة الجلالية الذى تقلد فى ذاك الوقت وزارة (بركت خان) نائباً على قلعة حران فلما سمع خبر انكسار ولى نعمته فكر فى أن يذهب إلى الروم وينتظم فى سلك عبيد تلك الدولة واذا سلمت القلعة إلى سلطان الروم فلا بدلى من الذهاب إلى هناك بلا شك ، ولا يمكن لى رؤية (بركت) من الخجل . وكان الملك المنصور أيضاً وعد فى الخفية شهاب الدين الزندرى وجمال حبش الهمدانى بإمارتين مقنعتين مغنيتين ، وإذ بسنجق الملك الناصر صاحب حلب يرفع على القلعة وينادى بدعائه ، فلم يقل ظهير الدين وبقية أمراء الروم شيئا تعظيماً للقدر ومكثوا أياماً عدة جميعاً وبعد ذاك ذهب كل منهم إلى طرف .

ذكر فتح آمد على يد عبيد السلطنة

ولما رجع أمراء الروم من وداع عساكر الشام إلى الخيام قالوا مثلما حاز أمراء الشام حران بالحيلة فإذا رجعنا ولم نفعل شيئا بهذه الجمعية صار أمرنا شينا عظيما والأولى أن نذهب إلى (آمد) يسرها الله لنا . وكتبوا مكتوباً بهذا المعنى لحضرة السلطنة واستمدوا جيشاً وعتاداً فعين السلطان فى الحال الصاولى مختبر الطعام ومعه يوتاش مختبر الطعام والى نكيسار فى زعامة جيوش جميع ولاية الدانشمند فى هذا الأمر وأمرهم بالتعجيل فى الرحيل فلحقوا فى أيام قلائل بباقى الأجناد عليها وشمروا عن سواعد الجد للحصار . وكان فخر الدين ابن الدينارى زعيم قبائل الأكراد واقفاً فى يوم فى وقت غلبة الهاجرة على طرف القلعة فذهب ناصر الدين أرسلان بن قيماز نائب ظهير الدين حتى محاذاته وألقى بالسلام والاستفهام عن الحال وقال : إلى متى يجب للملك مكابدة المكايدة بلا فائدة إن للأمير ظهير الدين كلمات حريات بالمقال لك . فأجاب سوف أرسل لك فى الصلاة الآتية من باب (الماء) معتمداً بهذا الشكل والسيما ليسمع ما يقول ظهير الدين ويبلغنى . وفى الوقت الموعود خرج شخص فى زى الفقراء من الباب المذكور فأخذه ناصر الدين وأتى به إلى خدمة ظهير الدين . وأخلى فى الحال ظهير الدين المقام وقال إنه

من المعلوم لأهل العقل أن للسلطان الاستظهار الأكبر بالمال والرجال والشوكة والقدرة عن جملة ملوك الديار وليس بحاجة إلى هذه القلعة ولكن لك أن تتيقن بأن العساكر طالما أتوا هذا المقام لن يرجعوا ما لم يحصلوا المقصود فإذا أبلغ الأمير فخر الدين – قبل أن يسبق أحد آخر ويترك القلعة – راية درايته فى هذا الأمر إلى ذروة المعالى وشرفة الشرف وترك هو المدينة إلى عبيد دولة السلطنة فإنى أتعهد لكل مقصود لديه بأن أيسره عند حضرة السلطنة ، وتعهد لذلك الشخص بخمسين ديناراً . فلما أعاد القاصد ذكر الأحوال لفخر الدين أبدى البشاشة والاستعداد التام . وفى اليوم التالى أتى القاصد وأتى بالجواب وهو لا مندوحة من أن تحرق الباب الحديدى للفصيل فإذا تم هذا الفعل وأوفت النار عملها أقوم أنا فى الليل البهيم بإسقاط حبال المجانيق وأدفع بالجيش بأعلى القلعة حتى يتيسر هذا الفتح بشرط ألا يتجاوز الأمير ظهير الدين القرار الذى أقره . فأقسم الأمير ظهير الدين فى الحال ووضع يده على المصحف أنه لن يدور فى مدار نقض العهد بأى وجه وليتمِّنْ مراداته بكمال الاهتمام ويرسل للملك الصالح بحصن كيف أربعمائة ألف نقداً برسم ثمن النعال . ولما رجع القاصد إلى المدينة وأفضى بما سمع أعاد ابن الدينار القاصد وقال يُسلِّم أربعمائه ألف درهم حتى تضعها فى صندوق وتمهره وترجع . فلما رجع القاصد وعرض هذا المعنى ذهب الأمير ظهير الدين إلى الصاولى وساق القضية وأحضر كافة الأمراء فأتى كل منهم بما لديه من الذهب والفضة وأظهروه للقاصد فوضعه فى صنادق ومهره وعاد . وفى اليوم التالى جعل الجنود يحملون بكروم العنب طاقات وباقات إلى الباب بحيث لم يكن يفيد دفع الأحجار وضرب السهام من عل فى إزاحتها . ولما تم جمع الكرم أبلغ النفاطون السراع الإحراق الكروم إلى النجوم وأضرموا فيها النار فانصهر كل الحديد ، ولما أسدلت ستائر الظلام علق ابن الدينار الحبال والأنشوطات بالقلعة لكى يظهر الشجعان فدائيتهم ويرتقوا البرج ، ووقعت بين الجنود بسبب المبادرة المنازعة فغلبوا . وأشعل حفظة الأبراج الأخرى مشعلة لكى يعلموا سبب المشغلة ، فوجدوا أن حبال المنجنيق علقت بالبرج والقسم المفوضين لابن الديناري وأن الأمر تبدل من الأمانة إلى الخيانة ، فعاد

الجنود تلك الليلة خائبين وفى اليوم التالى اجتمع معتبرو المدينة وقالوا إن ابن الدينارى وهو فى محافظة الركن الأوثق اختار المخالفة وليس لنا يد فى القبض عليه وتوبيخه والرأى هو أن نترك القلعة برضائه حتى لاتصير آية (قل يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ولاهم ينظرون[1]) نعتاً لحالنا . فأرسلوا اثنين أو ثلاثة من القلعة لكى يرسلوا ناصر الدين نائب ملك الأمراء إليهم بباب الماء ، فذهب اليهم ناصر الدين وكان قاضى المدينة ونجم الدين ابن الحبير (أبحار[2]) والمقدم جعفر المنجنيقى وباقى المعتبرين حاضرين وقالوا لو تجشمت وسلمت على الأمراء لكى يتجشموا هم بالمجئ هنا لحظة ، فلما حضر الأمراء أتوا من عل إلى سفل وفتحوا نصف البوابة وعانقوا الأمراء وصافحوهم ، وبعد القيل والقال التزم الأمير ظهير بإنجاز آمالهم وأكد بأقسام الأقسام وأنواع الأيمان وظهر بين الجانبين الإصلاح الكلى . وفى اليوم التالى دخل كل أمير بجيشه وسنجقه المدينة ونصب أعلامه على قلعة (آمد) ودقت البشارات . وحينذاك ذهبوا إلى سراى السلطنة وحلّفوا الخلق واحداً بعد الآخر على هوى السلطان غياث الدين وولائه وأسرع رؤساء حراس القلاع الأخرى إلى خدمة الأكابر وعرضوا مفاتيح القلاع وتفاصيلها وأموالها وسار البريد بهذه البشارة إلى خدمة السلطان . وأمر السلطان فكتبت كتب الفتح وسطرت للأمراء الفرامين المشتملة على إحماد المساعى المشكورة وأمر بأن ينفذ الأمراء كل ما يرون فى مصالح تلك الجوانب بلا استئمار واستطلاع رأى فهم مأمورون لتقدير البلاط لهم بذلك وفوض رئاسة الجيش إلى مبارز الدين رئيس الحرس .

ذكر ظهور خوارج البابای وانطفاء شعلة فتنتهم

نقل عن أفواه الثقات أن بابا اسحق الخارجي كان من خطة كفرسود من مضافات قلعة سميساط وكان يحوك فى رأسه من مبادئ الشباب سوداء

(١) سورة السجدة الآية (٢٩) .
(٢) الاسم غير واضح .

الرواية وصيد المريدين وكان ماهراً فى صنعة الشعوذة والنيرنجات ، وينشغل على الدوام بدعوة الأتراك الجاهلين الذين يستمعون لأى تمويه من فقية سفيه ومُفْتٍ مفتن فيطيعون ويقبلون ، وكان له دوما عينان تفيضان بالدموع وقلب ملؤه الخضوع وجسد نحيل مدقوع . ولما انصرمت مدة ويمم إليه خلق كثير ورادوه واعتقدوا فيه ، فكر فى أنه إذا خرج بذاك القدر من الأتباع فلن يكون لسراج كذبه أوهاج . وعلى حين بغتة اختفى من بين الخلق ، وبعد مدة شاعت سمعته فى بعض قرى (أماسية) وكان يرعى فى المبادى حين وصل تلك القرية ويسلك الأمانة والورع ولم يكن يقبل شيئا من أحد ويقنع بقوت يومه . ووصل أمره فى التورع حد أن النساء والرجال انعقدوا بمد حبل اعتقاده واذا كان يظهر لواحد ألم وغم أو تقع بين المرأة ورجلها وحشة كان يكتب لهم إذا رجعوا إليه تعويذة وفى الحال يتبدلون إلى الراحة . ولما كثر أتباعه وأشياعه خرج من القرية وبنى صومعة على تل قريب من القرية وانشغل فيها بالمراءاة[1] والتنسك ولم يكن يسمح لغير مريدين معدودين الاطلاع عليه وكان يظهر أنه هجر تماما الطعام والشراب وصابر الجوع والعطش ، وكان يرسل المريدين إلى كل طرف إلى مجامع الترك وغيرهم إلى حد أنه أرسل إلى الخوارزميين الذين كانوا فى ولاية الشام وقبح حياة السلطان غياث الدين لأنه مشغول بالشرب والمناهى ، وكان يدعو الخلق بهذه القرية إليه . ولما قرب القلوب إلى محبته ومودته سير مريداً إلى كفرسود وآخر إلى مرعش وقال مُرَا المخلصين لنا بركوب جيادهم فى الشهر الفلانى اليوم الفلانى والتوجه لفتح البلاد ، وكل من يسمع اسمنا ويكون حليفهم فى قمع المفسدين عُدّوه مساهماً فى الغنائم والأموال وكل من أبدى المخالفة فلا تهملوا فى قتله . فذهب هذان المريدان بناء على إشارة هذا الشيخ الضال إلى هاتين الولايتين وبثّا دعوتهما فى القبائل ومراكز الخيل للأتراك وكان هؤلاء قد أعدوا قبل عدة سنوات أسباب القتال ومكثوا ينتظرون الإشارة ، فلما وصلهم هذا النداء تحركوا كالنمل والجراد وخرجوا فى اليوم المعينّ . وأضرموا النار فى أول قرية وكانت

---

(١) في الأصل (ارآت) .

مسقط رأسهم وانتشروا فى حوالى الدنيا كالدخان الأسود وكانوا يؤمنون كل من كان يسلك طريق دعواهم على موجب حكم ذلك اللعين ، ويشرعون بلا تردد وإشفاق فى إهلاك كل من يقابلهم بالجحود . وجمع مظفر ولد عليشير جميعةً وحمل عليهم وجرت حرب عظيمة بين الفريقين ووقعت الهزيمة فى العاقبة على مظفر الدين وسقط العلم والنقارة فى تصرفهم . واتجه مظفر الدين إلى ملطية وجيش ثانية الجيوش وجمع خلقاً كثيراً من الأكراد والكرميين وانطلق بهم لمحاربتهم ، فوقعت الحرب عليه كرة أخرى . ولما حدثت النصرة لهم فى هاتين الكرتين تجرأوا وتجاسروا وأرسلوا من يهاجم نواحى سيواس . وتجمع أهالى سيواس وتقدموا لدفعهم ، فهزموا أيضا عسكر سيواس وأهلكوا (أكديش باشى) مع المعتبرين الآخرين وغنموا أسلابا كثيرة من تلك الواقعة وظهر فيهم الرونق والبهاء التامان ، وتوجهوا صوب توقات وأماسية وكان يخذل كل من يظهر أمامهم للمدافعة . وفسد دماغ جهالتهم مرة واحدة وشايعهم تراكمة الولاية ، ولما بلغوا أماسية كانت شعلة شوكتهم قد استولت . ولما أعلم السلطان لاذ على سبيل الاحتياط بجزيرة قباد آباد ، وأرسل (حاجى أرمغان شاه) قائد عسكر أماسية إلى تلك الحدود . فلما وصل أماسية أخرج فى الحال البابا من الصومعة مع المعتقدين الذين ارتبطوا به وعلقه بالبرج وابتغى الوغى بالجيش الذى كان معه وجرى بينهما صراع كبير وفى عاقبة الأمر تسببوا فى استشهاد أرمغان شاه . وبرغم ما كان يقال لهؤلاء المدابير إن مقتداكم قد صلب لم يكن يفيد هذا شيئا وكانوا يقولون (بابا رسول الله) ويسرعون إلى السيف (كالفراش فى النار والإوز فى التيار) . وكان السلطان يرسل من قباد آباد على التواتر المسرعين بطلب العساكر الذين كانوا ذهبوا إلى أرزن الروم للحفاظ على الثغور ، فقدم العساكر بتعجيل تام إلى سيواس وفرقوا السلاح على الجيش ولحقوا فى يوم وليلة بقيصرية . واجتمع هؤلاء المخاذيل فى صحراء (ماليه) من ولاية (قيرشهر) . وسار بهرام شاه رئيس الحرس وابن الكرجى و (فردخلا) زعيم الفرنجة فى المقدمة وكان الأمراء الكبار بالجيش الكثيف فى عقبهم . وفجأة وصل الخبر

بأن الخوارج يعزمون ملاقاة القتال بالغد فأرسلوا إلى أمراء الطلائع أن إذ لم يظهر الخوارج فلايطلبوهم وعليهم بالتوقف . وفى اليوم التالى لبس الجيش سلاحه ومكثوا ينتظرون باقى الجيش الجرار وإذ بالخوارج يظهرون فجأة من خلف تل وعساكر السلطان قد أرخوا أعنتهم . وكان الفرنجة فى الصف الأول فثبتوا ولم يؤثر فيهم سيوف الخوارج وسهامهم فتقهقروا وتأنوا لحظة ثم عاودوا الهجوم . وقامت أفواج جيش السلطان بعلاج أدمغتهم المهترئة بالدبابيس الثقيلة والخناجر الماضية وجندلوا فى حملة مزهقة للأرواح أربعة آلاف رجل من الخوارج . واحتمى بعض من هؤلاء المدابير بالأحمال والأطفال والعيال وكانوا يلصقون من وراء الأحمال والمؤونة بالأقواس المتينة الرجل بسهم على الشجرة . وأتى الجيش من كل طرف وهتكوا حجاب ستورهم وشردوا وبددوا شملهم ، ثم وضعوا بعد ذاك كل منهم السيف الذى لا يأسف وأجروا أمودرياء الدماء فى البطحاء من تبعة الشيطان المنكسين هؤلاء ولم يظهروا إبقاء ومحاباة للشباب والشيوخ . ولما وصل الجيش الكبير كان أمراء الطلائع قد أنهوا الأمر ولم يبقوا منهم حياً إلا أطفال العامين والثلاثة أعوام . وفى الحال سيروا القصاد إلى حضرة السلطنة وقسموا نساء الخوارج وأطفالهم وأموالهم وأسبابهم بعد إفراز الخمس الخاص على أنفسهم . ورجع العساكر بموجب الحكم إلى أوطانهم ولحق الأمراء بحضرة السلطة .

ذكر اهتمام السلطان بانتزاع ملك ميّافارقين من قبضة تملك الملك الغازى بسبب نشر المظلة الآخذة للعالم

لما سخرت البلاد والممالك التى كانت مقصود السلطان علاء الدين ومتمناه لغياث الدين وأحنى الغزاة من الملوك رؤوسهم أمام خط فرمانه أبت نخوة الاستعلاء فيه إلا أن ينشر المظلة المنصورة على طريقة أعمامه الكرام .

وبحكم أن اصطلاح سلاطين الروم هو أن مظلتهم تظل معقودة على الدوام مالم يتملكوا ملك ميّافارقين ويقهروا أرض ماردين وطغاتها ، فدعا العساكر إلى المحروسة قيصرية واستنجد بصاحب حلب وملوك الموصل وماردين والجزيرة . وكان الملك الغازى على علم مسبق بالحكاية وقام بتداركها بوجه البصيرة الثاقبة ، فدعا الخوارزميين الذى كانوا سقطوا ببغداد من معركة رأس العين واعتصموا بإكرام المستنصر وكان زعيمهم ابن أخت السلطان جلال الدين ولحق بهم من شيراز بجيوش متأهبة ، وجذب أتراك الكرميين بالمال والآمال إلى قيد طاعته وقام باحتياطات الخندق والسور والمنجنيقات والعرادات واستعد للنزال . فلما قدمت عساكر الروم إلى التخوم ولحق بهم عسكر الشام باهتمام الملك المعظم عزموا ميافارقين بموجب الحكم ، ولما وصلوا نزلوا حول المدينة ، وكانت الحرب تجرى بين الطرفين فى كل يوم . وسقطت أمطار عظيمة على نحو أن جيوش الروم والشام كانت تغرق فى سيول الماء وتغوص فى الأوحال . وفى يوم رتب الملك الغازى صفوفه وقصد المحاربة وركبت عساكر الروم وأعملوا جيوش الشام . وكان الخوارزميون على الميمنة فرفعوا ميسرة الجيش الرومى وكانوا من ولاية الدانشمند وألقوهم على الخيام . وبسبب صدمة عسكر الموصل وملطية الذين كانوا على الميمنة لعسكر السلطان سقط الأتراك والكرميون على ميسرتهم على حافة الخندق ، وسالت الدماء مكان مياه السيول . وفى تلك الحالة اعتقل شخص بسلاح متين حربة خطية وسار من قلب الغازى نحو الروم ، فتقدم دمرتاش غلام ظهير الدين الترجمان لمقابلته وألقاه بضربه واحدة عن جواده وفى الحال ركض فارس من عسكر الغازى وأركبه وبقى هو مترجلاً . فأركبه دمرتاش على كفل جواده وجاء به إلى خدمة الملك المعظم والصاولى فى قلب العسكر . فطلبه الملك المعظم وقال مبارز الدين هو فداء الملك ، وفى الساعة أعطاه الملك المعظم تشريفا وأركبه وقربه إلى جانبه ورحب به ، وبعد مقالات كثيرة أجاز له العودة إلى عسكر الغازى . وحين لحق الفارس بمعسكر الغازى عاد الخوارزميون إلى خيامهم وسكنت نار الحرب . وبعد زمان قدم القاضى وبعض المعتبرين من عند الغازى برسالة . وفى أثناء هذه الحكاية حين سئل الملك المعظم أكان

الفارس الواقع الملك الغازى وذاك الذى أسر أستاذ داره فأجاب بالإيجاب . وكانت زبدة الرسالة هى أن الملك يسلم على الجميع ويقول إننى علقت على سبيل الدوام قرط الإخلاص بأذن روحى وحمل غاشية السلطان علاء الدين أخى مظفر الدين الأشرف صورة ومعنى على كتفيه وأنا أعد نفسى فى هذه العرصة الضيقة نفسى عبداً لتلك العتبة على العرض الذى تنتشر فيه المظلة المنصورة . إن الإضرار بالقلوب الكثيرة وإيذاءها يوجب سوء الذكر الباقى ، فلله أن تحول عنادك عن هذا الفكر وألا تقصد بالوهم المموه وبالاصطلاح غير الصائب منزل فقير وإلا فسوف أفتدى بالروح لأجل بيتى القديم . وفى هذه الأثناء أتت من خدمة دار الخلافة الأوامر المطاعة إلى السلطان الأعظم والملك المعظم وسائر قواد الأمم الذين قدموا لمحاصرة ميافارقين وتنهاهم عن المحاربة والمحاصرة . فمال الملك المعظم بهذا السبب إلى إصلاح حال الملك الغازى وحث الأمراء على نبذ القتال فى ذاك العام . وكان الأمراء بسبب تواتر الأمطار ملولين ، فارتضوا بمصالحة القاضى . وحلف القاضى كل واحد على ما أراد منه ودخل رسل الملك المعظم وأمراء السلطان المدينة ، وحلفوا الملك الغازى . وفى اليوم التالى رحلوا الأجناد وأتوا (آمد) ورتبوا بها ضيافة ملكية للملك المعظم ، وفى اليوم بعده تفرقوا فذهب هو إلى الشام وأتواهم إلى ملطية .

ذكر حدوث الفترة فى مملكة الروم

كانت فاتحة الوهن ومقدمة الفتور أن فلجاً أصاب جسم جرماغون نويان ، ووصل من الحضرة بعد مدة برليغ بقيادة الجيش وزعامته لبايجو قرچى وكان يريد لرواج بازاره ورونق اقتداره أن يجعل للدولة القاهرة جدة الديباجة فاختار ثلاثين ألف تترى من الشجعان المشهورين وساروا إلى أرزن الروم ، ونصبوا فى وقت وصولهم المنجنيقات والعرادات على جوانب السور وقام بالليل والنهار قتال الأحجار الدائم كالقضاء المبرم . وكان سنان الدين ياقوت القائد و (استنكوس) رئيس الفرنج يخرجان للقتال بجيوش ثقال ،

ويبديان ضروب الشجاعة ، ولولا ما فعله شحنة المدينة (شرف دونى) من غدر وعمل دنى لكان من الممكن جلاء المغول بسبب هجوم الشتاء عن المدينة وأمان بضعة آلاف انسان من ضربات سيوفهم ، لكن الدوين الدون كاتب خفية بايجو بسبب الضغينة التى كان يحفظها على قائد الجيش وأرسل له إذا كنت وأتباعى آمنين على حياتنا أرفع الجيش إلى البرج المفوض حراسته إلىّ لكى تهبط وتحطموا أقفال البوابة بالدبابيس . فكتب بايجو بموجب التماس الدوينى مكتوباً وفى ليلة انتهزها فرصة جذب إلى البرج مائتى نفر شجعان كماة فأتوا البوابة وحطموا أقفالها وولج العسكر المدينة . وعلم الأمير سنان الدين واستنكوس بالخبر فاقبلوا بالجيش إلى المدينة وأعملوا السيوف المهرقة للدماء طوال النهار . وعند الصباح كان المغول قد دخلوا المدينة وعم البلاء وصارت مخدرات حرم الأمم أسيرات فى كف كل غير محرم وتدحرجت الأطفال الأعزاء على تراب المهانة ، ولم يبق لأحد مجال للهرب والسرب ، انكسفت الشمس من وهج نيران السيوف وانخسفت مرآة القمر من آهات المستنجدين . ولما فرغوا من النهب والإغارة طفقوا يأسرون فأخرجوا النساء والرجال والكبار والصغار وفرقوهم على أنفسهم فاستحيوا من كان فيه فائدة وجعلوا الباقى طعمة السيوف ومضغة الحتوف . وأخرجوا الأمير سنان الدين ياقوت وابنه مقيدى اليدين عاريى الرأسين وكوموا مرصعاته وذهبياته فى الميدان . قال بايجو لما عندك هذا المال لماذا لم تجمع به الجيوش والمال الأبيض لليوم الأسود . فأجاب الرزق الذى سوف يكون لك أنى كان لى التصرف فيه . فأمر فقتلوا ابنه أمامه ثم فعلوا به نفس الفعل ، وسلكوا طريق (مُغان) بالكنوز الثمان . وفى تلك الحالة وصلت جيوش السلطان إلى أرزنجان فلما سمعوا أنهم فتحوا أرزروم ولم يدعوا فى تلك الديار ديّاراً ، أنهوا فى الحال هذا الخبر الفاجع إلى مسامع حضرة السلطنة فتطرق اضطراب كبير إلى خاطر السلطان وأمر برجوع العساكر إلى الأوطان وحضور الأمراء بأسرهم إلى البلاط لينشغلوا بالاتفاق على تدارك الأمر .

ذكر محاربة السلطان غياث الدين لعسكر المغول في كوسة داغ

كانت زبدة أفكار أركان الدولة فى حضرة السلطنة أن يدعوا ملوك الديار ويرسلوا أولاً إلى الملك الغازى ويعتذروا له بالمعاذير عن قصد ميافارقين ويمنحوا أخلاط التى كانت بملك أخيه بالتوقيع الميمون بلا تعويق[1] إليه ويرسلوا الصاحب شمس الدين الأصبهانى بخزانة للاستنجاد بعسكر الشام ويسيروا خزانة أخرى إلى (سيس) لكى يخرج الجيش الفرنجى المعهود . ووفق هذا التدبير سيرت عشرة آلاف دينار بالسكة العلائية ، ومائة ألف عدداً ومنشور ملكية أخلاط لدى الملك الغازى والصاحب شمس الدين بمائة ألف دينار وألفى درهم للشام وخزانة أضعاف هذه لسيس وكانت الرسالة مع جملة الرسل هى أنه إذا أهمل فى هذه القضية وخرج الأمر من اليد وسقط الملك والعياذ بالله فلن يفيد عض الشفاه وحك الأيدى ، ويقين أنه اذا نال دولتنا نكبة فسوف تسحبون فى أقل مدة إلى دائرة الهوان والصغار . ولما طالع الملك الغازى منشور ملكية أخلاط وسلمت الأموال إلى خزانتة قال سمعا وطاعة وانشغل بتفريق الأموال وجمع الرجال . ولما وصل الحاصب شمس الدين أوصل ريح الاستغناء إلى مشام فقراء أبطال ذاك البلد وراعى صاحب (سيس) تأسيس قواعد الطاعة ووصلت الرسل إلى حضرة السلطنة من الأطراف ولحق السلطان فى أول الربيع بسيواس بسبعين ألف فارس من القدامى والمأجورين الذين كانوا تجمعوا بالحرم وأطفال الأمم على موجب الحكم . وكان يتوقف مدة لكى يحلق عساكر الأطراف ويصل الملك الغازى والصاحب شمس الدين وجيش سيس . وفى هذه الأثناء وصل ناصح الدين الفارسى من جانب الشام بألفى فارس مقررين إذ كانوا يحاربون كل عام برسم الخدمة . ولما جاوز الانتظار الحد وكانت الأخبار المتواترة تصل بأن

---

(١) في الأصل (في تعوين) والصحة (بي تعويق) وليس فيها احتمال أن تكون (تعويض) كما ذهب هوتسما في الحاشية .

بايجو صمم بجيش كالنمل والجراد من حشر خراسان والعراق وفارس وكرمان على عزم التلاق ، اتفق أركان السلطنة الذين بتجارب الخطوب بصراء وبعواقب الأمور خبراء على أنه يجب التوقف فى سيواس بذريعة انتظار المدد لأن الاستناد على المقابلة بخسمين ألف فارس للبلاد تعجل فى الأمر . لكن الشباب الغمر الذين لم يروا فى العمر القتال ومهالك الرجال قبل كانوا يمانعون . وصاح نظام الدين سهراب ابن مظفر الدين وشبلاش وغريب وباقباشى (عليهم ما يستحقون) إلى متى الدوران حول تذرعات بسبب حب الحياة وأهل أرزنجان وأرزروم علف لسيف التلف وكان علينا أن نستقبلهم حتى تبريز ونخجوان ونقاتلهم هناك ، والآن لا يتيسر تخطى سيواس بمنزل للأمام من الخوف والإحجام . فاغتر السلطان بهذا البهتان من الفخر وأمر فساروا فى اليوم التالى وجاش ثمانون ألفا[1] من الجيش وسلكوا طريق (كوسه داغ) أو الجبل الأقرع الذى وشم القلوب بألف وشم طاغ ، فلما وصلوا وجدوا مروجاً غزيرة وأنهاراً بلا حصر ومواضع حصينة ، بحيث لم يكن للجيش المعادى طريق من أى طرف غير الدربند فأقاموا وظلوا ينتظرون المدد كل يوم حى وصل الخبر بغير توقع أن بايجو وصل صحراء آقشهر أرزنجان بأربعين ألف فارس . فلما سمع هذا خواص السلطنة أخذوا يمرحون من غاية الجهل بقولهم ما أعظم المغنم الذى سوف نغنم من المغول . وقال الصاحب مهذب الدين وظهير الدولة ولدا الكرجى لا يجب الدخول فى تشويش بالأراجيف ولا ينبغى بث الاضطراب فى الجيش بغير جدوى ، واليوم نحن فارغون من حملات العدو المكثفة وغداً أمر عظيم . كما جاء الخبر أن التكور واصل بثلاثة آلاف إفرنجى وهذا مدد عظيم أيضاً ، وبدأ ابن مظفر الدين فى الهذيان بقوله المسيحيون رهبان وإن أعطيت ألف عنان فرنجى أقابل المغول وأعود مظفراً إذا كان الله عز وجل معهم . فأجاب ظهير الدولة إن فى مثل هذه الحالة وأمر الملك معلق بشعرة مثل هذا اللفظ الذى يضر ريح دبره مشام العالمين يوجب خراب الشام والروم خصوصا فى حضرة السلطنة

---

(١) في النص خطأ (سوار) والصحيح (هزار) .

والواجب أن يكفر عن هذا الكلام بالصدقة ، يقول البارى تعالى (وشاورهم فى الأمر[1]) والمشاورة مقدمة على المساورة وليس من شك فى أنى أخشى الله أنا المسيحى . ففتح ولد مظفر الدين بسبب الشراب لسان الفحش فعاتبه الصاحب فى ذلك الباب فأجاب لا يمكنك عمل شئ غير الحساب والكتاب فخرجا غضبانين حيرانين وبدأ الاثنان البكاء والنياح على زوال الملك والفلاح . وفى اليوم التالى الجمعة السادس من المحرم سنة (٦٤١ هـ) أركب ابن مظفر الدين العسكر وتصاعدت بعزيمة المقابلة أصوات الطبول والنقارات ، وقدم الأمراء إلى الدهليز برغم غضبهم من سفاهته بالأمس وأخذوا يمانعون . فسلك ابن المظفر ثانية السفه والعته وأطلق لسانه بالسبّ ، وودع ولد الكرجى وولى الدين البروانة وناصح الدين الفارسى أرواحهم تطيّراً بثلاثة آلاف إفرنجى وروميى وزحفوا كالأفاعى فى تلك الدروب التى لا تجرأ الأيائل أن تختال على وهادها وبقاعها . ولما نظر بايجو ورأى أنهم ينحدرون بلا خوف من علو مثل ذاك الحصن توجه إلى الأمراء المغول وقال لا يفيد مع أولاء غير الفرار وأرى وجوب الصبر اليوم تحت السيوف حتى يدخلوا الدربند الصعب . ولما أتم دليلهم الدخول وانسدت المداخل والمخارج بازدحام العساكر عدا عليهم بايجو من حيث كان وفى أول الهجوم قاتل جيش الروم قتالاً ضروساً بحد أن الخيل أصابها الكلل وتقهقر جيش المغول فظنوا أنهم يفرون وأرسلوا الخبر إلى السلطان أن العدو انهزم ودقوا البشارات وفى هذه الأثناء عاد بايجو وأمطر الجيش بوابل السهام وقتلوا جملة هذا العسكر فنكس ابن سلوة أعلامه بسبب المخامرة وسلك طريق الفرار . ونفد ناصح الدين الفارسى بعد قتال ونزال شديدين بروحه من المعركة ومعه عدة نفر وأتى خدمة السلطان حاسراً ورفع حجاب الحرمة وذكر فى مواجهته أحاديث خشنة بمثل هذا الرأى والتدبير والحرفاء المدبرين يسلك المرء الغزو ويذهب لمقابلة الخصوم ويفسد الملك والملة ويجعل التراب على رأس المسلمين وكافة طوائف الآدميين . وسلك أيضاً فى الحال مع قومه طريق حلب . ولما رأى السلطان أن قضية

---

(١) سورة آل عمران الآية (١٥٩) .

الهزيمة انعكست تعمم بعمامة وبكى وظل واقفاً بفرسه حتى صلاة المغرب حتى سرّح الحريم وأغلب الخزائن الشريفة إلى توقات وهرب الصاولى مختبر الطعام من المعركة وأتى الخدمة فقال له السلطان ماذا ترى من صواب فأجاب إن الأمر قد جاوز الشفة اليابسة والعين الندية ولم تلتفت فى وقت التدبير إلى حديث العبيد فأى تدبير بقى لنا فى هذه الساعة . قال السلطان تركت لك زمام الملك فقدم كل ما تخبر وتقدر بلا تأخر . وذهب إلى السرادق بعد ذاك وسار صوب الدار بطريق الاضطرار . وفى الطريق غير فخر الدين أرسلان دغمش والخاص الأغز وتركرى مختبر الطعام للاحتياط لباس السلطان ، وأرخوا الأعنة ولم يتوقفوا حتى (توقات چاى) . ولما سار السلطان ظلت طائفة من العسكر حتى انقضاء نوبتين من الليل واقفين عل التلال فلما صعد المغول الجبل ورأوا الجيوش واقفة بكل موضع صرخوا وأشعلوا النيران ولم يكن لهم جرأة الدخول فى معسكر السلطان أو مجال العودة إلى مقامهم . ولما طال توقف الطليعة ولم يروا مدداً آتياً من مكان توجهوا إلى المعسكر فرأوا الأسباب فى موضعها والأصحاب قد ارتحلوا فآثرواهم أيضاً الفرار . وفى الصباح حين ألقى المغول النظر فى معسكر السلطان ورأوا الخيام بالأمتعة والأسباب فى موضعها ظنوا احتمال كمون الجيش لهم فظلوا يحومون يومين حول الخيام ، ولما تحقق لديهم فرار الجيش دخلوا المعسكر واحتازوا المال الذى لا يحصر وتوجهوا إلى سيواس ، واستقبلهم قاضى سيواس الإمام الربانى نجم الدين القير شهرى بالحرير والهدايا ولعله كان وقت استيلاء المغول على خوارزم ونكبة السلطان محمد بهذا المكان ولحق بخدمتهم ووهبوه اليرليغ والبايزة . وعرفه بايجو ولما عرض اليرليغ والبايزة قبلهما بايجو ووضعهما على رأسه ومنحه المدينة . وتركوا بوابة أرزنجان مفتوحة وأقفلوا الباقى حتى دخل بعض من العسكر لثلاثة أيام ونهبوا فيها وأمر فى اليوم الرابع بإقفال تلك البوابة أيضا ولم يتعرضوا لأحد بالأذى ثانية وذهبوا إلى قيصرية .

ذكر تخريب قيصرية وهلاك محصوريها على يد التتار

وفي تلك الحال احتمت والدة السلطان غياث الدين بسيس من قيصرية ، ولما هرب ملك الزهاد صمصام الدين قيماز الجامدار وفخر الدين إياز الأعرج من المعترك وصلا ذاك المكان واجتهدا في ترتيب أسباب المحاصرة والمدافعة وإحكام الأبراج والأسوار ، وحين وصل جيش المغل استوعب في نهب كل ما وجده بالخارج وحرقه وقتله وتغريقه . وفي اليوم التالي ركب بايجو مع الأمراء وصعد إلى المدينة ونصب الثلاثة منجنيقات على برج بوابة سيواس التي كان على حصانتها كل الاعتماد وألزم الأسرى والجوالقيين بجر المنجنيق وتواترت خمسة عشر يوماً في القصف وظهر في الأبراج أصداع فاحشة . وعزم الجيش بناء على كثرة الغنائم المعاودة وأجلوا هذه المهمة إلى العام الآتي ، فأرسل ابن (خاژوك أكد شباشي) ليلاً إلى بايجو رسولاً وطلب الأمان . ولما تيسر له هذا خرج من المدينة ليلاً عن طريق (چركاب) ولحق بمعسكر المغول وكشف بالتفصيل أحوال ضعف المدينة وقوتها . ولما علم الأمراء بهذه الحكاية ورأوا أن بايجو يراعي من يتولاه لحق به أيضاً إياز الأعرج وكان والي المدينة ولم يبق في المدينة غير صمصام الدين ورجع رأى بايجو عن الرجعة ، وأمر في يوم بأن يلبس كل الجيش أسلحته ونصبوا السلالم على البرج الذي انشق ورقوها وأذاقوا كل من رأوه شربة السيوف ونزلوا وحطموا قفل البوابة ودخل الجيش بجملته المدينة وسقط الأمير العارض وجملة الجيش أسرى وحملوهم إلى صحراء مشهد . وبعد النهب والقتل أضرموا النار في البيوت . ولما فرغوا من المدينة وأهلها وقتلوا الأسرى في صحراء مشهد الذين أسروهم قبل ذلك وقسموا الأطفال والعيال على أنفسهم اتخذوا طريق العودة وكانوا يقتلون كل من كان يصيبه التعب في الطريق ولم يكن لديه قدره السير على قدميه .

ذكر عزيمة الصاحب مهذب الدين إلى بايجو وتقرير المصالحة

لما وقعت هزيمة الجيش كان الصاحب مهذب الدين قد سقط في أماسية وسمع أن عسكر المغول تسلموا قيصرية بوجه المحاصرة فطلب فخر الدين القاضي بأماسية وقال بما أن أمر السلطنة قد وصل إلى هذه المنزلة السافلة بسبب شباب السلطان وجهله وقرت قليلاً بحور الفتنة التي كانت في تموج فإن يحدث إهمال في تدارك الأمر يكن نوعاً من الكفران والرأى هو أن نتنكب التفكير في العواقب مع أن الطريق قائم على السهام والسيوف ونسير فى إثر المغول ونطرق باب الصلح والهدنة فارتضى القاضي هذا الرأى وأثنى على الصاحب ورتب كلاهما التقدمات المختلفة وخطوا بفضل المولى في طريق الخوف والرجا وسارا وأرسلا مسبقاً بالقصاد إلى بايجو نويان . فتعجب بايجو والأمراء الآخرون لهذه المسألة والجرأة وفي حدود أرزن الروم لحق الصاحب والقاضي ببايجو وقدما فروض الطاعة وأظهر اليد البيضاء في استعطافه واستمالته وتلطف بايجو في إكرامهما وأخذا يترحلان مع جيش المغول منزلاً بعد منزل ولما لحقوا بمغان بموطن جرماغون تقدم بايجو إلى جرماغون وطلب الصاحب مهذب الدين والقاضي فخر الدين وسألهما ما هو موجب قدومكما فأجاب الصاحب يعلم الأمير أبقى الله الإِيلخان الأعظم أبد الزمان أن إذا عاون الله دولتكم في هذه الكرة وأظفركم على ملك الإسلام فلا يجب الاغترار بذلك ، فمن هلك كما هو معلوم لك في الحرب لم يزيدوا عن ثلاثة آلاف فارس ومع هذا فمن هلك من عسكر المغل عدد عظيم ، وفي أطراف ممالك الروم مائة ألف مثل ذاك العسكر حاضرون موجودون بالعدة والعتاد التامين . ولا ينتظم ملك الروم بغير السلاطين السلاجقة ولايطمئن للرعية بال إلا عند الانقياد اليهم فإن يرع النويان مصلحة الإيلخان فالطريق هو أن يقرن مصالحة السلطان بالقبول لأن العظماء الذين مضوا وخلوا الملك لكم قالوا يجب طلب رضاء من يدق باب الصلح ويدخل من مدخل العجز ،

وعرض ما هو سبب فراغ خاطر الأمير وراحة الرعية وإذا كان للنويان غير هذا الرأى فليحكم به . وأشار بايجو حين استمع إلى المفاوضات إلى امرأته التي كانت تفهم جرماغون الكلام لكي تدلي بالكلام بأذن جرماغون وأصغى جرماغون ، وبحكم أنه كان سمع كثيراً عن عادات السلطان المرحوم علاء الدين الكريمة وكان يروم على الدوام ألا يصيب ملكه ضرر أو ما وأشار برغبة صادقة إليه بالصلح والقبول . وبدأ بايجو بمشورة جرماغون أساس الانقياد مع الصاحب وأمر بإقرار ذلك المقدار من المال كل عام الذي يرسل من بلاد الروم إلى الإيلخان وأمراء العسكر وخرج الصاحب من ذلك المجمع وتشاور مع القاضي وخط بالقلم المقدر بالتفصيل من الذهب والخيل والبغل والمهرات والأبقار والأغنام وأرسله إلى خدمة النويان وأظهر أن الرسل يأتون كل عام لطلب هذا المقدار ويحملونه إلى هنا بعد أن نحصله . فرضي بايجو ببعضه واستقال بعضه فزاد الصاحب على كل ماكتب حتى قرن برضاء بايجو . وحينذاك طلب بايجو الصاحب وبشره بإتمام مرامه فأخذ الصاحب بذيل ثوب بايجو وأكد العهد والأيمان ، وأحكم باتفاق كل نويان بنيان الصلح ، ورجع في صبحة الصدر الكبير فخر الدين البخاري إلى حضرة السلطنة وانشغل بسد الثلمة ومرمة الصدع .

ذكر معاودة الصاحب شمس الدين من الشام لحضرة السلطنة

لما ذهب الصاحب شمس الدين إلى حلب في طلب العسكر جمع أجناس الأجناد الذين لم تكن أعدادهم تدخل في حيز التعداد وأعطاهم الأرزاق لستة أشهر مقدمة وكان مصمماً على العزم يومه وغده حين أتاه نبأ كسر العسكر وانهزام السلطان وتفرق الجموع فأصاب النيات الفتور بسبب الاضطرار ولقيت القلوب الكسور بسبب رد صحاح الدرهم والدينار ، فاسترد بطريق المساهلة البعض من المال وصار أغلبه في الأكياس مسرعاً معجلاً في نواحي

العالم . وقدم أكابر ممالك الروم وأعيانها من قيصرية وملطية والجوانب الأخرى إلى حلب عن طريق سيس فأطال أرامنة سيس (أباد الله حالهم وأفنى رجالهم) يد الغدر والغارة على ملتجئى الأسلام واعتقلوا والدة السلطان وسلموها إلى المغول عاقبة الأمر وكانوا يسبون الرسول صلوات الله عليه . وفي الجملة ظهر للروم في حلب جمع تام ووصل الخبر بأن السلطان لحق من معركة كوسة طاغ بسلامة بقونية وتوجه عسكر المغول إلى مغان وأن الصاحب مهذب الدين سار في عقب جهة افتتاح أبواب المصالحة وخرج الخلائق من المسارب والمهارب فعزم الصاحب شمس الدين وسائر أكابر الروم الرجوع ، لكنه كان خائفاً بسبب الإبطاء الذي حدث والمجال الذي وجده بلا شك الحساد والأكراد والأتراك الذين كانوا على الطريق ، فدعا الملك مسعوداً صاحب آمد وقدموا في صحبته حتى ملطية . واستبشر الصاولي مختبر الطعام بقدوم الصاحب ومنع استصحاب الملك مسعود بناء على النحوس والإدبار الملازمين له وأرسل الصاحب أبا حسام الصوبان الملطي لخدمته بأن فترة ظهرت في هذا الوقت في المملكة وليس محققا ماذا سينجلي من أستار الغيب والمصلحة أن يعود الملك وحين يصل الصاحب إلى خدمة السلطان ويكشف الحال يصل مثال من خدمة السلطنة باستدعاء الملك ويعين له إقطاع . ولما سمع الملك مسعود هذه الرسالة أطال لسان العتاب وعاد إلى الشام عن طريق أبلستان نادماً سادما وتوجه الصاحب لخدمة بلاط السلطان وكان مختبر الطعام قد أسبق الرسل وأخبر بقدوم الصاحب وقدم ذكر دهشته ووحشته والتمس الاستعطاف فلما بلغ منزل (أبروق) بلغه منشور الوزارة والفرمان باستمالة تامة . وبعد أن طالعهما قال مع أن هذا المعنى كمال إكرام العبد ولكن في مثل الحالة التي ألقى فيها الصاحب مهذب الدين لأجل مصالح المسلمين بنفسه في ضغطة البلاء والعناء فإن الأمر بعزله ليس صواباً . ولما لحق بالحضرة فوض له الحل والعقد لجميع الأمور ، لكنه لم يشرع بحال قط في الأمور المتعلقة بوظائف الوزارة .

ذكر عودة الصاحب مهذب الدين
من خدمة بايجو نويان

وفي أثناء هذه الحالات وصل المبشرون بوصول الصاحب وحصول المآرب ولحق في عقبهم بخدمة بلاط الملك وقص الحكايات والإيجاب الذي حدث . وكان السلطان يشرفه في كل لحظة بتشريف مجدد ويثني عليه تحسيناً بلا عدد . وبعد ذلك تعدى شأنه قلة شواهق الكمال وذروة الجلال ، وفي يوم واحد أرسل إليه وإلى الصاحب شمس الدين من حضرة السلطنة دواة الوزارة وسيف النيابة الذهبي وأمر له بإقطاعات كثيرة ، ولم يقبل الصاحب مهذب الدين بغير أربعين ألفا عدداً ولم يدخلها في حوزة التصرف .

ذكر توجه الأصبهاني
لخدمة صاين خان من بحر الخزر

حين أودع السلطان غياث الدين زمام التدبير إلى هذين الشيخين الفريدين النجيبين رأيا أن يرسل الرسل إلى الخدمة التي أخذت صحراء القفجاق بالسيف الماضي ويشيدا ويعليا بنيان السلطنة الذي اختل بواسطة سوء تدابير المدابير بعون معمار اقتدار الملوك المتمكنين من الدنيا . ولما عرض هذا الرأى على خدمة حضرة السلطنة ، وقعت بعد الإحماد والاستحسان قرعة الاختيار على واحد من هذين العظيمين الشهيرين ، لكن السلطان قال بناء على أن الصاحب مهذب الدين لم ينفض بعد غبار سفر مغان عن كاهله يتعين لهذا النائب شمس الدين . فسجد في الحال وامتثل لأمر السلطان ، وأمر السلطان أمناء الخزانة ليطلقوا يد تصرف النائب شمس الدين في كل ما يريد من الخزانة فاختار من التحف والطرف والجواهر والنفائس كل ما رآه لائقاً ، وتوجه إلى الطريق يتبعه فخر الدين قاضي أماسية ومجد الدين محمد الترجمان . فلما وصل الحضرة وعرض التقدمات

وصل محل القبول وفرقت في الحال على الخواتين والأمراء . وكان يستقبل كل يوم الأتباع الثلاثة ويكرمهم حتى غدوا مغبوطي العالمين . وبعد مدة أجاز لهم بالانصراف ووهب للسلطان جعبة وقربانا وسيفا وقباء وتاجاً مرصعاً ويرليغا ، وجعل النائب من قبله في الممالك حاكماً وأمر بيرليغ لكل هذه الجملة ومنح التبعين تشريفاً خاصاً وندب (سانقسون[1]) قرجي بالجواب ، وودعوا الخدمة وساروا عن طريق شماخي وشروان إلى ممالك الروم . وزاد السلطان بورودهم سروراً وبحكم أن الصاحب مهذب الدين كان لحق بجوار الحق أرسل مسبقا إليه منشور الوزارة مضافاً إلى إمارة قيرشهر ولم يتيسر ذلك لأى وزير من وزراء الروم قط واستعجل إدراكه شرف المثول . وأقام هو أيضاً في صحبة الرسل الأفراح بكل مدينة وصل إليها وعلق بها الزينات ثم تركها وبلغ الحضرة في قرية قرايوك من أعمال آقشهر قونية وعرض القضايا التي جرت في الذهاب والإياب واحدة واحدة . فنال روح السلطان في استماعه أداء المهام وحسن القيام وتيسر المرام ألف راحة، وأعطاه سيفا مرصع القراب وأمر بأن يشق بذاك السيف الذي لا يشفق كل من يتجاوز حكمه شقين . وقدموا إذ ذاك بكثرة تامة مع الرسل إلى قونية وأعيد من هناك بالإكرام والصلات العظام .

ذكر عزيمة الصاحب شمس الدين وإغراء العساكر بقصد سيس

لما انتشر خبر اجتماع العساكر بقصد البلد الكافر في جملة الممالك ، أخذ الخاص والعام يسابق أحدهم الآخر في هذا الحكم وتجمعوا بنية الغزو بالمحروسة قونية ولحقوا بقلوب قوية وعزم صادق إلى أراكلية ، وبها خفضوا الأثقال حين أتوا فجأة البحر الأخضر حول قلعة طرسوس . ونصبوا المنجنيقات وبدأ الأمراء الكبار بالعسكر الجرار الهجوم في الأطلال والدمن

---

(١) الكتابة غير مؤكدة .

لبلاد الأرمن وكل من قابلوه جعلوه إما مملوكا أو أرسلوه إلى الممالك وأحرقوا الأشجار والمزارع ولم يجيزوا بأي وجه على أي شئ الإبقاء ، وبقصف المنجيق ألقوا بالشقوق الواسعات في الايوان والسرايات والدور والقصور بطرسوس ، ولو ظلوا يكافحون يوماً واحداً زيادة لظفروا لكن حسدهم على الميراث كان يحملوهم على الخذلان ويقولون نفتح نحن الولاية وتكون باسم الصاحب شمس الدين . وفجأة فتح عزال لوطاب السحاب وأخذ المطر ينهمر بالليل والنهار بحيث تعذر مجال تردد كافة الجند إلى الخيام ، ووصل الفرمان أيضاً أن اعزم من هذا الجانب الذي وقعت منه حادثة برك الماء ، فقال الصاحب لا يجدر ترك الأمر مُبَتَّراً والرأى هو أن تصالح هذا الكلب الذئب ، وتلزمه بأداء الخراج ، وأرسل بالليل إلى التكور في السر بزعم أن الأمراء بلا خبر عن تلك القضية أنني كنت أراعيك على الدوام وما نعت عنان السلطان مرات من المداخلة في ممالكك وكنت دافعا أيضا هذه المرة . لكن بسبب أن بحر الغضب كان متموجاً ورياح السخط عاصفة وذلك لأنك أظهرت في وقت انكسار الجيش في كوسة طا غ كل الأخلاق الفاسدة الموجودة ولم تترك للعذر مجالاً ، فجردت الجيش وسهلت الأمر بحيث إذا أحببت استخلصت بلادك في ساعة واحدة . والأفضل للتكور أن يتقدم بقدم الاستغفار ويضرب حلقة باب الصلح ويحمل الأحمال للخزانة حتى أتوسط وأزيل غبار الوحشة . فلما سمع التكور هذه الرسالة حيا وأجاب وأرسل قاصداً للأمراء بطلب الأمان وسلم قلعة (براكتا) ومعها بضع قلاع أخرى لعبيد السلطنة وسير خراج الماضي والمستقبل بالهدايا وارتحل الأمراء والعساكر ولحقوا بألف حيلة بأراكلية وبقي أغلب المتاع والمؤونة والأحمال في أورخال . ولما وصلوا خدمة البلاط كان اليوم السابع لتحول السلطان إلى رياض العقبى فانشغلوا بالعزاء والبكاء وبدأوا المشاورة بعد ثلاثة أيام .

ذكر جلوس السلطان عز الدين كيكاوس على سرير السلطنة

تدبر الصاحب شمس الدين محمد مع أصحابه الأربعة جلال الدين القراطاي والخاص الأغز وأسد الدين روزبة الأمير المتولي للثياب وفخر الدين أبي بكر البروانة فيمن يجلسون على تخت السلطنة من الأمراء الثلاثة عز الدين كيكاوس وركن الدين قلج أرسلان وعلاء الدين كيقباد . فوجدوا عز الدين كيكاوس ممتازا عن أخويه بحسن الطلعة وجمال الأبهة وعلو مرتبة السنّ ، فقصروا الأحاديث وطولوا الأيمان بمبايعته وأقسموا أغلظ الأيمان على متابعة حكمه ، وحملوهما من قلعة (برغلو) إلى (التونتاش) بأقشهر قونية ووضعوا كرسيين ملكيين على يمين التخت ويساره وأجلسوا على اليد اليمنى ركن الدين قلج أرسلان وعلى اليد اليسرى علاء الدين كيقباد . وأخذ الصاحب شمس الدين والخاص الأغز بيمين السلطان ويساره وأجلساه على سرير الملك ونثروا الدنانير ثم توجهوا إلى قونية وهناك أجلسوا السلطان على مكان الآباء الكرام وقرت الوزارة على الصاحب شمس الدين والنيابة على قراطاي وملك الأمراء على الخاص الأغز والأتابكية على أسد الدين روزبة والبروانية على أبي بكر العطار وسطر شمس الدين محمود الطغرائي المعروف ببابا منشوراً باسم كل منهم ، فحصله من تلك الكتابة نعمة جزيلة ، فتكلف له شمس الدين الخاص الأغز مقدار خمسين ألفا عداً . وبعد إحكام قواعد الملك والدولة قاموا بتمشية أحكام الملك وأخذوا بالاتفاق أحدهم مع الآخر في تدارك أمور الجمهور ، لكن بسبب المصاهرة التي زوج الخاص الأغز بها كريمته لمبارز الدين بيرم ابن أخت أسد الدين روزبة ، فوقع بينهما الاتفاق الكلي حتى كانوا يرجعون إليهما في جلائل أمور أغلب الخلق ، ولم يكن يتحقق أمر يحكم به الصاحب والبروانة مالم يرتضياه ، اشتعلت نار الحسد في قلب (نصرت) أمير القضاء وأبي بكر البروانة ، ومع أن الصاحب لم يكن يلقى ظلاله على ذلك وكان مستغرقاً في أوقاته بعد الديوان بمطالعة الكتب

ومجالسة العلماء والزهاد وكان يود دفع استقلالهما على وجه أحسن ولا يجعل عرضهما بسبب الحصول على الأغراض الفاسدة مضغة كل شامت وحاسد ، لكن نصرت أمير القضاء بسبب ما كان له من خبث النفس وفاسد الاعتقاد كان يختلف كل لحظة بحديث مزعج[١] وخبث مهيج[٢] من قبل الخاص الأغز وروزبة ويسعفه[٣] في نفس اليوم ويبلغه مسامع الصاحب ، حتى وصل الأمر بمرور الأيام أن ظهر في طبع الصاحب الألوف نفور من حضورهما وتبرم من وجودهما فخاف وتوهم حتى أنه رضى بسلامة رأسه في ذاك البلد وأراد أن يسير إلى خدمة السلطان ركن الدين قلج أرسلان الذي كان ندب من عهد أبيه للتوجه إلى حضرته وهيأ أسباب السفر . وفي يوم ذهب نصرت أمير القضاء ومعه البروانة في الخفاء إلى منزل الصاحب وقالا إن عند ساكني حوزة المملكة كالنهار المنير المبين أن السلطان غياث الدين في أوقات حياته وسكرات مماته فوض وصاية الأولاد وكفاية الرعايا والبلاد لرأى الصاحب الثاقب . والآن حين يصمم الصاحب على المغادرة ويعطل دست الوزارة التي هي من محياه الرائع كالفلك الرابع المظهر للشمس فسوف تهمل مصالح الخلق وتظهر النكبة في الملك والدولة ويبدو اختلاف الكلمة وافتراق الجماعة والسبب هو إهمال الصاحب . وإذا كان السبب هو عنود الخاص الأغز وروزبة يسهل علينا إذا أجازلنا حضرة الوزارة القيام بدفعهما . فارتضى الصاحب

---

(١) في الأصل خطأ (منزعج) .

(٢) في الأصل خطأ (كمهج) .

(٣) (مسفوع) عربية من السعفة والسفع السواد والشحوب وسفع الناصية أي جذبها ومنه (لنسعفا بالناصية) أي لنأخذن بها وقيل لنسودن وجهه لقول الشاعر:

وكنت إذا نفس الغوى نزت بــه　　　سفعت على العرنين منه بميسم

أي وسمته على عرنينه وهو مثل قوله تعالى (سنسمه على الخرطوم) ، ويقال سفعت الشئ إذا جعلت عليه علامة . والسفعة والشفعة الجنون ورجل مسفوع ومشفوع أي مجنون (انظر هذه المادة في لسان العرب لابن منظور) فيكون المعنى على هذا (ويسوده في نفس اليوم أو يسمه) . وربما كانت الكلمة (مشفوع) أي يشفعه بمزيد الإزعاج والتهييج وهذا أفضل .

باعتزالهما واعتقالهما ووكل في النكلة البروانة وأمير القضاء ، فقالا يجب ألا يتجاوز الصاحب صواب رأينا فإننا ندعوهما للعيادة ونقيدهما في الخلوة ونرسلهما إلى حيث يأمر الصاحب ، فرضي الصاحب بكل ذلك .

ذكر احتيال البروانة وأمير القضاء واغتيال الخاص الأغز وروزبة في سراي الصاحب

لما أستاذن أبو بكر البروانة ونصرت أمير القضاء من خدمة الصاحب دعوا قادة رنود آقشهر وآبگرم الذين كانوا دوماً من خوف مقدمي الشحنات كالأفاعي والسحالي زاحفين وهاربين في شقوق حوائط كل حديقة وأمناهم بالأيمان المغلظة بل وعداهم بالإقطاع والتشريف ووارياهم في دار الغلمان التي كانت حول فناء سراى الصاحب بحيث لم يعلم مخلوق قط أثناء الليل وجرت المواضعة على أن الأمراء حين يدخلون خدمة الصاحب بالصباح وتتيسر الخلوة ينطق (نصرت) لفظة (قوزي) فيثب الرنود الخبثاء من مكامنهم ويهلكون الأميرين . فلما أتموا ذلك التلبيس والتدليس ، تمارض الصاحب قبل ذلك بأيام عدة ولزم الفراش ، وذهب في الحاب المبكر (نصرت) إلى خدمة الخاص الأغز وقال مضت عدة أيام والوزير صاحب الفراش ، والمرض يتزايد عليه كل يوم واهتم الأصحاب الكبار بالسؤال عنه وعيادته ، فإن تتعب نفسك اليوم لكي تعرض على الخدمة ما قد يكون له من حكاية ووصاية فليس ذهابك يخلو من الفائدة . فقال الخاص الأغز رأيت الليلة أحلاماً غير طيبة وأنا منها مضطرب ، واختيار اليوم من ناحية التنجيم والحلم مذموم كثيراً أيضاً ، فلنؤجل العيادة إلى الغد ولنزفر اليوم بزفير الخمر بدلاً منها[1] . فدفع (نصرت) الحجج وظل مقيماً عليه حتى أرسل واستدعى أسد الدين روزبة ، وسار كلاهما بالحواشي والحشم . فلما اقتربوا سبق (نصرت)

(١) أخذنا باحتمال أن تكون الجملة (وامروزبجادم باده برداريم) فترجمنا هنا بهذا المعنى وليس كما ورد في النص بمالا يؤدي إلى معنى مفهوم (وامروز بخادم ...) .

برسم أنه يعلم بالوصول ودخل الحجرات وزاد الدمويين ترغيباً وتشجيعاً ثم عاد ووقف على الباب مرحباً ولم يسمح بالملق والدهان أن يصحبهما غير ملبس للحذائين واحد لكل منهما . ولما دخل جملة الأمراء أحكم نصرت غلق الباب وسار أمامهم إلى دار التدفئة بخدمة الصاحب . ولما دخلوا شرعوا بعد السلام والتحية بالسؤال والملاطفة . ونطق نصرت بحكم المواضعة (قوزي) فوثبوا جميعاً من المكامن والمخابئ ، وصاروا بالحراب والأسياف التي لا تخاف أمام الصاحب وطعنوا الخاص الأغز وأمير الثياب الملكية . وكان الخاص الأغز يصرخ إن هذا المسلك أيها السيد الصاحب ليس من باب الوفاء والمروءة ولم نتوقع هذا من الخدمة وكان يزاد طعناً كلما زاد صراخاً . ولما سفكت دماء هذين الكبيرين النجيبين فصل رأساهما وعلقا بقصر خشبي كان أنشئ على بوابة السلطان للزينة حتى شاهد الخاص والعام . ولما رأى المتعلقون والحشم هذا الحال جفلوا وزحفوا إلى مناحي غابات الصنوبر . وسقطت كل هذه الصولة والهيبة والصلابة في أقل من ساعة وانمحى حرف وجودهما من صحائف الزمان . بيت :

فكانت لوعة ثم استقرت كذاك لكل سائلة قـرار

كان لشمس الدين الخاص الأغز مع أنه كان غلاماً رومي الأصل الفضل الوافر والتعبير الباهر والخط كسمط الجواهر ، وفي فيض العطاء بنحو أنه لا يُدْخل السحاب في الحساب ويعد حاتماً بخيلا . أنشأ رسالة في مناظرة الصنج والشراب واستطاع الاستدلال على فضل الأخير على الأول . وروزبة مع أنه لم يكن بفضل لكنه كان فريدا في الكفاية والدراية والعفة والديانة أي نعم . وبعد ذلك أرسل نصرت الرنود والأوباش إلى منازلهم فنهبت وركب الصاحب وأجلس السلطان وأركبه بالمظلة والسنجق حول الخندق ونزل الديوان وأرسل الناس بطلب أقاربهما ومتعلقيهما فحبس بعضهم وقتل آخرون وأطلق بعض ثالث ولم يبق حتى الصلاة التالية في دور ديارهما ديَّار .

ذكر استدعاء صاحب الحضور شرف الدين الأرزنجاني وسبب تبدل مودتهما إلى عداوة

لما وقف الصاحب شمس الدين على موجب النصيحة (اللبيب من وعظ بغيره) في تلك المكيدة على خبث عقيدة أبي بكر البروانة ونصرت ذي الجنانة وبسبب أنه لم يكن بذي امرأة وولد وقريب سند فكان دائم الخوف والهم في قونية من عذرهما ومكرهما . وفي يوم أفشى السر لشمس الدين بابا الطغرائي وكان يطلب التنوير بوجه التدبير بمصقل رؤيته لزجاج فكرته المصدأة . فأجاب الطغرائي أن الصاحب الأعظم لو يأمر فيرسل مثالاً من جناب الوزارة باستدعاء شرف الدين محمود قائد عسكر أرزنجان ، ويغدو منشور ملك أمراء الروم باسمه مرقوماً ويرسل له واذا تيسر حضوره إلى البلاط وتواترت أنواع الاصطناع من حضرة الوزارة في حقه ، يجب أحياناً الشكاية بالتعريض والكناية من البروانة وأمير القضاء والترصد إلى ما يقول من جواب في هذا الباب ، فإذا وقعت إجابته مطابقة لمصلحة عبيد الصاحب وإرادتهم وجب قول هذا المعنى له ويمكن وجود المخرج والمخلص إلى هذا الطريق منه . فوافق الصاحب على هذا الرأى ، ورقم في الحال بالقلم مثالاً متضمنا الألطاف المتجاوزة الأوصاف وأرسله له على يد سابق بريدي في الخفاء . وحالما طالع الكتاب لمعت أسارير مسرته ، وتوجه بحشد تام وجيش كبير إلى خدمة السلطان . ولما سمع الصاحب وسائر الأركان خبر قدومه أوجبوا استقباله وجعله الصاحب بأصناف الألطاف سغبة الإحسان وعبد الإذعان ، ولما مضت مدة على هذا الحال أجرى يوماً الصاحب في السيران على اللسان قوله إننا نرى أن ينهض الموكب السلطاني إلى سيواس والبروانة وأمير القضاء غير راضين بهذا الباب ولا يريدان أن يفارقا بلدهما ومواطنيهما وليس هذا إلا أن خاطريهما بسبب الافتعال الذي أهلكا به الأميرين في انفعال تام ولم يبق لي على الأفعال والأقوال والباطن لهذه الجماعة اعتماد ، ويشهد عالم الغيب والشهادة أن رضائي لم يقترن بحال قط

على طبخ مائدة هذين الشهيدين ، ولأني سقطت بينهما (كالشعرة البيضاء في اللمة السوداء) وحرمت من إسعاد المجير وإنجاد المشير ، وجاشت مراجل فتنهم وإحنهم سرت من غاية الاضطرار بعقب مرادهما وأسلمت نفسي لسوء الذكرى في الدنيا والأخرى ، وغدوت بخبث هذين الشؤمين ووشايتهما محروماً من مصاحبة الأمراء الذين نشأوا ونموا من عهد الطفولة في حجر تربيتنا وكانوا يرون الدنيا بنظرنا وفي أثناء هذا التقرير جرت قطرات العبرات على وجنتيه الكريمتين . فرق الأمير شرف الدين على سلامة النفس وصدق النفس للصاحب وأجاب لوأن الصاحب الأعظم حزم على أن يعزم موكب السلطنة إلى قيصرية وسيواس فمن يقدر أن يضع يد الرد على صدر مراد عبيد حضرته . واذا كان الله تعالى قد أوقف في العزيمة حتى هذه الغاية فقد كان هذا بسبب غيبتي فإن بعد هذا وقد امتدت يد اعتصام العبد إلى العروة الوثقى لذيل السرج المبارك للصاحب الأعظم وأحكمت فإن العبد يقف بقلبه وروحه في التنفيذ والتيسير لكل ما يأمر ويرى . فلما سمع الصاحب هذه الكلمات من شرف الدين ارتاح قلبه الجماح وأعلم الطغرائي بما جرى وزاد استظهاراً وقال حينما يبلغ التنمّس الشرف يظهر وبال الخصم المنكوس . وفي يوم حين اختلى الثلاثة قدحوا زناد رأيهم حول كيفية الشروع في إبادة هذين الشريرين الخبيثين ، فقال شرف الدين لا يتيسر الأمر مادام كلاهما في هذه المدينة ، فقال الصاحب تنصرف همتنا كلها إلى أن أسير على موجب تقرير السلطان غياث الدين الملك ركن الدين إلى الخدمة وكنا قبل هذا متصدين لتلك الطاعة ونجعل نصرت أمير القضاء في خدمة ركابه ملازماً ، فإذا حدث على هذا الوجه الافتراق بينهما ربما يسفر وجه المقصود فقال كلاهما نعم الرأى . وفي اليوم التالي حضروا إلى الديوان . فبلغ الصاحب الحديث إلى أن الواجب هو أن يتوجه الملك ركن الدين بأسرع ما يكون حتى لا تتلف الأسباب التي سبق ترتيبها بزمان طويل ويسير في خدمته كل من تختاره من الحاضرين ، فقال البروانة يقوم بهذه الطاعة كل من يشير به الصاحب . قال الطغرائي يتعين أمير القضاء ، فقال البروانة لا مزيد عليه ، فألزم والتزم أمير

القضاء . وبعد أيام عدة عزم في خدمة الملك ركن الدين النافذ الأمر إلى سيواس . ولما علم بوجه القياس وصولهم إلى سيواس ، سلك بعد يوم من السيران الصاحب وشرف الدين والطغرائي في خدمة السلطان طريق آقصرا وأرسلوا قاصدا إلى القراطاي بأن يحمل البيوتات والخزائن للاحتياط ويلحق بسرعة بحضرة السلطنة . ولما رأى البروانة هذه الحالة لم تقر بلابله وصاح كيف تعزم مثل هذه العزيمة فجاءة بلا سبب واضح وتقديم مشورة ، فغلب عليه التوهم بحكم (الخائن خائف) ، فطلب الإجازة بالرجوع حتى يعود ويرتب أسباب السفر ويصل في أعقابهم . فلما قدم المدينة استدعى الآخيان والفتيان واستغاث بهم ، فأجابوا إن الصاحب بوصاية السلطان غياث الدين حاكم الملك وكافل مصالح السلطان عز الدين والسلطان الذي هو مالك الملك في يديه ، ونحن لن نضرب عيار العصيان على نقد وجودنا بسبب أن بينكما غباراً ولن نعلن الكفران . وفي هذه الأثناء أرسل شمس الدين يوتاش لرئاسة عسكر قونية فاستقبله كل الآخيان والأعيان . ولما رأى البروانة كساد سوقه أخذ يبعث ولده على التوجه إلى سيس ، فلم يسمع كلامه وأعرض عنه كل متعلقيه فأخذ هو وولده يحتميان نادمين بالحدائق ، لأن يوتاش كان سد عليه جملة الطرق وأخذ أسباب الاحتياط . فلما بلغ الصاحب إلى سيواس أرسل بنصرت أمير القضاء في جزاء الخبث والمكايد التي كان دبرها في إهلاك الأمراء الشهداء إلى قلعة (هاويك) مخذولاً ومجدولا ، وسير أحد الكفاة في الديوان كان موصوفاً بالصرامة لتدارك أمر البروانة وابنه إلى قونية برسم البريد . فلما لحق من (بزرك) بذاك المكان قبض بوجه الكفاية على البروانة مع ابنه وأرسله إلى قلعة (دارندة) وحمل ابنه إلى (كاختة) . وبهذه الواسطة انطفأت لهبات جمرات الفتن عن عراض الممالك وانقضت المهمات على مقتضى إرادة الخواطر والتأم الصاحب وشرف الدين (كالماء والراح) أحدهما مع الآخر وسير الملك ركن الدين إلى الخدمة برسم الملوك وأرسل القاضي كمال الدين الختني وعز الدين محمد شاه الذي كان في ذاك الزمان مشرف الممالك وبهاء الدين يوسف بن نوح الأرزنجاني في خدمته . وفي

النهاية بالتقدير الرباني انتهت المصافاة بين الصاحب وشرف الدين إلى المنافاة وأفضى الاستئناس إلى الوحشة .

ذكر الفرقة التي وقعت بين الصاحب الأصبهاني وشرف الدين الأرزنجاني

وكان سبب ذلك أن المتعاقلين الفضوليين بسبب ترويج أمورهم تحدثوا في تزويج الصاحب من والدة السلطان ، وفي الحال أبلغوا الأمر من أول الفكر إلى آخر العمل وأتمت شروط النكاح وتحلية الحياة بلا إعلام شرف الدين . فالتمع على جبهة الحمية لشرف الدين وباقي الأمراء من هذه الحكاية أثر الأنفة وفتل أسباب العتاب وأطناب الملام في هذا الباب وألزم المؤاخذة على تلك الجرأة ولم يقبل من الصاحب مع كثير اعتذاره إلى أن أبلغ الصاحب يوماً أن شرف الدين غضب على حفيد ملك أخلاط والذي (والحالة هذه) كان انخرط في زمرة أمرائه وأجرى عليه حكم القتل . فظهر للصاحب من ذاك المقال انفعال ووبخ شرف الدين على تلك البادرة بقوله إن الرضا بهدم وجود آدمي وهو البنيان المؤسس للحق لاسيما وهو أمير وصار لك من جور دور الزمان من الغلمان بعيد عن الديانة والمروة . فتوهم شرف الدين من ذلك ، وسلك بعد يوم من سيرانه طريق أرزنجان أيضاً فأرسل الصاحب حتى لا تتمادى العدواة تاج الدين السيمجوري ومعه نظام الدين أستاذ الدار إلى شرف الدين ، فلما وصلا إليه أجاب شرف الدين من فرط التنمير إجابات بعيدة عن الموضوع ، وفي الجملة قررا معه بحضور نجم الدين قاضي سيواس والأكابر الآخرين بأن يصله ثلاثمائه ألف عدداً من الوجوه الخاصة فوق أرزنجان ونكيسار التي كانت تنفق على رئاسة الجيش لكي يقيم في حدود المملكة ويراعي الصادر والوارد . فتعاهدوا على هذه الجملة وحطموا قارورة الخلاف وعادوا إلى بلاط السلطان . فلما رجعوا سلك شرف الدين طريق العصيان وجرد الجيش وأتى نكيسار . فلما علم الصاحب هذا

التناقض أرسل شمس الدين يوتاش بجيش كثيف لمحاربته فهزمه في (خروقي[1]) من أعمال نكيسار فذهب منهزماً إلى قلعة كماخ وتحصن بها فأرسل الصاحب كافة القواد لمحاصرته فجعلوا بالمكر والخداع أهل القلعة يتوهمون منه . ولما علم شرف الدين اتفاق كلمة الأمة أرسل إلى الأمراء المشايعين له برسالة وطلب الأمان ووسطهم أن يطلبوا الأمان من الصاحب على حياته . فكتبوا كتاباً إلى الصاحب في ذاك الباب فأصدر الصاحب في جواب ذاك الملتمس كتابا متلمساً فاغتر بذلك ونزل من القلعة وسار مع الأمراء ولما بلغوا (چپنوق) لحق بهم رسول الصاحب بفصل رأس شرف الدين عن جسده وإرساله إلى هذه البلدة فسلمه الأمراء إلى الرسول فقتله وفصل رأسه عن جسده وجعله في كيس كبير وعلقه في المنزل الذي كان نزل فيه في قرية (چپنوق) بمسمار . وبعد مدة اتفاقا حين أبلغ الصاحب في قونية درجة الشهادة وأرسل رأسه إلى سيواس علق في ذاك المنزل بنفس المسمار . نعم . ولما حصل الصاحب الفراغ من اضطراب شرف الدين أمر فخنق البروانة في قلعة داراندة وابنه في كاخته بأحبال الأقواس وصار مرفه البال بعد ذاك من المنازعين بالكلية .

ذكر استقلال الصاحب شمس الدين في مسند الجلال

لما التقت مواكب حشمة الصاحب في مدارج السعادة بالسعادات السماوية وأخذ الممالك بكف ضبطه وتدبيره وزع وقسم أوقاته ووظفها للذات الجسمانية والروحانية ، فكان يجلس في المسند الثلث الأخير من الليل ويشرع الحفاظ بالدور والقراءة وحين كان ينادي مؤذن الصلاة (بقد قامت) كان الكبير والصغير يقومون بالاتفاق بأداء المكتوبة ، وإذا ما أقاموا حقها على سبيل الوجوب كان قابض الديوان يدخل المناشير والأمثلة التي كتبت بالأمس حتى تطالع وتصلح وتوقّع ، وإذ ذاك يسمح للأمراء للدخول بالسلام ، وبعد

(١) الاسم غير مؤكد .

ذاك كان يضع التاج السلطاني والعمامة المفضضة المذهبة على رأسه ويركب ويسير بهيبة تامة ، وحين كان يرجع كان يضع الخوان السلطاني و (يزين[1]) الديوان بالأبهة ويجلس التراجمة والمنشئون عن اليمين واليسار في مراتبهم ويتكئ الصاحب بجنبه منفرداً على ركن من أركان التخت ويفصل في الدعاوي القراطاي وشمس الدين بابا وقد ركعا من بعد في الخدمة والأمير وقد وقف على الصفة جاعلاً السيف الذهبي في حمائله ويعطون قصصهم للمنشئين . وحين كان يأتي من الديوان إلى الوثاق يضع الخوان الملكي وبعد رفعه ينتشر الجميع ويستريح الصاحب زمانا ثم يعود بعد ذاك إلى الصفة مختالاً ويطلب مولانا تاج الدين التبريزي ويتباحث معه في أنواع العلوم ويؤدى صلاة الظهر في جماعة . وحينذاك يدخل ولي الدين الخطاط التبريزي فيجودان حتى الصلاة التالية الخط ، وبعد الصلاة يذهب صوب الميدان ويسير حتى اصفرار الشمس حتى يأتي بعد إلى الوثاق ويؤدي صلاة المغرب . وبعد ذاك يعقد الحفل وينشغل حتى منتصف الليل بالاستماع إلى قصائد الفضلاء الذين أتوا من البقاع للانتجاع من الفارسية والعربية والخطب والرسائل ويبحث في أنواع العلوم لاسيما التواريخ ، وعاش على هذه الوتيرة عامين وفجأة فرقت وبددت طعنة عين الأيام سلك تلك الراحة ووصل الخبر بأن (تركي أحمد) خرج في أطراف الحدود وهو ينتسب إلى بنوة السلطان علاء الدين فسير الصاحب المتجندة وقادة الجيش لدفع ذاك الخارجي . ولما التحم الجيشان وتحقق للأمراء شوكة الخارجي أوقفوا الحرب بالتعلل والتماطل وأرسلوا إلى الصاحب بالرسل وطلبوا المدد فأرسل الصاحب المفاردة والمأجورين بصحبة خطير الدين أمير القضاء وكان أرسل مسبقا رشيد الدين أبا بكر الجويني بالخزائن الفائقة . وكان بالحكم السماوي سرايته خالية من الحماة والحراس وفي مثل هذه الحالة وصل الخبر أن الملك ركن الدين رجع من الخدمة[2] وأعطيت له السلطنة ودبر أمراء خدمته المؤامرات ضد الصاحب ، وأنفذوا

---

(١) بناء على اقتراح هوتسما وهي ليست موجودة بالنص .

(٢) مصطلح (الخدمة) كما سبق التنبيه هي الحضرة المغولية .

الأحكام في هذا الباب . ووصل صارم الدين (آليسارو[1]) وفخر الدين سيواستوس يحملان يرليغا بالقبض على الصاحب . فأرسل جلال الدين القراطاي وولد الطوسي إلى الصاحب بالرغم من أن مثل هذا الحكم قد وصل لكننا نعد الصاحب الحاكم فالواجب ترك الحواشي بعد هذا ويأتى الديوان بغلام أو اثنين لتولي الدواة وآخر للحذائين . فجمع القرار والاستقرار من قلب الصاحب وروحه بسبب هذه الرسالة وتحقق في نفسه من أنهم سعوا في قصده وقيده فلبس تشريف صاين خان وعين بضعة الغلمان الذين لديه على الباب والسور وأرسل القراطاي السيمجوري إلى الصاحب في الخفاء بأن يخفي نفسه بكل طريقة ممكنة في إحدى الحدائق ويلتحق منها بجيشه الذي أرسله إلى الحدود . فظن الصاحب هذا الكلام موجهاً عن غرض فلم يغادر منزله . وفي اليوم التالي أمر ولد الطوسي أخيان قونية أن يتوجهوا بالسلاح وفوج من المفاردة وغلمان حراسة السلطان إلى باب الصاحب ويلازموه برسم التوكيل . فلما وصلت الرسل وأتوا الأوامر بقيد الصاحب وقتله طلب الصاحب إلى سراي السلطنة فأبى ، وفي العاقبة ركب مضطراً . ولما وصل باب القصر أمر بفك سلسلة كانت معقودة لدفع الفرسان فأبوا فأحنى ظهره ومر . ولما وصل الدهليز ألزمه سيف الدين قيبة[2] بدخول الدار التي كانت على اليد اليسرى ، ولما دخلها أرسل ابن الطوسي الكتّاب والحسّاب لقصره فنقلوا كل ما كان يملك إلى سراي السلطنة . وحمل الصاحب في نفس تلك الليلة إلى دار متعهد الغلال في القلعة . وفي الطريق سأل أمير القضاء اين نحن ذاهبون فأجاب إلى حيث أرسل الصاحب بالآخرين ويرسلونا فيما بعد . فوضع الصاحب قلبه على الموت وقدمه على الطريق وتبتل وانقطع بضعة أيام في هذه الدار وأخذ يستدرك ما فات وهيهات ، وأنشأ هذه الأبيات التي نثبتها بعد في تلك الأيام :

لما عبرت الشمس نصفاً من نصفي السرطان
نظر جرمها في التربيع إلى المريخ

---

(١) الكلمة مشكوك فيها .

(٢) (قيبة) مشكوك فيها .

لكـي تـرسـل رحـل النـور إلـى الأسد
وإذ ذاك سافرت إلى زحل من باب الحـقد
فصار المريـخ ضحية لعـقد العـقـرب
وسامر القـمر الأفلاك بـهذه الواقـعـة
ونـظـر المشـترى بحـدة إلـى الزهـرة
وَمَرَّ علـى النار الـحـارقة كـالـسهم
فخرج من هذا النظر الحائر الإقبال من رأسي
وأثـر الإدبار فيـه بهذا السفر الأسود
ولـم يرد إلـى خاطري قـط أن مـن فـلك
السيارات يمكن أن تأتي الأخطار بمثل هذا
لكن القضـاء لما حـل تقهقرت السعـادة
ولا يمـكن دفـعـه بالسيـف والمجـن
كـل سهم خـرج من قبضـة التقدير
فـهل يـجـوز للـمـرء أن يحذره بالتدبير
انظر إلى إنصاف الفلك ففى هذه الفترة القريبة
كم أثـار من اضطراب ظلما وكم شر فعل
أغار على أسبابي وحول قلبي ليسد رمقه إلى قوت كبدي
وفـتح بصـنعة من عيـني عـرق الـياقـوت
وجعل من تخته وجنتي قدحا من الذهـب
صنع خلخالين في قدمي ما حصل من مال
وجعل في الباقي من جسدي حزاماً جبليا
إلا أيها القلب الحائر أي نواح لك من الفلك
حتى تطعن مراراً في هذي الشمس والقمر؟

كانت غفلتك هذه مساوئ كثيرة
أثر فيك ذنوبها لما تجاوزت الحد

ماذا يفعل الفلك وما هي النجوم وماذا تكون الشمس؟!
إن الأمر من الله وإنما حوله للقدر

ولما أخرج الفلك خرجا آخر من منحدر البلاء
صوب مائة سهم من العناء على أكباد الفضلاء[1]

وبعد ذاك أجازوا أصحاب المقاتيل فعذوبه ثلاثة أيام ، وفي اليوم الرابع فصلوا عن جسده رأسه مستودع اللطائف المسيحية واتصلت روحه المطهرة بساكني القدس . ولما حمل القصاد رأسه إلى السلطان ركن الدين بسيواس لقى أمراء الروم القدماء مثل طرنطاي وسراج الدين بن بجة وتركري وشجاع

---

(١) الأبيات الفارسية :

چون مهرزيك نيمهء خرچنگ گذركرد — جرمش سوى بهرامش بتربيع نظر كرد
تازو بنهء نوربر شير فرستاد — وآنگه سوى كيوان زدر كينه سفر كرد
بهرام گرفتار كره گشت بكژدم — وين واقعة راماه برافلاك سمركرد
برجيس بتندي نظرا فگندبناهيد — برآتش سوزنده چون تيرگذر كرد
زان خيره نظر ازسرم اقبال برون شد — زان تيره سفر درسرم ادبار اثر كرد
درخاطر من هيچ نيامدكه زگردون — سياره ازين گونه توانند خطر كرد
لكن چوقضا آمد برگشت سعادت — آن رانتوان دفع بشمشير وسپركرد
هرتيركه ازقبضهء تقدير برون شد — كسي شايد ازآن تيربتدبير حذركرد
انصاف فلك بين كه درين مدت نزديك — چه شوربرانگيخت زبيدادچه شركرد
اسباب مرا داد بتاراج ودلم را — سدرمق ازقوت حواله بجگر كرد
بگشاد بصنعت زدوچشم رگ ياقوت — وين تختهء رخسار مراكوزه زركرد
درپاي من ازحاصل كه كردد وخلخال — وزباقي من دربدن كوه كمركرد
هان اي دل سرگشته چه نالي توزگردون — تاچند زني طعنهء اين شمس وقمر كرد
اين غفلت توبو د بديهاي فراوان — كزحدچو بگذشت گنه درتو اثر كرد
گردون چكند كيست ستاره چه بودمهر — فرمان خدا بود حواله بقدر كرد
چون چرح زآشيب بلا خرج دگركرد — صدتير عنا برجگر اهل هنركرد

الدين بن القزويني وبيچار وسائر الأمراء الذين كانوا أجابوا دعوته الخراب والخسارة . وسير القاضي الختني إلى قونية إلى السلطان عز الدين برسالة فيها أن الممالك فوضت لنا من حضرة السلطنة ونطق في ذاك الباب برليغ ميمون وأمر بألفي فارس مغولي ليسيروا بصحبتنا لتأديب المخالفين فإذا انقدتم لحكمنا واعتبرتم ركن الدين السلطان فاستقبلونا . ولما لحق القاضي جمال الدين بقونية وكان رجلاً أهلاً سهل الأمر فسمع برليغه وقرروا له قضاء قونية وعين نائباً ونفذ حكمه في سائر الممالك وقرروا أن يكون الأخوة الثلاثة سلاطين ولا يقدموا ركن الدين وهو الأصغر على عز الدين وتكون السكة والخطبة باسم كل الثلاثة . ولما رجع القاضي جمال الدين وقال إن القراطاي وسائر الأمراء ينكرون سلطنة ركن الدين ورأيهم مقرر على هذه الجملة وهي أن يكون الأخوة الثلاثة جميعا سلاطين يجلسون على عرش واحد ويجيبوا المغل الذين جلبوهم . فوافق أمراء ركن الدين تسريح المغول وأعدوا جيش المغول بالطريق الأحسن وعزموا قيصرية . ولما كانوا ملوا من تحكمات بهاء الدين الأرزنجاني خطوا خط العزل على منصبه ووضعوا دواة الوزارة لدى نظام الدين خورشيد وأعطوا ملكية الأمراء إلى ابن بجة وملطية لطرمطاي وسيواس لتركري وأتوا قيصرية بحشد عظيم وأرسلوا فرمانا بعزل القاضي عز الدين الرازي الذي صار فيما بعد الأصبهاني الوزير ، وامتثل الأمير جلال الدين ذاك الحكم وأرسله إلى منزله . ولما وصل السلطان ركن الدين أقصرا صار رأى الأمراء عن التقرير الذي قرروه مع القاضي الختني قبل ذاك ولم يسلموا بالمشاركة في السلطنة وتحركوا في خدمة ركاب السلطنة من قونية ، ولما بلغوا خان السلطان كان قد تجمع عشرة آلاف رجل . وأخبر أمراء ركن الدين فنهضوا بدافع النخوة والغرور . ولما أتوا ......[1] قلج أرسلان ركب عساكر كلا السلطانين من الصباح الباكر وتسلحوا بأسلحتهم وكان أمير المقدمة من هذا الطرف أرسلان دغمش ونور الدين يعقوب أمير الثياب ومن طرف ركن الدين

(١) كلمات مفقودة في نسخ الأصل .

طرنطاي[1] وتركون . ولما لحق أحدهما بالآخر رتبوا الصفوف وأخذوا ينتظرون لأن الرسل كانت تتردد بين الأخوين ليقرر الصلح . وعلى حين غرة هاجم بضعة نفر من عسكر طرمطاي فدفعهم أتباع عز الدين فلما رآه بقية جند طرمطاي لووا وجوههم مدبرين وبقي طرمطاي وحده فأسر برغم أنفه كما أسر تركري الذي كان يحمل على الميسرة . وصعد السلطان ركن الدين بالمظلة والسنجق تلاً فوقع نظر أرسلان دغمش عليه فأسرع في الحال صوب ذلك التل فاستقبله القاضي الختني فأمر أرسلان دغمش فأبلغوه درجة الشهادة ومات ولما بلغ خدمة السلطان ترجل وقبل الأرض وأمسك عنان السلطان بحكم أنه أمير الاصطبل وأسرع بين العسكر إلى السلطان عز الدين فاستقبله السلطان ومعه القراطاي وبقية الأمراء ولما وصل إليه احتضنه وأخذ يبكي لغاية الرقة بمرارة وأخذ بيده وسار بأخيه وهو يحاكيه إلى القصر ومد المائدة أغضيا عما مضى ولم يدعا الجيش يتقاتل ثانية لكنهما تركوهم حاسري الرؤوس واعتقلا الأمراء المجرمين بخان السلطان ، وفي اليوم التالي توجها إلى قونية .

ذكر الأمير جلال الدين القراطاي وأيام نفاذ أحكامه

مع أن الأمير جلال الدين القراطاي رحمه الله كان غلاماً رومي الأصل لكنه اتصف بكرائم الأوصاف سنداً وحضوراً وامتنع بقيام الليل وصيام الدهر عن أكل اللحوم والتلذذ بالمنكوح والمطعوم . كان بحلم كدين الإسلام تام وإشفاق على الخواص والعوام عام . لما رجع من محاربة صحراء أقصرا وكان مسند الوزارة من شوكة وزير عالم وعامل عاطلاً ، كلف وألزم[2] الإمام المعظم نجم الدين النخجواني الذي كان في فنون العلوم بحراً مواجاً وسحاباً

---

(١) يختلف رسم الكلمة بين الميم والنون .

(٢) في النص خطأ (مذم) لا (ملزم گردانيد) .

ثجاجاً وجمع الشرع والحكم ومزج المعقول والمنقول في ذاته الكريمة بتقلد منصب الوزارة فأجاب هذا الإلزام بشرط ألا يزيد عدد الجامكية عن اثنين لكل يوم ويرتزق الأمراء وسائر الأركان على هذا القياس ، وحين لا يقوون على مقاومة الخصوم فلا يتلفون أموال الخزانة فى إجابتهم بالمال . فجاء للأمراء هذا المقال الغاصّ للحلقوم كطعن السهوم في التأثير والهموم وأخذه الأمير جلال الدين بجد وأرضاه بأربعين ألفا عدداً وكان راتب أعف الوزراء وهو مهذب الدين وأنزل إلى النصف راتب كل أمير من سائر الأمراء . وحضر الإمام نجم الدين إلى الديوان وشرع في تمشية أمور الوزارة وسير باتفاق الأمير جلال الدين يوتاش ملك الأمراء وأرسلان دغمش لدفع المخالفين الذين كانوا خرجوا بطرف الحدود . فلما وصلوا الحدود وجازوا وكافأوا (أيوز ملك) الخارجي وعادوا قدمت وقتذاك جماعة رسل من خدمة صاين خان لتفحص أحوال الصاحب شمس الدين والاعتراض على قتله . وبحكم أن شمس الدين الطغرائي الكبيركان بليغ الحجة عذب الكلمة فقد كانوا يندبونه لدفع الاعتراضات وجواب التساؤلات بالأموال الزاخرة إلى خدمة صاين خان . ولما باشر القاضي نجم الدين مدة الوزارة ورأى أن الأمور لا تسير على سبيل الوجوب ترك الوزارة وعزم إلى حلب وصمم الصاحب الطغرائي على العزم وحمل الأمير رشيد الدين الجويني وشجا ع الدين رئيس البحر ونجيب الدين المستوفى وخطير الدين السجاسي[1] وكانوا أتباع الأصبهاني بهاء الدين الأرزنجاني وصارم الدين اليسارو وكانا مباشرين قتل الصاحب إلى المسعكر (المغولي) بحكم يرليغ بفرعين وهناك كشفوا حال كل واحد ، وقرت الوزارة على شمش الدين الطغرائي والنيابة على شجاعة الدين رئيس البحر والاستيفاء على نجيب الدين الدليخاني وامارة العرض على رشيد الدين الجويني وقيادة جيش « حرملو » على خطير الدين زكريا وحصلوا يرالغ لذلك الموجب ورجعوا بالمرادات . وفي ذلك اليوم الذى لحقوا فيه بحضرة السلطنة ألبسوا كذلك السلطان وجلال الدين القراطاي الخلع التي كانوا أتوابها لهما

---

(١) الكلمة غير مؤكدة .

وأسمعوا يرالغهم وقرنت بالقبول والإذعان وقبل نظام الدين خورشيد الذي كان نائبا الأرض على البروانكيّة وسلك كل واحد عمله . ولما لم يرملك الأمراء يوتاش البكلربكي مع قدماء الأمراء الأمر غير تحكم الآخرين أبدوا الاستنكار لمجيئهم باليرالغ على المناصب وبدأ الحرب مع رئيس البحر عند سوق التخت بحضور السلطان وجعل للسان طعن السنان البيان واعترض على الصاحب الطغرائي اعتراضات بليغة . ولما كانت هذه المناقشة على وفق رضاء القراطاي وأرسلان دغمش ونظام الدين خورشيد صمت جمعهم وسكت . وصار أصحاب الصاحب الطغرائي مترددين ومتبلدين وسلك كل منهم طريقة لموقعه شجاع الدين إلى سينوب ورشيد الدين إلى ملطية وخطير الدين الى حرملو وبقي الصاحب والمستوفي وحدهما . وكان الانبساط فيما بينهما من قديم ويتمازحان بإفراط وفي ليله في أثناء المنافرة صدر من الصاحب لفظ غضب منه نجيب الدين فصارت المخاصمة والعربدة فاحشة وأفضت إلى الوحشة ووصلت إلى حد أن نجيب الدين ذهب الى القراطاي وأنشأ في قدحه فصولاً وكشف الأعذار التي اعتذر بها في هدم قواعد السلطنة الى أن عقدوا في يوم آخر في مقر الوزارة محفلاً وقرأوا على الملأ كل شئ حرفاً بحرف وأثبتوا بالدلائل والحجج فلم ينبس ببنت شفة ولزمته الحجة إلى حد أن الأمير جلال الدين لغاية الغضب أبلغ خطاب السباب له بالقاف والطاء ورفع دواه الوزارة لكي يصيب بها رأسه فمنعه الأمراء الآخرون وانتهى هذا المجلس بهذه الوحشة وعجز الصاحب الطغرائي في أمره . واتفاقاً كان لمعين الدين سليمان ولد الصاحب مهذب الدين مع طرمطاي منازعة بسبب قيادة عسكر أرزنجان وصعّد كلاهما تلك المحاكمة إلى بايجو نويان وكان بايجو يميل ميلاً تاماً لجانب معين الدين بسبب مصادقة الصاحب مهذب الدين فتولاه الصاحب الطغرائي بسب القرابة التي كانت له به وكان مربى لأبيه معلى الدرجة بسببه من أجل كيد نجيب الدين المستوفي ورقم بالقلم كتبا مترجمة مطولة في القضايا المختلفة والتعليمات التي أزجاها مع خصومه بحضرة السلطنة وفيها ماذا يقول بايجو وكيف يجيب عليه وأعطاها القصاد . فأعلم غلام ذلك المعنى

لصمصام الدين قيماز أمير العرض فأوكل صمصام الدين أناسا على المراصد حتى وقعت الكتب بأيديهم وحملت إلى الأمير جلال الدين . ولما لم يكن في الديوان من يحل الرموز المترجمة طلبوا الإمام زين الدين ولد تاج الدين الوزير وهو من زهاد العلماء بسبب الاتحاد الذي كان بينه وبين صمصام الدين وأعطوه الكتب فحلها ونقلها بعبارة واضحة . ولما وقف الأمير جلال الدين على فحواها ذهب إلى حضرة السلطنة وأحضر الأمراء وأتوا بالصاحب الطغرائي وأظهروا الكتب المترجمة والمحلولة والتي كان بعضها بخط زين الدين وبعضها بخطه ، فلما رأى الخط صار في خط وبدأ الأمير جلال الدين خطاب السباب وأشار لأمير القضاء فاعتقل بمنزل في سراي السلطنة ثم أرسل من هذا المكان بعد أيام ثلاثة أو أربعة إلى أنطالية وأوقفوه بها . وكان أثير الدين اللقبي المنجم من جملة أتباع الصاحب الطغرائي ولم يكن له نظير في الغور والمكر وعلى حين بغتة اختفى من الديوان والبلاط ، ولما كان لأركان الديوان اطلاع كلي على حيلة جبلته ويخشون أن تصدر عنه فتنة كبيرة طيروا الأمثلة بطلبه إلى كل طرف وبحثوا كثيرا ووجدوا قليلا ، وبعد مدة رؤى عند بايجو نويان وكان أعطى جمّالي بعض الرسل مالاً فأبلغوه في صناديق الأحمال حدود أران . ولما لحق ببايجو أعلم بالأحوال كما أراد ولقي المال الجزيل إلى أن أرسل بايجو علاء الدين على بك وجمال الدين الدرزي الساوجي باستخلاصه إلى حضرة السلطنة . وبموجب حكم بايجو أطلق من حبس أنطالية وأتُى به إلى قونية وبعد مدة سار في صحبة الرسل إلى بايجو ولحق به في الطريق رشيد الدين الأمير العارض وسيقال فيما بعد مآل حالته .

ذكر وزارة القاضي عز الدين محمد الشهيد الرازي رحمه الله

كان الصاحب القاضي عز الدين محمد الرازي لعلو الهمة وفرط الفصاحة وكمال الديانة ملحوظا في نظر السلاطين وخلفاء العهد بعين الرأفة ومنظوراً بعين الاحترام ولم يكن أحد غير وساطة سفارته إلى دار السلام لكفايته الأمور العظام وتداركه مهمات الخاص والعام وإنارته حدود الإسلام . وكان في محكمة قضائه الهشيم ساكناً من تعرض رقيق ريح الصَّبا ، والزُّلف من حسان الخطا بسبب أمن رأيه الصائب من تشويش ريح الصِّبا . وفي السخاء والكرم بحر خضم وفي قلبه واهتمامه بهموم الجميع لام ونعم :

إن الألي طلبوا مداه تأخروا   عن غاية فيها النياق رهـان

لما صدرت تلك النوادر عن الصاحب الطغرائي وتغير خاطر جلال الدين القراطاي وسائر الأمراء عليه لم يستحق مسند الوزارة غير القاضي عز الدين في الممالك والتزم الأمير جلال الدين وعامة كبار السلطنة إجلاسه على مكانة الحكم والمنزله لأن

فلم تك تصلح إلا له   ولم يك يصلح إلا لها

فأودعوا بالاتفاق والاختيار بعد التشاور والاختبار زمام مرام الخاص والعام كف كفايته وكان يسير في تمشيته ذاك المهم على سبيل الوجوب ومقتضى الرأى المرضى المحبوب . وفي أثناء نفاذ أحكام وزارته كانت الرسل تصل على التواتر من الخدمة باستدعاء حضور السلطان وكان الصاحب عز الدين يقدم الأعذار المقبولة لكنه لم يكن يلقى مجال القبول في الخدمة لكن الصاحب القاضي عز الدين بالإجبار وبسبب الاضطرار والأمير جلال الدين القراطاي الأتابك وشمس الدين يوتاش البكلربك وفخر الدين أرسلان دغمش أمير الاصطبل ونظام الدين خورشيد البروانة ساروا بهذه الذريعة في موكب السلاطين الثلاثة عز الدين وركن الدين وعلاء الدين إلى قيصرية وطلبوا أمراء

أطراف المالك لتلافي[1] هذه القضية . ولما وصلوا آقصرا حصل في مصطاد (اكچوك) سيف الدين التركري لنفسه في خدمة السلطنة مجال المباسطة وكان من أكابر الأمراء وأبناء عبيد السلطنة وكان الظلم والجور والمزاح والسفاهة على مزاجه أكثر تغلبا مما يكون وجرأ السلطان الذي التزم خوفا من القراطاي والصاحب عز الدين سلوك جادة الديانة والرشاد على شرب العقار ولعب القمار وهتك الحرم والأستار وجسّرة على ذلك . وكان يقص على مزاج السلطان لكي يروج أمره الأحاديث وحث السلطان ليكسر سورة حرمة الأمراء على تقريب أراذل الغلمان وأعطى كل واحد منهم المناصب والأمارات . وفي تلك الأثناء لحق شمس الدين ألتونبة بحضرة السلطنة وخلط الأمور كزلف الحسان وأدرك في بذل أموال الخزانة في الأرزاق وجامكيات التراجمة والمنشئين العيب الفاحش المشاهد حتى عاتبه القراطاي والأمراء الآخرون عنيف العتاب وقال لا يزيد السلطان علاء الدين مع كل هذه العظمة والعزة عن ترجمانين وأربعة منشئين ولا يجب لك مع هذه الذلة والقلة والعجز والحرج كثير من المرتزقين ويتيسر من تقليل أعدادهم مادة تهييئ أسباب سفر السلطان في هذه الجهة واذا أقل السلطان من طيش العيش واجتنب الحرفاء الأسواء تزيد أبهته وعظمته في نظر الملك الذي يتوجه إلى خدمته ومع أنه قد أبلغ أعداد المنشئين والتراجمة من مرتبة العشرات إلى الآحاد وتصرفوا التصرف التام في جامكيات الخاص والعام وامتلأت بيوت الخزائن إلا أن السلطان لم يقلل قط من امتطاء صهوات النزو والشباب وملازمة الصنج والشراب وراح في الأوعاد في إعلاء مراتب الأراذل والأوغاد واستقرت الضغينة التامة في صدر التركري بسبب نصائح شمس الدين ألتونبة . وبحكم أن المضادة على أتم ما تكون كانت بينهما بسبب السفاهة والفساد وجاش بحر الحسد في جسد التركري فدفع واحداً فأذاقه فقاع السم الزعاف وبعد ثلاثة أيام أبلغه منازل الرضوان نعود إلى أصل الحديث . ترك السلطان بنية أنه متوجه لخدمة أخويه مع الأمراء في قيصرية وعزم سيواس وجعل التركري من غاية الجهل

(١) في الأصل (تلاقي) .

والغباوة جميع العالم أعداء له حتى دفعوا السلطان إلى أن يرسل به بعد التنكيل والتذليل إلى قلعة (منداس) وأهلك فيها . وفي غمار هذه الحالات وصل الخبر أن القراطاي لحق بجوار الحق في قيصيرية فاضطرب السلطان للغاية ورأى أحوال الملك والممالك بلا ضبط وحد واعتذر للرسل وتوجه للطريق ورجع إلى قيصيرية . وتشاور أمراء الطرفين إذ ذاك كيف يعتذرون عن عودة السلطان من توجهه إلى الخدمة فاستقر رأيهم على أن يوجهوا السلطان علاء الدين ليقدم عن قبل أخيه إيلاء العذر وسير الأمير سيف الدين طرمطاي وشجاع الدين عبد الرحمن النائب والخواجة مصلح اللالا ونور الدين عبد الله القابض بالأسباب والتحف بلا حد إلى الخدمة . ولحق بهم في الطريق والدة السلطان غياث الدين والصاحب الطغرائي ورشيد الدين الأمير العارض الذين آثروا التفرق بسبب مودة الطغرائي وخرطوا أنفسهم في سلك متابعي السلطان علاء الدين وكانوا يقررون له سلطنة المملكة حيثما يصلون ، فوقعت في الطريق بسب هذا بين الصاحب الطغرائي وشجاع الدين النائب فرقة سوف يورد فيما بعد خاتمتها .

ذكر سبب مخالفة السلطان عز الدين وركن الدين والمحاربة التي وقعت بينهما في الكرة الثانية وانهزام ركن الدين

لما أرسل السلطان عز الدين أخاه إلى الخدمة عزم هو نفسه مع ركن الدين قلج أرسلان إلى قونية وانشغل باللذة والشراب وانفاق الأموال وظهر للئام القربى والاختصاص التامان في خدمته فلم يستحسن أمراء الدولة هذه الطريقة الخارقة لعادات السلاطين وحدث في موارد صفائهم كدر فاحش وتدخل أخواله الروم مذهبا ورسما[1] في أحوال السلطنة وسلكوا المضايقة مع السلطان الذي كان يجلس دائما مع أخيه على العرش موجب تقرير الأمير

(١) كان السلطان عز الدين (بن بردوليه) الإغريقية الأصل .

جلال الدين وكافة الأمراء وصرحوا بالشتم والسبّ . وكان السلطان ركن الدين جالساً في يوم في الخلوة مطأطئ الرأس مجرياً اللآلئ البراقة من جزع ناظرة الدنيا على صحن الخد اللعلي حين دخل فجأة كمال الدين اللقبي رئيس الحوائج الذي كان سافر إلى التركستان في خدمته وأثبت الحقوق الكثار فرأى السلطان مضطربا وباكيا ومن الزمان شاكيا فسأله ما موجب البكاء وتغير البشرة الميمونة فإن أعلم العبد ربما قدم تداركه بقدر الإمكان فأجاب السلطان سؤال كمال بهذه الأبيات :

وجدني العالم من لباس السرور عريانا ولقاني من دور الزمان حيرانـــا

ورأني كل مساء فات مغموما شاكيـــا ووجدني كل صباح ضحك باكيا[1]

فقال كمال خطر في خاطر العبد حكاية يعرضها بشرط ألا يكون بيننا ثالث ويميل رأي ملك الدنيا لإمضائها فقال السلطان يجب أنهاؤها فقال كمال لويرسل السلطان على يدي ملطفة في هذه القضية الي نصره بن سنان الدين قيماز والي (دولو) وكان على الدوام وفيا ومحبا لدولة الشاه ورسالة الى صمصام الدين أمير العرض وهو (والحالة هذه) والي قيصرية ونزل من أوج العزة إلى حضيض الذلة وبسبب أن (نكيده) أخذت منه وأعطيت (لغلام نكير) فهو مضطرب من السلطان عز الدين وأخواله ملتف على نفسه حتى يأتي بالجواب بأسرع ما يكون فهذه هي المصلحة . فرقم بقلم السلطان على وفق فكرة كمال أسطراً عدة مشتمله على أشطر من قصة غصته إلى صمصام الدين وأعطاها له . وعاد كمال بعد ستة أيام وكان الجواب هو أن يلقي السلطان بنفسه بكل طريق يستطيع في قيصرية ثم يسعى الغلمان بعد ذلك بقدر الإمكان . فقال السلطان لكمال بأي وجه يتيسر لنا الخروج وهي ورطة البلاء وغمرة العناء فأجاب كمال يجب إطلاع عدة غلمان يعتمد عليهم على هذا المعنى حتى يعدوا خيولا خاصة خارج المدينة بموضع معين ويلبس

---

(١) الرباعي الفارسي :

عالم زلباس شاديم عريان يافــت وزگردش روزگارسر گردان يافــت

هرشام كه بگذشت مرا غمگين ديد هر صبح كه خنديد مراگريان يافت

السلطان ثياب غلمان دار الحوائج الأخلاق وأضع طبقا خشبيا مربعا كبيرا يعادل كعبه القصعة العادلية[1] على رأس السلطان بناء على الرسم الرومي بحيث يحجب وجهه المبارك في كعب الطبق عن نظر الخلق وأتقدم أنا ويلزم السلطان اقتفاء خطواتي ولاينظر إلى أي مكان في الطريق وحينما نصل إلى هذا المكان نركب الخيل ونتوكل على حول الله ونكون طوال الليل مسيري المواكب وسميري الكواكب حتي نتجاوز في الصبح الصادق مفازات آقصرا ونصل بالطالع المسعود خان خواجه مسعود ، وتستريح الخيول هناك لحظة ثم نقطع من ذاك المكان الي (زوكوب) ونلحق بدولو . فوافق السلطان على هذا الرأي وفعلوا هذا . ولما بلغوا دولو أعلم المسرعون نصره الدين فاستقبله وترجل وقبل الأرض وتشرف بتقبيل اليدين وسير في الحال كتابا إلى صمصام الدين قيماز فأركب الأمير صمصام الدين الجيش وتوجه إلى طريق دولو في الطريق كوكبة السلطان والأمير نصرة الدين فترجل وسجد للشاه وأدخل السلطان بإجلال تام وأجلسه علي العرش وأرسل الرسل إلى أطراف الممالك وقدم الاستماله والدعوة وفي زمان قليل احتشد له في قيصرية حشد تام . ولما علم السلطان عز الدين بهذه القضية سير يوتاش بكلربكي في عقبه لاسترجاعه فأدرك السلطان بقيصرية وبعد تقبيل يديه افتتح النصيحة فتطيّر السلطان به وتحرك من مكانه لقصده فمنع الأمير صمصام الدين فقيدوه وأرسلوه إلى مغارة أكسود من مضافات دولو ثم أعادوه إلى قيصرية بعد أيام عدة وحلفوه على ولاء السلطان ركن الدين وأرسلوا الرسل بطلب فلك الدين خليل والي آبلستان وحسام الدين بيچار فقالا سمعا وطاعة وبادرا إلى الخدمة وانخرط الأمراء المعروفون في أعداد أجناد السلطان واستعدوا إلى أن يهاجموا بحشودهم قونية على حين بغتة واذا فعلوا هذا تيسر مرادهم . ولما سمع السلطان عز الدين بخبر اعتقال بكلربكي وايلائه بولاء السلطان ركن الدين صار في غضب وغصة من هذه القصة ، وفي أثناء هذه الحالة أسرع فلك الدين خليل وبيچار بفوج من جنودهما حتى خان (علائي) على بعد

---

(١) قد تكون الكلمة (العادية) باقتراح هوتسما .

منزل واحد من آقصرا وكان خلق من قوافل ديار تلك الناحية هناك فما نعوهم فأضرموا النار على بابه وأحرقوه وقتلوا الخلق وأطلقوا بعضا بعد أخذ أموالهم . وبطريق المفاجأة وصل الأمير معين الدين سليمان وخطير الدين وكانا بطرف قيصرية إلى قونية بطريق السفارة فتفتحت أوراد مسرة السلطان والأكابر عند ورودهما وأمر الصاحب عز الدين فأفرغت الخزائن من أموالها وجيشوا الجيوش ولحقوا لمحاربة ركن الدين من طريق قيرشهر بولاية (طوز اغاج) وأرسلوا بجهة الإلزام الحجة الشيخ الكبير صدر الدين بن إسحاق ومعه همام الدين شادبهر ناظر الملك إلى أخي السلطان بأن يقتصر والحالة هذه على سيواس وملطية وخرتبرت ويزيل غبار الوحشة هذا ويرجع فاستقال صمصام الدين ونصره الدين وفلك الدين وبيچار هذا القدر وأرسلوا جلال الدين حبيب قاضي قيصرية للجواب واستضافوا قيصرية وقيرشهر وكان مايجري هذا يحدث في دهليز السلطان في (صحراء أحمد حصار) فصرخ علي بهادر وجمال الدين الخراساني والأمراء الآخرون لماذا تظهرون مثل هذا العجز حتى يحملوا على عجزكم واضطراركم فإن يرضوا بهذا الذي ترحم به السلطان عز الدين فهو المراد والافلن يكون الخطاب بغير لسان السنان . فلم يلتفت أعوان السلطنة إلى ذلك المقال وتخلى السلطان عن أمر قيصرية وقيرشهر وأرسلوا ثانية همام الدين والقاضي حبيباً بخبر حصول الرضاء وأخذوا ينتظرون أى جواب يأتي . وفجأة ظهر عسكر السلطان ركن الدين ومع أن بعضهم عادوا إلى الخيام (ألا أنهم تقدموا للمقابلة)[1] ودخل كلا الجيشين كالأسد والنمر وحمل نصره الدين ولد قيماز وفلك الدين خليل حملة أو حملتين وثبت عسكر السلطان وفي المرة الثالثة حمل عسكر السلطان وتقدموا فى المقابلة وهاجمهم علي بهادر وكان على الميسرة وحطم صفوفهم وأصابهم بنكاية تامة وفي تلك الحالة كباجواد نصرة الدين فقبض عليه وسلك فلك الدين خليل طريق الهزيمة وأدرك ابن قريش صمصام الدين وطعنه وأتى به إلى خدمة السلطان وفى الحال أهلك أخوال السلطان صمصام الدين

---

(١) هذه الجملة ليست فى النص وأنما باقتراح هوتسما .

ونصرة الدين . وتوجه السلطان ركن الدين إلى دولو بعزم سيس ووقع أسيرا في المنزل الأول في يد التركمان وأعلموا الحال لخدمة السلطنة فذهب إليهم أرسلان دغمش وطمأنه بالمواثيق والأيمان وأتى به إلى قيصرية واستقبله السلطان عز الدين ولما تلاقيا عانقه وبكى وقال إن هذه الواقعة كانت بسبب سواد رأى نصرت وصمصام وقد وجدا جزاء الكفران والواجب ألا ينزعج الخاطر الشريف للأخ العزيز وذهبا وهما علي حالهما من التحاكي إلى جوسق كيخسروية وأعطى السلطان ركن الدين خلعة نفيسة وجوادا مسرجا ومالا كثيرا وخيره في إقامته بين برغلو وأماسية فاختار السلطان أماسية فحملوه بحشد ومؤونه تامة إلى أماسية وظل بها مدة وكان يتأذى من وخامة هوائها فأرسل إلى السلطان فحملوه من أماسية ورتبوا له أسباب السعادة .

ذكر ورود بايجو فى ممالك الروم مرة ثانية والحوادث التى حدثت فى تلك الأيام

لما جلس الصاحب القاضي عز الدين على دست الوزارة وأخذ بمقاليد أحكام المملكة بقبضة الاستقلال ورأى تواتر رسل بايجو نويان وبقية الأمراء في ممالك الروم وأن خزائن لا عد لها كانت تصرف كل عام في وجه افتقادهم رأى الصاحب مع القرطاى وبقية الأمراء المصلحة فى أن يعرضوا هذا المعنى على الحضرة لكى تندفع من هناك هذه التسلطات بحكم يرليغ واختاروا الصاحب فخر الدين عليا وهو حاكم المملكة في هذا الوقت وكان أمير القضاء في تلك الأيام لهذه الرسالة وأعطوه فوق التحف مائة ألف عداً برسم الافتقاد أو الاسترضاء ووجوه نفقات الطريق . ولما لحق بذاك البلاط وأجلى حاجات العرض وإخلاص السلطان أمروا بهدية وأعطوه يرليغا وبايزة على سلطنة الروم ومنع رسل بايجو نويان والأمراء الأخرين ومنعوا تعداد الأنفس وكانوا عينوا لاتمام هذه المهمة شمس الدين القزويني وأعادوا الرسول بصحبة الرسل والقضاة الكبار . وحينما وصلوا بايجو في طريقهم وأسمعوه هذا الحكم نظر إلى فخر الدين علي وقال كان الواجب صدع ممالك الروم بصدع

فى نهاية الأمر بسبب نظري فيها ولاشك أن حرماني سيكون شؤما عليكم فقبلوا بعد ذلك تقليل الرسل وكانوا إذا أتوا أحيانا لم يكونوا يجدون التفاتا كبيرا وكان السلطان مشغولا باللذائذ والشراب وإجراء أحكام الشباب ، وتمكن الصاحب القاضي عز الدين في مسند الحكم وسكن الملك وكان تردد رسل دار الخلافة والموصل وماردين والروم والفرنج إلى حضرة السلطنة بالأحمال والتحف على التواتر . لكن اضطرابا وهما عظيما كان يصيب خاطر أمراء الدولة من قبل استيلاء (الأغاجريين) وكان منشؤهم صحراء مرعش وأحراشها ويقطعون الطرق ويقتلون القوافل وينهبون ويسلبون في ممالك الروم والشام والأرمن ، فعزم الصاحب القاضي عز الدين وشمس الدين يوتاش بكلر بك بالجيوش والأمراء دفع الأغاجريين وأتوا قيصرية وكان في ذاك الزمان قد توفي جلال الدين القراطاي وبقي فخر الدين أمير القضاء لاستقبال الموكب المعظم ، وبلغ الخبر بغتة أن بايجو نويان يقصد هذه الديار بعساكر كثيرة وحواشي ومواشي وخواتين وأطفال ووصلت طلائعهم إلى أرزنجان . ولما سمع بعض العساكر الذين كانوا ذهبوا صوب آبلستان لدفع الأغاجريين عجلوا إلى قيصرية وتوجهت المظلة والعسكر بلاتوقف إلى دار الملك واختال السلطان من قلعندة إلى قونية وصار من قصد بايجو نويان في اضطراب وغضاب . وقدح كبار الدولة زناد الرأي واتفقوا على أن يروسلوا نظام الدين خورشيد البروانة لاستقباله لكي يقوم بتدارك الأحوال ويطلع علي عزائم بايجو نويان وأغراضه ويعود . ولما سرح نظام الدين توجه السلطان للاحتشاد وإحضار الأجناد وفي أيام قلائل تجمعت عساكر كثيرة من قبائل الأتراك وجنود شطار في صحاري قونية وبراريها . ولماشاهد السلطان ازدحام حشده قال حصل لنا بفضل الملك المتعال المال والرجال فوجب علينا عزم القتال . وأخذ الأغمار الذين لم يسبق لهم التورط في غمار الحروب قط يثيرون من الغفلة والجهالة غبار الفتن ويغرون لترويج أحوالهم السلطان على المحاربة . وفي هذه الأثناء رجع نظام الدين البروانة وأظهر أن نقصانا لم يظهر في طبع بايجو من المحبة التي له للسلطان فإن يقصد الأمراء الأغرار الطعن والفرار فليعلموا هذا وعطف عزم السلطان عن تعبئة الصفوف إلى صوب تسلية الضيوف واسترضاء خواطر

بايجو نويان ويضع الخواص غير المحنكين بالرقة والغلظة على جادة الصواب وعاد ثانية بالتحف والأموال وإعلام عزيمة السلطان لاستقبال النويان وتعيين مواضع مشتى الجيش الجرار ومصطافة في الممالك ، وطلب الأمير معين الدين سليمان ملك الحجاب تابعا له وتوجه كلاهما إلى الطريق . وأغرى الغلمان الخواص السلطان ثانية على المقاتله والعصيان حتى أمر على وفق أمانيهم بتجهيز العسكر وابتغى الوغى ودعا يوتاش بكلر بكي وفخر الدين أرسلان د غمش لخلوته وأكرمهما وجعل العسكر في زعامتهما . ومع أنه سير الصاحب القاضي عز الدين الحاكم المطاع والنافذ الأمر وبقي هو نفسه بنفر عديد من خواصه في قونية فقد كانوا يرسلون عن طريق الخواص الكتب في خبث الأمراء الكبار . ولما تواترت وأثرت في قلب السلطان قال إذا رجعت هذه الجيوش عن القتال فلسوف يكون جزاء هؤلاء الشيوخ الضالين الدجالين أليما فلما سمع الكبار هذا ظهر فتور في عزائمهم ولما لحقوا بخان علائي كان جيش المغل قد علموا باحتشاد عساكر الروم فوصلوا أقصرا فأسبق أركان الدولة بإخبار تركمان شحنة الذي كان بدوره من جملة اللئام والعوام ، وصادفتهم كثرة من عسكر المغول وكانت من العساكر الألف لخواجه نويان فأهلكوا التركمان مع كافة الأتراك وتواجه في اليوم الثاني كلا العسكرين كالقضاء والقدر وطيَّر رسل السهام بإبلاغ رسالة الموت الزوام إلى بواطن الخاص والعام وكانت تستقر في الأحداق والآماق لكماة العسكر كالنظر في البصر والحياة في الكبد واتصفت الذكور الصوارم من كثرة إسالة الدماء وإراقة الأمشاج بصفة النساء الحُيَّض وعرفت الأرواح بأوان الانفصال من الأشباح وزمان الافتراق وانشغلت نفوس الشهداء بإدراك مقام السعداء بتنفس الصعداء . ومع أن الصاحب عز الدين كان يشكو من آلام القدمين وفتور الأعضاء إلا أنه ثبت في هذه المعركة المهلكة كالثهلان والحرى وودع الحياة وراحات هذه الدنيا وأخذ يصابر وأمسك ببلطة ماضية وأضرم القلب من نيران الحرب وصوله شجعان المغول فقابلهم وبزق في المقاتله وبصق وفي عاقبة الأمر لقي درجة الشهادة ومرتبة السعادة ، ولم يبل الأمراء الآخرون في

الحرب بناء على أنهم كانوا كسيري القلوب من جانب حضرة السلطنة ولم يظهروا آثارا للفداء فعدّوا عزيمة الهزيمة غنيمة وسلكوا كما هي عادتهم طريق الفرار وأجازوا مثل هذا الغدر والخذلان حتى ظفر العدو وصار جيش السلطان نهبة الحدثان .

ذكر جلاء السلطان عز الدين أول مرة وخروج أخيه ركن الدين من قلعة برغلو وجلوسه على التخت

لما نال في الثالث والعشرين من رمضان سنة (٦٥٤ هـ) جيش السلطان تلك النكبة وأعلم السلطان بهذا الخراب ظل طول ليله مضطربا مشوشا . وفي اليوم التالي عزم إلى أنطالية بمخدرات الحرم و(آقتاش[١]) رئيس الشراب والكندصطبل وأخيه من بوابة (بول أحمد) وأهمل قونية وعطل وترك بها كل ما امتلك فر نظام الدين علي بن إيلتمش أستاذ الدار من المعركة بحياته إلى قونية واشتغل بالمحافظة على المدينة وتسكين غوغاء الرنود وترتيب الهدايا والتقدمات وسقط أرسلان دغمش بجماعة من الخواص من تلك الملحمة إلى برغلو ، وبحكم حصانة القلعة لحق بهم من كل طرف معتبرو الديوان والبلاط ، وبحكم أن السلطان عز الدين كان استسلم بكليته إلى اللئام ويمل أمور الملك كالتوقيع والجلوس بالمحافل والنظر في أحوال الرعية فكانوا يخفون التبرم التام ، فأطلقوا ركن الدين من مَحْبسة وأتوا به إلى قونية وأجلسوه على التخت . وأعطى في ذاك المحفل أيضا شمس الدين (قاضي چوق) فرمانا للسلطان فطالعه ووقع في حضور الجميع بتوقيع (المنة لله) وأنصف بذاته بضعة مظاليم . وبعد يوم أو اثنين قبل قاضي چوق يديه للوزارة وأجرى مدة شهر حكم الوزارة وبعد ذاك طرأ عليه مرض فلحق بجوار الباري فيه . ودعى الأمير نظام الدين البروانة من بعده لتقليده الوزارة فلم يجب وقبل النيابة وأعطيت البروانية للأمير معين الدين سليمان وقبل كلاهما في يوم واحد اليدين

---

(١) الاسم غير أكيد .

وانشغلوا بترتيب أسباب ملاقاة بايجونويان وتوجهوا إلى الطريق . ولما بلغ السلطان عز الدين أنطالية استولى عليه الفقر والفاقة . وفي يوم رأى في سراي أنطالية شقا مربعا فأمر ففتح فظهرت خزائن وصناديق مختومة بالرصاص مشحونة بآلاف الدرهم الفضية بالضرب العلائي وعشره آلاف دينار أحمر وأمتعة أخرى من الكاغذ والعود والأبنوس وأرسلت روح السلطان علاء الدين المدد بدعوات أرباب الاضطرار وعزم من هناك (لاديق) . ولما وصل السلطان عز الدين إلى بايجونويان أرسل بايجو حفيده (بيسوتاى نويان) بألف فارس لإحضار السلطان عز الدين إلى أنطالية ولما لم يجد السلطان بها وأبدوا له أنه بلاديق قبل التقدمات[1] وعزم لاديق فلما بلغها أرسل الرسل بأن السلطان يدعوه أبوه إليه والمصلحة ألا يتعلل لقدومه فقال السلطان لابد أن أخي سمع في خدمة أبيه بأن الأمراء استولوا تماما على ملكي ودولتي وكان هذا العقوق لأبي ورفضه بسببهم ، وحين أمهد رسم هذا العذر بخدمة النويان فلاشك في أنه سيقبله . وكنت أفكر في ترتيب الأمور فإن يتقدم أخي بمنزل أو اثنين أعزم بالأمتعة والأسباب المهيأة . ورجع بيسوتاى وتوجه السلطان بالحواشي والأطفال إلى بلاد (اللشكري) وندم بيسوتاي علي الرجوع وسمع من بايجو العتاب ولما تحقق لبايجوا إعراض عز الدين زاد في تعظيم السلطان ركن الدين . وفي أحد الأيام كان السلطان مرتبا لبايجو نويان ضيافة عظيمة ، وفي تلك الضيافة أعطى نظام الدين خورشيد النائب كمثرى مقشرة بالسكين لخواجة نويان الذي كان كسر العسكر علي يديه واستولى ألم القولنج اتفاقا على خواجة نويان ووافته الوفاة . فاتهم نظام الدين بتلك التهمة وهي أن الكمثرى كان مسمومة وقتل مشقوقا بفرعي شجرة حتي لحق في تلك المشقة برحمة الحق ، وقبل وفاته نقش هذا الرباعي من طبع لطائف رأيه على صحيفة الأيام :

لما أن الطالع المضطرب قد أغمني

فقد جعل من عيني الدموع الجارية دماء

---

(١) باصطلاح المغول (طرغو) أو (ترغو) .

وحين لحق المريخ (بهرام) بزحل أخذ فى الحال

بخناقي وجعلني (بهرام) چوبـــــين[١]

ولما تمادت مدة إقامة السلطان بقزل ويران وقارب حلول أوان الشتاء واقترب وقت رجوع بايجو ، ألزم السلطان بهدم شرفات سور قونية (ظاهرا وباطنا) وعفا عن سور القلعة بناء على أنه كان محيطا بمقابر السلاطين الماضين وخرب الباقي وأجاز للسلطان إذ ذاك أن يرجع إلى قونية وتوجه هو صوب مغان . ولما تحقق للسلطان عز الدين عودة بايجو نويان عزم من بلاد اللشكري إلى مملكته الموروثة وتحرك السلطان ركن الدين بعزم إدراك الحضرة من قونية ، فلما بلغ قيصرية أرسل تاج الدين الأرزنجاني المعروف بالفقير وظهير الدين الرسول فى عقب السلطان ركن الدين بإعادته وقناعته بالمشاطرة وسير في عقبهما (علي بهادر) فأدركا السلطان بقيصرية ولم يجب السلطان لأنه قد حزم العزم ولم يقرر الأعذار وحين بلغ علي بهادر قيصرية كان السلطان قد سبق إلى الرحيل بيوم واحد فاستاق ثانية الغنم والقطعان وبعضا من بقايا الخدم وأتى إلى قونية .

ذكر معاودة السلطان عز الدين من ملك اللشكري إلى الممالك المحروسة

وعندما وجد السلطان عز الدين عراض الممالك خاليا من الأعادي عزم قونية فاستقبله أهالي هذه المدينة وكانوا يطلبون وجوده مثل ليلة القدر وأدخلوه المدينة بعظمة تامة وجلس ثانية على العرش . ومع أنه كان متصفا بقلة الإيذاء إلا أنه بإغراء (أغرلو) الجامدار أمر بمعتبري نكيدة الذين كانوا أجابوا دعوة السلطان ومعهم ابن سلجوق شاه الذي كان ممسكا من قبل

---

(١) الرباعي الفارسي :

تاطالع شوريده مراغمگين كـرد — ازديده من اشك روان خونيـن كرد

بهرام چوپيوست بكيوان درحال — ميگرفت گـريبان ومراچوبين كـرد

السلطان ركن الدين بقيادة جيش نكيدة فغللوا ومثل بهم وأركبوا الجمال حول المدينة جميعا وأتي بهم وأهلكوا عن بكرة أبيهم آخر الأمر . ولما تشرف السلطان ركن الدين بالخدمة فى همدان وبذل له هدية خسروية منح يرليغا ميمونا بتقرير السلطنة في عامة البلاد مع إجازة الانصراف . ولما وصل أرزنجان كان الشتاء صعبا وسمع أن السلطان عز الدين أبدى العصيان وسوف يحدث النزاع والإباء معه في سلطنة المملكة فاقام بأرزنجان (شاءَ أم أبى) وجاهد خدمه وحشمه في تلك الحالة بسبب المجاعة والغلاء العام مجاهدة عظيمة . ولما حل موسم الربيع جمع معين الدين البروانة وكان عماد دولته وله بيت البيوتات مايقرب من ألف فارس وتوجه في صحبة (بايان) وكان أمير الألف المغول لاستخلاص المتعلقين والأولاد إلى توقات ، وتلاقى في جيل (يلدوز) بملك الملك وبعد قتال كبير انهزم عسكر البروانة وكان على وشك أن يصاب في تلك المعركة بنكبة فأركبه نجم الدين فرخ وكان من خواص السلطان ركن الدين وأبلغه بعضا من الجيش المتوجه هاربا إلى أرزنجان . ولم تقر بلابل البروانة من فرط الحقد والغضب فتوجه إلى المعسكر المغولي واستنجد العساكر فسيروا (اليچاق) و (قدغان) بعشرة آلاف فارس في صحبته لقمع المخالفين والطاغين . ولما لحق عسكر المغول بأرزنجان توجهوا بعد أيام عدة لفتح البلاد وأتوا إلى (نكيسار) فاستسلمت لهما في نفس اليوم ، وخرج أعيان المدينة بالأنزال وحملوا السلطان بالشموع إلى المدينة ليلاً وأجلسوه على العرش وأمر في الحال للبروانة بإمارة نكيسار وأتوا منها إلى توقات ونصبوا المنجنيقات بناء على أن القلعة كانت مفوضه ليوتاش بكلربك وكان يدافع عنها . ولما لم يجنوا فائدة وكان العتاد يفنى تركوها على حالها وظلوا مدة يترددون في حوالي (كاب) و(زيلة) و (باريمون) و (قازاوا) حتى وصل الصاحب الطغرائي من الخدمة وانتهت هذه المنازعة بيمين كفايته .

ذكر وفاة السلطان علاء الدين في الطريق ورجوع الصاحب الطغرائي بحكم الوزراة إلى ممالك الروم وتقرير القضايا

لما توجه السلطان علاء الدين كيقباد وكان من الأم الداودية والأب السلجوقي بحكم أخيه الأكبر السلطان عز الدين بعزم خدمة الحضرة وبعد قطع المفاوز وطي المراحل انشغل في بعض المنازل في ليلة مع أمرائه وحرفائه باللذة والسرور حتى انقضاء نوبتين من الليل . ولما تفرق جمعهم وعزم هو مرقده حضر الأمراء على عادتهم إلى بلاط السلطنة فرأوا فى السلطان على خلاف المعهود توقفا فدخل مصلح اللالاحتى يطلع السلطان بحضور الصاحب والأمراء فلما دخل رأوا فيه تغيراً عظيما بسبب وفاة السلطان ولم يعلم بحال قط موجب تلك الفجاءة . ولما لحقوا بخدمة (منگوخان[1]) أمر بالبحث في سبب وفاة السلطان ولايحابى الخائن في ذاك الباب ولم يتحقق شئ . وفي تلك الأثناء وصل الرسل والقصاد من بايجو بأن السلطان عز الدين ملك الرومي أبدى العصيان وتقابل عسكره مع (بايجو قرجي) في صحراء (رباط علائي) في حوالي شهر آقصرا وانهزموا في العاقبة . ولما وصل هذا الخبر منح سلطنة الروم باستقلال باليرليغ والبايزة (بشكل) رأس الأسد للسلطان ركن الدين بلامماطلة . وحين وصل الصاحب الطغرائي الخدمة وعرض ماجرى والحكايات استعاد منه اليرليغ والبايزة بسبب الرأي الذي سنح له ووضعهما في الخزانة وسير الصاحب الطغرائي بالتعجيل والتبجيل إلى ممالك الروم باستحضار السلطان عز الدين . ولما لحق في خطة كاب بالسلطان و(أليجاق) أعطى إليه (أيوب حصار) بالإضافة إلى (قير شهر) وأرسلوا الرسل باتفاق أليجاق والسلطان بدعوة السلطان عز الدين على التواتر . واختال السلطان عز الدين إلى آقصرا وسيرتاج

---

(١) الاسم مكتوب في الهامش على النسخة المحققة .

الدين البروانة إلى السلطان وأليجاق وقدغان بإعلام قدومه . فوجه السلطان ركن الدين سيف الدين الطرمطائي في جوابه . وفي أثناء هذه الحالات كان أليجاق يقصد في أكثر من كرة محاربة السلطان عز الدين وكان الصاحب الطغرائي بحكم الخان فاتح العالم يمنعه . ولما تواتر توارد الرسل وتواترهم استقر الأمر على هذه الجملة وهي أن ينصف الملك بين الأخوين على السوية فينصرف نواب ديوان السلطان عز الدين في كل ماهو غرب نهر سيواس ويقرر ما هو على جهته الشرقية في قبضة السلطان ركن الدين .

ذكر عزيمة كلا السلطانين لخدمة المعسكر المعظم

وحين تمهدت قاعدة الصلح رحل السلطانان أحدهما عقب الآخر وعند لحوق السلطان عز الدين بالخدمة غدا سمياه ولقاه الرباني (١) ماحيا وشافعا للسيئات والعثرات ففاض عليه بأنواع الاصطناع وأعطاه بايزة منگوخان ويرليغه وبعد بضعة أيام قدم السلطان ركن الدين والصاحب الطغرائي ومعين الدين البروانة وتجددت العناية القديمه في شأنه ، وجعل السلطان عز الدين وركن الدين المصالح متعانقة في المعسكر المعظم ودخلافي ذلك البلاط بأمر الخان في مكالمة ومحادثة وسعد خلائق العالم وسروا في مسألة الأخوين وقرر الخان على موجب التقرير الذي جعله الصاحب الطغرائي وأليجاق والبروانة في المقاسمه الملكة عليهما وأمر أن يذهب الاثنان إلى تبريز ويقوما بترتيب السفر إلى بلاد الشام ومصر وفتحهما . ولما أتى السلطانان تبريز ولم يكن معهما المال استقرضا الخزانه العامرة أربعمائه بالش(٢) ذهبية لكي تتهيأ أسبابهما على وفق الوجوب ، وعزما من هناك في الخدمة إلى حلب . ولما حصل الخان من قبلها الفراغ وتشرف القاضي محيي الدين بالتحف ومفاتيح دمشق بالخدمة وأعلن الطاعة والانقياد عن علاء الدين الكازي من البلاط إلى

(١) في الأصل (ربنا) .
(٢) البالش أو البالشك الذهبي كان في حدود ثمانية مثاقيل ذهب أو ألفي دينار وكان متداولا عند الملوك المغول .

تلك الخدمة . ولما استسلمت ديار الشام لسيف المستولي على العالم نصب (بوغا[1]) بخمسة آلاف فارس لحفظ هذه الديار ولوى هو نفسه العنان المستولي على العالم إلى آذربايجان واسترد البرليغ والبايزة من عز الدين وأعطاهما للسلطان ركن الدين واستماله كثير الاستمالة وأجاز له بالعودة وتوجه كلاهما بالسعادة والهناءة إلى الممالك الموروثة وجلسا على سرير السرور . وفي تلك الأثناء وافت الصاحب الطغرائي الوفاة فقرر السلطان عز الدين الوزارة بعد ذلك باسم فخر الدين النائب ومنحه الخلعة والدواة لحكم الوزارة ومنصبها و . . . . .[2] أرسل يرليغا بوزارة السلطان ركن الدين باسم البروانة وندب ملك الأمراء والصدور تاج الدين المعتز بن القاضي محيي الدين الخوارزمي لضبط الأموال الخاصة وحفظها وكان على وشك أن تقر القلوب المضطربة وترتاح الخواطر الجماحة إذ ألقى أشرار اللئام ومفسدو الآثام في روع البروانة حتى جعل أليجاق يكتب الشكايات إلى الخدمة من السلطان عز الدين بأنه يميل إلى المصريين ويرسل من صوب الديار على الدوام القصاد فإن يأذن الملك نقوم بتدارك حاله . فصدر فرمان في ذلك الباب فتحرك على مقتضى الحكم السلطان ركن الدين بجيوش ممالكه والبروانة[3] إلى قونية .

ذكر انهزام السلطان عز الدين مرة ثانية إلى الفاسليوس

حين رجع السلطان عز الدين من الخدمة واستراح مدة من تحمل مشقة الأسفار ارتأى مع الصاحب فخر الدين هذا الرأي وهو مع أن الوصلة تحدث لنا مع السلطان ركن الدين الذي هو أخ صلبي لكن حصل انفعال تام من قبل احتيال معين الدين البروانة فإن يصمم العزم للاحتياط ودفع الأضداد مرة

---

(١) كيتوبوغا عند دوسن وغيره .

(٢) سقطت كلمات من الناسخ .

(٣) في الأصل خطأ (برونه) .

أخرى فان هذا متضمن لمصالح لاحد لها ، فرأى الصاحب فخر الدين هذا الرأي صائبا فأعدوا التقدمات وضربوا دهليز السلطنة بمرحلة (روزبة) ونهض السلطان بالاختيار . ولما لحق السلطان ركن الدين والبروانة وجيش المغول باقصرا وعلم أن ورودهم على وجه العدواة أرسل الصاحب فخر الدين للاستعلام عن الحال وتدارك القضية لاستقبالهم واستعد للهزيمة وانتظر مايقع . فسمع أن الصاحب فخر الدين لما لحق بهم قرروا عليه الوزارة وأن المغول جازمون على إبطال حشاشة السلطنة وعلى وشك الوصول . فقصد في الحال مع قومه وعياله أنطالية . وبعد يومين لما وصل جيش المغول والسلطان ركن الدين تصرفوا في بقاع أسباب السلطنة لحساب الملك أو الخان وأوقفوا كل ما كان موجودا بالخزانة إلى أن جاء توكلك بخشي وبهاء الدين شاهنشاه من خدمة المعسكر المغولي بطلبها فسلموها لهم وصيف أليجاق بولاية أقشهر بقرية قرايوك والسلطان بقرية ألتون تاشي وأخذ جيش المغول يهاجم في كل ناحية . وكان لعلي بهادر بـ (سفر يحصار) حشد كثيف ويريد مهاجمة الجند المغول ليلا لكنه ضل طريقة ليلا وعند الصباح قابلته طلائع المغول وأخبروا الجيش الكبير والتحموا في حرب عظيمة وفي العاقبة ولى علي بهادر دبره هاربا ونزل بطرف الثغور وأيس السلطان عز الدين من صلاح الأمر فركب السفن التي كانت معدة وذهب بالأطفال والعيال إلى استنبول عند الفاسليوس فبالغ الملك الرومي في تعظيمه ومكثا أيامهما مشغولين بالتلذذ ولحق على بهادر أيضا من الثغور بشرذمة من حواشيه بالسلطان في استنبول فأكرمه الفاسيلوس وهزم مرارا أعادي الفاسليوس وأظهر البطولات فلبس بهذه الواسطة الخلع النفسية . وقالت جماعة لم تكن لأدمغتهم المهترأة طاقة على الراحة ليلة أثناء شرب الأقداح لحضرة السلطنة كيف يظل السلطان محروما من الملك القديم وهنا حشمه مجتمع وحشده بحمد الله حاصل وماذا يحدث لو أزيل الفاسليوس أثناء سيره وعاد ملك هذه المملكة إلى حضرة السلطنة فأبلغ (كركديد) وكان رئيس شراب السلطان بحكم (العرق دساس) هذا المعنى إلى سمع الفاسيلوس فاستدعى بحجة (بهادر أغرلو) أمير الاصطبل وعلى بهادر إلى منزله وقيدهما وأرسل الموكلين على

باب السلطان ووالدته واعتقل السلطان وأقاربه إذ ذاك بقلعة وسمل أمير الاصطبل وقتل علي بهادر وكان أتباع السلطان من يدخل منهم ملة المسيح يلق الأمان والباقون يبتلون بالنكال والعقال . وجعل الباري تعالي صاين خان يرسل جيشا عظيما لخلاص السلطان عز الدين ، وسقطت اتفاقا في تلك السنة ثلوج عظيمة وتجمد نهر الدوناب فتيسر لجميع الجيش عبوره فأخرجوا السلطان من الحبس وتوجهوا إلى خدمة (بركة) . ولما لحق السلطان بالخدمة أمر له بأنواع الأكرام وأعطوه ولايتي (سولخاد) و (سوتاق) بالإقطاع غير أن أصحاب الأغراض أبغلوا والدة السلطان أن السلطان نكب في الطريق فألقت بنفسها من الحزن من القلعة وهلكت . ولما سمع السلطان بحادثة أمه وأسر أخويه وأخته بيد الفاسليوس أصابه الاكتئاب لكنه لم يبدغير (انتظار الفرج بعد الشدة) وسوف تقال خاتمة القصة في موضعها .

ذكر ملك السلطان ركن الدين قلج أرسلان وسيرته

كان السلطان الشهيد ركن الدين في السخاء والاجتراء فريد عصره وكان قوسه ستين منا ورمحه تسعة مئات ، مستنكفا بالمرة من الخساسة والرذالة إلى حد أن أكثر ممالك الملك في أيام دولته ذهب لأنه كان يهبه الناس بالخطوط الشرعية . ولما تمكن في الجملة على التخت السلطاني في قونية وسار السلطان عز الدين إلى استنبول عاد علي بهادر واغرلو أمير الاصطبل فحشدا وجمعها الجموع التامة من كل طرف وأتيا لمحاصرة قونية فخذله البروانة وأغرلو ونكبهما بالاستظهار ببعض من المغل في خان القوافل بألتونبة وأذاق مجيبي دعوته شربة العقاب ، وقيد جماعة المتميزين وأصحاب القلم الذين كانوا يتنفسون أنفاس ولاء السلطان عز الدين من قبيل نجيب الدين المستوفي وقوام الدين مشرف الملك والقاضي جلال الدين السفر يحصاري قاضي العسكر وسيف الدين خاص قيبة وكرم الدين عليشير وبدر الدين گهرتاش أمير السلاح وأمين الدين ياقوت أستاذ الدار وأرسلهم إلى أليجاق فأبلغوا جميعا درجة الشهادة . ولما قتلت هذه الطائفة بغير حق خوطب

أليجاق من عالم الغيب في المنام خطابا عنيفا حتى أنه استيقظ من هوله وشاهد آثار الأنوار (رأي العين) علي مضاجع أولئك المقاتيل المغافير فأطلق لسانه مضطربا بمذمة البروانة . وحين انتهت حكاية علي بهادر بدأ شاهملك العصيان وتحصن بقلعة (كداغرة) فأنزله بعد المحاصرة بالأمان والأيمان وقتل شهيدا على يد المغول . وإذ ذاك قدم الحضرة وحصل على يرليغ لانتزاع سينوب من قبضة الطرابزوني الذي كان وقع عليها بوجه السرقة ومكث مده عامين في ذلك الحصار فلما حصل عليها التمس من حضرة السلطنة ملكيتها وبما أن كلمة (لا) بأي حال إلا في الشهادة لم تكن تجري علي لسان السلطان ركن الدين تيسر له هذا في الحال .

ذكر سبب واقعة هلاك السلطان ركن الدين

قبل أن تلج حصة مملكة السلطان عز الدين تصرف ديوان سلطنة ركن الدين كان معين الدين البروانة يتشاور في أثناء المحاورات مع خواصه في استضافة ذاك الشطر إلى هذا النصف فقال ابن خطير شرف مسعود وكان من آحاد المنشئين لو تيسرت هذه الأمنيه يهبني الخدواند رئاسة عسكر نكيدة فتقبل البروانة قوله برسم التفاؤل فوقف من أجل ذاك الأمل في عرض مخترعات التهم التي كانت تلصق بالسلطان عز الدين وصال وجال مرات حتي أجيز لأليجاق من الخدمة قصد قونية وقيد السلطان عز الدين . وحين آثر السلطان عز الدين البرئ من خوف هيبة الملك الغربة والتجأ ثانيه بالشكري قررت رئاسة عسكر نكيدة على موجب الوعد السابق لابن خطير واتصلت رتبته في ذاك الاجتباء من الثرى إلى الثريا ومن السمك إلى السماك ، ولما انصرمت بضع سنين كان وعاء وسعته وإناء قدرته يعجزان عن تحمل الدولة والثروة ولما كانت رتبته بغير موضع ودرجته خارج الاستحقاق والموقع زلت قدمه عن منزلته فكانت أقواله وأفعاله تناسب الأصل والنسب والأم والأب . وكان أعيان الأطراف يبدون عن إمارته الاستنكاف والمستعدون والمتشكون يرفعون غصص القصص على التواتر . ومع أن الفرمان كان يصدر من بلاط

السلطان في إزالة هذا العدوان الا أنه لم يكن ينقاد وكان يسلك طريق التفرد والتمرد ولم يكن السلطان يقول شيئا من أجل خاطر البروانة وفي ليلة قال السلطان في خلوته مع الحرفاء وكانت جملتهم متعلقي البروانة . يجب فتح نكيده من شرف ، وفي وقت آخر بطريق الندامة تملك سينوب فيطلب كل خادم من كل ملك مدينة هبة ، إن البروانة وأشياعه أحكموا عض نواجذهم في ملكنا القديم فيحقرون الناس ويدعون الملك بلانصيب من النصاب ، وإذا ظل هذا فلن يظل لنا في سنه أخرى حكم في الملك والمصلحة هي أن نسير إلى خدمة الملك ونعرض استيلاء الظلمه وقلة المثال . فنقل كافرو النعمة أولئك هذا المعنى بالنقير والقطمير الى ابن خطير . ولأنه كان فتانا غمازا محتالا طلب الإجازة وسار بحجة تحديد الملاقاة بالأولاد بتوقات حيث كان له سكن بها وأقعد البروانة على النار وكان كلاهما يخرجان إلى الصحراء ويعملان الأفكار إلى أن استقر الرأي على هذا القرار أن يقصدا السلطان بعون المغول . وفي اليوم التالي رتب البروانة لجميع القضاة وأمراء المغول الأموال الكثيرة وأرسلها بصحبة شرف وأرسل رسالة فيها أن السلطان فكر في إهلاكنا بسبب أنه يريد الاتفاق مع الشوام ويبدأ العصيان وأنما أمانعه وحين يفرغ من قبل قتلي سوف يجمع الجموع لحسم مادتكم فإذا قمتم قبل أن يطرد فكره هذا من القوة إلى الفعل بتلافي[1] الحال فإن هذا المصلحة العظيمة فأحجم أغلب أمراء المغول عن هذا الطلب ، لكن بايناك الذي كان على مودة بالبروانة جعل أمراء المغول يتحركون لتفحص الحال صوب أقصرا وتوجه البروانة إلى أقصرا بعساكره وجيش نكيدة وجمع ابن حاجا وكان من سفلة الأتراك المأجورين ومجاهليهم واجتذبه البراونة فأبدى كالزمان محبة الحقراء ورعاية السفلاء وسير رسولاً إلى قونية بطلب السلطان بأن يرليغا ميمونا صدر بمهم دقيق ويلزم حضور السلطان لاستماع ذلك الحكم . فعزم السلطان من قونية إلى أقصرا . وكانت ضيافة تاج الدين معتز في ذاك اليوم الذي لحق بهم وتجرع السلطان في تلك الضيافة كؤوسا ثقيلة ، ولما أثرت سورة الشراب وارتفع جلباب الحياء فتل أمراء المغول أطناب العتاب مع السلطان

(١) في الأصل خطأ (تلاقي) .

وخاطبوه بغلظة بأي سبب تقصد البروانة وأي تقصير أبداه في خدمتك يستحق عليه هذا التفكير المذموم ؟ فأجاب السلطان لا أدري شيئاً عما يقوله الأمراء ولم تجر على لساننا كلمه في ذاك الباب في حالة الصحو وفي وقت السكر فإن يبذل الأمراء استكشافا شافيا فيقين أن الناقل سيصيبه الخجل . فأجابوا لن يصل الأمر إلى هذه المرتبة بما أنك لم تكرر قبل هذه الحكاية فإن تسملنا هذه الطائفة الجافية الذين حرضوا على هذا الغدر نعاقبهم ويتيسر خلاص السلطان وإذا أهملت فلن نبقي ولن نحابي فقال السلطان أفكر في هذا الباب وأعرضه بالغد على خدمه الأمراء وانتهى ذلك المجلس على هذا الكلام . وفي يوم الأربعاء الثاني من جمادى الأولى سنه (٦٦٤ هـ) خرج السلطان من المدينة وكانت نوبة ضيافة السلطان في ذلك اليوم ، وانشغل السلطان حتى الصباح مع الأمراء بالصيد وكان عسكر المغول قد لبسوا سلاحهم وأتى حول السلطان من بعد . فلما أتى مخيمه دعا المغول ومدت المائدة وطعموا وأتى السقاة بالشراب وأصاب السلطان ملل من الازدحام والحرارة في الخيمة الكبيرة الجالسين بها فأعطى الجامدار ثوبه القصير . ورأى المغول بضعة خناجر معلقة فأخذوا يجردون الواحد منها بعد الآخر بحكم الاستطلاع وشرعوا في عتابه إنك قررت بالأمس أن تسلم لنا الساعين بالبراونة فلم تفعل فكان يعتذر بالأعذار وكانوا لايقبلون . وفي أثناء المحاورة مزجوا سماً بقدحه فلما شربه ظهر بعد زمان تغير تام على مزاجه الكريم. ولما تغلب السم في أعماق العروق والاضطراب على روحه خرج برسم قضاء الحاجة وطلب فرسه وركبه وسار نحو المدينة فأدركوه وأعادوه . وبعد زمان خرج أمراء المغول مع البروانة وبقي ضياء وشرف ابنا الخطير مع بعض المغول ، وألقوا به في المخيم ونضوا عنهم يلامقهم[1] وأخذوا مثل هذا السلطان يركلونه ولم يظهروا أي أثر للرقة والرحمة برغم كثره صياحه واستغاثاته وفي النهاية أرسلوا روحه إلى الجنان بخنقه بخيوط القوس ، ولما فرغوا من إماتته ذهب المغول إلى المصطاف وقدم الكبار بتعجيل تام إلى قونية .

---

(١) معربة (يلمه) بمعني القباء والثوب الطويل ويشك هوتسما في صحة إملائها .

ذكر سلطنة غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان

لما بلغ ركن الدولة المحروسة قونية أجلسوا السلطان غياث الدين على العرش وكان في سن السنتين والنصف سنه يتيما حين خلف أباه وأقسموا على ولائه وهواه وكان الصاحب والبروانة يقومون بالكفالة والكفاية بمصالح الدولة بمعاضدة أحدهما الآخر ونشأ السلطان ونما في حجر تربيتهما وترشحهما كالشجرة البالغة على حافة النهر وكان يزين بتوقيعه مدة بالقالب الخشبي المناشير والفرامين ولما بلغ من منزل الطفولة حد الصبا وخطا بقدمه في دائرة فهم الأشياء وحفظ الأسماء أحضر الأستاذ لكي ينشغل بالتعليم .

ذكر اعتزال الصاحب فخر الدين واعتقاله في قلعة عثمانجوق

أرسل السلطان عز الدين من ديار الغربة رسالة مبنية على صورة الحال وقلة المال إلى الصاحب فخر الدين الذي كان في السابق وزير سلطنته فبدأت الشفقة في باطن الصاحب ظاهرة على العادة السابقة وأفشى الحال مع البروانة وأرسل الكتب التي من السلطان إليه فرق البروانة لما طالعها وبعد تصفح هذه المكتوبات حفظها عنده وفي اليوم التالي لما تلاقى البروانة والصاحب اتفاقا سأل الصاحب البروانة على أي نمط تتوجب الكتابة بجواب السلطان عز الدين وهل يمكن إرسال شئ له في هذه الحالة التي أحدقت العسرة فيها بأيامه وأخذت الفاقة بخناق حاله أولا يمكن ؟ فأجاب البروانة أن حال السلطان شبيه بحال السلطان طغرل فحين انزعج من جور الأمراء وظل متفرقا في أطراف الممالك من يدهم أرسل هذا الرباعي إلى ملك الأرمن بحكم الاستماحة :

أكرمنا اليوم يامن أنت للكرم الجناحان والريش

لأني مـــن الإعدام صارت الميته لـي حـلالاً

وحـــالي حيـن يطيب بـالـغد مـن الفـلك
فلـــن آخـذ الجـوهر مـن كفك بالفـخـار[1]

ولما طالع الأرمني هذا الرباعي لم يدر بحال قط في مدار المروءة ولم يترشح إناء سخائه واستمر على شحه فأجرى السلطان طغرل من فرط الغضب هذا الرباعي على لسانه :

يامن قلبك في هوى الأرمن إذا حييت
لن أخْلي أرزن لو كنت امـــــرأة أنا
وياأيها الفلك إن لم أخرج بالحيلـــة
ثـورك من بيـدرك أكن حمارا أنا[2]

وغذا اسم ملك الأرمن بسبب هذا البخل في الأرض سمراً ، وفي مثل هذه الظروف رعاية جانب ولي النعمة من لوازم المرؤة فلو كنت أرسلت إلى مكتوبا في هذا الباب لبذلت كل ما في ملكي ، فلما وجد الصاحب من البروانة الرخصة أرسل إليه الجواب ومعه بضعة أثواب ومشرب ذهبية بخمسمائة مثقال أخرى . وبعد مدة بدأ الأضداد بالسعاية بين البروانة والصاحب وأنهضوا البروانة إلى حبس الصاحب وتذليله وقيده وتنكيله لكنه كان يحترز من قبل الأمير تاج الدين حسين ابن الصاحب الذي لم يكن له ثان في القيادة وطعن الخناجر ومحبة الجنود والسخاء والجود ، فقال شرف بن خطير أنا أكفيكه بنحو أن أدعوه إلى داري بحجة الضيافة ولا أطلقه حين يعزم الرحيل . وفي اليوم التالي سار الصاحب والبروانة والأمير تاج الدين وابن خطير في خدمة موكب السلطنة . ولما نزل السلطان من السيران قال شرف لتاج الدين

---

(١) الرباعي الفارسي :

امروز كرم كن اي كرم رايرويـال　　كزنيستيـم شدست مردار حلال
فردا كه زاخترم نكوگردد حـال　　گوهرزكف توبر نگيرم بسـفـال

(٢) الرباعي الفارسي :

اي دل بهواء ارمـن ارمن باشم　　خالي نكنم زارزن ارزن باشـــم
وي چرخ اگربحيله بيرون نكنـم　　گاو توزخر من توخر من باشـــم

إن برأسي من شراب البارحة خماراً ولدي حاضر صحن أو اثنان من طبيخ السمّاق الذي لايمكن علاج آلام السكران الوجعان بغيره فإن يتجشم الخداوند لنتناوله معا ويقوم بإزالة الخمار لايكون بعيدا عن إكرامه القديم فأجاب ابن الصاحب من غاية سلامة قلبه دعوته وأتى داره ودخل معه من باب الملاطفة وشرعا المطايبة . وبعد رفع المائدة قصد ابن الصاحب الخروج فطرح شرف نقاب الحياء وقال ليس لك رخصة في مزايلة هذا المقام من خدمة الأمير البروانة فقال ابن الصاحب لا يجب أن تفعل مثل هذا من باب المروءة مع الإخوان والخلان ، فلم يفد شيئا فرضي بالقضا (شاء أم أبى) وسكن فسطر ابن خطير في الحال على ورقة (قضى الأمر) وأرسلها للديوان عند البروانة ، فنهض في الحال البروانة من مقدمة الصفة حيث كان جالسا مع الصاحب وأرسلان دغمش وطرمطاي وأتى جانب الصفة وأرسل ذاك الخطاب الذي كان السلطان عز الدين كتبه إلى الصاحب بيد أحد المعتبرين لخدمة أرسلان دغمش وطرمطاي والصاحب وقال كيف يمكن أن يحيا المرء مع من فكر في المكر والغدر بملكه ويعين مخالفيه فقال الصاحب لما وصلتني هذه الرسالة أرسلتها لك في الحال وقررت المشافهات حين سنحت الفرصة فليس علي في هذه القضية جناح والباقي يصير ما يأمر به الله والملك . فاعتقل الصاحب في منزل من حجرات سراي السلطنة زمانا ثم أرسل إلى دار أمير القضاء وسيروا شمس الدين ولد صدرو بإعلام هذه القضية إلى الأمراء المغول والقضاء وأصحبوه مالا كثيرا لكي يحقر فخر الدين الوزير ويعظم وزره فأعطوه قيادة عسكر آمد لتلك الواسطة . ولما سمع أمراء المغول قالوا مع أن جناحا عظيما صدر منه لكن لا ينبغي الاستعجال في إبطال حشاشته ما لم تعلم صورة الحال في الخدمة ولاتخطئ خطأ واحدا في التضييق عليه لكن يلزمك المبالغة في المحافظة [1] عليه . ولما عاد ولد الصدرو أرسل الصاحب إلى قلعة عثمان چوق وأطلق ابنه بكفالة ابن خطير بقرار هو أن يلازم البروانة في السفر والحضر وسوف يقال بعد مآل كل واحد وحاله .

---

(١) في الأصل خطأ (محافطش) والصحيح (محافظتش) .

ذكر تبديل المناصب في ديوان سلطنة ممالك الروم

حين أرسل الصاحب فخر الدين إلى قلعة عثمان جوق أعطيت الوزارة إلى مجد الدين محمد بن الحسن المستوفي الأرزنجاني الذي لم يكن له ثان في أنواع الفضائل في الدنيا الفانية والاستيفاء للصدر المعظم جلال الدين محمود المشرف والإشراف لظهير الدين متوج [1] بن عبد الرحمن وكان من أحفاد أبي يوسف والنظر لزين الدين أحمد الأرزنجاني وكان كل واحد يقوم بشغله بالوجه الأحسن وقدر الإمكان . ولما نزل الصاحب فخر الدين من قلعة عثمان جوق وذهب إلى الخدمة وألقيت الحكايات في المحكمة خرج من ذاك الافتراء نقي العرض والساحة وأمروا برجوعه إلى منزله وتدخله في الأمور السلطانية والأشغال الديوانية . فأقام الصاحب مدة كذلك في سكنته والتزم في وكنته واشتغل بضبط الأملاك والعقار والعمارة للأوقاف . ولما مضى زمن على العزل وتطرق إلى خاطره من تسلط الأراذل السأم والملل توجه إلى بلاط أباقا من الأنفة والإباء بالهدايا والتحف فقررت له الوزارة مرة أخرى وفوض قيادة عسكر لاديق وخوناس وقرا حصار دولة لولديه وأعادوا الأب وولديه بمراد القلب إلى الروم ، ولما باشر الوزارة ثانية قررت الأتابكية للصدر مجد الدين وكان الجميع يعمل باتفاق للملازمة التى كانت قدمت لحكومة مملكة الروم .

ذكر بعض من أوصاف الأتابك
مجد الدين وخاتمة أمره

كان الصدر المعظم وفريد العالم مجد الدين محمد بن الحسن الأرزنجاني نادرة الأيام في أنواع الفضائل والآداب والتبحر في فنون الحساب وكان خطه للغاية وعبارته في نهاية اللطافة ومطلوبة وكانت وظائف مبراته في حق الخاص والعام من أهل الإسلام لاسيما في شأن السادات والأئمة مثل ضياء

---

(١) الكلمة غير واضحة فى كتابتها فى النسخ (هوتسما) .

الشمس وقطرات السحاب متتابعة ومتواترة ، وكان له اطلاع تام على قرض الأشعار ونقدها وسبك الرسائل العربية والعجمية وكان في وقت وفاته أكثر يقظة من العقل . وكان كل من يمر يوميا على بابه في أيام حياته أو يلقي عليه السلام يلقى في الحال منه الإنعام وعند النفس اللطيف الأخير استدعي إليه الخدم والحشم وودع الجميع ببشاشة على أتم ما تكون وتوجه إلى دار القرار . ومن جملة رسائله الكتاب الذي كتبه بجواب (ملك السادة سالك سبل السعادة مالك أزمة العارفين حجة الأولياء في العالمين شرف الملة والحق والدين الحسين العلوي الطباطبائي الشيرازي أدام الله على كافة المسلمين بركته) لكي يستدل على وفور بلاغته فيها :

الخطاب المبارك لمولانا ملك السادات فلك السعادات افتخارات العترة الطاهرة ولي الكرامة الظاهرة علم الهدى معلم الورى شرف الملة والدين حجة الإسلام والمسلمين أبد الله فضله وإفضاله كان يتيمة بحر السعادة وصار تميمة بحر الإرادة وإبان أيامك الشريفة اتصل بالتعظيم والتبجيل بزينة حدقة الفضل ونور حديقة القول والفعل بوجه التيمن والتبرك بلغ مشام الروح من مطاويها وفحاويها نسيم الروض الناطم لابل نفحات مكارم أخلاق أبي القاسم عليه السلام ما كرت المواسم . وفي المدة التي ولت سعود ذاك السعد العظيم وجهها إلى الأفول ووصمت غصون تلك النعمة والنعيم بوصمة الذبول حتى هذه الغاية حين طلعت وامتنعت[1] بحسن الالتفات ويمن النظر المولوي كان هذا البيت الحماسي وهو :

عسى الأيام أن يرجعن قوما كالذي كانوا

في خاطري في اليقظة والمنام

وكانت عين البصيرة ولسان السريرة ناظرين ومسامرين بخيال جماله المبارك ، وحاضرين بتكرار هذا البيت وهو :

---

(١) الطلوع يقصد به طلوع سعود الطباطبائى والامتناع امتناع غصون نعمته عن الذبول وهو ينفى أفوله أى غيابه بقدومه إليه كما صرح آخر الخطاب .

وعدتني الأيام منك بوصل له[1] لوكان يصدق الأحلام

بتسلي الضمير والخاطر والآن حين وصل الصدر صلاح الدين أنجز الله فطره كما أحسن ستره وعلم بخطور حضوره المبارك لهذا الطرف وأبلغ البشارة الميمونة فأتى (هذا تأويل رؤياي من قبل [2]) في ضميري والأمل أن يتلى (قد جعلها ربي حقا) عما قريب بإدراك شرف الخدمة (وماذلك على اللعزيز)[3] .

ذكر تشريف الملكة المعظمة سلجوقي خاتون ابنة السلطان ركن الدين بتزوج الأمير وعصيان ابن خطير

لما صدر الرأي العالي والأمر النافذ بأن يؤتى بواحدة من جملة مخدرات السلطان ركن الدين في حبالة تزوج ملك الدنيا وأن يعتدى بذاك الافتخار العيوق بهلال راية بني سلجوق شرع السلطان غياث الدين كيخسرو وأمراء سلطنته ببال منشرح وأمل منفسح بالليل والنهار بترتيب جهاز الملكة وأتموه وفوضوا الصدر كمال الدين ابن الراحة بترتيبه فأعد وهيئ في أيام قلائل وتقدم الصاحب والبروانة وأمين الدين ميكائيل نائب الحضرة في خدمه المهد الميمون وسير السلطان غياث الدين مع الأتابك مجد الدين وجلال الدين المستوفي والطرمطاى البكلربكي صوب قونية وفي وقت الودا ع أسر معين الدين البروانه إلى تاج الدين كيو قائد عسكره وإلى سنان الدين بن أرسلان دغمش إني لاأتفرس في حركات أولاد خطير الزنجاني وسكناتهم بأي حال

---

(١) الإملاء غير مؤكد (هوتسما) .

(٢) سورة يوسف الآية (١٠٠) : (وقال ياأبت هذا تأويل رؤياي من قبل قد جعلها ربي حقا) .

(٣) سورة إبراهيم الآية (٢٠) .

قط آثار الخير ولسوف يصدر بلاشك منهم فتنه عظيمة وبلية أليمه وإذا لم يسنح هذا المهم الدقيق لكنت محوت بنفسي صدأ وجودهم بالمصقل المصقول اليماني من مرآه الوجود بالرغم أنهم قادة عسكري لكن الواجب أن تنتهزا كلاكما الفرصة بالاتفاق في (آناء الليل وأطراف النهار) وتلزما التحفظ والتيقظ بالأسلحة والجواشن في طلب قتلهما وتوجبا المسارعة في إهراق دم الأخوين فالتزما في خدمة الأمير البروانة اتمام هذا الأمر الهام لكن التصوير في معمل التقدير كان على خلاف تصورهما فلما لحق موكب السلطنة بقيصرية توجه شرف الدين بن خطير بفوج من عسكر الروم ومن عسكر المغول إلى آبلستان لحراسة الثغور ونزل (بيگار باشي) وفجأة خرجت كوكبة من أجناد الشام من الدرب عادية وأسروا بعضا من جنود الروم مثل (روم أري) ابن التركري وسيف الدين أبي بكر الجامدار وسيف الدين قراسنقر ولما كان (عسكر)[1] ابن خطير والحراس المغول قليلين أدبروا ونزلوا خان قوافل قراطاي بعزم أن ينزلوا في غدهم صحراء قيصرية ، وقدم تاج الدين كيووسنان الدين بدورها إلى قيصرية من هناك في الحال وأتيا ابن البروانة وأعادا عليه حكم أبيه الذي سمعاه وقت الوداع وأقسم ثلاثتهم على الاقتدار على تأكيد هذا المهم بأنه حين يأتي الأخوان أمام ابن البروانة أو يحضرا إلى سراي السلطان ألا يتوانوا في قلتهما . وأعلم شخص من ملازمي ولد البروانة هذا السر ضياء فسيرضياء في الحال قاصدا إلى أخيه وكشف القضية وأمر أتباعه بأن يلبس جميعهم السلاح ليضعوا الأسياف التي لا تأسف في صباح غدهم في تاج كيوبعد معانقته . وفي اليوم التالي ذهب ضياء لاستقبال أخيه وأعاد الحكايات فاشتعلت نيران غضب كليهما وركب ذاك اليوم ابن البروانة بزعم أن ولدي خطير ذاهبان لخدمته بغبار الطريق ، وتقدم تاج الدين كيو وسنان الدين مع نفر عديد كان لهما لاستقباله فقال شرف على سبيل المعاتبة لكيو لو أن ابن خداوندنا سبق إلى إتياننا فماذا كان يحدث من نقصان فقال كيولو أن لديه عذرا لتجاوز ملك الأمراء وذهب إليه حتى يحجل هو فتحقق

---

(١) معنى هذه الكلمة الفارسى غير موجود بالنص .

لشرف من هذا الجواب حديث المواضعة . وتقدم ضياء برسم المعانقة بحكم أنه لم يرتاج الدين كيو من مدة طويلة واستل في الخفاء سيفة من غمده وضرب به يمنى كيو ، فاستل كيو سيفه من قرابه بيسراه وأخذ يطعنه في كل موضع يصيبه . ولما كان جراح ابن خطير شديدة التأثير فيه انبطح على وجهه ففصلوا في الحال رأسه عن جسده وربطوها بحبال سرجه ، واستشهد أيضا في ذاك المكان الأمير سنان الدين . ولما فشا عصيان ولدي خطير ثارت الغوغاء من داخل المدينة وخارجها وعدا شرف بالأعلام والعسكر التي معه إلى صحراء مشهد وتوقف بها وأرسل في المدينة ليحضروا السلطان . فأجلس الأتابك والطرمطاي والمستوفي بعد الممانعة والمدافعة السلطان وحملوه إلى شرف . وفي الغد عزموا من مشهد إلى نكيدة ولما وصلوها أرسل شرف أخاه ضياء[1] إلى الشام بإعلام الحال واستنجاد الرجال وإلزام الأتابك مجد الدين وجلال الدين المستوفي وسيف الدين طرمطاي بأن يسيروا إخوتهم وأبناءهم بصحبة ضياء فظهر بواسطة السلطان جمع تام في نكيدة وأخذ يزيد كل يوم عجب شرف وحماقته ويتكبر على أكابر الدولة تكبرا فاحشا . وكان يقصد كل وقت الأتابك وحينما كانوا يعلمون بالحال كانوا يرسلون المال الكثير ويجعلون الخزانة وقاية أنفسهم . وكانت القصاد المزورة تظهر كل يوم من طريق الشام بأن (البند قدار) سوف يصل في اليوم الفلاني بجيش لجب وتدق بشارة الهجمات وعاشوا مدة هذه الحالة بهذه الحيلة .

ذكر وصول مهد الملكة ورجوع الأمراء

وسكون فتنة أولاد خطير

لما لحق الصاحب والبروانة والنائب في خدمة المهد إلى الخدمة وحملوا بالناموس التام العروس من منصة الجلوة إلى حجلة الوصال وأحكم ظهر

---

(١) لابد أنه غير ضياء الذى قال المؤلف أيضا إنه قضى نحبه .

ساكني ديار الروم بتلك المواصلة [1] أمر من خدمة المعسكر المغولي في حق الصاحب والبروانة بالإكرام زيادة عن المعهود وأضيف فرضة من ديار الأرمن إلى ممالك السلطان وتوجه الصاحب والبروانة سعيدين إلى المملكة ، ولما وصلوا حدود أزرن الروم سمعوا خبر عصيان أولاد خطير فعرضوا في الحال صورة الحال على الخدمة فنفذ الفرمان بتوجه الأمير المستولي على الدنيا وتودون بهادر وتوقوآغا بجيش كبير لدفع فتنة أولاد خطير صوب الروم . وكان ولد خطير سلك على عادته القديمة طريق الغواية والجنون وأخذ يفرق الولايات على دون الرجال ومرقتهم وطرح نقاب الحياء عن وجه الوفاء بالمرة ولم يحفظ مكانه لكنه كان يحترز من قبل أركان الدولة ولهذا فكان يتحصن حينا بنكيدة وآخر بدولو ويفرق الخلائق تشريدا . وفجأة أنهى إليه منهيو الأخبار أن البروانة بجيش بلاحد وصل في خدمة الأمير وقام باحتياط الجوانب وسد المهارب وحفظ المسارب . ولما سمع ولد خطير هذا المعنى صار كورق الصفصاف في ارتعاش واضطراب وغدا العالم في اسوداد من هول أجناد المغل فأتى دهليز السلطنة ودعا الأمراء وقال لا أرى في تدارك سوء أفعالي أى مصلحة ورأي غير القرار ببعض معاقلي فسيروا إلى البروانة في خدمة موكب السلطنة . وودع الأمراء وسلك مع نفر عديد من الجنود سبيل قلعة (لولوه) فلما اقترب منها سرح قومه وودعهم وصعد مع واحد من غلمانه القلعة . وفي الحال قيده رئيس حراسها وأعلن القضية لخدمة بلاط السلطنة . نعم ولما ذهب شرف الدين إلى القلعة أركب أركان السلطنة السلطان في صلاة المغرب وركضوا معجلين حتى وصلوا دولو منتصف الليل وأنهوا الليل في الميدان . وأشعل بطلعته الغراء شمع المنيرة للدنيا عندهم فحيوا جميعا من السعادة . وكان السلطان قد استراح فلم يدعهم يوقظونه وقال إننا نتحمل جملة المشقات من أجل راحة داره الشريفة وقد وضع هو أيضا رأسه على

---

(١) إن أحكموا ظهورهم بتزويج أميره مسلمة لابن أباقا الخان المغولي المشرك فقد نقضوا حكم الشرع بعدم تزويج المسلمة من كافر أو مشرك وذكر هوتسما أن أرغون هو المتزوج بها .

الوسادة ولما ظهر النهار قبل البروانة يدي السلطان وسارا معاً إلىٰ خدمة أمراء المغول . ولما اتفقت ملاقاة السلطان بهم أنشأ فصولا في باب براءة السلطان من ذاك العصيان وأجلسه في مقاعد سمع القبول فسلى أمراء المغول السلطان . وحين أجلى البروانة حال اعتقال شرف الخائن على يد حارس القلعة سروا وسيروا سيف الدين جالش باستمالة الحارس واستنزال شرف بكوكبة من جيش المغول والمسلمين إلى القلعة . وأحضر شرف الدين ولد خطير إلى أمراء المغل بغل الذل فأحالوه إلى السؤال والمحاكمة وكذلك ابن قلاوز أمير الصيد وسنجر الجامدار وقبيه خادم خاص الذي كان مادة الفتنة والذين سلموا السلطان إلى ابن خطير وقتلوه وبقية الأمراء الذين تابعوه بوجه الاضطرار ، وبعد التفحص عين جرم كل منهم . وكان الصاحب وتودون[1] قد بقيا في الخدمة عند الأمير بآبلستان لاحتياط الدروب . ولما رجع الأمير وعزم المعسكر المغولي وعاد توقو إلى ممالكه أحضر ابن خطير وأدخل المحاكمة فكان يجيب من غاية الدهشة وفرط الحيرة إجابات متناقضة . وعاقبة الأمر قتلوه وأرسلوا يديه وقدميه ورأسة وكل عضو من أعضائه لاعتبار كفار النعمة وانزجار الخدام الغدَّر لكل الديار . وبعد ذلك عزم الجميع بالاتفاق المصطاف وكان أمراء الروم في ذلك الشتاء من الصباح للرواح ملازمين المغول في هذه القضايا ويقومون بشق أيام الشقاء في خوف واعتراض . فلما وصلت هذه الحكاية إلى النهاية وزال عتاب السؤال ورام الناس سكون الحال وراحة البال ظهر من ستار التقرير الحال عجيبا يجعل الولدان شيبا فتبدل السؤر إلى السعير والفرح إلى الترح والراحة إلى المأتم والسرور إلى الغم وتزلزلت المملكة وتخلخلت قواعد السلطنة وأصابت من الحركة غير الصائبة لبندقدار الشام آلاف الشربات السامات المزهقات للأرواح مذاق الخاص والطعام في هذه المملكة (ويفعل الله مايشاء)[2] .

---

(١) فى الأصل (تداون) .

(٢) سورة إبراهيم الآية (٢٧) .

ذكر خروج فندقدار من طرف الشام

لما حمل بهاء الدنيادين قدرة (اعلموا أن الله يحيي الأرض بعد موتها)[١] ملك السيارات من حانوت[٢] الحوت إلى منزل الحمل ونشرت في الدنيا أصوات الربيع على لسان السوسن وهزار الترجيع كانت الأخبار تصل على التواتر من سيس بأن جيشا عظيما عازم من طرف الشام ديار الأروام فرقم بالقلم من حضرة السلطنة الفرمانات إلى الأطراف بأن يجتمع الجنود بضواحي قيصرية . فنهض عسكر المغول وجيش الخان برعاية تودون نويان وتوقو آغا ومعين الدين البروانة وقيادتهم من قيصرية وسلكوا سبيل أبلستان . . ولما وصلوا جبل (هورون) قال المخبرون إن عسكر الشام سوف ينزل بالغد وقت الصباح بصحراء أبلستان فقام كلا الجيشين من الروم والمغول باحتياطهما وفي الغد هجموا نازلين من الجبل ، فلما شاهد البندقدار آثار الغبار في الهواء تحرك في الحال وبلغ الصحراء وصف جيشه والتقى الجيشان وضيقت الطيور المريشة بأربع ريشات والقادمة في طيرانها من جوف الأقواس الشدفية [٣] ثلاث جهات الأرض على الشوام وحمل تودون وتوقو حملات متواترة واخترقا الصفوف ولم يبقيا شيئا قط من آثار الصرامة. وفي العاقبة انتصر عسكر الإسلام وسقط توقو وتودون ووضع شجعان المغول رؤوسهم على وسادة الموت وكانت ماقدرو (قضي الأمر الذي فيه تستفتيان) [٤] وولى البروانة وقلبه محروق كالشمع وجهه إلى الهزيمه وسقط بعد يومين بقيصرية وكان الصاحب أركب السلطان وأخذ يسيران بالهم والغصة في صحراء مشهد حين بلغهم فجأة البروانة مع نفر عديد كانوا قد خرجوا بسلامه بحياتهم [٥] من تلك الورطة وسلكوا أيضا مع الصاحب والسلطان والأمير البروانة طريق

---

(١) سورة الحديد الآية (١٧) .

(٢) في الأصل (خاتون).

(٣) إملاء الكلمة غير مؤكد (هوتسما) .

(٤) سورة يوسف الآية (٤١) .

(٥) في الأصل بما لا يقتضى المعنى (بى جان) والمفروض أن تكون (باجان) .

توقات وأتى عسكر الشام بعدهم قيصرية وضربوا خيامهم في صحراء مشهد ودخل البندقدار مساء يوم الجمعة الخامس عشر من شهر ذي القعدة سنة (٦٧٥ هـ) [1] وجلس على العرش وجعل الخطبة والسكة باسمه . ولما كان قد تحرك بناء على عهد البروانة وميثاقه وشاهد هنا خلاف ذلك ولم يلحق من أمراء الروم أحد وكانت حيوانات عسكره تسقط من انعدام العلف وتتلف وكان خائفا من هجوم عسكر المستولي على الدنيا المغولي قرأ (العود أحمد) وعاد . ولما وصل دمشق أبلغه بعض غلمانه بالسم الدار الآخرة .

ذكر سبب حركة الركاب المستولي على العالم للملك المسيطر على الدنيا إلى الروم

لما وصل السلطان غياث الدين والصاحب فخر الدين ومعين الدين البروانة إلى توقات سيروا في الحال سيف الدين الأربكي بإعلام الحال إلى البلاط فلما بلغه وأجلى الحال تحرك الملك بنفسه وسارت العساكر الجرارة أكثر من خمسين ألف فارس ممتشقة الحسام بقصد ممالك الروم والشام وقويت الفتنه فلما بلغوا حدود أرزنجان عزموا آبلستان عن طريق (دفركي) . ونظر فجأة أهل دفركي الغافلون فرأوا فارسا يعدو نازلاً من الحزام الجبلي بمحاذاة قلعتهم ثم كوكبة عظيمة تسرع في عقبة ، فتقدم بضعة نفر من الأعيان بالهدايا ولما اقتربوا وجدوا الملك أباقا فقدموا إليه التقدمات فقرنها بالقبول وأمر لهم بهدية وأمر بقتل جماعة الفضوليين الذين كانوا أقدموا على قتل أولاد تاج الدين زيرك . ولأن شخصا من مقيمي دفركي رآه الملك من شرفات القلعة بالسهام والقوس لقي جزاء سوء أدبه ونفذ الأمر بهدم قواعد القلعة . وبعد ذاك تحرك الركاب سكينة الدنيا إلى آبلستان وتشرف السلطان غياث الدين والصاحب فخر الدين ومعين الدين البروانة بتقبيل الأرض في تلك

(١) في الأصل والنسخة التركية خطأ (٦٨٥) والمعروف أن الملك الظاهر بيبرس البندقداري هزم المغول لثاني مرة في هذه الواقعة في هذا العام المشهورة بواقعة أبلستان أو أبلستين بمواضعه مع البروانة .

الحدود . ولما وصلوا معركة الشوام ورأوا من مقتولي عسكر المغولي اكواماً علي أكوام ماجت بحور غضبه فأمر أن تقتل جمله المتخلفين . وسكن صاحب الديوان رضي الله عنه ذلك السخط وأنجى أربعة ومائه رجل من شرك الهلك وافتدى القاضي عز الدين الأرموي وفخر الدين الكوجكي ونور الدين بن قراجة وزين الدين حفيد هود باقي الخلق ولقوا درجة الشهادة . ولما تعذر توغل المغول في بحر الشام تعذرا تاما بسبب انه قد جرى [1] .... قبل ذلك أرسل الرسل بأن البندقدار يهاجم حراسنا كل مرة على الغفلة ثم يلتاذ بالفرار فإذا كان يفكر في الحرب ولن يدخل رأسه في دائرة طاعتنا لسوف يهرق دمه جملة واحدة ويشاهد شقاوة قريبه وغريبه . ثم وجه الأمير الحاكم للدنيا لدفع القرامانيين والجمري الذين جلسوا في قونيه على العرش وأمر الصاحب بملازمة ركابه الميمون . وكان البروانة ملازما خدمة الموكب الأعلى ووصلوا حدود كوغونية وكماخ فأمر البروانة باستسلام القلعة واستنزال حارسها الذي يمتلكها فلما ذهب إليها ودعا حارسها لينزل تقدم بالمدافعة العدائية فرجع البروانة خائفا وخائبا إلى الخدمة فزاد بتلك الممانعة غيظ الملك الذي حفظه بسبب خذلان تودون وتوقو . وعين الحراس على البروانة بحيث لم يكن يستطيع التوقف بدونهم والتخلف . فلما بلغوا (آلاطاغ) كان الرسل الذين أرسلهم إلى الشام قد عادوا من قبل البندقداري وأتوا بالكتب التي كان البروانة أرسلها بمرور الأيام بالإغراء بهم والخروج عليهم وبعث بها من البحر والبر وأبلغوا الرسائل الشفوية البليغة الملوثة بالدماء في حسم مادة حياة البروانة . وكان قبل ذلك نفس الخواتين وأولاد تودون وتوقو يبلغون التبليغات في قصد البروانة ، ومع أن مؤاخذة قتل السلطان ركن الدين كانت تتوقف إلا أنها كانت الركن الأعظم لكنهم كانوا يسلكون بسبب المصلحة طريق (يمهل ولايهمل) . فلما وصلت كتب البندقدار ورسلاته هي الأخرى لم يبق مجال الإهمال والإمهال فاعترف بذنبه وعوقب بالقتل .

---

(١) الفاعل غير واضح بالنص والحاشية .

ذكر محاسن أوصاف معين الدين البروانة تغمده الله برحمته

كان الأمير المشهور معين الدين سليمان بن على الديلمى فى الرزانة والدراية والكفاية الطود الأشم والبحر الخضم وكانت على الدوام خلواته مع العلماء والأتقياء والزهاد والعباد وكانت وظائف صلاته في جملة الممالك من كل روزنة على كل يتيم وأرملة كالشمس المضيئة وكفيض البحار بلا نهاية ومقدار . ومع أن واقعة السلطان ركن الدين تنسب إليه لكن رب العالم هو العالم لأن مادة ذلك الكيد ونشاء ذلك الشر لم يكن غير طبع قبح وحيلة رذيلة من الزنيمين اللئيمين ولدي خطير الزنجاني الجاني وكفران نعمتهما ويشهد على براءة أساس البروانة من ذلك جنس الجن والإنس على موجب (وماكفر سليمان ولكن الشياطين كفروا)[1] نعم .

ولما بلغت أنباء شهادته سمع جمع الأمم كان الحنين فى مأتمه يتجاوز فلك عليين وأنشد صاحب الديوان الأعظم شمس الدين رحمة الله عليه هذين البيتين :

لما رأيت خروج الترك من سبأ	مغافصا مالهم عقل ولادين
أنشدت مكتبئا ما قيل فى قدم	مضى سليمان وانحل الشياطين

ذكراستيلاء القرامانيين وتسلط الجمرى[2]

حين بدأ ولد خطير المجاهرة بالعصيان وظل يصدق من غاية الحماقة أكاذيب خيالات جنونه وكان موكب السلطنة وأركان الدولة يختارون موافقته بوجه الاضطرار وتحولوا من قيصرية إلى نكيدة بحكم (وشبه الشئ منجذب إليه) وكل من كمن فى طينته وجبلته كفران النعمة ومخالفة أسرة قلج أرسلان

(١) سورة البقرة الآية (١٠٢) .

(٢) جمرى فارسية تعنى الجلف والسفلة والسوقى ومن لا أصل له وهى كلمة صارت مرادفه لكلمات العيار والحرفوش والشاطر والرند وليست اسم علم أصلا .

كان يميل إليه . ويحكم أن شرف كان يستروح هواء الشام وبذي غرام وشغف تام بجانب البندقداري حصل له جمعية محشودة من الحشود . وحين انتهز الفرصة فى وقت فترة بايجو فى سنة (٦٥٤ هـ) أولاد قرامان الذين كان أبوهم فى ابتداء حاله من فحامى التراكمة فى نواحى الأرمن ويعرف بقمر الدين وكان يجلب دوما من تلك الجبال إلى لارندة الفحم ويرتب قوت عياله وأطفاله وبدأ مع أبناء جنسه أعمال الحرام وقطع الطرق وصل من رتبه المشاه درجة الفروسية . وبعد ذلك لما انفصل السلطان عز الدين عن المملكة ودخل شطرا المملكة فى تصرف السلطان ركن الدين جذب قرامان بالآمال إلى شباك طاعته وأمره فحصل له الأسباب . وبسبب الاستغناء تطرقت السوداء الفاسدة إلى دماغه وأخيه (بونسوز)[1] وكان برغم دخولهما قيد الطاعة يقطعان بحكم (الحرفة لاتنسى) وكان السلطان ركن الدين يلحقه الغضب ويود أن يقوم بعقابهما وزجرهما لكنه لم يكن يأمر بشئ بسبب أن لهما بيتا فى ولاية الأرمن وكان يتوقى عصيانهما . ولما مات قرامان وحضر أخوه بونسوز وكان أمير حرس السلطان ركن الدين لملازمة العبودية للبلاط حبسه السلطان وأرسل أولاد قرامان وكانوا أطفالا إلى قلعة كاولة . وبعد وفاة السلطان كانوا ينقلون ويحولون إلى قلاع الممالك . وبعد مدة أطلقهم من الحبس البروانة فصار هؤلاء الأفاعى الأطفال بمرور الأيام تنانين ومدوا أيديهم بتخريب البلاد وتعذيب العباد وكانوا يظهرون حقدهم على السلطان ركن الدين فى مخالفة ولده . وحين سمعوا بميل ولد خطير للشوام لحقوا به فأعطاهم هذا الجاهل قيادة جيش أرمينية بتحويله عن بدر الدين إبراهيم ولد القاضى الختنى . ولما أهلك شرف بخطة كدوك وقلت الفتن والقلاقل أرسل البروانة لتأديب أولاد قرامان فوجا من العسكر إلى أرمينية فقصر ذاك العسكر بسبب صعوبة الدروب عن مدافعتهم بل أن كثيرا منهم وقع أسيرا سبيا فزادت شوكة أولئك الخوارح . وعندما اتفق للبندقدار الاستيلاء على عسكر التتار ووصل هذا النبأ إلى سمع نائب السلطنة أمين الدين ميكائيل وأولاد الصاحب الذين سبق ذهابهم إلى لارندة لدفع الخوارج أتوا للاحتياط

(١) حسب دوسون جـ٣ ص ٤٩١ ومايليها (انقرسوز) (هوتسما) .

دار الملك قونية . وبحكم أن السلطان والصاحب كانا ملازمين لخدمه الموكب ولم تكن أحوالهم معروفة عزم أولاد الصاحب من قونية (قراحصار دوله) وبقى فى قونية الأمير النائب وبهاء الدين ملك الساحل وكانا من متعلقى قونية . وحين رأى الأتراك الأرمناك وأولاد قرامان قونية خالية دعوا التركمان من الولاية للإغارة . وفى أحد الأيام كان محمد بك أحد قادتهم ويحسب له الاطلاع والثبات يذكر لبعض جلسائه بطريق التمنى بما أن أمرا لم يتحقق من البندقدار فإن يقع فى أيدينا سلطان سلجوقى لن يظهر علينا أبد الدهر رجل فإن نرسل رسولا إلى ملك الروم ونلتمس ولدا من أولاد السلطان عز الدين الذين بقوا عنه بالنوى بلاغنى ويرسل لنا بالإجابة فيقينى أن أمرنا سوف يتعدى ذورة الأفلاك فى أوج العظمة . وفى تلك الأيام وصل شخص جمرى الطريقة حرفوش الحرفة وظل يتحول فى قبائل الأتراك وينسب نفسه ابنا للسلطان عز الدين . ورأى أحد الناس الذين سمعوا حديث محمد بك الجمري وكان يعرفه فى عرض الطريق فأخذه وأوصله إلى محمد بك وقال إن هذا هو ابن السلطان عز الدين وشهد تقى لقبى السيواسى الذى سبق هروبه من الصفداق بأن هذا الملك ولد السلطان عز الدين وأن لقبه واسمه غياث الدين سياوش وكان يعلمنى فى تلك الناحية الخط . فلما سمعوا هذه الشهادة من التقى الشقى صدقوه وبايعوه على السلطنة وبدلوا لباسه الخشن القديم مذهبا ونسيجا وعزموا قونية مع التراكمة اللابسين أحذية (الچارق)[1] . ولما وصلوا صحراء فيلوباد أرسلوا إلى النائب رسولا أن ولد السلطان عز الدين معنا وشهد على صحة نسبه الثقات ويجب عليك أن تسرع بأقصى ماتستطيع في تقبيل يديه واذا شككت فأرسل من الخصيان القدماء من يتفحص حال هذا الملك بوجه البصيرة وإذا كان كاذبا فلا تتوقف قط فى نفيه . وكان النائب يقل الاهتمام مع كثرة القصاد القادمين إليه بل أصدر مثالا بقتلهم وكبلهم . ولما وجد أولاد قرامان النائب ثابتا على الإنكار قصدوا المدينة بجيش حشيد وتقدم أمين الدين بذاك القدر من العسكر الذى كان بالمدينة فى مقابلة الجمرى

---

(١) نوع من الأحذية الجلدية لها أربطة وخيوط طويلة تلف حول الساق .

ومحمد بك ولما لم يطيقوا المقاومة دخلوا المدينة منهزمين . وبلغ التركمان حافة الخندق وأضرموا النار فى بوابة سوق الخيل (اسب بازار) ومختبر الطعام (چاشني گير) واتفق معهم جمع من الرنود فمدوهم بالغاب[1] والوقود . ولما احترق باب المدينة انثال التركمان فى المدينة ولما أعلم النائب بتلك الجرأة ركب لدفعهم ووصل البوابة ورأى الباب محترقا والأمر جاوز التدارك لزم الفرار وعقد عمامته بأعلى رأسه بحيث تكون أطرافها تحت الحنك وأخذ يركض في كل ناحية ويصيح بأعلى صوته لتوهيم الأتراك (أين النائب) وأخذ يكرر ذلك ولما وصل باب قصره نزل وخرج من الباب متلصصا وتوارى بدار أحد متعلقيه وانتشر التركمان المفسدون كالجراد المنتشر فى المدينة وحطموا أبواب خانات القوافل التى كانت مخزن التجار وأبواب القصور وبيوتات الأمراء بالعمد والدبابيس وعقدوا الرزم وملأوا الأكياس بالنقود وظهرت حكاية عزهم واستيلائهم على هذا النحو . وفى اليوم التالى أدخلوا الجمرى المدينة وأجلسوه على العرش فى البلاط . وكان النائب قد انتهز الفرصة وخرج من المدينة وعزم توقات التي كانت مجمع المواكب السلطانية وأمراء الدولة وقبض عليه فى الطريق قرب خان قيماز وأتوا به إلى محمد بك فقاموا على تعذيبه ووجدوا فى حزام إزاره عقدة فكوها وكانت على قطعة من الورق مشمعة مشتملة على ذكر مدافن الخزائن ومواضعها . وفى الحال رفعوا أيديهم عنه وأسرعوا إلى المدينة وأخذوا ينقبون على ذلك الموجب المواضع ويحملون الأموال بلا مكابدة عناء على الجمال والبغال . وبعد ذاك أبلغوه مع بهاء الدين ملك السواحل مرتبة الشهادة . ولما فرغوا من أمر النائب أتوا المدينة وحلفوا مولدى المدينة وأعيانها على مبايعة سلطنة الجمرى فأقسم أهالى المدينة خوفا على حياتهم والتمسوا برسم التبرك من تربة السلاطين مظلة السلطان علاء الدين وسنجقه فأجابوهم بسبب أن أمر أهل القلعة لم يكن على وفاقهم وأخلوا سور القلعة . وفى أحد الأيام سار الجمرى بزينة وورنق تامين حول المدينة وبعد النزول دونوا الديوان وكتبوا الفرمانات إلى الأطراف

---

(١) فى الأصل (دونى) ولم يتسطع هوتسما تحقيقها فاعتبرناها (نى) أى الغاب .

وقرروا أنهم بعد اليوم لن يتحدثوا فى الديوان والبلاط ودور الدولة بغير اللغة التركية . وظهر لأمرهم أياما عدّة الرواج والنفاق وقرت الوزارة لمحمد بك وقرروا مناصب الديوان لكل خسيس ووضيع وجزموا مع أهل القلعة المصالحة على أربعين ألفا عدا . وبعد أداء المال فتحوا باب القلعة يوم الخميس العاشر من ذى الحجة سنه (٦٧٦ هـ) ودخل الجمرى القلعة وجلس على عرش السلاجقة وحضر القضاه والأمراء والحراس وعقدوا محفلا وذهب المسجد الجامع وقت الصلاة وخطب باسمه وسكت السكة بلقبه وخطب بلقبه وخطب محمد بك ابنة السلطان ركن الدين للجمرى فاقترن رضاء والدتها (غزيلبا خاتون) بذلك بشرط أن تمهل أربعة أشهر لكي ترتب أسباب الجهاز فأمهلوها بموجب الالتماس وعزموا آقشهر بالمشاة والفرسان وذهبوا لمحاربة أولاد الصاحب .

ذكر محاربة الجمرى لأولاد الصاحب ونكبتهم فى تلك المعركة

حين سمع أولاد الصاحب أن الجمرى فتح قونية وقتل أمين الدين النائب وبهاء الدين ملك الساحل وشملوا المدينة بالإغارة العامة ولم يبقوا على الصغير والكبير عرضوا عساكرهم وفرقوا خمسين ألفا على الأتراك والكرميين وقدموا إلى المكان المعروف بچاى دگرمان وعندما سمعوا أن الجمرى ومحمد بك وصلا آقشهر بحشر عظيم من « چاى دگرمان » بتعجيل تام حتى الصلاة التالية بآقشهر ودخلوا قرية (قوزاغاج) فى مقابلة مقاتلة الجمرى وكانت الخوارج قد نزلت قرية (التونتاش) فلبس في الحال الجميع السلاح وقدموا المشاة ولما حال بينهم الماء أراد محمد بك العبور ليقاتل ابن الصاحب فأخذ واحد من الأتراك عنان فرسه وصف محمد بك جنده على حافة النهر وأخذ ينتظر ما يحدث من حالة . وحمل الأمير تاج الدين الابن الأكبر للصاحب على محمد بك بحكم أنه كان يعتمد على نفسه ولايولى الأتراك أدنى اعتبار وبلغ منتصف النهر ، فركض محمد بك أيضا بالرمح وجرت بين كليهما مقاومة ومقارعة

كثيرة وآخر الأمر خر الأمير تاج الدين عن جواده بوسط الماء فهجم الترك وفصلوا رأسه عن جسده ولم يصل لمدة تلك الساعة من جميع العسكر الذين سكنوا في ظل مرحمته ورأفته شخص غير خادم واحد ، وولى الأتراك الكرميون وهم دائما صورة بلا معنى أدبارهم وتفرق باقى العساكر ووقع من تلك المعركة مال عظيم فى أيدى الخوارج . وسقط الأمير سعد الدين الخواجة يونس بسفر يحصار فأمسك به أهالى المدينة وسلموه للجمرى ومحمد بك . وفى أول الأمر أكرماه وقررا أن يؤدى لهما مائه وأربعين ألفا عدا فدية ورضي بهذا التقرير وسير القصاد بطلب المال ، وفى العاقبة تجاوز هذا الغدّاران القرار وقتلوا الخواجة يونس . وتوجهوا لمحاصرة (قرا حصار دوله) ولما عجزوا عن فتحها عادوا إلى قونية وأذاعوا أن الجمرى سوف يتوجه بقصد المغل إلى أرزن الروم ونزلت الجيوش بصحراء (فيلوباد) ، وكان الجمرى ومحمد بك يدخلان المدينة كل يوم ويذهبان بالليل إلى (فيلوباد) ووصل الخبر أثناء هذه الحكاية أن السلطان غياث الدين والصاحب فخر الدين واصلان فى خدمه أمير العالم بجيوش جرارة معتبرة فوقع الترك في الاضطراب كالزئبق الذهاب وأخفوا الخبر وجمعوا كل ما احتازوا من نهب قونية وآقشهر وبقية النواحى وحملوه الجمال والبغال وأرسلوه خارجا وخرجوا فى عقبه من المدينة ولو كان متمكنوا قونية على علم بأن الأمير المستولى على العالم آت ما تيسر لواحد من الخوارج الخروج من المدينة . ولما خرجوا من المدينه ظلوا يركضون طوال الليل ولما طلع الصباح كانوا قد بلغوا (سرخوان) التى تبعد عن قونية منزلين كبيرين للفارس . ونزل الصاحب بمعية الأمير وعدا الجيش فى أعقابهم فأدركوا (چيلاق) رئيس عسكر آقشهر من قبل الخوارج وأمير حرسهم الذى أعطوه قيادة عسكر (آبگرم) وقتلوهما وأسروا أولادهما ونساءهما وبعد أيام عدة عزموا من قونية . ولما تحقق لعسكر قونية مجئ العساكر الجرارة خربوا معابر البوابات ، ورفعوا الأبواب من الداخل ونصبوا المنجنيقات وعمروا الشرفات المخربة واستعدوا للمحاصرة ولما علم الجمرى ومحمد بك بعودة الأمير والجيوش عادا بحشد حشيد إلى قونية

وأرسلا قاصدا ليفتحوا باب المدينة حى يتسوق العسكر فحرض قاضى القضاه فى العالم سراج الملة والدين أبو البنا محمود الأرموى رضى الله عنه ساكنى المدينة على دفعهم وتحريضهم وأفتى فى هذا الباب وصعد هو نفسه السور وأطلق السهام عليهم . ولما وصل هذا الخبر الخدمة أمر بهدية ووهب يرليغا وبايزة بقضاء القضاة . ولما يأس الترك من أخذ المدينة نهبوا خارجها وأحرقوا وخربوا وسلكوا طريق أرمينية .

ذكر ورود الخواجة صاحب الديوان[1] للروم وضبط أحوال المملكة

وعندما أخذ اضطرام جمرات الفتن واضطراب سكرات المحن تزيد مادته فى ممالك الروم من هجوم الخصوم وجعل كل متمرد احترافا ومفسد اعتقادا يهاجم الخلائق من الجبال والأدغال وعلم هذا المعنى فى الخدمة نفذ يرليغ ميمون بأن يذهب للروم صاحب ديوان الممالك أعلى الله درجته لاستمالة الرعية وعمارة الولاية وضبط الممالك وتنقيح حسابات أبواب المال والأملاك وإصلاح الفاسد وإرغام الحاسد وتأليف الشارد ودفع المعاند ، فنهض على موجب الحكم بالجيوش الجرارة حتى شاطئ بحر المغرب من طرف لارندة وصمم على دفع الجمرى والقرامانيين .ولما لحقوا بهذه الحدود أسروا عددا كثيرا من الأتراك الأرامنه ووقعت المواشى الكثيرة فى يدى الجيش الجرار . وبسبب أن الشتاء كان قد هجم وكان المرور متعذرا بسبب تراكم الثلوج عادوا أدراجهم وعزم (كهوركا) وصاحب الديوان المشتى وانشغلا بترتيب المعاودة على مقارعة أولاد قرامان وعزما بفوج من عسكر المغول كان معهما أولئك المخاذيل ولما بلغوا صحراء (موت أوا) سبق خمسون مغوليا ومثلهم مسلما بحكم الطلائع . وحين سمع الجمرى ومحمد بك برجوع العساكر إلى المشتى وعودة السلطان والصاحب بعزم المشتى بقى محمد بك ومعه أخوان له وابن عم ونفر عديد من أقاربه اعتمد على شجاعتهم لتحسس الأخبار وأرسل الجمرى إلى

(١) هو شمس الدين الجوينى وزير أباقا بن هولاكو (هوتسما) .

الحصون بالداخل وصعد هو مع تلك المجموعة تلا ، فرأى فوجا من حرس المغول فعدا عليهم برمحه فهبط المغول بسبب ضيق المكان وصعوبه الدرب وأمطروهم بوابل سهامهم وبين ذاك أصيب محمد بك بسهم فى المقتل فانكب على وجهه وأسرع أخوه قدما لكى يرفعه فأصيب بنفس الجرح وعدا أخوهما الثالث وابن عمهما فأصيبا أيضا بالسهام وسقط الجميع على وجوههم وسلك الباقون طريق الفرار وتقدم المغول والمسلمون ولم يكونوا يعرفون من هم القتلى لكى يسلبوا أسلحتهم وعتادهم فلما رفعوا أولهم وجدوه محمد بك ثم أخويه والرابع ابن عمهم . وفى الحال فصلوا رؤوسهم عن أبدانهم وحملوها إلى خدمة السلطان والصاحب . ولما علمت الخلائق تلك الحالة نال جميعهم العجب كيف أن شعلة دولة الجمرى انطفأت بواسطة قتل محمد بك بهذه السرعة والسهولة . وفى اليوم التالى غسلوا الرؤوس وصففوا شعرها وعلقوها حول قلاع الأرمن الذين أقدموا على العصيان باستظهار منهم . وتقدم السلطان والصاحب إلى ساحل البحر فجعلا كل من ثقفا علفا للأسياف التى لا تأسف وعزموا بالأموال والغنائم الإياب وأتى عسكر المغل عن طريق نكيدة بمشتى (قازآوا) وأتى السلطان والصاحب قونية (كعود الحلى إلى العاطل) وأرسل الصاحب طول فترة إقامته بمشتى (قازآوا) كتب الاستمالة إلى أطراف الممالك مثل قسطمونية وسيمرة وسينوب ونواحى الثغوربالخلع والأموال وجذب جميع المتمردين إلى دائرة الطاعة ومدار العبودية ورفع الرسوم المحدثة والقواعد غير المحمودة وعين مالا لكل واحد بقدر مكنته واستظهاره بلا محاباة وأبقاء . ولما تمت مهمات الروم وكملت وضبطت أوجه أبواب المال وألقي النظر فى دفاتر أوراق حسابات البقايا التى كان الصاحب الطغرائي قد اقترضها والأموال التى كانت موجهة لنفقات الدولة من رأس المال والربح على نواب ديوان السلطنة ووجد وجوها للإنفاق فوق الحصر والانتهاء لايدخل أداؤها فى حيز الإمكان أضاف أرزنجان بتوابعها بالمبايعة الشرعية مع إقطاعات أخرى لرعاية غبطة السلطنة وناموسها حتى تخف ظهور أحوال هذه الأسرة من تحمل أثقال تلك القروض . ولما تيسر الفراغ من

كافة المهمات أرسل السلطان غياث الدين كيخسرو والصاحب فخر الدين لمحاربة الجمرى وتوجه هو إلى خدمه حضرة الملك وترك ابنه شرف الدين خواجة هارون في ممالك الروم تبعا لكوهركا حتى يرعى كفاية المهام كما ينبغي .

ذكر محاربة السلطان غياث الدين كيخسرو بن قلج أرسلان للجمرى الخارجي

لما توجه صاحب الديوان إلى الخدمة استصحب المستوفى لعرض أحوال الروم وتقدم السلطان والصاحب من (قازآوا) حتى أنقرة وكتبا الفرامين بدعوة العساكر إلى كل طرف فتقدم أولا ولد على شير الكرميانى ونفرعديد من غلمان المرحوم البروانة الذين كانوا نجوا من معركة توقو وتودون وتفرقوا قائلين (لبيك) وبعد عدة أيام عظم الجيش وعزموا (ترخيلو) وهى فى حوالى عمورية وكان الخليفة المعتصم قد حاز فتحها وأنشد أبو تمام قصيدة (السيف أصدق أنباء من الكتب) فى فتحها ولما تقدموا ووصلوا (يدى قاپو) أتت الأخبار بأن الجمرى نزل بالعساكر فى (بيگار باشى) وبيدى الإهمال فى الاستقبال فتوكل السلطان والصاحب على حول البارى وساروا إلى جانب (مليفدون)[1] وعبروا جسر نهر (سقرية) وأمسك مقدمو العسكر برجلين أوثلاثه من حرس الجمري وأتوا بهم إلى خدمة طرمطاى وكان ملك الأمراء (بكلربك) فأرسلهم إلى الدهليز الميمون حتى أرسلوا تحت العلم من هذا العالم إلى العدم . وفجاة أذيع فى الجيش (بين الصلاتين) يوم الخميس السابع من المحرم سنة (٦٧٦ هـ) أن جيش الخوارج قد ظهر فلبست العساكر أسلحتها وساروا . ولما لحق الجيشان أحدهما بالآخر حمل فى الصدمة الأولى الخوارج حملة عظمى وكان الخوف أن يقع محذور وعلى حين بغتة هاجم من فوق الجبل عزيز الدين محمد بن سليمان الطغرائى وبدر الدين

---

(١) يشك هوتسما فيها باحتمال أن تكون (يوليبتون) .

إبراهيم بن الختنى وعلم الدين قيصر الخادم فسووا جميع الأتراك بالتراب وفى الحال اختطف علم الدين قيصر مظلة السلطان علاء الدين التي كان الجمرى قد أخذها من قونية وأتى بها إلى حضرة السلطنة وبعد ذلك أسر (ساروغلا)[1] وكان رئيسا ضخم الهيكل وأهلك أولاد الصاحب وحمل فى القلب لخدمة السلطان والصاحب وفصل جسده عن رأسه فى الحال . وأسر الجمرى فى تلك الليلة بيد بعض من الترك كانوا متعلقين بولد على شير الكرميانى وألقوا كليما على رأس هذا الأسود الطينة وأخفوه عن أتباعه وأرسلوا قاصدا إلى السلطان والصاحب بإنهاء الحال . فأمر السلطان (جمال راع) بإحضاره . ولما أحضر أخذ يتفوه بالكلمات الخبيثات والهذيانات المشوشات فحمله الجلادون إلى المقتل وسلخ حيا وحشي جلده تبنا وداروا به حول مدن الممالك . ولما نفد من ذاك الفتح الجسيم سرور عظيم إلى الخواطر ، وصل بعد يومين (طايبوغا) الذى كان متطاول سينوب وأخبر بأن (جانيتى)[2] قصد سينوب بالفلك ، فتقدم لمقابلته الأتراك الجبنيون وأضرموا النار وسط الماء فى روحه وعاد خائبا خاسرا فأعطى (طايبوغا) لهذه البشارة ملكا حسنا . وقدم السلطان من ذاك المكان إلى صحراء (برغلو) واشتكى أتباع الدولة وكانوا بخطة (لاديق) و (خوناس) من على بك كثيرا أنه كان يلوى رأسه عن دائرة طاعة السلاجقة أثناء اضطراب الأمور ويتولى جانب الأجانب فقبض عليه وأرسل إلى (قراحصار دوله) فهلك فيها من الفزغ والجزع . وبعد ذاك أخذ السلطان فى التطواف مدة فى قراحصار وصندقلو وجهود ويضبط أمور ولاية (مشمر) وأتى إذ ذاك قونية ومكث بها عدة أيام ورجع على حين فجأة ملك الأمراء جلال الدين المستوفي من المعسكر المغولى وأتى بيرليغ لنيابة الحضرة العليا للصاحب ونيابة السلطنة لنفسه ، وبعد مدة ذهب عزيز الدين الطغرائى للمعسكر وأتى بيرليغ لملكية الأمراء باسمه .

---

(١) الاسم غير مؤكد الإملاء (هوتسما) .

(٢) الملك الكومنين لطرابزون (هوتسما) .

ذكور عبور السلطان غياث الدين مسعود بن كيكاوس بحر الخزر لبلاد الروم فى (شهور سنة تسع وسبعين وستماية)

حين لوى الملك المغفور له عز الدين كيكاوس أنار الله برهانه عنانه عن المملكة بسبب كيد دخيلة كفار النعمة وخبث جبلتهم وأسرع إلى بلاد الروم وأقام مدة فى استنبول وسقط من هناك بدست القفجاق صابر مدة ثمانية عشر عاما على حوادث الزمان وفى العاقبة استولت عليه الأمراض المهلكة للأشداء وتحقق الارتحال إلى دار القرار فأحضر أولاده وأمر بمقابلة جملة الخدم الذين كانوا أعوان الهجرة وأنصار الغربة وإذ ذاك توجه إلى الابن الأكبر السلطان غياث الدين مسعود وهو (والحالة هذه) سلطان الروم وقال ياولدى العزيز اعلم أن والدى غياث الدين كيخسرو بن كيقباد لما سمع صوت ملك الموت وأجاب داعى (ارجعى)[1] أجلسنى أمراء الدولة على العرش وكنت أنشأ وأنمو بحسن تربيتهم وكان الملك معمورا و الخلق مسرورا مادمت كنت أسمع نصائحهم . فلما تخطيت خطوات عديدات وتشبثت برغابى وصرت بسبب ظهور العذار خليع العذار وحطمت قدر الأمراء القدماء وقيمتهم واصطفيت الأراذل والأوغاد وأبلغت كل دون من فقاع ورسان وحداد للإمارة والقيادة وجلست على شباك الهزل صرت مستوجب الذلة والعزلة فحذار حذار من هذا التذكار الموجب للانزجار واذا تملكت الملك فأبعد عنك الوضعاء الذين لم يروا على مائدة آبائهم رغيفين ولاتختلط بالطائفة المحترفة المسخرة واعبر بأى طريقة ممكنة من هذه الديار بصوب البحر إلى جانب الممالك الموروثه وتوجه إلى خدمة البلاط ملاذ الدنيا وانهض مبكرا كالصباح إلى ذاك البلاط وقف كالشمع كل الليل حتى اذا رؤى فى طبعك آثار التجانب[2] فربما احتظيت

(١) أى قوله تعالى (يأأيتها النفس المطئمنه ارجعى إلى ربك راضية مرضية) سورة الفجر الآيتان (٢٧) و (٢٨) .

(٢) عله يقصد بها التناجب من النجابة .

من ملك الأجداد وإليك وصيه أخرى هى أن قالبى حين يخلو من الروح وتعبر إلى الملك الموروث فلتحملن عظامى إلى تلك الممالك وتدفنها فى جنب الأب والجد والله الله ألاتتجاوز هذه الوصايا وألا تسلك فى المخالفة طريق العقوق (والله ولى عليك وهو حسبي) . وبعد ذاك ودع الحياة وأيام السعادة وتوجه إلى دار الخلد ولما فرغ عبيد دولته من العزاء والبكاء وواجبات التحية جلس السلطان غياث الدين مسعود فى ساحل (سلخاة) على التخت مكان أبيه وحلفوا على ولائه وجددوا الأيمان والعهود والمواثيق اختفى فجأة من وسط الجمع الملك كيومرث وكان أوسط أبناء السلطان عز الدين وعبر البحر . ولما تفحصوا وجدوه فى حوالى قسطمونية فأسرع نواب قسطمونية إلى كل طرف فأدركوه فى حوالى أماسية ذهب متنكرا فى زى وتوجه إلى جانب الثغر فأعادوه وحملوه إلى قسطمونية وأجلسوه في القلعة وكانوا يوفونه شرائط الخدمة . وبعد فترة عديدة قال السلطان غياث الدين مسعود لأصحابه وأعوانه لن تنحل لنا عقدة من هذه الأرض وأخي كيومرث أسير هناك ويمكن أن يخاطبوه على خلاف المروة الخطاب غير الصواب وبعد فوات المهجة لاتفيد الخجلة والرأى هو أن نعبر بموجب وصية السلطان الماضي البحر ونحصل شرف المثول بخدمة سلطان البسيطة ونعد ملازمة عبوديته من اللوازم حتى نرى ما يكون مقتضى عناية تلك الحضرة بنا فاستصوب الجميع هذا الرأي وأعدوا في الخفاء أسباب سفر البحر وسار يوما برسم النزه والتفرج لشاطئ البحر إلى موضع أعدت فيه سفينة فتلا بلا توقف (فإذا استويت)[١] وسلم زمام السفينة إلى يد القضاء والقدر ووقع على ساحل سينوب فظهر لأهالى تلك الناحية المسرة من يمن قدومه وسابقوا إلى تقبيل يديه الشريفتين وعلم الأمير مظفر الدين يولق أرسلان بن ألبيورك الذى فتح تلك النواحى وتملكها (أبا عن جد) فلحق بالخدمة وأوفى شرائط العبودية وأرسل الملك ركن الدين كيومرث من القلعة إلى خدمته . وحين لحق به أخوه ولحق بسواد عينيه من الأمم المختلفة قذر ولم يكن إلا لأن الأخلاف والأغبياء كانوا يحرضونه على

(١) من قوله تعالى لنوح : (فإذا استويت أنت ومن معك على الفلك فقل الحمد لله الذي نجانا من القوم الظالمين) سورة المؤمنون الآية (٢٨) .

العصيان ولم يكن السلطان يلتفت لذلك لأنه كان كامل العقل وجعل الأمير مظفر الدين ملازما له وتوجه إلى النويان المعظم . فلما وصل إلى مكانه شغف الجميع من المغول والمسلمين بسيماء بهائه وأعجب الكل بحركاته وسكناته وأدوا له الخدمات على قدر اليسرة والمكنة ، وسير أمراء المغل الأمير مظفر الدين مصحوبا بموكبه العالى إلى خدمة بلاط المعسكر المغولى الأعلى ، ومع أن الشتاء ، ، الماء الزلال انجمد من شدة الزمهرير ككيد البخّال ووقف فى الطريق (وصل) فى زمان قليل لخدمة الجناب .... فأمر له بهديه تجاوز الحد وسلم له خطة ... وسيواس مع جملة الضياع والبقاع ....
وأظهره بالمواعيد الجميلة و ....
.... اختصار ....[1] .

.... سلاطين الروم على ....
....
....

(تم بحمد الله)

---

(١) هذا الجزء الذى لم يتبق فيه غير هذه الكلمات القليلة يحوى ترجمة المختصر .

فهرس الكتاب

رقم الايداع بدار الكتب

١٩٩٤/٤٤٢١

رقم دولي

I.S.B.N: 977-222 - 067- 9

دار الهاني للطباعة

شبرا الخيمة ت: ٢٢١٢٠٥٥